يعقوب بيري

رئيس جهاز الشاباك السابق

مهنتي كرجل مخابرات

29 عاماً من العمل في الشاباك

ترجمة بدر عقيلي







مهنتي كرجل مخابرات

٢٩ عاما من العمل في "الشاباك"

المؤلف ومن هو في حكمه : يعقوب بيري
ترجمة:دار الجليل
عنوان الكتاب : مهنتي كرجل مخابرات
٢٩ عاما من العمل في الشاباك

بيانات الناشر : عمان:دار الجليل
*تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الطبعة الأولى
٢٠٠١

دار الجليل للنشر
والدراسات والأبحاث الفلسطينية-عمان
هاتف:٥١٥٧٦٢٧-٥١٥٥٦٢٧
فاكس:٥١٥٣٦٦٨
ص.ب ٨٩٧٢-رمز بريدي١١١٢١
E-MAIL : Darjalil@go.com.jo
Site-http://www.darjalil.com.jo

مهنتي كرجل مخابرات
٢٩ عاما من العمل في الشاباك

يعقوب بيري

رئيس جهاز الشاباك السابق

ترجمة: بدر عقيلي



اصدار
دار الجليل للنشر
والدراسات والابحاث الفلسطينية

عمان- ص.ب ٨٩٧٢ تلفون ٥١٥٧٦٢٧-٥١٥٥٦٢٧
تلكس ٢٣٠٣١ - فاكسميلي ٥١٥٣٦٦٨

الفـــــــهرس

مقدمة:

لدى الحديث عن أجهزة المخابرات الإسرائيلية، لا نجد ضيرا في الاعتراف بقدرتها على العمل، على الصعيدين الداخلي والخارجي، ذلك أنها تتمتع بامتيازات، ربما لا تتوفر في كثير من الدول، حتى الكبيرة منها، ومع ذلك فقد نهشها الخلل في السنوات الأخيرة وباعتراف قادتها:

*فالموازنات المرصودة مفتوحة على مصاريعها.

*والعاملون في الأجهزة مدربون على أعلى المستويات.

*واليهود المنتشرون في بقاع الدنيا، يضعون أنفسهم في خدمة الأهداف الاستخبارية الإسرائيلية، فضلا عن أولئك المتعاطفين مع الدولة العبرية، من جنسيات متعددة، وعلى مستوى الرؤساء والحكومات، إضافة إلى التنسيق وتبادل المعلومات مع دول مختلفة.

*وعناصر أجهزة الأمن ينطلقون من عقدة الخوف التي حقنوا بها، ليس على صعيد التدريب فحسب، بل ومن خلال التربية البيتية والمدرسية والجامعية، الأمر الذي يعزز حماسهم للعمل.

على أن كل ذلك لا يعني أن هذه الأجهزة تستطيع معرفة ما يجول في عقل وقلب الإنسان العربي، كما يعتقد، فقد أثبتت الوقائع في أحايين كثيرة، أنها وقعت في أخطاء، وسوء تقدير، أوقعت أضرارا كبيرة بالدولة العبرية، ما زالت آثارها ماثلة حتى الآن، ولعلنا لا نغالي، إذا قلنا، أن ثمة أجهزة في الدول العربية ليست أقل قدرة من مثيلاتها الإسرائيلية، بيد أنها تمتنع عن استخدام أساليب التصفية والتعدي على سيادة الدول الأخرى.

نحن أمام كتاب لـ "يعقوب بيري"، رئيس جهاز الأمن العام (الشاباك) السابق، يسرد فيه تأريخ عمله في الجهاز منذ البداية وحتى انتهاء مهامه، ونحسب أنه لا يغطي كل الأحداث، ذلك أن مقص الرقيب كان جاهزا، لاقتطاع ما "يمس أمن إسرائيل".

وككل المسؤولين الإسرائيليين، وخاصة الخابراتيين منهم، يحاول بيري أن يتخذ صفة "الرامبو" القادر على صنع المعجزات، ويلبس جهازه رداء فضفاضا، يجعل منه خارقا، ذلك أن القصد هنا، يقع في الدائرة الإعلامية، التي تمارس إحدى وظائفها، وهي بث الرعب في قلوب "الأعداء"، وربما الأصدقاء أيضا.

ومع ذلك، فإن الكتاب طافح بالمعلومات، والأحداث والقضايا، التي تنشر لأول مرة، فيها من الإثارة ما يجعل القارئ متلهفا على متابعته، وهو إلى ذلك، فرصة أمام أجهزة المخابرات العربية والإسلامية، للقراءة والاستنتاج واستخلاص العبر.

دار الجليل

مقدمة المؤلف:

تسع وعشرون سنة كانت خدمتي في صفوف جهاز الأمن العام (الشاباك) الإسرائيلي. لقد بدأت خدمتي كمتتلمذ في الأرشيف، وأنهيتها رئيسا للجهاز، كانت تلك سنوات عمل شديدة الإثارة تارة، وقاسية تارة أخرى بيد أنها كانت دائما حافلة بالنشاط والعمل الجاد والمهم.

ويروي هذا الكتاب جزءا شديد الأهمية من قصة تلك السنتين، بيد أنه قسم ضئيل من القصة الشاملة. الكاملة، وما سأقوله في هذا الكتاب ليس سوى غيض من فيض.

ورغم ذلك. فإن هذا الغيض الذي سمح بنشره كاف لإلقاء الأضواء على هذه القضية الوطنية ذات الأهمية من الدرجة الأولى. والتي لا يعرف عنها إلا النزر اليسير.

ورغم أن هذه القصة هي قصتي أنا، إلا أنها بداية قصة رجال جهاز الأمن العام الذين رافقوني طيلة السنين التي خدمتها. وقاموا بجل العمل. إنها قصة رجال أشداء سريعي البديهة شجعان. مستقيمين وشديدي الإخلاص لدولة إسرائيل، ولا شك أنه كان بمقدور كل منهم العثور على وظائف تدر عليهم مبالغ مالية أكبر بكثير مما يحصلون عليه في هذا العمل، وتتيح لهم فرصة العيش بهدوء أضعاف مضاعفة مما يعيشونه. لكنهم فضلوا اختيار أداء الرسالة الوطنية. التي لا يعلو عليها شيء.

لقد نقشت على لواء جهاز الأمن العام جملة تقول: "درع وليس خوفا". وهذا بالضبط ما توخاه رجال جهاز الأمن العام. فقد بذلوا، المرة تلو الأخرى، قصارى جهودهم–وهم وحدهم في أرض العدو. وفي الوقت الذي تلاشت فيه جميع الفرص–لتنفيذ المهمة، وبتر اليد التي امتدت إلى السلاح والمواد المتفجرة. وعرضوا حياتهم للخطر. يوما بعد يوم، وكان من بينهم من سقط في ساحات القتال كي نحيا. وتتواصل حياتنا بصورتها الرتيبة والطبيعية.

لقد حرصت طيلة سنوات خدمتي التسع والعشرين في الجهاز على كتابة يومياتي الشخصية وحرصت على أن تتضمن الأحداث التي أواجهها يوميا. والمشاعر التي تعتريني والأفكار التي تراودني. جراء عملي في المهام المختلفة.

وقد بنيت كتابي هذا إلى حد كبير على تلك اليوميات. بل وفي بعض الأحيان وجدت أن من المناسب إيراد مقاطع من تلك اليوميات مثلما كتبتها في حينه.

يعقوب بيري

فدائي ذو ندبة خلقية

نيسان ١٩٦٨

المكان نابلس. والزمان. لحظات المساء الهادئة في الربيع حيث ينبعث شذى أشجار البرتقال مغرقا المكان ومتسللا عبر قضبان نوافذ القيادة العسكرية الإسرائيلية برائحته المسكرة. فيما تتعالى أصوات المؤذنين من المساجد لتجوب عنان السماء.

لقد ساد الهدوء كل شيء، بل لم تصلنا أي معلومات حول احتمال وقوع عمليات داخل إسرائيل. أو أي محاولات للتسلل من الحدود. وبالتالي يمكنني. إذا ما استمر الوضع على هذا النحو. أن أعود إلى بيتي.

بيد أن الهدوء في نابلس، هو مجرد وهم وضباب يخفي خلفه الجمرات المتلظية تحت الرماد. وفجأة يدفع أحدهم الباب بشدة. ويسلمني رسالة عاجلة من (عميل) عربي ينذرني فيها. بأن هناك خلية مسلحة على وشك اجتياز نهر الأردن. في منتصف الليل وهي في طريقها لتنفيذ عملية كبيرة في إسرائيل، في أوج "عيد الغفران".

كنت آنذاك أعمل مسؤولا لجهاز الأمن العام في نابلس. وكنت قد أنهيت تدريباتي على مهام عملي الجديد لتوي. ولا شك أن هذه الوظيفة. كانت جيدة بالنسبة لشاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين. رغم الثمن الذي يكلفني إياه العمل. في جهاز الأمن العام: فلم أكن أزور عائلتي إلا على فترات متباعدة. وحينما أصل البيت أكون مرهقا إلى أبعد حد. وأقضي غالبية وقتي ليلا ونهارا ميدانيا. أجند العملاء. وأتقرب إلى الجماهير المحلية. وأحاول اكتساب ودها. وأجري حملة اعتقالات وقائية

للحيلولة دون تبلور تنظيمات "تخريبية"، باحثا عن المخابئ التي يخبئون فيها الأسلحة والمواد المتفجرة، كنت أعمل بحماس بالغ يمنؤني الشعور بأنني أؤدي رسالة. كنت أعمل مثل جميع أعضاء جهاز الأمن العام الآخرين العاملين معي في هذه البوتقة النيرانية المسماة نابلس، دون اعتبار للوقت، ورغم أن لدينا عائلات وأطفال، إلا أننا كنا ندرك أن المهمة الملقاة على عاتقنا تتطلب منا أن نستسلم كليا لها.

كانت تلك الفترة صعبة للغاية، ومرهقة بصورة لم أشهدها من قبل. وكنا نشهد في نابلس-هذه المدينة اللاعصرية، والمكتظة بالسكان، وشديدة الحيوية-أجواء معادية جدا، ممزوجة بالخوف الشديد مما ستأتي به الأيام. وكانت المدينة تغص بعدد كبير من الجنود الإسرائيليين العاملين هناك، لمواجهة الأعمال "التخريبية" الجارية في الخفاء، التي تقوم بها المنظمات الفلسطينية المسلحة، التي كانت تدعو إلى العصيان المدني ضد الاحتلال، والقيام بعمليات ضد إسرائيل.

ولم تكن تمضي ليلة تقريبا، دون أن تحاول إحدى الخلايا المدججة بالأسلحة والذخائر اجتياز نهر الأردن من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية، الأمر الذي حول عمليات المطاردة التي يقوم بها لواء الغور إلى عمل روتيني شبه يومي، كان جنود هذا اللواء يقضون ليالي طويلة في تمشيط المنطقة، ومتابعة كل أثر، ونصب الكمائن.

كنا، نحن مسؤولي جهاز الأمن العام، ننضم بين الفينة والأخرى إلى القوات المطاردة، خصوصا إذا ما كانت عملياتها تقود إلى المدن، أو تتطلب إجراء التحقيقات، أو ممارسة أعمال تدخل في إطار صلاحياتنا، وكنا نلقي القبض على العديد من (المخربين) جراء هذا الجهد المشترك، لكننا لم نكن ننجح في إلقاء القبض عليهم جميعا، فقد كنا نتلقى معلومات، ليلية تقريبا، حول محاولات لاجتياز نهر الأردن

من خلايا مسلحة. أو أن هذه الخلايا اجتازت النهر فعلا، وهي في طريقها إلى إحدى المدن الإسرائيلية.

حملقت في الرسالة التي وصلتني لتوها بعناية، ووجدت عينيّ تتركزان على جملة تقول: إن سمير الذي سيقود الخلية التي تحاول اختراق النهر، هو أحد (المخربين) المطلوبين جدا لنا.

ولم نكن نعرف الكثير عنه، وكل ما استطعنا جمعه من معلومات، يدور حول عمره التقريبي وشكله الخارجي، وقد قيل في المعلومات، أنه في منتصف الثلاثينات، قوي البنية، ويوجد على رقبته ندبة منذ ولادته، ولم يكن واضحا لنا: ما إذا كان "سمير" هو اسمه الحقيقي أم اسمه الحركي، وقد أضعنا العديد من الفرص لإلقاء القبض عليه، فقد كان الرجل يجيد التملص والانزلاق بعيدا، وكان سريعا كالفهد. ماكرا كالثعلب. جريئا قُد من الصوان. ويعرف كل شبر وكل مخبأ في منطقة (ظهر الجبل) القريبة من نابلس وجنين.

كانت قرى (ظهر الجبل) هي محطة الاستراحة الأولى (للفدائيين) وهم في طريقهم إلى إسرائيل. كانت خلايا الفدائيين تجتاز نهر الأردن ليلا. وتقوم بالعديد من الحيل والخدع للتحايل على السياج الإلكتروني القائم. وتزيل آثار أقدامها بالاستعانة بأحذية مصنوعة من جلود الأغنام. أو يقوم أعضاؤها بالسير باتجاه القرى الفلسطينية بصورة عكسية-أي يسيرون إلى الوراء-لإعطاء انطباع بأنهم خارجون وليسوا داخلين إلى الضفة.

وكانت الطائرات الخفيفة، التي تقوم بتفحص السياج في ساعات الصباح. لاكتشاف أي عمليات تسلل. والقوات الراجلة التي تتفحص الطرق (المرشومة) على

طـول السـياج الشـائك الفـاصل. وقصـاصو الأثـر البـدو، لا يكتشـفون سـوى الآثـار، أمـا الخلايـا، فتكـون قد اجتـازت النـهر. وهـي في طريقـها إلى إسـرائيل، وتتمكـن الخلايـا مـن العثـور على مخبـأ في إحـدى قـرى الغـور أو تختـبيء في إحـدى المغـائر أو المفـازات الجبليـة، لـذا كـان مـهما جـدا بالنسـبة لنـا أن نلقـي القبـض علـى الخلايـا بـالقرب مـن السـياج الحـدودي، لأننـا كنـا نـدرك، أنـه إذا مـا تمكنـوا مـن الوصـول إلى إحـدى قـرى الغـور، والاختباء فيها حتـى الصبـاح، فسـوف تصبـح فـرص إلقـاء القبـض عليـهم نـادرة جـدا.

ومـن الجديـر بـالذكر، أن سـكان القـرى في ظـهر الجبـل، هـم فلاحـون شـديدو الصلابـة وبسـطاء وأشداء، اعتـادوا العيـش في ظـل شـروط بدائيـة. وهـم يخشـون مـن إقامـة علاقـات مـع الأجـانب. ولهـذا السـبب يخشوننا.

وهـم يتعـاطفون مـع الفدائيـين بصـورة عامـة أكـثر ممـا يتعـاطفون معنـا-رغـم أنـهم يخـافون منـهم- ويبذلـون كـل مـا في وسـعهم-أحيانـا رغمـا عنـهم- مـن أجـل إخفائـهم وتقديـم المسـاعدات لهـم للتحـرك صبيحـة اليـوم التـالي نحـو أهدافـهم. ولا شـك أن تجنيـد عملاء من بين سكان هـذه المنطقـة. كـان أحـد أصعـب المـهام بالنسـبة لنـا.

انطلقـت بصحبـة وحـدة مـن المظليـين بسـيارات الجيـب باتجـاه نـهر الأردن. لنصـب كمـين لخليـة "المخربـين" علـى طريـق مسـارها الافـتراضي. وكـانت هـذه هـي أول عملية أقوم فيها بـدور المسؤول تمامـا. عـن عمـل جـهاز الأمـن العـام.

مـا كـادت السـاعة تتجـاوز منتصـف الليـل حتـى سمعنـا أصواتـا مشـبوهة. فقـام الجنود بإطلاق النـار باتجـاه الأشـباح الـتي أخـذت تـبرز مـن بـين الشـجيرات البريـة. ممـا

حدا بها للفرار عائدة من حيث أتت. بيد أننا قمنا بمطاردة الخلية حتى بزوغ الفجر. وحينها نجحنا في تطويقها.

نشبت معركة شديدة وحامية الوطيس بيننا وبين أعضاء الخلية. الذين كانوا يطلقون النار بلا توقف. وبدا لنا بوضوح تام، أنهم مدربون بصورة جيدة. وقد أدت عملية تبادل إطلاق النار إلى مقتل رقيب. وإصابة عدد من الجنود بجراح. بيد أن أعضاء الخلية أعلنوا الاستسلام بعد أن تمكنا من قتل وجرح عدد منهم.

وسرعان ما أدركنا. أن هذه الخلية. هي إحدى أخطر الخلايا التي اجتازت نهر الأردن في طريقها إلى إسرائيل. بيد أننا -وللأسف البالغ- لم نعثر على (المخرب) الذي جئنا من أجله خصيصا بين القتلى أو الذين ألقينا القبض عليهم. لقد تمكن إبان القتال وتبادل إطلاق النار من الفرار. هذه المرة أيضا. من بين أيدينا.

فرضنا نظام منع التجول فورا على قرية بيت فوريك المجاورة. والواقعة على طريق التسلل مما جعل من المنطق القول أنه فر إليها. ومن الجدير بالذكر. أن هذه القرية. معروفة بكونها معادية: فقد قدمت المأوى والمساعدة مرات عديدة للمتسللين. بل وقدمت العديد من أبنائها إلى المنظمات المسلحة. لقد أصبحت لدينا خبرة في مجال العثور على (المخربين) المختبئين في مثل هذه الحالات: "فقد كانت سيارات الجيب العسكرية المزودة بمكبرات الصوت تجوب القرية معلنة حالة منع التجول. وتطلب من جميع الرجال التجمع في ساحة القرية أو المدرسة. وفي نفس الوقت. يقوم الجنود بتفتيش القرية منزلا منزلا. بصورة دقيقة للتأكد من عدم اختباء أي شخص هناك.

وفي أعقاب تجميع جميع الرجال. تأتي سيارة ضابط من جهاز الأمن العام. ويجلس في المقعد الخلفي (مخرب) سبق أن ألقي القبض عليه. وإلى جواره حارس.

وتتم تغطية السيارة وفتح نافذة صغيرة فيها بحيث يرى هذا (المخرب) جميع الرجال الذين يمرون أمام نافذته واحدا واحدا، بينما لا يرونه هم. كي يقوم بتشخيص المشبوهين. أو التأكيد على عدم وجود مشبوهين.

وتجدر الإشارة إلى أننا لا نعتمد تشخيص هذا المخرب السابق اعتمادا كاملا. لأسباب مفهومة، لكن هذا الأسلوب أثبت. في الكثير من الحالات. جدواه.

أجرينا عملية التشخيص في بيت فوريك. حال بزوغ الفجر. بحثا عن سمير. محاولين إقناع زملائه الذين ألقينا القبض عليهم، بالتعاون معنا في عملية التشخيص. فوافقوا ظاهريا. لذا قمنا بنقلهم في السيارة التابعة لجهاز الأمن العام إلى مكان تجميع الرجال. وبعد أن فحصوهم من نوافذهم غير المرئية. أكدوا أن قائدهم سمير غير موجود بينهم. ورغم ذلك، قمنا بالتحقيق مع سكان القرية الواحد تلو الآخر. على أمل أن يكون (المخربون) زملاء سمير. قد كذبوا علينا. وأن نعثر عليه أخيرا. أو على من قدم المأوى إليه. أو من يعرف أين هو.

وبينما أنا في أوج التحقيقات. سمعت صوت طائرة هليوكبتر قادمة. ثم هبطت بالقرب من المكان. وهبط منها قائد لواء القدس والضفة الغربية في جهاز الأمن العام يهودا أربيل. وقائد القطاع الأوسط عوزي نركيس. وبصحبتهما عدد كبير من المساعدين.

جلس القادمون على مقاعد بالقرب من مكان التحقيق. ثم أشار إليّ أربيل أن أذهب إليه. فذهبت مسرورا. كي أروي له ما حدث خلال العملية. ونجاحنا في إلقاء القبض على عدد لا يستهان به من (المخربين) وهذا في حد ذاته إنجاز كبير. بيد أن أربيل لم يسمح لي بأن أنبس ببنت شفه. وقال لي: تعال هنا يا يعقوب. أعد فنجان

قهوة لقائد القطاع. شعرت بالذهول التام: فأنا لم أنم طيلة ليلتين، وتغيبت عن احتفالات العيد مع أسرتي، وطاردت خلية المسلحين واصطدمت معها، وبعد كل ذلك يأتي ليهينني بهذه الصورة؟ ومن قائدي الذي كل ما يعنيه هو أن يشرب قائد القطاع فنجان قهوة. ورغم ذلك. نفذت الأمر.

استغرقت عملية التشخيص زمنا طويلا ولم يبق في الساحة سوى مجموعة قليلة من القرويين. ووصلت في التحقيق إلى أحدهم. شخص مربوع القوام. قوي البنية. وقد رد على أسئلتي بصورة مشابهة تماما للردود التي قدمها من سبقوه. فلا علاقة له أبدا بسمير أو بالخلية، وهو فلاح من القرية، بيد أن هناك شيئا ما لفت نظري فيه. وجعلني أعتقد أن هذا هو ضالتنا المنشودة، كان هناك على رقبته (خال) كبير. وتساءلت بيني وبين نفسي، ترى هل هذا الخال هو ما عنته مصادر معلوماتنا حينما قالت إن هناك ندبه على رقبته؟

قررت المجازفة. فأخذته من يده وقدته إلى منطقة لا يستطيع أحد رؤيتنا فيها. وقلت له: "اسمع. أنا أعرف أنك سمير قائد خلية المخربين. ولديك أحد خيارين الآن: فإما أن تروي لي كل شيء حول الخلايا والمعدات العسكرية، التي نقلتها حتى اليوم، وعن العمليات التي تورطت فيها، والعمليات التي تم التخطيط لها، أو أن آخذك إلى السجن. وهناك سأرغمك على الكلام.

حملق الرجل بي بنظرة ثاقبة، وقال بصوت هادئ وأناة: "لا تضع وقتك عبثا. أنا الرجل الذي تفتش عنه".

واتضح لي. أن سمير لم يكن متطرفا دينيا. أو وطنيا، بل رجلا ذا كفاءات في المجال التنفيذي. وقد حصل على أجر مقابل الخدمات التي سيؤديها.

كـان سمـير يرغـب في العـودة إلى قريتـه، بيـد أنـه يـدرك أن أمامـه سـنوات طويلـة مـن السـجن، وخـلال التحقيـق الطويـل الـذي أجريتـه معـه-والـذي يمكـن القـول أنـه كـان بمثابـة إفضـاء بمكنونـات نفسـه-روى لي الكثـير عـن حيـاة الفقـر الـتي عاشـها: وتوقـه لاسـتبدال البندقيـة بمحـراث، وأن يـزرع الخضـراوات والـزواج، والعيـش بـهدوء بعيـدا عـن المنظمـات الفلسـطينية.

وقـال: "إنـني أنظـر إليـك، فـأرى أمـامي إنسـانا مختلفـا تمـام الاختـلاف عـني. رجـلا عسـكريا محترفـا، جنديـا منـذ نعومـة أظفـاره، وأنـا علـى اسـتعداد للمراهنـة، بـأن والـدك كـان ضابطـا في إحـدى الوحـدات المقاتلـة، وأنـك حلمـت منـذ أن كنـت طفـلا، بـارتداء زي عسـكري".

ضحكـت. وقلـت لـه: "والـدي عـامل بنـاء وأنـا كنـت أتـوق توقـا جامحـا لأن أصبـح موسـيقيا".

لجنة استقبال سرية

قـالت المعلمـة لأمـي: "أعتقـد أن ابنـك سـيصبح موسـيقيا حينمـا يكـبر. فـهو موهـوب جـدا". وبـدت أمـي شـديدة الدهشـة والسـعادة. فلـم تكـن لـدى أي إنسـان مـن عائلتنـا، ميـول موسـيقية، وتسـاءلت أمـي كيـف تعلمـت أن أدق الطبـل الصغـير وأطلـق ذلـك الإيقـاع أمـام أولاد روضـة الأطفـال. وعندمـا شـرعت بـالعزف علـى النـاي فيمـا بعـد. وتحمست جدا لـه: بـدا أنـها تقبلـت فكـرة أنـني سـأغدو موسـيقيا.

ولدت في العشرين من شباط ١٩٤٤ في (نحلات هودا) لعائلة فقيرة. وكانت الشقة تتألف من غرفة نوم واحدة. ومطبخ مشترك لنا ولجيراننا، وعندما أصبحت في الثالثة انتقلت أسرتي إلى نتانيا.

كنت ابنا وحيدا لوالدي. وكان والدي اليعيزر بيرزوتر يتسلق السقالات. ويحمل الحجارة ويشارك في أعمال البناء. وقد هاجر هو وأمي إلى إسرائيل من بولندا.

كانت نتانيا. آنذاك. جنة عدن للأولاد. فالرمال الذهبية كانت تغرق الشاطئ لمساحات كبيرة، والبحر نظيف وشديد الهدوء، وكنا نلتف في الكثير من الليالي نحن مجموعات الأولاد، والبنات، حول بني برمان–الذي أصبح، فيما بعد. موسيقيا. معروفا. يعزف على الجيتار.وقد اعتدت أن أشاركه العزف على (بوقي).

تطورت قدراتي وكفاءاتي الموسيقية بسرعة كبيرة، وسرعان ما أصبحت عازف بوق معروفا في نتانيا، ومطلوبا في جميع المناسبات الرسمية، وقد قبلت في فرقة كتائب الشبيبة–الجدناع–وسافرت معها إلى هولندا حين كنت في الثالثة عشرة. ونظرا لأن بن غوريون أصدر أمرا يقضي بقيام كل شخص يسافر في بعثة حكومية إلى الخارج بتحويل اسمه إلى اسم عبري، فقد تحول اسم عائلتي من بيروزنر إلى (بري).

وفي السادسة عشرة قبلت في فرقة حيفا السيمفونية، وبدا واضحا لي. أنني سأختار طريق دراسة الموسيقى، ووعدت عمتي (تهيله) التي تعيش في الولايات المتحدة. أن تعلمني على نفقتها الخاصة في مدرسة الموسيقى الشهيرة جوليارد في نيويورك.

ولم يكن ليخطر ببالي أبدا، أن مسار حياتي سيتغير بصورة فجائية. ويندفع في طريق لا أتوقعه إلى هذا الحد. وأتذكر عندما جلست بعد سنوات طويلة. في الممر الطويل في الطابق الأعلى من وزارة الدفاع، القائمة في المجمع الحكومي. وانتظرت بفارغ الصبر المقابلة التي كانت لجنة القبول تعتزم إجراءها معي. لتمهيد الطريق أمامي للخدمة في جهاز الأمن العام. شعرت أنني بحاجة لأن أقرص يدي بشدة. كي أتأكد من أنني موجود هناك حقيقة. لقد كان هذا المكان هو آخر الأماكن التي اعتقدت أنني سأتواجد فيها.

كنت أرغب في الخدمة في إحدى الوحدات الميدانية. بيد أن الطبيب الذي فحصني وجد صوتا صغيرا غير طبيعي في دقات قلبي لذا منحت إعفاء تاما من الخدمة العسكرية. الأمر الذي أوقعني في حالة إحباط نفسي شديد. فقد توجه جميع زملائي للخدمة العسكرية. في حين كان عليّ أن أبقى في البيت. بيد أنني لم أسلم بالأمر. وكتبت رسالة إلى وزير الدفاع ديفيد بن غوريون. وطلبت منه أن يتدخل شخصيا كي أتمكن من الخدمة في وحدة مختارة رغم تقرير الطبيب. وسرعان ما وصلتني رسالة من سكرتيره العسكري. تؤكد لي أنني قبلت في وحدة المظليين.

وسرعان ما كسرت ساقي في إحدى التدريبات وهكذا أضيف إلى ملفي عامل جديد. وهو كسر ساقي. وأعلمتُ أنه لن يكون بمقدوري بعد ذلك. مواصلة الخدمة في الوحدة. حتى لو تدخل وزير الدفاع مرة أخرى من أجلي. وهكذا وجدت نفسي في وحدة موسيقى القوات.

وعندما أنهيت خدمتي عكفت على إكمال قدراتي في مجال الموسيقى. وعندما جاءني رد مدرسة الموسيقى (جوليارد) قيل لي أن الإجراءات التي يتم اتخاذها للقبول

دقيقة وطويلة. مما جعلني أدرك. أن قبولي سيستغرق زمنا طويلا-هذا إذا نجحت أصلا في امتحانات القبول.

أخذت أبحث عن عمل مجزٍ ومجدٍ، فعرضت علي وظيفة في جريدة (معاريف) الإسرائيلية. فقلت لنفسي: إن هذا العمل سيكون مثيرا، وسأخوض تجربة مهمة. حتى يأتيني القبول من مدرسة (جوليارد).

وعندما توجهت إلى الجريدة، عرفت أنهم لا يريدون صحفيا، بل يريدون موظفا صغيرا في قسم الإعلانات: بيد أنني لم أيأس، واعتقدت أنه إذا ما عملت زمنا ما بجد. في مجال عملي. فسرعان ما سأشق طريقي نحو هيئة التحرير، لكن مديري بدد جميع آمالي حيث قال: "ستعمل لدي هنا عدة سنوات، وربما تصبح بعد ذلك صحفيا". لكنني لم أعتقد أنني قادر على العمل سنوات طويلة في إعلانات السيارات، وإعلانات البحث عن (الزواج). فاستقلت، وسجلت اسمي للدراسة في الجامعة العبرية في القدس.

لم أتردد في ماهية الدراسة التي سأختارها إلى جانب الموسيقى. فقد بدأنا في الصف الخامس في المدرسة، ندرس اللغة العربية، فاكتشفت عالما جديدا لاءمني: الكتابة، الشعر، الأدب، الحكم والأمثال، وقد تلقيت دروسا إضافية في اللغة العربية؛ وهكذا اخترت لدراستي في الجامعة الدراسات الشرقية واللغة العربية.

لم يكن عدد سكان القدس آنذاك يربو على مائة وخمسين ألف نسمة؛ وكان بالإمكان أن نرى من الحدائق العالية، ونقاط الرقابة أسوار البلدة القديمة، والتي كانت تشكل معبرا حدوديا إلى المملكة الأردنية. وكانت الأسلاك الشائكة. والجدران الحدودية تبدو هنا وهناك في القدس اليهودية، ولم تكن ترى في السماء أي طائرة. فقد

كان محظورا على سلاح الجو الإسرائيلي التحليق في سماء المدينة بسبب القيود التي فرضتها اتفاقية الهدنة. وكانت الجامعة العبرية، إحدى أكثر الأماكن اكتظاظا وحركة في المدينة. نظرا لأنها كانت أقدم جامعة في البلاد وتجذب خيرة الشبيبة. ونظرا لكونها تقوم على مساحات شاسعة من المدينة بدءا من تلة الرام. ومرورا بتراسنطنة. وحتى المسكوبية.

تقاسمت غرفتي مع طالب في كلية الكيمياء،والذي أصبح فيما بعد البروفيسور آفي فايسمان وكانت الشقة تقع في "كريات موشيه" ومحاطة بأشجار كثيفة.

وإضافة إلى دراستي قبلت في فرقة الإذاعة الإسرائيلية الموسيقية. وكنت أعزف أيضا في حفلات الزواج. وانضممت إلى فرقة اتحاد الطلبة وكانت تلك الفترة أجمل فترات حياتي.

علقت على لوحة الإعلانات في الجامعة عشرات إعلانات العمل. وقد لفت نظري إعلان صغير كتب عليه "عمل مع تحدٍ". وكان العمل المعروض يخص الشبان من خريجي الجيش. وباستثناء العنوان وساعات الاستقبال لم يكن الإعلان يحمل أي تفاصيل.

لم تكن المسائل الأمنية تجذبني. بيد أنني كنت كثير الفضول. ويبدو أن أقوال أبي لي. أنه آن الأوان كي أفتش عن عمل ذي راتب ثابت. فعل فعله بي. لذا سجلت المعطيات المكتوبة: شعبة التسلح في وزارة الدفاع في المجمع الحكومي. بين الساعة الثالثة والرابعة بعد الظهر.

كتبت في إحدى الصفحات الأولى من يومياتي: " لا أعتقد أنني أبدو كمرشح مناسب للعمل في الجهاز الأمني. فشعري طويل. وأرتدي ملابسي بإهمال. وأحتذي

صندلا. وتتدلى من صدري سلسلة في نهايتها قلادة ملونة، ولم أحلق ذقني منذ يومين.

وعندما وصلت إلى بوابة الوزارة رمقني الحراس بنظرة شك، ودققوا في بطاقة هويتي قبل أن يسمحوا لي بالدخول إلى قاعة الانتظار، حيث وجدت عددا من الشبان بالانتظار، وبعد انتظار طويل ومضن قدم شخص في الأربعينات من العمر، يرتدي حلة داكنة. فأمسكت بطرف معطفه، وقلت له: قل لي: هل بمقدورك تدبير كأس شاي لي: نظر الرجل إليّ بدهشة بالغة، فرأيت في عينيه حولا وفي وجهه شحوبا وكأنه لم ير الشمس منذ عدة أيام.

بيد أنه نفض يدي بسرعة، وواصل طريقه دون أن يرد علي، قال لي أحد الجالسين: هل أنت مجنون؟ هذا هو رئيس لجنة القبول. وقد اتضح لي. فيما بعد: أن اسمه كلمان توكر. وهو زوج شقيقة رئيس جهاز الأمن العام السابق ايسر هرئيل.

عندما جاء دوري، دخلت غرفة الفحص، ولاحظت تماما أنها شبه عارية من الأثاث،باستثناء طاولة جلس حولها ثلاثة أشخاص كان توكر أحدهم، وقد تفحصني الثلاثة من رأسي حتى أخمص قدمي، وطلبوا مني أن أتحدث عن حياتي، ثم وجهوا إليّ عدة أسئلة عن أسرتي، وعن خدمتي العسكرية، ثم سألوني، فيما إذا كنت على استعداد للانقطاع زمنا طويلا عن عائلتي؟ وفيما إذا كان لدي أقارب في الاتحاد السوفيتي؟

بدا لي كل شيء ضبابيا وغير واضح، وعندما طلبت أن يشرحوا لي طبيعة المهمة أو الوظيفة. قالوا لي أن ذلك سابق لأوانه.

ولم أخمن أن الأمر يتعلق بجهاز الأمن العام (الشاباك). فكل ما كنت أعرفه عن هذا الجهاز، أستقيته من مجلة (هعولام هزه) والتي كانت تسمي الجهاز "جهاز الظلام". ولا زلت أذكر أن ما نشرته الصحف عن الجهاز أعطاني انطباعا وكأنه يعالج قضايا الجواسيس الذين ينشرهم الاتحاد السوفيتي وبالتنظيمات المتطرفة في القرى العربية.

اتصلت حال عودتي إلى البيت مع عمي نفتال الذي يعمل في وزارة الدفاع. وسألته عن الجهة التي أجرت المقابلة معي؟؟ فقال لي أنها جهاز الأمن العام. وقد أثار رده سروري جدا. وتخيلت نفسي في هذا العمل. وشعرت أن جميع ما فكرت فيه سابقا. يتضاءل أمام الإثارة الجديدة.

ارتديت ملابسي بصورة جيدة توطئة للمقابلة الثانية. وحلقت ذقني. وتوجهت إلى الوزارة. وهناك، أرسلوني لإجراء فحوص طبية. ونفسية. ثم وجهوا إلي العديد من الأسئلة حول انتماءاتي الحزبية. وفيما إذا كنت أحمل أي آراء في بعض القضايا والموضوعات.

وفي مرحلة لاحقة. سلموني استمارة. بحجم كتاب صغير كي املأها. ووجدت أن علي أن أتطرق لكل صغيرة وكبيرة في حياتي منذ الولادة. وأن أقدم أسماء ثلاثة أشخاص للسؤال عني. وأن أتذكر اسم أساتذتي في الصف الأول والثاني الابتدائي. وأن أكتب جميع أسماء الأشخاص الذين التقيت بهم في المحاور الرئيسية من حياتي. وأن أكتب بالتفصيل حول أي رحلة قمت بها إلى الخارج. وأن أذكر أسماء جميع معارفي وأصدقائي. وغير ذلك.

والتحقيقات التي تجري في أعقاب هذه الاستمارة (الكتاب) مفيدة وفعالة جدا. فقد قام رجال الجهاز بالذهاب إلى جميع معارفي وأصدقائي، وعائلتي وطرحوا عليهم العديد من الأسئلة. دارسين وضعي النفسي كي يتأكدوا، مما إذا كنت قد أصبت في الماضي بحالة نفسية ما. وفيما إذا كانت لدي ميول جنسية شاذة، أو سادية، وفيما إذا كنت قد ارتكبت أعمالا جنائية، وطيلة هذا الوقت يعطونني انطباعا متشائما جدا. وبعد كل ذلك تقدم كل هذه المعلومات إلى لجنة خاصة والتي عليها أن تقرر فيما إذا كنت أصلح للعمل أم لا

السيدة ذات الصحيفة

بعد نصف سنة من المقابلة الأولى التي أجريتها في وزارة الدفاع، اتصل بي شخص ما في ساعات الصباح الباكر جدا. وأعلمني بأنني قبلت للوظيفة، "تعال غدا في الساعة الثامنة صباحا إلى (برج الساعة) في يافا، وانتظر هناك سيدة تمسك بيدها صحيفة. لقد رأت صورتك وستتعرف عليك، سر خلفها".

أعلمت والدي أنني قبلت في جهاز الأمن العام، بيد أن أمي لم تفهم معنى ذلك. فطلبت أن أوضح لها الصورة، فقلت لها إنه جهاز يطارد جواسيس الاتحاد السوفييتي. بيد أن الأمر لم يرق لها، وسألتني وهي تتنهد: لماذا لا تفتش لك عن عمل طبيعي؟؟ فهدأت روعها وقلت لها، إنني أريد هذا العمل وأنه لا يرتبط بأي مخاطر.

لم أستطع النوم تلك الليلة، وكنت بانتظار الغد على أحر من الجمر. وتخيلت تلك المرأة شقراء جميلة ممشوقة القوام. وهي تحملق بي من خلف نظارتها الشمسية، وتومئ لي كي أتبعها، ويبدو أنني كنت قد شهدت الكثير من أفلام التجسس.

بدت المرأة التي وصلت، الساعة الثامنة تماما، في الأربعين، وبدا منظرها كسيدة بيت خارجة للتسوق، وقد توجهت إلي وبيدها صحيفتها، وقالت بهدوء: تعال خلفي.

اجتزنا الميدان، ودخلنا السوق. ثم اجتزنا زقاقا ضيقا، حتى وصلنا إلى الطريق العام ووقفنا أمام عمارة ذات ثلاثة طوابق، لا تختلف عن العمارات الأخرى إلا

بوجود سلك شائك مرتفع، حول سطحها، دون أن تكون هناك أي يافطة أو علامة دالة على هوية المكان.

ضغطت المرأة المجهولة على الجرس، ففتحت البوابة الكبيرة. ودخلنا معا.

كان ذلك في الأول من آذار ١٩٦٦، لقد وصلت إلى مكان عملي لأول مرة. دون أن يكون لدي علم بماهية هذا العمل، بيد أنني كنت شديد الفضول والإثارة.

بدت الأمور أمامي شديدة البساطة. فلم يكن الأشخاص هناك يرتدون حللا رسمية. والأثاث كان قديما وقليلا. ولم تكن هناك أي صور على الجدران البيضاء. أما الأرضية. في هذا المنزل العربي القديم. فكانت تتسم بالكثير من الكسور والصدوع. ولم أر على أي طاولة باقة ورد. ولم يستغرقني الأمر زمنا طويلا، حتى أدركت أن جميع زملائي الجدد لا يعتبرون العمل في الجهاز بمثابة مصدر ارتزاق فقط، لقد كانوا جميعا يؤدون رسالة.

كان العمل كثيرا جدا. وكنا نقضي الوقت فيه حتى ساعات متأخرة من المساء. وأحيانا نظل طيلة الأربع والعشرين ساعة، على مدار الأسبوع. ولم نكن نتقاضى أي أجر على ساعات العمل الإضافية. أو بالمعنى الأصح لم يكن هناك نظام موضوع لذلك. ولم يكن أي منا يفكر في المطالبة بذلك، وكان العمل يتصف بروحية عمل جماعي. يعمل خلالها كل شخص. وهو يدرك. أنه يؤدي عملا حيويا جدا للدولة.

ومنذ ذلك الحين. اجتاز جهاز الأمن العام طريقا طويلا. وتوسع وكبر. واكتسب خبرة وقوة. ووجد نفسه يواجه مهام كبيرة، ومن ضمنها محاربة المنظمات الإرهابية. والانتفاضة وإحباط الأعمال المعادية لإسرائيل. وحماية موجات الهجرة الكبيرة. واكتشاف الجواسيس. الذين تم إدخال الكثيرين منهم. تحت غطاء

الهجرة. وحماية الشخصيات والمؤسسات الإسرائيلية وشرايين المواصلات الإسرائيلية. في شتى أنحاء العالم.

ومن الجدير بالذكر. أن جهاز الأمن العام، هو أحد الأذرع الأمنية الإسرائيلية الثلاثة المركزية لإسرائيل- وهو مسؤول-إضافة إلى جهازي "الموساد" وشعبة الاستخبارات العسكرية عن تزويد الجهات السياسية بالمعلومات والتحذيرات. وتقدير الوضع. وتقديم التوصيات الخاصة باتخاذ القرارات في شتى المواضيع.

وتتدفق خلال العمل كميات هائلة من المعلومات من جهة استخبارية إلى أخرى وفقا لمجالات العمل المحددة، وتقيم الأذرع الثلاثة. فيما بينها. قنوات اتصال وتعاون وطيدة. بما في ذلك مجال العمليات التنفيذية. كما تعقد هذه الجهات جلسات دراسة مشتركة. وفي الكثير من الأحيان يتواجد ممثلو أحد هذه الأذرع في مقر ذراع آخر. بغية تنفيذ عمليات مشتركة.

فجهاز الأمن العام مثلا. يشرف على التأكد والتحقق من الجانب الأمني للطاقة البشرية التي يتم إلحاقها "بالموساد" وشعبة الاستخبارات، والأجهزة الأخرى في الجيش الإسرائيلي.

وتشكل الأذرع الثلاثة لجنة رؤساء الأجهزة، التي تعقد جلسة كل بضعة أسابيع. ويحضر تلك الجلسة رؤساء الأجهزة الثلاثة-ومنذ قضية الحافلة رقم-٣٠٠ يحضر هذه الجلسات. أيضا السكرتير العسكري لرئيس الحكومة.

وتعمل اللجنة المذكورة. على تقديم التقارير. وإجراء النقاشات والحرص على عدم تجاوز أي جهاز مجال عمله المحدد، وفي الكثير من الأحيان ما تناقش

اللجنة قضايا خاصة وليست أساسية، مثل: هل شذ جهاز الأمن العام مثلا في زرعه عميلا في دولة ما عن المهام المحددة له؟؟

وترمي هذه النقاشات إلى بلورة عملية تنسيق، وتصحيح الإنحرافات، وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

ويتمحور عمل جهاز الأمن العام بصورة خاصة، حول الأمن الوقائي. والكثيرون من الأشخاص العاملين والمسؤولين في هذا الذراع، هم من خيرة الإسرائيليين، فشعبة العمليات، مثلا، يشغلها قادة سابقون في الوحدات الميدانية. المختارة في الجيش. وهم الذين يحملون على عاتقهم مهمة تنفيذ المهام شديدة الحساسية التي يقوم بها الجهاز. ويضم الطاقم أيضا نساء يقمن بأعمال كبيرة.

لقد أدت الضغوط الشديدة التي يواجهها العاملون في الشعبة إلى قصر العمل فيه. على فترة محددة. لا تتجاوز في الغالب سبع سنوات، ثم يجري استيعابهم في شعب أخرى. أو يستقيلون من الجهاز.

ويجد خريجو الوحدات العسكرية المختارة مكانا لهم أيضا في شعب مهمة. مثل حماية الشخصيات والطائرات والسفن والمؤسسات الإسرائيلية في شتى أنحاء العالم لفترات محدودة أيضا.

ويعتبر أعضاء الجهاز الميدانيون العاملون في القطاع العربي بمثابة العمود الفقري للجهاز. ويقتضي العمل في هذا القطاع. أن يصبح كل منهم (ذئبا منفردا) نظرا لأنه يضطر في أغلب الأحيان لمواجهة العملاء الذين جندهم، للحصول على المعلومات وحده. في الوقت الذي يتطلب منه الأمر -وبصورة مناقضة لما أوردناه آنفا- أن يكون شخصا اجتماعيا. أي أن يتمتع بقدرة إقناع وسحر شخصي. وقدرة على تطوير

العلاقات مع الآخرين. والتحبب إليهم، والأهم من ذلك، أن يكون قادرا على بناء علاقة شخصية مع العملاء الذين يفعلهم. لأن فشله في بناء هذه العلاقة. سيجعل من الصعب عليه إقناعهم بخيانة شعوبهم والمقربين إليهم.

ويفتش الجهاز، أيضا، عن توفر خصال مماثلة لأولئك المرشحين للعمل في الشعب التي تعالج قضايا المتطرفين اليهود-جماعات وأفراد-في أوساط اليمين واليسار الإسرائيليين.

ويتطلب الجهاز أيضا، توفر نفس الخصال في المحققين، الذين يقفون في الغالب وحدهم، في مواجهة محقق معهم يرفضون الاعتراف، وفي الكثير من الأحيان. ما يضطر المحقق الذي يلعب دور (المحقق الطيب) إلى جانب المحقق الذي يلعب دور (المحقق الشرير) إلى استخدام سحره الشخصي، وقدرته على إقناع المحقق معه، بأنه يقف إلى جواره.

ومن نافل القول. الإشارة إلى أن ما أوردناه آنفا، يتطلب من رجل جهاز الأمن العام. أن يكون ممثلا متميزا إلى الدرجة التي يجب أن يصعب على الجهة التي يتعامل معها. أن تكتشف وجود ذرة من الزيف في أدائه، بيد أن نقطة الذروة. في جميع المهام التي توكل إليه. هي "الجرأة". ولا أعني بذلك الجرأة المبالغ فيها، بل أعني الجرأة المعقولة. المصحوبة بالذكاء والتفكير الصائب.

وعلى رجل جهاز الأمن العام. أن يرى الصورة دون. أن يلفت نظر أحد إليها. وأن يعالج بموضوعية جميع القضايا، فهو لا يستطيع مثلا أن يسمح لنفسه بكراهية المستوطنين. أو احتقار العرب، ولا يجب أن يسمح لمشاعر الانتقام بتحريكه والتحكم فيه. لقد وجدت نفسي في الكثير من الأحيان، وجها لوجه، أمام قتلة ألقينا

القبض عليهم، وكنت أجد نفسي تغلي غضبا عليهم، والاشمئزاز منهم يملأني. بيد أنني لم أسمح أبدا لمشاعر الانتقام بالسيطرة عليّ.

وقد حرصت على تثقيف العاملين معي بهذه الروحية، وكنت أقول لهم: مهمتنا تنتهي حالما نلقي القبض على المشبوهين، ونحصل على اعترافاتهم، ونسلم ملفات التحقيق للشرطة أو النيابة العامة.

جهازنا يعمل في مجال الأمن الوقائي، ومهمتنا تتمحور حول جمع المعلومات التي تفضي إلى إلقاء القبض على الفاعلين أو الذين يخططون للقيام بعمليات، أو إحباط مساعيهم.

وجهاز الأمن العام ليس سوى حلقة من سلسلة العديد من الجهات، ومن ضمنها الشرطة والنيابة العامة، والجهاز القضائي ومصلحة السجون، لدينا مهمة محددة، وعلينا تنفيذها على أكمل وجه.

لقد عصفت بالجهاز طيلة السنوات التسع والعشرين التي عملتها الكثير من الأحداث التي هزته هزا عنيفا، بيد أن الطاقة البشرية والتنظيم الباقي لا زال قويا وصامدا، كما أن رؤية الأهداف والمهام الموكلة إلينا، مكنتنا من التغلب على جميع الهزات.

وأنا أعتقد أن اغتيال رئيس الحكومة الأسبق اسحق رابين، كان أصعب الضربات التي أصابت الجهاز منذ تكوينه وحتى يومنا هذا، ورغم ذلك نجح الجهاز في التغلب عليها، ونفض الشعور بالفشل والإحباط عن عاتقه، وواصل عمله، فلم تتدن المهام، بل ازدادت وطأة وشدة.

إن أهم الخصال التي يتمتع بها جهاز الأمن العام هي مبدأ الرسمية، هذا المبدأ الذي لا يمكننا التهاون فيه بأي حال من الأحوال، مهما كانت طبيعة السلطة، أو النظام الذي يحكم البلاد. وأنا على ثقة ويقين بأن قادة الجهاز لن يشذوا بأي حال من الأحوال. عن هذا المبدأ المقدس، فهو يحرص على احترافه ورسميته، فتدخله في الجدل السياسي الذي يدور. سيمس ليس فقط بسمعته، بل أيضا بقدرته على العمل بفعالية عالية.

لم يكن يومي الأول في الجهاز أمرا غير عادي، فقد تركتني المرأة التي قادتني إلى المبنى بعد أن أمرتني بالانتظار، وبعد لحظات جاء (كلمن توكر)-رئيس لجنة القبول. وقال لي: أهلا وسهلا بك، ولم تكن هناك خطابات حماسية لإثارة أو بعث حوافزي. ولم تجر لي مراسيم استقبال رسمية، بل قام بتسليمي لنائبه، تسفي بارليف. وهو رجل بشوش الوجه. ورسمي في صلاحياته، حيث وضع أمامي العديد من الوثائق التي يجب أن أوقعها ومن ضمنها بيان أتعهد فيه بالحفاظ على السرية.

إضافة إلى العديد من الأوامر التي كان يجب علي أن أحفظها عن ظهر قلب: يحظر علي أن أفعل هذا أو ذاك. ويحظر علي أن أكون في هذا المكان أو ذاك، فسألته متندرا: هل من حقي أن أتنفس هنا؟؟ فحدق بارليف فيَّ بدهشة، ثم أدار وجهه عني. وقد أدركت بعد ذلك، أن التندر في مقر الجهاز لا يتلاءم مع طابع الحياة العملية هنا.

أرسلوني في اليوم التالي إلى جبرائيل جبرائيلي، كي يلحقني في وظيفتي الأولى في الجهاز. كان جبرائيلي مسؤول الشعبة العربية، وبدا لي شخصا مؤثرا جدا، وحاسما. فأعلمني أن البيانات الواردة في ملفي جعلت مسؤولي الجهاز يلحقونني بالشعبة العربية. وبناء على ذلك. قررت إرسالك إلى أرشيف الشعبة.

وحينما أفقت من الصدمة، قلت له: إنني لم ألتحق بجهاز الأمن العام بغية تسلم مثل هذه الوظيفة، فأعمال الأرشفة والتوثيق لا تتناسب مع أحلامي. فابتسم. وقال: "أنا أفهمك أيها الشاب بيد أن الأرشيف هو أول محطة على صعيد إعدادك. ومن المهم أن تعمل هناك، حيث ستتعلم كيف تبدأ الأمور من الأسفل. فجميع المعلومات تصل إلى الأرشيف، من جميع المصادر، سواء أكانت سرية أم علنية. وأنا واثق بأن هذه هي أفضل بداية بالنسبة لك".

لقد اتضح لي، فيما بعد، أن هناك الكثير من المنطق في أقواله. وقد نزلت إلى الأرشيف وهناك استقبلني العمال بود كبير. كانت الرفوف تعج بالملفات العربية الشخصية، إضافة إلى الملفات الأخرى التي كانت مخصصة لقضايا عربية أخرى. لقد تمت أرشفة هذه الملفات حاليا في أجهزة الكمبيوتر، أما آنذاك فلم تكن سوى مجرد ملفات على الرفوف.

بدأت العمل، وقدموا إليّ الملفات، وأخذوا يعلمونني كيفية توثيق الملفات وحفظها فيها، وقد عملت في البداية ببطء وكسل، وكنت استمتع بقراءة قسم من الوثائق التي أقوم بحفظها، لكن عندما أدى بطئي إلى تراكم العمل، اضطررت للتخلي عن فكرة قراءة الوثائق.

كان طاقم جهاز الأمن العام، في تلك الأيام، مركب من ثلاث مجموعات رئيسية:

*قدامى رجال المخابرات في منظمة الهاغناة المسماه (هشاي) ووحدة الأمن الداخلي (ماحتس) التي تم تشكيلها في أعقاب حل (الهجناه) وعملت حتى إقامة

المخابرات –جهاز الأمن–في شباط ١٩٤٩–ومن الجدير بالذكر أن كلمة (العام) أضيفت إلى (جهاز الأمن) بعد عدة أشهر من تشكيله:

*الأشخاص الذين كانت الروسية أو أي لغة أوروبية شرقية لغتهم الأصلية.

*الأشخاص القادمون إلى إسرائيل من الدول العربية أو من مواليد إسرائيل الذين ترعرعوا في وسط عربي وعرفوه معرفة تامة، على غرار جيور زييد–ابن الكسندر زييد هاجري–الذي أنشأ منظمة (هشومير)–الحارس– وقتل بيد عربي عام ١٩٣٨ في أوج الأحداث.

لقد تحدث جيورا. العربية. تماما كالعرب وكان خبيرا جدا بالنهج والمسلكية العربيين إلى الدرجة التي جعلته مقبولا كضيف في كل قرية عربية وكل خيمة بدوية. وكان يسارع دائما، لمد يد المساعدة إلى كل عربي يحتاجه، لقد أقام صداقات وطيدة مع العرب، وهو يتنقل بسيارة الجيب التي وضعها الجهاز تحت تصرفه. ويتدخل في حياتهم. إلى حد سمح له بتقديم أقراص منع الحمل لزوجات أصدقائه العرب، وكانت المعلومات التي يحصل عليها من خلال جولاته في المنطقة جديدة دائما. ودقيقة إلى حد كبير جدا.

كان زملائي في الأرشيف، من قدامى جهاز الأمن العام، وعلى غرار شخصيات قديمة أخرى في الجهاز. لم تكن لدى أي منهم أي فرصة للتقدم وتسلم أي مهمة إدارية قيادية. فقد كان معظمهم يفتقر إلى الثقافة الرسمية والأهلية القيادية. رغم أنهم أصبحوا خبراء في المجالات التي يعملون فيها. واكتسبوا خبرة عالية.

لقد ثبت في أكثر من مرة، إن إجادتهم للغة العربية، ومعرفتهم بطبيعة النهج العربي، تفوقان رؤساءهم، بيد أن القيادة تحتاج إلى كفاءة خاصة. وإلى العديد من الخصال والمعرفة في العديد من المجالات والمناحي التي لم يكونوا يملكونها.

وفي أعقاب حرب ١٩٦٧، أصبحت خارطة الطاقة البشرية أكثر تنوعا. فقد انضم إلى نواة القدامى شبان. من مواليد إسرائيل، حال تسريحهم من الخدمة العسكرية، وكان قسم منهم قد تعاون مع الجهاز، إبان خدمته العسكرية ورغب في مواصلة هذا العمل، في أعقاب تسريحه، وجاء آخرون بتوصية من شخصيات قديمة في الجهاز. أو تم العثور عليهم للعمل في مجالات معينة. إضافة إلى المبادرات التي يقوم بها الجهاز لتجنيد أشخاص في صفوفه في أوساط طوائف وجماعات جماهيرية معينة. مثل مهاجري الاتحاد السوفييتي، والذين بدأوا يحلون رويدا رويدا محل طاقم القدامى في الشعبة الروسية.

أدار المسؤولون الجهاز في تلك الآونة على اعتبار أنه جهاز مغلق أمام العالم الخارجي. وكانت السرية، هي المفتاح الرئيسي الذي يتوجب على الجميع المحافظة عليه. بل لقد كانت هذه الكلمة جزءا لا يتجزأ من نمط العمل. فأنا مثلا. لم أعرف خلال أيامي الأولى. في الجهاز. شيئا يذكر عن نشاطات شعبة الأجانب. والتي كانت تعالج جميع القضايا غير ذات العلاقة بالعرب.

وكنت أعرف أقل من ذلك. عن وحدة العمليات. كان يوسف هرملين. آنذاك. رئيسا للجهاز ولم تتح لي الفرصة. خلال السنوات الأولى من عملي. كي أتبادل معه كلمة واحدة. ولم يكن من المألوف الدخول إلى مكتب رئيس الجهاز. لكل من أراد.

لقد ولد هرملين عام ١٩٢٣، وهاجر ذووه من النمسا-حينما احتلها النازيون-إلى المكسيك وأقاموا هناك مصنعا، في حين اختار هو وشقيقته الهجرة إلى فلسطين. وخلال الحرب العالمية الثانية، خدم في الجيش البريطاني، وفي أعقاب حرب ١٩٤٨ انضم إلى المخابرات، وعين رئيسا له عام ١٩٦٣.

أنت مفصول

عدت ذات مساء من عملي شديد الإرهاق، وتوجهت إلى تل أبيب، حيث كنت قد استأجرت غرفة هناك. وفي طريقي إلى غرفتي، شاهدت في شارع ديزنغوف فتاة شقراء جميلة. فجمعت شجاعتي، وتوجهت إليها، وقلت لها إنني أتوق للتعرف عليك، وتبادلنا بعض الحديث. حيث قالت لي إنها بطلة فنلندا في التزلج على الماء، وأنها قدمت إلى إسرائيل للتهود والزواج من صناعي ثري، دعوتها لتناول فنجان من الشاي، وجلسنا في المقهى، غازلتها فاستجابت لي، وتواصلت بيننا العلاقة، حتى عرفتها على أهلي، لكن أمي لم تعجب بالعلاقة خاصة وأن الفتاة مسيحية.

واصلت الخروج معها، متغاضيا عن التعهد الذي وقعت عليه، لدى انضمامي إلى الجهاز والذي ينص على عدم إقامة أي علاقة مع أجنبي دون إذن خاص.

وذات مرة، أخبرت مسؤولي في الأرشيف بهذه العلاقة. فأقطب وجهه، وقال لي: هذا خطير جدا. إنك لا تدرك مغزى ذلك، ولا حجم المخاطرة التي تقوم بها. حاولت أن أوضح له أن المسألة لا تعدو كونها علاقة حب مع فتاة جميلة، ليس لها أي علاقة مع أي جهاز مخابرات أجنبي، لكن يبدو أن محاولتي كانت غير مجدية، فما كدت أجلس إلى مقعدي. حتى استدعوني لمقابلة إبراهام أحيطوف. والذي عين رئيسا

للشعبة العربية. بعد عدة أسابيع من وصولي إلى الجهاز، وكان الجميع يتحدثون عنه بإعجاب وتقدير كبيرين ممزوجين بالخشية.

فقد كان الرجل قادرا على عمل الكثير، إضافة إلى كونه قائدا فذا، لذا. كان استدعائي إلى مكتبه يشبه استدعاء راهب جديد، إلى مكتب البابا.

وحالما دخلت إلى غرفته. وشاهدني، أحمر وجهه غضبا، وأخذ يصرخ في وجهي. طالبا مني أن أهجر الفتاة التي تعرفت إليها فورا، فقاطعته بلهجة شديدة قائلا: "اصغ إلي، لست أهتم بجهازك، ولا بقوانينك الغبية، لن أبيع حريتي".

كانت هناك (دواة حبر) زجاجية موضوعة على الطاولة، فدفعتها بيدي بشدة باتجاهه. وقلت: "لقد مللتكم"، نظر أحيطوف إلي بدهشة بالغة. ثم قال من بين أسنانه: عد إلى بيتك، أنت مفصول". فقلت له: شكرا وطرقت الباب وأنا خارج. وتوجهت نحو الباب، بيد أن الحارس قال لي: إن أحيطوف يطلب منك أن تعود إليه. فقلت له: وأنا أهم بالخروج، لست مهتما بالعودة إليه. لكن الحارس سد الباب بجسمه. وقال لي: عندما يطلب أحيطوف منك العودة إليه. لن يكون هناك أمامك خيار سوى عمل ذلك.

عدت إلى غرفة أحيطوف. فوجدته هادئا إلى حد ما. وطلب مني أيضا أن أهدأ. وقال: لقد تفحصت ملفك. أنت شاب جيد. ولا أرغب بالتخلي عنك بسهولة. أعطني تفاصيل عن الفتاة كي نتحرى عنها، فوافقت. وعلمت أنهم تابعوا أدق التفاصيل عنها، بل حتى في فنلندا، بيد أن كل تلك التحريات لم تكن ضرورية. لأن حكايتي معها سرعان ما انتهت.

لقد تحولت العلاقة التي بدأت بيني وبين أحيطوف بتوبيخ وفصل، إلى علاقة وطيدة. وبدا لي أنه قرر بسط جناحه فوقي والعمل على كبح جماح عواطفي، وجعلي أسير على الطريق المرغوب لرجل جهاز الأمن العام، وأصبح يأتي إلى الأرشيف، عدة مرات. أسبوعيا. ويقف إلى جواري بعض الوقت سائلا: عما إذا كانت الأمور على ما يرام؟؟ وإذا كنت بحاجة إلى شيء ما؟ ولم تكن زيارته للأرشيف أمرا عاديا، ويقول زملائي. إنه كان يزور الأرشيف على فترات متباعدة، ولم يعتد إبداء الاهتمام بأي متدرب. وكان يجلس في بعض الأحيان إلى جواري، في غرفة الطعام، ويسألني عن عائلتي أدق التفاصيل.

ولم يكن أحيطوف يستخدم كلمات رنانة في حواراته معي، مثل الصهيونية. وانتصار إسرائيل بل كان يفضل الحديث بمصطلحات واضحة وبسيطة، بيد أنني أتذكر حديثا له معي دار حول الشكوكية، أوضح لي خلاله، مدى أهمية أن تراود الشكوك رجل جهاز المخابرات، وقال لي: "يجب على رجل الجهاز أن يسائل نفسه دائما، عن مدى صحة المعلومات التي تلقاها، وهل قام بكل ما يجب للتأكد من صحتها؟ وهل جمع جميع التفاصيل، وهل استجوب المصدر على أكمل وجه؟ وحتى إذا ما كانت الردود على جميع الأسئلة آنفة الذكر بالإيجاب، يتوجب أن تبقى الشكوك قائمة فلربما تكون قد نسيت شيئا ما، أو قفزت فوق إحدى المعطيات المهمة". لقد لازمتني هذه المحاضرة حول الشكوك طيلة حياتي في خدمة الجهاز.

وتحدثنا مطولا أيضا، عن العلاقة التي يجب أن تقوم بين رجل جهاز الأمن العام والعميل الذي يستخدمه. وقال لي: "علاقة الصداقة التي ستولد بينك وبين (مصادرك) الاستخبارية، مع مرور الزمن والتعاطف الذي سيتولد لديك تجاهه، قد

يؤثران على طبيعة تعاملك مع المعلومات التي سيوفرها لك، فقد تصبح لديك توجهات طبيعية للاعتماد عليه أكثر مما ينبغي، والدفاع عنه عندما يخطيء ويضللك، احذر ذلك".

ورغم أن (أحيطوف) كان يعزو أهمية قصوى لنجاحه المهني وصورته، إلا أنه كان يتمسك بالسرية والانغلاق، وعدم الظهور إعلاميا بأي صورة كانت، وقد تحدث معي مرات عديدة، عن نمط الحياة المتواضع والمحافظ الذي يتوجب على رجل المخابرات أقلمة نفسه معه.

كان الجهاز يعمل في تلك الآونة وهو يحرص كل الحرص على عدم تبذير مبالغ لا لزوم لها، بل لقد اعتاد إعادة مبالغ لوزارة المالية سنويا، كانت قد خصصت له. بيد أنه تمكن من توفيرها.

لم يكن عدد العاملين في المخابرات الإسرائيلية في منتصف الستينات يتجاوز بضع مئات، وكان كل واحد منهم يعرف الآخرين، كان الجهاز ذا سمات محافظة سرية. خفية ولا يمكن الوصول إليه. وكان أعضاؤه يتحدثون حول نجاحاتهم وفشلهم فيما بينهم فقط، ولم يكن المتميزون يحصلون على جوائز قيمة، بل كانوا يحظون بتربيت على الكتف وبضع كلمات إطراء.

وعندما رويت لهم قصتي مع الفنلندية الشقراء جن جنونهم. وجاءت ردود الفعل وكأنني خنت إسرائيل، رغم أنني لم أقل لها شيئا عن مكان عملي. بل قلت لها ما أقوله للآخرين أي أنني طالب في الجامعة. وحتى لو قلت لها أنني أعمل في جهاز الأمن العام لما فهمت ما أقصده.

عملت في الأرشيف حوالي شهر. ثم نقلت إلى المكتب الذي يتم فيه معالجة المعلومات وتقدير مدى أهميتها، كانت هذه المعلومات تصلنا من مصادر سرية وعلنية. ومن الضباط الميدانيين الذين يقومون بجمعها بوسائل عديدة، لقد قام عمل الجهاز. بصورة رئيسة. على تفعيل العملاء، ويتم إرسال المعلومات إلى ضباط شعبة المعالجة والتقدير. وفي أعقاب معالجة هذه المعلومات سواء أكانت غثة أم سمينة، يجري إرسالها إلى الأرشيف كي يتم توثيقها.

والمعلومات التي تصل غير كاملة، تعاد إلى ضابط جمع المعلومات بغية استكمالها، أما المعلومات التي تتطلب عملا، فيجري إرسالها إلى شعبة التحقيقات والأبحاث لاستكمالها ومناقشتها في إطار الهيئات واللجان المخصصة لذلك.

ووحدة العمليات، كثيرا ما تقوم بعملياتها بغية استكمال أو جمع معلومات. وفي غالبية الأحيان، تعمل في مجال الأمن الوقائي، ولإحباط عمل ما.

وفي عملي الجديد، وضعوني بين أيدي يائير ليفي. وهو شخص فذ. يشبه. إلى حد بعيد، آلة ميكانيكية للعمل. ويتمتع بعقلية تسجيلية رهيبة، جعلته يحفظ أدق التفاصيل عن الملفات والأشخاص والقضايا.

وأتذكر أنه وصل إلينا كم هائل من المعلومات حول حركة (الأرض) المتطرفة. والتي كونها حوالي عشرين شابا فلسطينيا وطنيا، بغية تشكيل جهة سياسية تمثل التطلعات الوطنية للعرب في إسرائيل، وقد بدأت عملها عام ١٩٥٩ أي بعد عدة أشهر من قيام أعضائها بالمشاركة في تشكيل "الجبهة الشعبية" تحت رعاية الحزب الشيوعي، وبعد أن هاجم جمال عبد الناصر الشيوعية بشدة، وبناء على هذا الهجوم.

قرروا الانفصال عن الحزب الشيوعي (ماكي)، وبذلوا جهودا واسعة لطرد الحزب، من الشارع العربي.

وقد أعلنت حركة (الأرض) تحديها لدولة إسرائيل، وطالبت بتغيير البنية التقليدية للعرب في إسرائيل لاعتبارهم لها بنية قديمة ورجعية، ساعدت إسرائيل في السيطرة على الوسط العربي في إسرائيل، بيد من حديد، وهضم حقوقه.

ودعا أعضاء "الأرض"، العرب في إسرائيل لمقاطعة الانتخابات الإسرائيلية للكنيست الرابعة التي جرت نهاية عام ١٩٥٩، وأصدروا مجلة أسبوعية دون ترخيص، لمدة ثلاثة عشر أسبوعا، ثم نجحوا في تسجيل حركتهم كحركة اقتصادية بعد أن قدموا التماسا لمحكمة العدل العليا، رغم نفيهم شرعية وجود الدولة أصلا، وإرسالهم المذكرات إلى وسائل الإعلام الأجنبية وجهات أجنبية يشجبون فيها إسرائيل.

وخلال عام ١٩٦٤ تم اعتقال أربعة أشخاص من قادة هذه الحركة بتهمة إقامة علاقات واتصالات مع عملاء مصريين وسوريين، وفي نهاية ذلك العام، وقع وزير الدفاع أمرا يعتبر "الأرض" خارجة عن القانون.

بيد أن الحركة عادت وغيرت نهجها وحاولت المشاركة في انتخابات الكنيست السادسة تحت اسم "القائمة الاجتماعية العربية"، لكن لجنة الانتخابات أبطلت مشاركة القائمة بدعوى أنها ممثل "لجهة معادية"، ووافقت محكمة العدل العليا على ذلك.

وقد تم انتخاب أحد ممثلي "الأرض" "محمد ميعاري"، بعد عدة سنوات للكنيست على رأس "القائمة التقدمية للسلام".

في بيت زكي -في قرية عربية

أربييه بن يعقوب (أبو يعقوب)، هو رجل قصير القامة، ذو رأس كبير، وشعر شيطاني -هو أحد واضعي أسس العمل الاستخباري في أوساط العرب في إسرائيل. وهو رئيس القسم الميداني في (المثلث)- المنطقة الواقعة بين كفر قاسم وأم الفحم -إضافة إلى مدن مختلطة مثل يافا والرملة، ولا شك أن غالبية مواطني قرى المثلث يعرفونه. ويعرفون صوته المرعد دائما. وكل من التقى هذا الرجل، يعجب بلغته العربية الممتازة، والموشاة بالكثير من الأمثال والحكم الشعبية.

وقد استدعاني هذا الرجل إلى مكتبه وكلفني بمهمة جديدة. أثارت في نفسي الكثير من الاهتمام، خصوصا وأنها كانت تمنحني، في نهاية المطاف، الفرصة للخروج خارج أسوار المكاتب.

قال أبو يعقوب: "غدا -صباحا، ستسافر إلى باقة الغربية، للبقاء عدة أسابيع في منزل أحد المتعاونين معنا من سكان القرية، كي تتعلم أنماط الحياة التي يعيشونها. وهو يعرف من أنت، أما بالنسبة لسكان القرية، فأنت بحاجة إلى غطاء، ويجب أن تقول لكل من يسألك أنك طالب في الجامعة العبرية، وأنك تعد دراسة حول أنماط وعادات المجتمع العربي، ولغته وتقاليده، هل هذا واضح؟ وضم أبو يعقوب إلي ثلاثة آخرين من الجهاز، لنفس الغرض. ولكل منهم غطاء مماثل، على أن يذهب كل واحد إلى قرية من قرى المثلث.

وصلت إلى باقة الغربية، وهي قرية كبيرة وجميلة، تقع وسط منطقة زراعية مثمرة، وتوجهت إلى منزل العميل الذي سأحل في منزله، والمدعو زكي عبد الله عويسات، المعروف لدى الجميع باسم "أبو كمال"، وجدت الرجل بانتظاري على باب

منزلـه ذي الطـابقين. يرتـدي عبـاءة وكوفيـة. ووجـدت فيـه رجـلا وسـيما. مشـرق الوجـه. لقـد كـان الرجـل كبـير عائلـة محترمـة. ورئيسـا سـابقا للمجلـس المحلـي. وعندمـا صافحني. شـعرت أن هـذا اللقـاء سـيكون بدايـة صداقـة متينـة.

قـال لي: وهـو يبتسـم: "أهـلا وسـهلا. بيـتي هـو بيتـك. وعـائلتي هـي عـائلتك". كـان زكـي فخـورا بكونـه عميـلا. ولم يكـن أحـد مـن أهـل القريـة يتجـرأ علـى الاعـتراض. نظرا لمكانـة الرجـل.

لقـد حـدث ذلـك في الأيـام الأخـيرة لمرحلـة الحكـم العسـكري الـذي فـرض علـى القـرى العربيـة في أعقـاب حـرب ١٩٤٨. وقـد كتـب صـبري جريـس–وهـو أحـد كبـار مسـؤولي الإعـلام في منظمـة التحريـر عـام ١٩٦٥. حـول هـذه الفـترة قـائلا: "إن ولادتـها جـاءت لأسباب أمنيـة بحتـه. ومـن نـافل القـول الإشـارة إلى أن هـذا النظـام العسـكري فـرض في المرحلـة الـتي كـانت الحـرب بـين إسـرائيل والـدول العربيـة. لا زالـت حاميـة الوطيـس. وفي الوقـت الـذي كـانت فيـه الحكومـة الإسـرائيلية الجديـدة تواجـه مشـاكل خطـيرة علـى الصعيـد الخـارجي. وتواجـه مواطنـين عربـا. لا زالـت هنـاك شـكوك كبـيرة جـدا. في مـدى ولائـهم للدولـة الجديـدة. وأن الحكـم العسـكري فـرض لمعالجـة مشـاكل أمنيـة فقـط.

وقـد فـرض الحكـم العسـكري في البدايـة علـى جميـع منـاطق الجليـل. والمثلـث والنقـب والرملـة واللـد.ويافـا والمجـدل. ثـم عمـدت الحكومـة إلى تقليـص هـذه المسـاحة بصـورة تدريجيـة.

وقـد قـام الحكـم العسـكري بصـورة رئيسـية علـى خمسـة أنظمـة طـوارئ وضعـت في عـهد الانتـداب البريطـاني. والـتي أتـاحت إمكانيـة الحـد مـن الحركـة في المنـاطق الـتي توكـل إلى الحكـام العسـكريين وإلـزام السـكان بـالتزود بتصـاريح خاصـة. إذا مـا أرادوا القيـام

بأعمال معينة. بما فيها الانتقال من المنطقة الخاضعة للحكم العسكري إلى منطقة أخرى.

وفي شباط ١٩٥٦ أقرت اللجنة التي ترأسها اللواء احتياط يوحنان رتنر-وهو مهندس معماري في كلية العلوم التطبيقية،أن هناك ضرورة لمواصلة العمل بالحكم العسكري لستة أسباب. ومن ضمنها: "العلاقة والانتماء بين العرب في إسرائيل وبين العرب خارج حدود الدولة والذي يؤثر على علاقتهم بالدولة، إن العناصر المتطرفة التي لم تسلم بقيام الدولة، تمنح ملجأ للمتسللين، وتزود عملاء العدو بالمعلومات الأمنية حول إسرائيل.

في المناطق العربية

إن ضرورة حصول المواطن العربي على تصاريح خاصة يحد من قدرة المتسللين والجواسيس على التحرك بحرية، كما أن ضرورة الحصول على تصريح لا يتسبب بإلحاق أي أضرار بالمواطنين الذين يحافظون على القانون: لا يمكن لأي بديل مدني أن يكون رادعا، لا توجد طريقة أخرى غير هذه للحيلولة دون استيلاء العرب في إسرائيل على أراضي الدولة المخصصة للاستيطان الحدودي الأمني، أو للاستخدام كمعسكرات تدريب للجيش.

ومن الجدير بالذكر، أن الجدل حول مدى ضرورة فرض الحكم العسكري على العرب في إسرائيل لم يتوقف حتى منتصف الستينات، وفي تشرين الأول ١٩٦٥ كلف رئيس الحكومة ليفي أشكول مستشاره ايسر هرئيل-الذي كان حتى حزيران ١٩٦٣ مسؤولا عن جميع أجهزة الأمن-دراسة ما إذا كان بالإمكان الاستغناء عن الحكم العسكري. وقد درس هرئيل ذلك، وأوصى بتقديم تسهيلات واسعة في نشاطات الحكم العسكري.

لقد تم إلغاء الحكم العسكري في الأول من كانون الأول ١٩٦٦، أي بعد وقت قصير من إرسالي إلى باقة الغربية، بيد أن الأنظمة التي أتاحت إمكانية فرض الحكم العسكري لم تلغ. واستخدمها الحكم العسكري الذي أقيم بعد عدة أشهر في الضفة الغربية وقطاع غزة. في أعقاب حرب ١٩٦٧.

كانت باقة الغربية خاضعة آنذاك للحكم العسكري، الأمر الذي ألزم كل مواطن يرغب في الخروج منها بالحصول على تصريح حركة من الحكم العسكري. وكان

عملاء جهاز الأمن العام في القرى العربية يعملون علنا. وهم في غالبيتهم من الوجهاء المحليين والزعماء المنخرطين والمطلعين بصورة جيدة جدا على حياة الجماهير الفلسطينية في قراهم. ومن أصحاب الممتلكات والعقارات. ومنظمي الصلح بين المتخاصمين. وأصحاب الأعمال.

وكانت مكانتهم الرفيعة في أوساط مجتمعهم تحميهم من أولئك الذين يكنون لهم البغضاء لتقديمهم المساعدات إلى جهاز الأمن العام. ومن الجدير بالذكر. أن غالبيتهم لم يقدموا المساعدة لنا مقابل المال. بل مقابل مزايا من نوع آخر -ومن ضمنهم أبو كمال-: مثل جمع شمل العائلات. الحصول على تصاريح بناء وتجارة. تسريع الإجراءات في مراكز الشرطة. وضريبة الدخل. والوزارات الحكومية الأخرى.

وهناك منهم من يستغل التعاون معنا لصالح قراهم. وزيادة الميزانيات. وتطويرها. والحصول على تصاريح بناء وتصاريح حركة. وقد عززت هذه المساهمة مكانتهم في أوساط مواطنيهم. بل ساعد عدد لا يستهان به من المتعاونين منظمة "الهجناه" قبل قيام الدولة. والجيش الإسرائيلي خلال حرب ١٩٤٨. وكان جهاز الأمن العام يستعين بهم لإلقاء القبض على المطلوبين. واكتشاف التنظيمات المعادية. والاتصالات السرية مع العدو. والتعرف على المنطقة بشكل دقيق.

كان التعاون مع إسرائيل يحمل مستوى من المخاطرة بالنسبة لهم. الأمر الذي حدا بالجهاز لتزويد بعضهم بالأسلحة.

وزكي عبد الله-الذي حللت عليه ضيفا-شخصيه معروفة في باقة الغربية. ولا تعقد صلحة في (المثلث) دون أن يدعى للمشاركة فيها- ويكافئه الجهاز على مساعدته له بأشكال مختلفة. وعلى سبيل المثال. فإن شقيقه الذي كان يعمل في السابق في إطار

الحرس الشخصي للملك الحسين، رغب جدا في الخروج من الأردن والانضمام إلى عائلته في إسرائيل. ولا شك أن الأمر لم يكن بسيطا، بيد أن الجهاز ساعده للتغلب على العقبات.

لقد علق زكي صورتي رئيس الدولة ورئيس الحكومة، على جدار غرفة الجلوس في بيته. وفي الوقت الذي يفاخر فيه بأنه عربي، فقد كان يفاخر بكونه إسرائيليا مخلصا. لقد حولت علاقاته الوطيدة مع الأجهزة الإسرائيلية، منزله إلى مزار للأشخاص الذين يفتشون عن إمكانية الوصول إلى السلطات، فإذا ما واجهت أحد المواطنين الفلسطينيين مشاكل مع ضريبة الدخل مثلا، كان زكي يتصل برئيس المصلحة، وفي معظم الأحوال كان يتمكن من عمل المستحيل، فالسلطات تكن له الاحترام، وكذلك أهل قريته.

وبعد أن صافحته، أخذني زكي إلى الشرفة وجلس إلى جواري، وأخذ يعد خضراوات "السلطة" لوجبة الغداء، وحينما طرقت زوجته الباب الفاصل، ذهب إليها وأحضر الغداء، فالنسوة وفقا، للتقاليد العربية لا يجلسن مع الرجال.

أخذني زكي بعد الظهر، في جولة في القرية ليعرفني عليها، وكان يقدمني بين الفينة والأخرى إلى معارفه، فنجري حديثا عابرا معهم نشرب خلاله القهوة. وعندما عدنا في المساء قادني إلى الصالون، وهيأ لي مكانا للنوم، ثم أغلق الباب جيدا؛ فالقرية تقع بالقرب من الحدود الأردنية، وكثيرا ما تمكن المتسللون من الوصول إليها ليلا.

ومن الجدير بالذكر، أنني علمت بعد أن غادرت القرية، أن زكي كان يخشى على حياتي لذا كان يقوم بجولات حول المنزل ليلا، وهو مسلح ببندقية صيد، حتى

ساعات الصباح الباكر لقد فعل ذلك طيلة تواجدي في بيته، لم يكن ينام أو تغفل له عين، وأنا لا أدري.

كان لزكي العديد من الأولاد، وقد شاهدت طفلا في السنة الثانية من العمر يتجول في البيت، وقال لي زكي أنه عثر عليه في ملجأ للأيتام فأشفق عليه وأحضره إلى بيته.

وبعد حوالي ثلاثين سنة، قدم إلى مكتبي شاب، وعانقني بحرارة، وقال لي: إنه ذلك الطفل المدعو شريف، وأنه قدم لاستئناف العلاقة القديمة، وطلب مني حل بعض المشاكل التي يواجهها مع أبناء وأحفاد زكي.

لم تمض سوى عدة أيام، حتى شعرت أن منزل زكي، فعلا، كبيتي، وكنت أذهب إلى محل الجزارة الذي يملكه شقيقه الأكبر، حافظ، وأساعده في أعمال الجزارة، كما كنت أساعد شقيقه فارس، في رعايته قطيع الأغنام والأبقار الذي يملكه، وكنت أقضي أياما معه في المراعي.

أما شقيقه الثالث وجيه، فهو سائق سيارة تاكسي، وقد اعتدت مصاحبته في السفرات البعيدة وأجري حوارات مع المسافرين، وأزور القرى العربية التي لم أزرها في حياتي.

بدأت لغتي العربية تتحسن بصورة ملحوظة، وكذلك معرفتي لنمط الحياة العربية، فتعلمت كيفية احترام الوالدين، وكيفية التعامل مع النساء والأولاد، وعرفت ما يأكلونه وما يشترونه.

لقد تعلمت الكثير جدا من الأمثال والحكم العربية، وما يقوله العربي تجاه أي حديث من عربي آخر، لقد كان تواجدي هناك، بمثابة أفضل جامعة لدراسة الوضع

العربي. فقد عرفت مثلا أن التقاليد العربية تحظر على أي من أبناء عائلة العربي أن يضع ساقا على الأخرى، إبان جلوسه، إذا ما كانت الساق العلوية موجهة تجاه وجه رب الأسرة، لأن مثل هذا النهج يحمل إهانة بالغة.

كان منزله ملتقى لأبناء عائلته، الذين كانوا يتداولون الأحاديث، بما فيها الأحاديث السياسية ،كما كان ضباط من الحكم العسكري يؤمون منزله، ولم يكن أحدهم يعرف أنني يهودي، بل كانوا يظنون أنني عربي، ويتعاملون معي على هذا الأساس.

وأذكر، ذات مرة، أن الجهاز عقد ندوة حوار مغلقة بعد أن غادرت منزل زكي، أمها الكثير من الضباط الذين كانوا يؤمون منزل زكي، ودعيت أنا أيضا لحضورها، وعندما شاهدنا الحاكم العسكري لباقة الغربية، قال بغضب: كيف سمحتم لهذا العربي بالتسلل إلى الندوة؟ فقد كان يعرفني بالاسم، الذي منحوه لي آنذاك يعقوب عويسات.

قضيت في منزل زكي أربعة أشهر، وعندما استكملت معرفة كل ما أريد معرفته، أعلمني أربيه بن يعقوب أنه آن الآوان للمغادرة، وعندما غادرت البيت، كان الوداع مؤثرا جدا، ولن أنسى ما حييت الدموع التي شاهدتها في عيون المضيفين وهم يعانقونني بحرارة.

إلى نهاية العالم

أرسلوني -في أعقاب مغادرة باقة الغربية- إلى الناصرة لفترة تدريب أخرى، كي أتعرف على أساليب عمل الجهاز ميدانيا، فاستأجرت غرفة في الناصرة العليا في شقة امرأة كبيرة السن من مهاجري رومانيا، كانت المدينة في تلك الآونة خليطا كبيرا من منازل المهاجرين القبيحة، ولا يوجد فيها أي نشاطات اجتماعية أو ثقافية،

وشعرت وأنا أتنقل من شقتي في تل أبيب إلى غرفتي في الناصرة. كمن انتقل إلى نهاية العالم.

بيد أن العمل هناك منحني تعويضا كبيرا، فقد دخلت إلى عالم ضبابي يكتظ بالأسرار المثيرة للخيال.

كان مسؤول جهاز الأمن العام في الناصرة، في تلك الآونة. هو يونتان. القادم من العراق، وقد أرسل هو وزوجته (حبيبه) التي كانت تعمل كسكرتيرة في المدرسة المحلية. إلى الناصرة، وحينما تم بناء الناصرة العليا اليهودية. انتقل إليها.

ولم يكن يونتان يعمل وحده في منطقة الناصرة. فقد عمل إلى جانبه عدد من ضباط الجهاز، مثل اليعيزر، وهو مزارع سابق، وخبير في كل ما يتعلق بالأمور العربية؛ وإيلي المهاجر من العراق. وجيمي وأورنة، وغيرهم.

أقمنا مقرنا في الجناح المغلق من بناء المسكوبية في البلدة العربية. وهو نفس المبنى الذي كان مقرا للمحكمة. ومكاتب ضريبة الدخل، والعديد من المؤسسات الحكومية الأخرى. وكان المواطنون العرب هناك يعرفون من نحن. ففي الناصرة-مثلما هو الوضع في جميع القرى العربية الأخرى. كنا نعمل بصورة علنية.

ومن الناصرة، تم إرسالي إلى طبريا، حيث اجتمعت بمتعاونين عرب. وقدمت تقارير طويلة ومضنية. كنت أقضي طيلة الليل عاكفا على إعدادها. وفي الصباح أقدمها إلى (يوسي) مسؤولي الميداني. الذي كان بصورة عامة (يلوي) تقاطيع وجهه. ويبدي تأففه. ثم يمزق كل ما كتبته. ورغم غضبي الشديد. وأنا أرى نتاج جهدي. كانوا يقولون لي. إن كل ما أفعله. هو مجرد إعداد للمهمة الحقيقية. فقد كانت عملية إعداد رجل المخابرات آنذاك تستغرق سنتين.

لذا كنت أدرك إنني سأواجه الأمرّين، بيد أنني كنت مصرا على مواصلة الطريق الذي بدأته، فقد بدأت أحب هذا العمل، وأشعر أنني أؤدي رسالة.

وفي تلك الفترة أحببت فتاة من أصل يهودي يمني تدعى (ياعيل)، وكانت تعمل معلمة، ثم مضيفة على طائرات شركة الطيران الإسرائيلية (العال) وتزوجنا.

حيوان بري يعشق حريته

أرسلت في إطار الإعداد والتأهيل المهني إلى دورة رئيسية من دورات الجهاز والتي جرت في غرفة صغيرة من الخشب في المجمع الحكومي في تل أبيب، وهناك قابلت الشخص الذي أسهم أكثر من أي شخص آخر، في بلورة شخصيتي كضابط مخابرات، ويدعى (يهودا أربيل) وهو المدرب الرئيسي في الدورة، ثم قائدي المباشر في مرحلة لاحقة، وأربيل شخصية خيالية تماما، وشاب وسيم وبوهيمي، شجاع وذو عينين فولاذيتين، رومانسي، محب للنزهات والحفلات وزير نساء. وقد رأيت فيه أبا روحيا بالنسبة لي، وملاحا يمكن الاعتماد عليه.

وقد علمنا أربيل، خلال الدورة، كل ما كان يتوجب علينا معرفته بشأن العمل الاستخباري، والمتابعة والمراقبة، وسمعنا منه روايات مذهلة عن عمل وكالات المخابرات الأخرى، وكان قد اعتاد مقابلة العملاء في مقهى (بيتر) في القدس.

كان شخصا غريبا حقا، غير منظم، خلاق بصورة غير طبيعية، حاد اللهجة. سريع الهيجان، لقد كان صورة مختلفة تماما من (أحيطوف) فأحيطوف رجل منظم، يحافظ على القانون بأدق التفاصيل، محافظ، متواضع، ومنغلق على نفسه.

ولد أربيل عام ١٩٢٠ في هنغاريا، وكان اسم عائلته الأصلي (فارجو)، وهاجر إلى إسرائيل عام ١٩٤١، والتحق بكيبوتس إسرائيلي، وخلال الحرب العالمية الثانية.

التحق بالجيش البريطاني، وخدم في إيطاليا، وحينما نشبت حرب ١٩٤٨. عاد إلى إسرائيل وحارب في منطقة القدس وعام ١٩٤٩ التحق بالشرطة، وشارك في معالجة قضايا ذات حساسية سياسية نجمت عن تقسيم المدينة ومن ضمنها ترتيبات العبور من بوابة (مندلبوم). وفي عام ١٩٥٨ انضم إلى جهاز الأمن العام. وبعد شهرين التقى بإيسر هرئيل رئيس الأجهزة الأمنية.

كان أربيل يقول لنا: "لا تقبلوا أي أوامر دون أن تفكروا فيها، ولا تتخلوا عن آرائكم أمام رؤسائكم إذا كنتم واثقين بصحة آرائكم، يجب أن تناضلوا من أجل ما تعتقدون أنه الحقيقة".

وعندما اندلعت حرب ١٩٦٧ كان أربيل قائد منطقة القدس، وفي أعقاب انتهاء الحرب أضيفت القدس الشرقية إلى مجال صلاحياته، إضافة إلى الضفة الغربية كلها. وقد طرح أربيل العديد من المبادرات العملية، وبنى نظرية حرب دقيقة جدا ضد الإرهاب، وأوجد العديد من الأساليب الخاصة بذلك والتي أصبحت، فيما بعد، جزءا لا يتجزأ من عمل الجهاز، ولم يكن يتحدث اللغة العربية.

وفي كانون الأول ١٩٦٨ كتب أربيل في يومياته: "ما هي العمليات الانتقامية المطلوبة؟؟ إنها تتمثل في ضرب قلب المنظمات الفلسطينية وقياداتها، يجب علينا أن نكون مؤهلين للوصول إلى تلك القيادات وتصفية كل من هو موجود هناك، إن تصفية أبو عمار هو شرط ضروري للعثور على حل للمشكلة الفلسطينية"، ومن الجدير بالذكر أن أربيل غيّر رأيه فيما بعد وتوصل إلى استنتاج مفاده استحالة التوصل إلى أي تفاهم مع الفلسطينيين بدون إشراك أبو عمار.

لقد كشف واعتقل الآلاف من أعضاء المنظمات، والخلايا العاملة ضد إسرائيل، وكشف الكثير منها قبل أن تقوم بتنفيذ عمليات، ورغم ذلك فشل في منع عدة عمليات خطيرة في القدس ومن ضمنها الانفجارات في سوق محانيه يهودا وكافتيريا الجامعة العبرية عام ١٩٦٨.

وفي عام ١٩٧٢ اتضح له أنه لن يعين رئيسا للجهاز، حيث كان المرشح آنذاك إبراهام أحيطوف، الذي كان يختلف معه اختلافا بينا في أساليب عمله، وبناء عليه قرر الاستقالة من الخدمة.

لقد كتب أربيل عن نفسه فيما بعد: "لقد كنت طيلة حياتي ذئبا وحيدا: كنت ذئبا لأنني أبديت استعدادا دائما للقتال في سبيل معتقداتي حتى لو كان ذلك يضطرني للوقوف وحيدا أمام الصعاب. ووحيدا لأنه لم يكن لدي غالبية أيام حياتي شريك، كنت وحدي، وأنا لا أعتقد أن لدي العديد من الأصدقاء، إنني أشبه حيوانا بريا يعشق حريته، والآن، وأنا على أبواب بداية الكهولة، فإنني أخاف أن ينتهي كل ذلك، أخشى المرض، وأخشى أن أصبح عبئا على الآخرين".

وقبل سنتين من وفاته، أصيب بجلطة دماغية، وأدخل إلى المستشفى مطلع عام ١٩٨٢، وقد زرته عدة مرات، وأسفت وأنا أرى هذا الرجل يذوي.

وفي نهاية كل أسبوع كانوا ينقلونه من المستشفى إلى فندق (بلازا)، وعندما كنت أرى ملابسه قد بليت كنت أحضر له بعض ملابسي، وقد عكف على خدمته شابان عربيان من قرية بيت صفافا، لقد تعرف والدهما على أربيل إبان عمله كنادل في بار الملك داود في القدس، حيث كان أربيل يؤم الفندق بين الفينة والأخرى، الأمر الذي أدى إلى صداقة بين الاثنين، وعندما احتاج أربيل للمساعدة في نهاية أيامه، لم يجد من

يهب لتقديمها له سوى صديقه العربي، ولا أحد من أصدقائه اليهود، وقد توفي عام ١٩٨٤.

العربي الذي أنقذ حياتي

وضعت حرب ١٩٦٧ جهاز الأمن العام الإسرائيلي أمام واقع جديد لم يمنحه هامشا زمنيا للاستعداد كما يجب. وكان مواطنو غزة والضفة، لا زالوا غارقين في الصدمة التي خلفتها الهزيمة، بيد أنه كان واضحا للجميع، أن العديد من المشاكل الأمنية ستولد حالما يفيقون من ذهولهم.

وبات من الضروري، أن يستعد الجهاز، في أسرع وقت ممكن،للحيلولة دون تبلور بؤر مقاومة، ولم يكن بمقدور الطاقة البشرية الموجودة في الجهاز التصدي لمثل هذا الوضع نظرا لقلة العدد، لذا لجأ الجهاز إلى تجنيد موظفيه القدامى الذين استقالوا أو أنهوا خدمتهم فيه. كما استعار عددا من العاملين في "الموساد". وبدأ حملة تجنيد واسعة لشبان جدد في صفوفه من خريجي الوحدات العسكرية الميدانية، وفي غضون فترة قصيرة، تمكن الجهاز من إحراز قوة كبيرة، الأمر الذي عزز مكانته بين أذرع الأمن المختلفة.

وفي إطار إعدادي للعمل في الضفة الغربية والقطاع، أرسلوني لتحسين لغتي العربية، في المعهد الخاص بالجهاز، كانت الدراسة هناك مكثفة للغاية، وكنا ندرس من ساعات الصباح الباكر وحتى منتصف الليل، وفي نهاية كل أسبوع كانوا يجرون لنا امتحانا نهائيا، يستعد له الجميع بجدية بالغة، وقد درسنا اللغة العربية واللهجات القروية والبلدية الفلسطينية، وتعرفنا على العديد من العادات والتقاليد المنتهجة. واستمعنا إلى إذاعات الدول العربية، وقرأنا صحفا عربية على مستويات مختلفة.

وتعلمنا أيضا قراءة الكتابة باليد، نظرا لمدى أهمية ذلك، فضباط الجهاز يتلقون من العملاء المعلومات مكتوبة باليد، ويتوجب عليهم أن يقرؤوها ويفهموها قبل نقلها إلى الجهة المختصة بترجمتها إلى العبرية.

بدأت دورة تحسين اللغة في نهاية عام ١٩٦٧، أي بعد أن كان هناك ضباط يعملون منذ نصف سنة في الضفة والقطاع، وعندما قدموا لإلقاء المحاضرات أمامنا: تحدثوا العربية بطلاقة، وبلهجات مختلفة، وأبدوا معرفة فذة في معرفة عادات وتقاليد الفلسطينيين، وعلمنا كيفية التأثير على عميل محتمل، وكيفية استجوابه وكيفية التأكد من مدى صحة المعلومات التي بحوزته.

ومن الجدير بالذكر، أنني تكيفت، فيما بعد، مع عدد من التقاليد والأنماط العربية ووجدتني استخدمها، فقد ترك استغراقي في تعلم العادات واللغة العربية، طابعه على شخصيتي بصورة واضحة، لقد تحدثت اللغة العربية أكثر مما تحدثت العبرية، واعتدت قراءة صحيفة عربية إبان تناولي قهوة الصباح.

كانت فترة المعهد رائعة جدا باستثناء مسألة واحدة، وهي مسألة الطعام، فقد كان قليلا جدا، لذا أعلنت أنا وجدعون عيزرا-عضو كنيست في الليكود حاليا- الإضراب عن الطعام، أمام مكتب أربيل، حتى استجاب لنا وحسن وجبات الطعام.

ومن الجدير بالذكر، أن (الإضراب) آنف الذكر، وقع مرة أخرى عام ١٩٧٤ بعد أن أنهى أربيل خدمته، حينما توجه ضباط المخابرات الميدانيون في القدس والضفة الغربية بشكل جماعي إلى قائدهم، اسحق، مطالبين بتحسين شروط عملهم. وقالوا له: إن موظفي الجمارك مثلا يحظون ببدل ملابس فقال لهم: إذا اذهبوا واعملوا في الجمارك، وحينها لجأوا إلى أربيل. الذي كان خارج الجهاز آنذاك، فتدخل في الأمر.

وحله في نهاية المطاف لكن ليس لصالح المضربين، وفي أعقاب هذا الإضراب، سنت الحكومة قانونا يحظر جميع صور العمل بصورة جماعية، أو الانتظام معا لمثل هذا الغرض.

أنهيت دراستي في المعهد في شباط ١٩٦٨ وحصلت على درجات عالية جدا في الأدب العربي وفي اللهجة العامية أيضا، بيد أن ما هو أهم، بالنسبة لي، كان إنني وبعد سنتين من التدريب والدورات والإعداد، حظيت بصفة "عامل دائم في جهاز الأمن العام".

وزع الخريجون على الأجهزة المختلفة في المخابرات، ووجد الكثيرون منهم أنفسهم يعملون ميدانيا، وأنا من ضمنهم، وقد تم إرسالي إلى نابلس. ولدى وصولي إلى هناك، تسلمت المعدات الدائمة لرجل المخابرات: مسدسا شخصيا من طراز اف-ان ٩مم. وحقيبة إسعافات أولية، تحتوي على ضمادة خاصة لسد تدفق الدماء من الشرايين، وضمادات وعلاجات، وملابس عسكرية-كنا في البداية نرتدي زيا عسكريا، ونضع رتبنا العسكرية، وكنت أضع على كتفي درجة نقيب، وكان العرب هناك ينادونني الكابتن يعقوب، ووضعت تحت تصرفي سيارة من طراز (كرمل) تحمل لوحة أرقام مدنية، ورغم هذه، اللوحة إلا أن المواطنين هناك كانوا يعرفون السيارة فورا، ولم أستطع تضليلهم، نظرا لأن هوائي جهاز الإرسال كان يبدو واضحا على سقفها، ومن الجدير بالذكر، أن الجيش عمل بعد فترة على إزالة هذا الهوائي، وملاءمة الهوائي العادي المستخدم لجهاز الراديو كهوائي للإرسال.

كان مركز المخابرات في نابلس في مبنى كان الأردنيون قد أقاموه كمستشفى، بيد أن الحرب قطعت عملية إكماله، وتشكل طاقمنا من ثلاثة أشخاص: فردي عيني-

رجل "الموساد" الذي تمت إعارته لجهاز الأمن العام، باروخ كوهن- والذي كان رجل مخابرات بالفطرة، وأنا أصغر أعضاء المجموعة.

لقد تمكن باروخ كوهن-وهو شخص قصير القامة، سريع وصارم من إكسابي خلال العمل، ما لم أتمكن من استيعابه خلال الدورات، فقد كان يعيش الوضع الاستخباري بكل إحساسه، ويجيد أعمال التحقيق، والمراقبة والمتابعة، إضافة إلى كونه خبيرا بالمسلكيات العربية، ويجيد اللغة العربية إجادة تامة، ولديه القدرة على شم رائحة (الفدائيين) عن بعد، وكان يعرف المنطقة معرفة جيدة، ويعرف الأشخاص أيضا، وقد أصبحنا أنا وهو صديقين جدا، رغم أنه كان يكبرني بعشر سنوات، وكنا كثيرا ما نخرج للعمل معا.

وفي مطلع عام ١٩٧٣، وإبان قيامه بمهمة بتكليف من "الموساد" في أوروبا، قام عربي باغتياله في مدريد.

وفردي عيني أيضا، كان محترفا، بيد أنه كان رجلا صامتا، وقد تعلمت على يد هذين الاثنين، كل ما كنت بحاجة له، كي لا أضيع في هذا العمل والحرب التي لا هوادة فيها.

لم يكن جهاز الأمن العام على استعداد لمعالجة والتعامل مع جماهير يزيد عددها على مليون نسمة والتي وجدت نفسها بين عشية وضحاها، تحت حكم إسرائيل، ولم يتم تدريب أشخاص بصورة كافية لمواجهة هذه المهمة، ولم تكن هناك أنماط عمل، تحدد ما هو محظور وما هو مسموح به، ورغم ذلك، كان هناك شيء واحد واضحا تمام الوضوح: كان علينا أن نفتش ونعمل على تجنيد عملاء، ومصادر أخرى، ونقيم اتصالات واسعة معهم، ونجمع معلومات للحيلولة دون قيام خلايا وتنظيمات

معادية لنا، أو كشف مثل هذه الخلايا، وكشف أماكن مخازن السلاح، ومنع دخول جهات معادية إلى إسرائيل.

لقد نجحت المنظمات في تلك الآونة، في تنفيذ عدة عمليات كبيرة، أدت إلى وقوع عدد كبير من القتلى في سينما (مركاز) في تل أبيب، وميدان صهيون في القدس. الأمر الذي أشاع جوا من الخوف والإحساس بالعجز في إسرائيل.

عينت مسؤولا عن عدة عشرات من القرى، وعدة مخيمات للاجئين في منطقة كبيرة تمتد من نابلس وحتى رام الله، وبدأت العمل من الصفر: لم يكن هناك عملاء في المنطقة؛ ولم تكن لدينا أي مصادر معلومات أخرى، وكان علي تجنيد عملاء، وخلق مصادر معلومات. وهو الأمر الذي لم يكن سهلا.

كانت البؤرة التي جندنا منها عددا كبيرا من العملاء، هي بؤرة السكان الذين توجهوا إلى الحكم العسكري، طالبين الحصول على مميزات، أو أي مطالب أخرى. فقد استدعيناهم لإجراء مقابلات معهم بخصوص طلباتهم. وحاولنا. خلال الحوار معهم: اكتشاف فيما إذا كانوا على استعداد للتعاون معنا، وقد ردت غالبيتهم العظمى بالنفي. أو تهربوا بمبررات مختلفة.

وفي أحد أيام الصيف اللاهبة، قيل لي إن أحد القرويين. الذي يسكن في منطقة تعج بالفدائيين يريد تصريحا للمتاجرة داخل إسرائيل، فاستدعيته. وعرضت عليه التعاون معنا، فوافق فورا تقريبا، واتفقنا على اللقاء مرة أخرى في مكان سري قرب قريته حيث كان عليه إعلامي بالمعلومات التي يتمكن من جمعها، وقبل موعد اللقاء بلحظات. وقبل أن أهم بالتوجه إلى المكان المتفق عليه أنا والحارسان الشخصيان اللذان يرافقانني طيلة الأربع والعشرين ساعة، أعلموني بأن شخصا ما لا أعرفه يريد التحدث

معي على عجل، فعدت بسرعة إلى مكتبي ووجدت هناك قرويا لا أعرفه، والذي قال لي: كابتن يعقوب أنا أعرف أنك ستلتقي الليلة مع (فلان) وذكر اسم القروي الذي اتفقت معه على اللقاء،وذكر لي اسم المكان الذي سألتقي فيه معه، ثم قال لي: لا تذهب إلى هناك. فقد نصبوا لك كمينا لقتلك.

وحينما سألته عن السبب الذي حدا به لتحذيري؟ قال لي أن هناك بينه وبين (التاجر) القروي الآخر نزاعا تجاريا منذ زمن طويل. وعندما سمع بالصدفة عن الكمين الذي ينصبه لي. سارع لتحذيري كي أزج به في السجن زمنا طويلا، وليس رغبة في إنقاذ حياتي.

بقيت في نابلس، وتوجهت قوة عسكرية إلى منطقة اللقاء. وعندما اقتربت من المكان أطلقت فجأة عدة عيارات نارية، وعندما سارعت القوة إلى مكان إطلاق النار. اتضح أن المسلحين الذين نصبوا الكمين لي، أطلقوا النار على سيارة مرسيدس بيضاء يملكها أحد القرويين اعتقادا منهم أنها سيارتي، وقد تمكنت القوة من إلقاء القبض على المسلحين وعلى القروي الذي دبر كل ذلك، وقد اعترف أثناء التحقيق. أن إبداءه الاستعداد للتعاون معي، كان في حقيقة الأمر خدعة لتدبير عملية قتلي.

وكان هناك عملاء من نوع آخر-غالبيتهم رغم أنوفهم-وأقصد بذلك (المخربين) الذين اعترفوا في تحقيقاتهم بأنهم تدربوا في معسكرات فتح-خصوصا في معسكر الهامه-وفي الأردن أيضا مع شبان من الضفة والقطاع، وأنهم يستطيعون التعرف عليهم من وجوههم. فكنا نغطي رؤوسهم بأكياس سوداء، لا يرى منها إلا من منطقة العينين، ونضعه في سيارة جيب عسكرية. تقوم بالتجوال في منطقة نابلس، وكانت سيارة المخابرات تسير على بعد قليل من الجيب، وعندما يتعرف المخرب على شخص

ما: تدرب معه، يقوم الجنود بإعلامنا لا سلكيا، فنسارع لإلقاء القبض عليه، لقد تمكنا بهذا الأسلوب من اعتقال مئات الأشخاص في الضفة الغربية وغزة، ممن تدربوا في سورية والأردن خلال الفترة الواقعة بين ٦٨-١٩٦٩.

كان سمير-المخرب ذو (الخال) على رقبته أفضل عملائنا، ففي أعقاب اعتقاله، رتبنا عملية فراره من السجن في عملية معقدة، وبفضله تمكنا من إلقاء القبض على العديد من الخلايا التخريبية الواحدة، إثر الأخرى، وإفشال عمليات خطيرة واعتقال مخربين كانوا مختبئين منذ زمن طويل.

ووفقا لتعليماتنا، فقد تعامل كشخص مطلوب لنا ونفتش عنه، وتمكن طيلة ثلاث سنوات وبمساعدتنا من تغطية إحدى أخطر المناطق في الضفة الغربية.

كان سمير شديد الذكاء، ويعرف المنطقة معرفة تامة، وقد عمد إلى تطوير علاقات ممتازة مع المواطنين هناك، والأهم من ذلك أنه كان يتمتع بثقة المنظمات: وكانت المعلومات التي يجلبها إلينا دقيقة للغاية، فقد عرف أين يختبئ الفدائيون ومكان مخازن السلاح. والعمليات التي يجري التخطيط لها، وكي لا نتيح الفرصة لأي جهة للشك فيه. كنا نجري بين الآونة والأخرى تفتيشا للبيت الذي كان يسكن فيه. واعتدنا إعلامه بموعد التفتيش. كي يتمكن من مغادرة البيت مسبقا. وقمنا باعتقال بعض أقاربه كمحاولة للضغط عليهم ليعترفوا لنا بمخبئه.

ولأسفي البالغ، لم أستطع مكافأته بالصورة المناسبة. لأن مكافأة العملاء بصورة عامة تعتبر مشكلة بالنسبة لنا: فوجود مبالغ كبيرة معهم قد تؤدي إلى إثارة الشبهات حولهم. لقد حصل سمير منا على مبالغ ضئيلة. لكننا منحناه بسرور كل ما

طلبه من مميزات لا تثير الشكوك، فقد ساعدناه مثلا على شراء سيارة تاكسي أجرة؛ كي تكون مصدر ارتزاق له.

كنا نفضل دائما العميل الذي يتلقى أجرا ثابتا على أولئك الذين يتطوعون؛ لأن عدم قبول الأجر يدل على أن العميل لا زال يجد صعوبة في تسليم زملائه، وأن بالإمكان أن يتراجع عن تعاونه معنا في أي لحظة، بل وربما يتحول إلى عميل مزدوج.

إن الحصول على أجر ثابت أو أجر مقابل كل معلومة ذات قيمة لا يعتبر فقط محفزا للعمل، بل إن هذا المبلغ يربط العميل بضابط المخابرات، ويجرمه أمام نفسه؛ الأمر الذي يجعل طريق العودة أصعب عليه بكثير، وإن تكن غير مستحيلة.

وكان هناك عملاء—وإن كانوا قلة قليلة—يتعاملون معنا بصورة أيديولوجية. مؤمنين بأن تعاونهم يؤدي إلى تقليص عملية سفك الدماء، وتحسين صور التعايش بسلام بين الشعبين، وكانوا يقدمون لنا المعلومات التي يعتقدون أنها تخدم هذا الغرض فقط، وكانوا يرفضون رفضا باتا تقاضي أي مبلغ من المال، لأنهم يعتقدون أن تقاضي المال مقابل هذه الخدمات يحولهم إلى خونة في نظر شعبهم.

ومن الصعب معرفة ما إذا كان العميل الذي جندته سيبقى مخلصا لك دائما، أم لا، بيد أن هناك العديد من الطرق لاختبار مدى مصداقيته، ومن ضمن الطرق المستخدمة لذلك، يتم إعطاء العميل مظروفا مغلقا، ويقول له ضابط المخابرات أن عليه أن يضعه في مكان معين في أحد الحوانيت لأن شخصا ما سيأتي لأخذه، والعميل يدرك أن توجه ضابط المخابرات بنفسه إلى المحل، لوضع المظروف سيثير الشكوك، لذا لا توجد لديه أية أسباب تدعوه للشك في أن هذا الطلب هو اختبار مصداقية. لكنه لا يدرك أن الضابط رتب الأمر بحيث يتم إعادة المظروف إليه ثانية. ويكفي إلقاء نظرة

عليه كي يدرك الحقيقة. فإذا ما وجده مفتوحا ثم أعيد إلصاقه. لا يجب عليه الثقة بعد ذلك في هذا العميل.

لم أحاول ولو مرة واحدة إبان عملية تجنيد العملاء (تهويدهم) أو بالمعني الأصح تحويلهم إلى محبي صهيون. وقد اعتدت إقناعهم بالقول: أنا أتفهم الدوافع الأيديولوجية الفلسطينية، وأن لدينا نحن الإسرائيليين أيضا. نفس الدوافع تجاه "أرض إسرائيل". وطالما بقيت الحرب تدور بين جندي لجندي: فإنني أعتبر الوضع مشروعا بيد أنه لا يوجد حق لأي شخص أيا كان أن يقتل الأطفال والنساء تحت أي مبرر أيديولوجي. وأنا هنا للحيلولة دون وقوع عمليات قتل من هذا القبيل. وأن بمقدورهم مساعدتي على ذلك، ومساعدة أنفسهم أيضا، بوضع حد لقتل الأبرياء.

لقد جندت في تلك الآونة أحد كبار الشيوخ في معسكر لاجئين كبير. وكان قد قدم طلبا إلى الحكم العسكري. للسماح لزوجته بتلقي علاج نسائي في مستشفى هداسا في القدس. ولم يكن هذا العلاج ممكنا في نابلس، أو الأردن، استدعيته لمقابلتي وحاولت جس نبضه فيما إذا كان على استعداد للتعاون معنا. فرفض ودعم رفضه بآيات من القرآن. وقال بغضب: مساعدة الكفار تتعارض مع الدين الإسلامي لذا فإنه لا يستطيع الاستجابة لطلبي أبدا. ودون أن ينتظر ردي. نهض وغادر المكان بغضب.

ورغم ذلك. أمرت بمنح زوجته تصريحا للعلاج في هداسا. ولم أره زمنا طويلا.

وذات يوم. قدم إلى مكتبي. وطلب التحدث إلي فاستقبلته فورا. وأخذ يثني على الأطباء الإسرائيليين. وطلب مني أن أنقل إليهم تحياته. وشكره. وعندما سألته عما إذا كان قد فكر مرة أخرى بما طلبته منه؟ فقال لي: "إنه فكر في ذلك كثيرا. وأنه

على استعداد للتعاون معنا، شريطة أن تضمن لي شيئا"، كنت على استعداد للتعهد له بأي شيء يطلبه. فقال: "أريد أن تعدني باستخدام المعلومات التي سأحضرها لك فقط لإنقاذ حياة النساء والأطفال". فوعدته باستخدام المعلومات فقط من أجل الحيلولة مباشرة دون وقوع عمليات ضد المدنيين.

وقد ساعدناه في شراء شاحنة صغيرة، أخذ يتنقل بها من قرية إلى أخرى يبيع الملابس ويقدم المساعدة الروحية، ويجمع معلومات لنا.

واعتدنا الالتقاء في أماكن خفية، أو في المنازل التي استأجرها الجهاز لتفعيل العملاء، وعندما كنا نستخدم المعلومات التي يجلبها لنا، كنا نحرص على إعلامه بأن هذه هي الطريقة التي يمكن عبرها منع المساس بالأبرياء. كان الشيخ يكتب تقاريره بخط جميل جدا. الأمر الذي أتاح لي الفرصة للتعرف على أنماط بلاغية، ولغوية لم يسبق أن تعرفت عليها، كانت الألفاظ مستقاة من القرآن والأدب العربي، فالشيخ لم يكتب في أي مرة أن فلانا مشتبه بمحاولة تشكيل تنظيم غير مشروع، بل كان يكتب على هذا النحو تقريبا: "هناك إمكانية للتساؤل حول ما هية العلاقة الآخذة في التبلور بين فلان وفلان اللذين اعتادا الالتقاء تحت شجرة التين على مدخل القرية"، كانت تقارير الشيخ ورجال الدين الآخرين الذين تعاونوا معنا تعج بالإلماحات المخفية بين السطور بيد أن السنوات الطويلة التي قضيتها في الاتصال مع المسلمين المتدينين جعلتني أدرك بالسرعة المطلوبة ما يريدون قوله.

نابلس مدينة المتناقضات

كان الشيخ كالعملاء الآخرين يعرض نفسه يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة للخطر، فقد كان رجال المنظمات يسارعون للضغط على الزناد حال اكتشافهم عميلا لجهاز الأمن العام، ولا شك أن نفس المصير كان بانتظاره لو تم كشف أمره، وكان يدرك ذلك تماما، لكنني لم أر الخوف في عينيه أبدا.

تمكنت من تجنيد عميل ناجح آخر في أعقاب إعلان في الصحف، جاء فيه أن أحد سائقي التاكسي من قرية في شمال الضفة كان شاهد عيان لحادثة طرق بين سيارتين إسرائيليتين وقد قام بجمع الجرحى ونقلهم إلى المستشفى، مما حدا بالحكم العسكري لمنحه شهادة شكر، وبدأنا نحن نهتم به، وعرضنا عليه التعاون معنا، فأبدى استعدادا لذلك.

وفي بداية عملي في نابلس، جندت طالبا في التوجيهي للتعاون معنا، طالبا متميزا جدا، والحق، فإنني لا أدري الأسباب التي حدت به للتعاون معنا، وفي أعقاب تعاونه معنا بفترة وجيزة شعر بالندم، وذهب إلى أحد نشطاء حركة فتح واعترف له بذلك، وإن لم يعترف بالحقيقة كاملة، فقد زعم أن جهاز الأمن العام يحاول تجنيده، وسأل عما يجب عليه عمله؟؟ لكن نشيط فتح لم يصدق الرواية، وأخذه إلى مكان معزول وعذبوه حتى اعترف بالحقيقة، فأطلقوا عليه النار وقتلوه.

ومن الجدير بالذكر، أن رجال المنظمات لم يعمدوا دائما إلى تصفية العملاء الذين تم اكتشافهم، وفي بعض الأحيان فضلوا تحويلهم إلى عملاء مزدوجين، وفي

الحالات التي كنا نعرف بذلك، كنا نحوله إلى عميل ثلاثي نقول لهذا العميل: (المخربون) سيقولون لك ما تقول لنا. ونحن سنقول لك ما تقوله لهم.

ومن الجدير بالذكر، أن هناك مقولة في المخابرات تقول: "يفشل جهاز المخابرات عندما يصل عميله إلى المشنقة، وينجح حينما يحول عميله إلى عميل مزدوج أو عميل ثلاثي". وجهاز الأمن الناجح يبذل قصارى جهده كي لا يتم (حرق) عملائه الجيدين، وفي بعض الحالات اضطررنا للتخلي عن عملية ما يجب أن نقوم بها خشية أن يؤدي تنفيذها إلى كشف العميل الذي قدم إلينا المعلومات حولها، والأمر هنا يشبه. إلى حد بعيد، صحفيا يرغب في الحفاظ على مصادره، وهو يدرك أنه إذا ما نشر معلومات معينة، فسوف يكشف هذا المصدر، ولا يستطيع بعد ذلك استخدامه. لذا يفضل. بعد تردد طويل. علاقته المتواصلة مع العميل عن نشر ما يريد نشره.

زوجتك وابنك في خطر

حسنا. رويدا رويدا. أساليب عملنا في نابلس. وبنينا أسلوب عمل قادرا على مواجهة جميع المشاكل التي قد تبرز في طريقنا، كنا نعمل بصورة جنونية. في سباق مع الزمن، فقد كنا ندرك أن المدينة. وخصوصا البلدة القديمة، تعج بالمسلحين وبمخازن الأسلحة، التي تم تهريبها من الدول المجاورة أو التي تم جمعها في أعقاب انسحاب القوات الأردنية بعد حرب ١٩٦٧، ولم يكن يخفى علينا أن هناك مصانع صغيرة لصناعة المواد المتفجرة.والوسائل القتالية الأخرى .وفي كل مرة. تمكنا من اكتشاف مخزن سلاح. أو إلقاء القبض على خلية، تنفسنا الصعداء. لأننا كنا بذلك نحول دون وقوع عملية جديدة، كنا نطارد المسلحين دون كلل أو ملل، وأحيانا كنا نكرس أسابيع عديدة وأشهرا لإلقاء القبض على مسلح وحيد.

أعلمنا شهود عيان، في أعقاب إحدى العمليات التي جرت ضدنا في المنطقة، أنهم شاهدوا سيارة مرسيدس تغادر المكان، وأفادوا أنهم شاهدوا خطا أسود على طول السيارة، فقمنا بجمع جميع السيارات المرسيدس في منطقة نابلس وضواحيها وقراها، ووضعناها في حقل مفتوح. وفحصناها حتى عثرنا على السيارة المطلوبة، والشخص الذي كان يقودها واعتقلناه مع شركائه في العملية.

كانت حركة فتح، هي أكبر المنظمات الفلسطينية آنذاك، وقام أعضاؤها بتنفيذ ثلثي العمليات العسكرية ضدنا، وكان عرفات يحتل مكانة رفيعة على رأسها. وقد اعتاد الاختباء في المغائر، واستبدال مكانه يوميا تقريبا، وقد حرصت الجماهير الفلسطينية على حمايته، في الوقت الذي كان جهاز الأمن العام، يبذل كل ما بوسعه، لإلقاء القبض عليه، وتلقينا ذات يوم، نبأ من عميل موثوق، يفيد بأن عرفات يختبئ في منزل معين في رام الله، توجهنا إلى هناك تحت جنح الظلام، ومعنا جنود من وحدة مختارة، وأوقفنا السيارات بعيدا عن البيت، كي لا نثير الشبهات، وواصلنا طريقنا سيرا على الأقدام، والتفت القوة حول بعض المنازل كي لا يلاحظها أحد، ثم اقتحمت المنزل. بيد أننا لم نعثر هناك سوى على حشية لا زالت دافئة، وراديو يبث أغاني عربية، أما عرفات فقد تمكن من الفرار، ويبدو أن شخصا ما حذره مسبقا، وقد صادرنا الراديو واستخدمته في قيادتي في نابلس، وأماكن أخرى.

وقبل عدة سنوات، التقيت عرفات وهو رئيس السلطة الفلسطينية، وأعدت له الراديو، بعد أن أعدت على مسامعه قصة مطاردتنا له، لكنه رفض استعادته، وقال لي: "احتفظ به كذكرى مني".

لم تكن حياة رجل المخابرات في نابلس سهلة، بل بدت وكأنها أعمال شاقة تسرق كل وقتي، أياما وليالي وإجازات وغير ذلك، ورغم أننا لم نكن سوى ثلاثة أشخاص من الجهاز، إلا أن حجم العمل كان يكفي لكتيبة كاملة، وكنا نقوم بتجميع المعلومات، وتجنيد العملاء والتحقيق في آن واحد، مما حدا بنا لكتابة تقارير يومية. بحجم كتاب. ولم أكن أزور بيتي في نتانيا إلا على فترات متباعدة، لقد ولد ابني البكر أمير في آب ١٩٦٨، وتربى دون أن يعرف والده تقريبا، وعندما كانت زوجتي تسير معه في شوارع المدينة، كان ينادي كل شخص يراه بـ "أبي".

كانت تلك مرحلة عمليات صعبة، بادرت خلالها حركة فتح، والجبهتان الشعبية والديموقراطية إلى تنفيذ عمليات مكثفة جدا، وتهريب كميات هائلة من الأسلحة والمواد التفجيرية، عبر معابر الأردن، وأخفوها في البلدة القديمة في نابلس، والتي كانت بؤرة العمل الفلسطيني المسلح.

كان مجتمع البلدة القديمة مجتمعا منغلقا بغالبيته، الأمر الذي جعل اختراقها شبه مسألة مستحيلة، وكانت غالبية المباني في البلدة القديمة متصلة بعضها البعض بجدران أو أسطح مشتركة، إضافة إلى معابر وممرات سرية، وعندما كنا نقترب، كانوا يسارعون إلى الفرار قافزين فوق الأسطح،وهناك العديد من الشوارع الضيقة، إلى الدرجة التي يستحيل التحرك فيها بالسيارات، مما عرض كل دورية تدخل البلدة، للوقوع في الشراك التي ينصبونها لها، وبالتالي، فإن إرسال قوة إليها كان يرتبط بالكثير من التعقيدات، وعندما كنا نضطر لذلك، كنا نقوم بعمليات واسعة نسميها (عمليات الخنق)،وقد شاركت بنفسي في أربع عمليات من هذا القبيل. وفي إطارها طوقت قوات كبيرة البلدة القديمة، وجلبنا جميع الرجال إلى مكان واحد لتدقيق

هوياتـهم والتحقـق منـهم، وفقـا لقوائـم أعـدت مسـبقا، في نفـس الوقـت الـذي تجـري فيـه القـوة عمليـات تمشـيط مـن بيـت لآخـر ومـن سـاحة لأخـرى، وكـانت التحقيقـات الـتي نجريـها في المكـان تسـفر عـن نتـائج مرضيـة، وتمكننـا مـن إلقـاء القبـض علـى العشـرات، واكتشـاف مخـابئ السـلاح ومصـانع صغـيرة لصنـع المتفجـرات والأسـلحة.

لقـد كـان مـن السـهل في تلـك الآونـة الـتي تلـت حـرب ١٩٦٧، اكتشـاف الأشـخاص الذيـن نفتـش عنـهم، فقـد أجـرى الأردنيـون قبـل الحـرب عمليـة إحصـاء سـكانية، وتركوهـا خلفـهم.

كـان مصطلـح "ندحـرج"، يعـني في الجـهاز، اعتقـال وكشـف الأشـخاص بنـاء علـى التحقيقـات الـتي نجريـها والاعترافـات الـتي نسـتقيها، وقـد (دحرجنـا) يوميـا عشـرات الأشـخاص وكميـات هائلـة مـن المعـدات الحربيـة، وأجرينـا عـددا لا يحصـى مـن عمليـات التحقيـق، غالبيتـها في سـجن نـابلس، وكنـا نقـول: عندمـا نلقـي حجـرا في نـابلس فـإن الفرصـة كبـيرة لأن تصيـب قطـا أو فدائيـا، وخيـل لنـا أنـه لـن تكـون هنـاك نهايـة للاعتقـالات، نظـرا للعـدد الهـائل مـن الفدائيـين.

لم تتضمـن تجـهيزات رجـل المخـابرات أصفـادا، لأننـا كنـا نـترك هـذه المهمـة إلى جـهات أكفـأ منـا علـى هـذا الصعيـد: الجيـش والشـرطة، رغـم أن صلاحياتنـا تمكننـا مـن إجـراء مثـل هـذه الاعتقـالات، ولا شـك أن هـذه المسلكية كـانت خطـوة فطنـة مـن الجـهاز، لأنـها حـالت دون لجـوء أعضائـه إلى تصرفـات قاسـية مـن ناحيـة، ودون توجيـه أصـابع الاتـهام إليـهم في حالـة اختفـاء أمـوال وأشـياء ثمينـة أثنـاء التحقيـق مـن ناحيـة أخـرى ومـن الجديـر بـالذكر أن الكثـير مـن الشـكاوى قدمـت مـن المواطنـين هنـاك بـهذا الصـدد، بيـد أن قسما منها فقط كان لـه أسـاس مـن الصحـة، ولم تكـن لنـا يـد فيـه.

وذات ليلـة، توجـهت بصحبـة قـوة إلى بيـت فوريـك لاعتقـال أحـد الفدائيـين الـذي كـان يـهرب كميـات كبـيرة مـن الأسـلحة والمعـدات الحربيـة مـن الأردن. كـان الظـلام شـديدا. وسـرنا في طـابور حـوالي عشـرة كيلومـترات. وكنـا نتوقـف بـين الفينـة والأخـرى. ونصيـخ السـمع لمعرفـة مـا إذا كـان أمرنـا قـد اكتشـف أم لا. ونظـرا لأنـني كنـت أعمـل بصـورة متواصلـة آنـذاك. فقـد شـعرت بالإرهـاق الشـديد. وأخلـدت للنـوم عـدة دقـائق في كـل مـرة نتوقـف فيـها. وأحيانـا أثنـاء السـير. وقـد حرصـت علـى السـير في المكـان الثـاني أو الثـالث خلـف القـائد، كـي اصطـدم بالشـخص الـذي يسـير أمـامي أو يصطـدم بـي مـن يسـير خلفـي إذا ما نمـت ويوقظـني.

وصلنـا. وبـدأت الكـلاب تنبـح بيـد أن القريـة لم تسـتيقظ، وكـانت المعلومـات الـتي بحوزتنـا تفيـد بـأن المشـبوه يسـكن في مـنزل مكـون مـن حجـرة واحـدة علـى أطـراف القريـة. وقد عثرنـا علـى المـنزل وطوقنـاه. ولاحظنـا أن هنـاك ضـوءا خافتـا لفـانوس يشـع مـن النـافذة. وعندمـا أعطيـت الإشـارة اقتحمنـاه.

لم تكـن تلـك هـي المـرة الأولى الـتي نقتحـم فيـها منـازل تحـت جنـح الظـلام. لـذا اعتـدت منظـر الأطفـال النـائمين فـوق بعضـهم البعـض علـى الحشـايا الملقـاة علـى الأرض. واعتـدت رائحـة الخشـب المحـترق الـذي يسـتخدمونه للتدفئـة. والطبـخ. واعتـدت نظـرات الفـزع في عيـون أبنـاء العائلـة ونحـن نقتـاد معنـا رب الأسـرة أو أحـد أبنائـها. ورغـم أنـني كنـت أدرك أنـني أخـوض حربـا لاخيـار. لا هـوادة ولا رحمـة فيـها. إلا أنـه كثـيرا مـا سـاورتني مشـاعر الرحمـة بأبنـاء العائلـة الخـائفين وأنـا اقتـاد رب الأسـرة. وقـد كـان مـن الواضـح لي ولهـم أيضـا. أن هنـاك فرصـة كبـيرة جـدا لعـدم عودتـه إلى البيـت قريبـا. وقـد تسـاءلت في مثـل هـذه الحـالات: تـرى مـاذا يفكـرون الآن في طبيعـة المخـاطرة الـتي أخذهـا

رب أسرتهم على عاتقه، حينما انضم إلى المنظمات؟؟ ترى هل كانوا يفضلون لو أنه كرس جهده في إعالة عائلته، أم أنهم كانوا يشجعونه للمشاركة في النضال؟؟ لقد شغلني السؤال القائل: ترى ما الذي كنت سأفعله لو أنني كنت مكان هذا الرجل الذي اقتاده للتحقيق؟

لم نعثر على المشبوه الذي جئنا من أجله في البيت، وتذكرت أن المدربين قالوا لنا. في إحدى الدورات، إن القرويين اعتادوا في ليالي الصيف الحارة، النوم فوق الأسطح، فسارعت إلى الخارج، ولمحت شخصا ما يقفز من فوق السطح ويحاول الاختفاء في المقبرة القريبة، فأطلق جندييان النار باتجاهه، لكننا لم نعثر في المقبرة حينما فتشناها على أي أثر له.

وجدت من الصعب، أن أسلم بحقيقة فراره، وبقي أمامي أمل واحد وهو أن يكون قد أصيب بأحد العيارات النارية التي أطلقها الجنديان، فحصلت على قائمة بأسماء جميع الأطباء الموجودين في المنطقة، وبدأت صبيحة اليوم التالي بزيارة عياداتهم واحدا إثر الآخر مستجوبا إياهم بيد أنهم جميعا نفوا أن يكونوا قد عالجوا جريحا الليلة الفائتة.

اجتمعت في المساء مع عميل يسكن في أحد المخيمات القريبة من نابلس، وقد سألني هو: هل أطلقتم النار أمس على شخص ما في بيت فوريك؟ فأجبت بالإيجاب. فقال: الجندي الذي أطلق النار قناص ممتاز، لقد تمكن من إصابة الشخص بعيارين في ساقه اليسرى، مما حدا به للقدوم إلى طبيب في المخيم للمعالجة، ولم تكن لديه أي معلومات أخرى، كان عميلنا قريبا للطبيب المذكور، ولو أننا سارعنا لاستدعاء الطبيب للتحقيق لحرقنا عميلنا، ولوجدنا جثته في أحد الأيام ملقاة على قارعة الطريق، ورغم

ذلك لم يكن أمامنا مناص من اعتقال المطلوب، فقد كان فدائيا شديدا، وألحق بنا الكثير من الأذى، لذا توجب أن نخلق الظروف التي تمكننا من الحصول على المعلومات اللازمة، دون إثارة شكوك الطبيب.

طلبت من ضابط الصحة في قيادة الضفة الغربية استدعاء كافة الأطباء الموجودين في نابلس ومخيمات اللاجئين، لطرح موضوع صحي ما، وفي صبيحة اليوم التالي. كانوا جميعا في مكتبه ومن بينهم الطبيب الذي عالج المطلوب.

طلبت من أحد ضباط الجهاز العاملين في مكان آخر، المشاركة في الاجتماع، بوصفه ضابط صحة. وخلال إحدى فترات الاستراحة، أجرى حديثا مع الطبيب، الذي طرح عليه المشاكل التي يواجهها في عمله. وحينها طرح الضابط مشكلة صحية أيضا، فقال وهو يتنهد لقد اقتحم الجيش منزلا في بيت فوريك وأطلق النار على شخص على اعتبار أنه فدائي. وبعد أن فر هذا الشخص، اتضح أنه بريء. وجل ما نخشاه هو أن يتوفى متأثرا بجراحه ونواجه نحن فضيحة.

بدا أن الطبيب اقتنع بالفكرة، وأعتقد أن الإسرائيليين يفتشون عن الرجل لتقديم علاج أفضل له. لذا قرر التعاون. بيد أنه طلب أن نقدم إليه وعدا بأن لا نعاقبه على ما سيقول. فأعطاه الضابط وعدا فقال: "لقد عالجت أنا هذا الجريح. ونقلته إلى منزل أحد أقربائي كي يرتاح بعض الوقت. بعد أن أخرجت رصاصتين من ساقه. وأعطى الضابط العنوان. وحينها توجهنا فورا إلى العنوان واعتقلناه".

كانت المنظمات تهدد دائما باغتيال ضباط المخابرات العاملين في المناطق. لذا لم نكن نخرج إلا بمصاحبة الجنود والحراس، وقد ألقيت باتجاهي مرتين قنابل يدوية وانفجرت، وبمعجزة لم أصب بأذى، وذات مرة. ألقيت قنبلة يدوية داخل سيارة

الجيب التي كنت فيها، ولحسن حظي لم تنفجر، وحينما ولد ابني أمير، علم مذيع صوت "فتح" بذلك، قبل أن يعلم الكثير من أصدقائي، وقال بصورة مهددة: كابتن يعقوب نحن نعرف أين تتنزه زوجتك بابنك أمير، وإذا لم تكف عن مطاردتنا، فسوف نفجر عربته، ونصفي زوجتك.

وفي أول إجازة، في أعقاب هذا التهديد اشتريت لزوجتي مسدسا، وطلبت منها أن تأخذه معها إلى كل مكان، وهذا ما فعلته حقا فترة طويلة.

اصطدمت في نابلس بظاهرة عمل النساء أيضا في مجال العمل المسلح، ورغم أنهن قلة، إلا أن العمل الذي كن يقمن به، لم يكن يقل أهمية عن عمل الرجال، ففي أحد أيام السبت هز المدينة صوت انفجار هائل، وارتفعت ألسنة النار المكسوة بسحب الدخان من البلدة القديمة، وحينما وصلنا إلى هناك وجدنا منزلين متجاورين قد انهارا، وسرعان ما علمنا أن المنزلين يعودان لعائلة أبو غزالة، وهي عائلة معروفة في نابلس، ولم يكن رب الأسرة موجودا في المنزل أثناء الانفجار فبحثنا عنه حتى عثرنا عليه، وأخذناه معنا إلى المستشفى، حيث كانت قوات الأمن قد نقلت إلى هناك أشلاء شخص ما، وعندما شاهد الأشلاء قال إنها أشلاء ابنته شادية، التي لم يكن يعرف حتى ذلك الحين أنها عضو في إحدى المنظمات الفلسطينية، لقد قتلت إبان إعدادها عبوة ناسفة كبيرة لتنفيذ عملية فيما نسميه (حادثة عمل).

ومنذ ذلك الحين، اصطدمت بالعديد من النسوة الفلسطينيات اللاتي عملن في إطار المنظمات، وكان القاسم المشترك بينهن، قدرة الصمود خلال التحقيق، والإصرار على آرائهن، والشعور بالفخار الوطني والثقة بعدالة نضالهن.

موشيه ديان سخر من الخطر

أيلول ١٩٦٨:

بدت نابلس عام ١٩٦٨ مدينة المتناقضات. ففي الوقت الذي كانت المنظمات تهدد باغتيالي. كنت أشارك في المناسبات التي يقيمها وجهاء المدينة والتي تشبه إلى حد كبير الصالونات السياسية، ولم يكن الحاضرون يبالون بكوني ضابط مخابرات.

كانت تلك اللقاءات تعقد في منزل ريموندا الطويل. إحدى النشيطات السياسيات-والتي أصبحت فيما بعد أم زوجة الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات-وكانت فدوى طوقان-التي كتبت قصيدتها المعروفة التي أعربت فيها عن توقها لأكل كبد جندي يهودي-تلقي على الحاضرين، في بعض هذه المناسبات، إحدى قصائدها. حول الاحتلال الصهيوني،وكنت أجري محادثات مطولة مع ريموندا، التي كانت تحتقر الصهيونية ولا ترى إمكانية للتعايش بين الشعبين. ورغم أننا لم نتمكن أبدا من التوصل إلى تفاهم حول أي قضية. إلا أن ذلك لم يمنعني من القول أنها امرأة ذكية ومحادثة لبقة ومثيرة، وكانت زياراتي لبيتها تجعلني أدرك الكثير حول المزاج السائد في أوساط الزعامة العربية في الضفة الغربية.

وكنت في بعض الأحيان. أزور فدوى طوقان. ولم أكن الإسرائيلي الوحيد الذي يفعل ذلك. فقد كان موشيه ديان عند كل جولة في منطقة نابلس يزور بيتها ويجري معها محادثات مطولة.

أشعر بالكثير من التقدير لموشيه ديان لكونه سياسيا محنكا، وعسكريا محترفا. ولا أذكر أنني فوتت تصريحا واحدا له. وكنت أؤمن بأنه الرجل القادر على خلق حل يؤدي في نهاية المطاف إلى السلام. وقد كان تعارفنا الأول في ظروف غير

عادية. عندما تلقينا استدعاء عاجلا من يهودا أربيل، قال لي فيه: "يوم السبت أريد أن تتواجد في مفترق طرق بيت إيل، الساعة السابعة والنصف صباحا، تعال وحدك ودون حراس. حيث ستقابل هناك موشيه ديان، وستسير معه أينما يأمرك".

وصلت إلى المكان قبل الموعد المحدد، وبقيت أنتظر في سيارتي، وفي تمام السابعة والنصف تماما توقفت سيارة خلف سيارتي، وترجل منها ديان، ونقر بأصابعه على زجاج سيارتي.

قفزت من السيارة شديد التأثر، وقلت بصورة رسمية: صباح الخير سيدي الوزير، فقال لي "سمني موشيه"، تعال وتعرف على الجماعة التي ترافقني" اتجهنا إلى سيارة ديان. فوجدنا امرأة شقراء جميلة، قدمت إلينا نفسها باسم راحيل-لقد قام ديان عام ١٩٧٢، وفي أعقاب طلاقه من زوجته (روت) بالزواج منها، لقد بدا الاثنان وكأنهما ذاهبان في نزهة، يوم سبت هادئ.

طلب مني ديان أن أدخل إلى سيارته، وقال لي أود الذهاب إلى "اسكاكا". الأمر الذي أشعرني بالقلق، فالاسم ليس غريبا علي، فأنا أعرف جيدا القرية الواقعة على طريق القدس نابلس على بعد قليل من مفترق طرق تفوح في قلب منطقة تعج "بالفدائيين".

كانت تلك المرحلة صعبة بصورة خاصة، فنابلس ملتهبة، والضفة الغربية ثائرة. والعمليات تتوالى بلا توقف، وكل سفر إلى "اسكاكا" دون حراسة عسكرية مكثفة. كان يعتبر بالنسبة لي عملا غير مسؤول، أما السفر إلى هناك في ظل الشروط التي أواجهها، ومع موشيه ديان، الذي أشرف على احتلال الضفة الغربية. فقد بدا لي الجنون بعينه، ليس هذا فقط بل إن الإسرائيلي البشع والكريه جدا في الضفة الغربية.

والـذي يعتـبر هدفـا يسـعى إليـه كـل عربـي، لم يكـن مسـلحا، حيـث لم يكـن بحوزتـي سـوى مسـدس ومخزنـي رصـاص.

تسـلحت بـالجرأة لأسـأله: مـا الـذي سـنفعله في "اسـكاكا"؟؟ قـال: سـنقوم بأعمـال حفريـات، وأدار السـيارة وبـدأ المسـير دون انتظـار لـردي.

وصلنـا إلى القريـة المذكـورة، في أقـل مـن سـاعة، وهـي قريـة صغـيرة لا يتجـاوز عـدد سـكانها أربعمائـة نسـمة، وعلـى غـرار القـرى الفلسـطينية البعيـدة والمعزولـة. لا يوجـد في القريـة مـاء أو كـهرباء، أمـا المجـاري، فتتدفـق في الطـرق الترابيـة.

كـان هنـاك الكثـير مـن القروييـن في الشـارع، فقـد اعتـادوا أن ينـاموا حـال حلـول المسـاء. ويسـتيقظوا مـع تباشـير الفجـر الأولى، لـذا كـان الوقـت الـذي وصلنـا فيـه القريـة. بمثابـة منتصـف النـهار، وسـرعان مـا أصبحنـا محـط الأنظـار.

أخـرج ديـان خارطـة، وقـال لي: اسـأل القرويـين أيـن وسـط القريـة. وحينمـا سـألتهم أشـاروا لي نحـوه. وقـد اتضـح لي أن هنـاك أشـخاصا يسـاعدون ديـان. وهـم يقومـون بالبحث عـن أمـاكن الحفريـات الأثريـة في الضفـة الغربيـة، وهـم الذيـن أرسـلوه إلى هنـا.

وجدنـا في وسـط القريـة. حفـرة تشـبه حفريـات مـهجورة، وقـد قـام ديـان بـإخراج أدوات العمـل مـن السـيارة. وقـال لي: انتبـه لراحيـل ونـزل إلى الحفـرة.

بـدأ عشـرات القرويـين الذيـن تعرفـوا عليـه. يتوافـدون إلى المكـان وهـم يقولـون: ها هو الوزيـر وأخـذوا يتجمعـون حـول الحفـرة في حـين بقيـت أنـا وراحيـل في السـيارة.

اختفـى ديـان عـن أعيننـا. الأمـر الـذي جعلـني أخشـى حـدوث كارثـة في كـل لحظـة. لـذا أنزلـت راحيـل مـن السـيارة، وأخـذت أشـق لهـا طريقـا وسـط القرويـين، ونزلنـا معـا إلى الحفـرة. وقـد أملـت أن لا يقـوم القرويـون بمهاجمـة المـرأة، أو مـهاجمتنا جميعـا.

بدأ ديان الحفر ببطيء وحذر وبرود، متجاهلا تماما الجماهير من حوله، ثم أخذ يخرج من الأرض قطعا أثرية من الفخار والزجاج جميلة المنظر بينما السكان يراقبونه بتأثر، وفي كل مرة يستخرج شيئا، كان ديان يلتفت إلينا قائلا "انظروا كم هو جميل". لقد بدا لنا أنه غارق في عالم آخر.

ولدهشتي البالغة، تصرف السكان بصورة مخالفة تماما لما توقعته، فقد جلب أحدهم كرسيا لراحيل، وقدم إلينا آخرون عصيرا وقهوة، وفواكه، ورغم ذلك، قررت عدم المخاطرة أكثر مما ينبغي، فاستدعيت حرس الحدود، وفي غضون دقائق معدودة، وضعت جميع القوات الإسرائيلية في المنطقة في حالة تأهب خوفا على حياة الوزير، وقد طلبت من القوة التي قدمت إلى المكان أن تتعامل مع الجماهير بصورة جيدة، وأن تكرس جهدها واهتمامها لحماية الوزير، والمكان،ومراقبة ما يحدث، بينما واصل ديان الحفر.

تلقيت فجأة نبأ مفاده، أن حمدي كنعان أعلن عن استقالته من رئاسة بلدية نابلس، الأمر الذي حدا بديان لوقف أعمال الحفر، وجمع معداته وما عثر عليه، والانطلاق بسيارته برفقة جيب حرس الحدود إلى منزل كنعان، وفي الطريق طلب ديان من سائقه عبر جهاز الاتصال أن يشتري هدية من الشوكولاته وما شابه، ويحضرها إلى منزل كنعان.

وفي منزل كنعان، استقبلنا بالحفاوة العربية التقليدية، وقد وجدنا هناك الحاكم العسكري لنابلس، المقدم تسفي عوفر- والذي قتل فيما بعد عندما ترأس دورية (خروب) في مواجهة مع المسلحين بالقرب من (معاليه أدوميم) بالقرب من طريق القدس أريحا.

كان اللقاء مع كنعان ذا أهمية خاصة على أرضية دعوة المنظمات في تلك الآونة للجماهير للعصيان المدني، وقد خشي ديان، أن تؤدي استقالة كنعان–والذي يعتبر أحد الشخصيات المقبولة جدا في الضفة الغربية– إلى سكب الزيت على النار، لذا سعى للحيلولة لإحباط هذه الخطوة بكل ثمن.

لقد شاهدت ديان في منزل كنعان لأول مرة، وهو يمارس العمل الدبلوماسي. كان ليّنا، وفي نفس الوقت متشددا جدا، محادثا لبقا وحاد الألفاظ، ولدهشتي، وجدت أن معرفته باللغة العربية أقل مما كنت أتوقع، فقد كان يتحدث الإنجليزية، ويدخل إليها كلمات عربية، أما كنعان فكان يتحدث هو الآخر بالإنجليزية ويمزجها بكلمات عربية. مما حدا بي للقيام بدور المترجم عند الضرورة.

تحدث ديان بصوت مقنع حول فرص العثور على حل سياسي للشعب الفلسطيني. وحول خطته الخاصة بتوسيع عبور الأشخاص والبضائع على نهر الأردن من الجانبين.

أصغى حمدي كنعان باهتمام كبير لأقوال ديان. ودعانا لتناول وجبة الغداء. بصحبة أبناء عائلته. واستجاب في نهاية المطاف لطلب ديان وتراجع عن استقالته.

حذاء طفل، وكتاب مزامير

خدمت في نابلس سنتين تقريبا. وتعرفت على كل شارع وزقاق. وكل سطح يرتبط بسطح آخر في البلدة القديمة، وكل طريق يؤدي إلى طريق آخر قد يستخدم في عمليات فرار الفدائيين،و كل حي: وكل قبر شيخ، وكل مجرى مائي. وغابة وحقل مهجور. إلى الدرجة التي أصبح بمقدوري التجوال ليلا في كل مكان بسهولة بالغة.

وأكثرت من الجلوس في المقاهي والتحدث مع الناس، وشاهدت الكراهية في عيونهم، بيد أنهم حرصوا دائما على القيام بواجب الضيافة على أكمل وجه، ولم يحاولوا المساس بي إبان جلوسي في أحد المقاهي، أو زيارتي لأحد المنازل الخاصة في نابلس.

وفي الأول من كانون الأول ١٩٦٩ ،عينني يهودا أربيل مسؤولا عن الجهاز في منطقتي طولكرم وجنين، وانتقلت للسكن في كيبوتس (عين حرود) القريب من مكان عملي أنا وأسرتي. وأصبحت مسؤولا عن ثمانية من ضباط الجهاز، -أربعة في كل لواء: طولكرم وجنين- وامتدت رقعة مسؤوليتي على مساحة واسعة من شمال الضفة الغربية.

وفي أعقاب فترة التنظيم والإعداد التي قمنا بها في الضفة الغربية، أصبح جهاز الأمن العام آلة ممتازة، تعمل بصورة منتظمة.

قامت إحدى الخلايا في أعقاب تسلمي مهام عملي، بمحاولة لإطلاق صواريخ كاتيوشا من قرية عبوش القريبة من طولكرم على مطار اللد، بيد أنها أخطأت التوجيه، مما جعل الصواريخ تصيب مدرسة ومستشفى في بيتح تكفا، وقد قمنا فورا بإجراء الحسابات اللازمة، وعرفت المكان الذي تم إطلاق الصواريخ منه، وهو يقع في منطقة شديدة الوعورة تمتلئ بالمغاور والدروب الضيقة وأماكن الاختباء، فسارعت إلى توظيف طائرة هليوكبتر، وتفتيش المكان فعثرنا على القواذف، ثم عثرنا على الفاعلين الذين كانوا في طريقهم إلى نهر الأردن، وعندما شاهدونا فروا باتجاه السياج الحدودي، بيد أنهم وقعوا في حقل ألغام، مما أدى إلى مقتل اثنين منهم، وإصابة اثنين آخرين بجراح، فأنزلنا الطائرة، واستدعينا قوة لإلقاء القبض عليهما.

كـان مسـؤول جـهاز الأمـن العـام في قلقيليـة (ميخـا) وهـو مـن أحـد الكيبوتسـات الواقعـة في وسط البـلاد، ومـزارع ممتـاز، وصـهيوني حتـى النخـاع.

وقـد سـاعد في صباه أعضـاء منظمـة "ليحـي" السـرية علـى معالجـة المتفجـرات، وفي أعقـاب حـرب ١٩٦٧ انضـم إلى جـهاز الأمـن العـام، وأصبـح أحـد ضبـاط المخـابرات البـارزين. وقـد أدت علاقاتـه الواسـعة، وعربيتـه المتمـيزة ذات اللهجـة البدويـة، وقدرتـه علـى التحبـب إلى الأشـخاص-إلى تمكينـه مـن الحصـول علـى معلومـات واسـعة، وتجنيـد عمـلاء متميزين، ممـا سـاعدنا في حـل الكثـير مـن الألغـاز المستعصية.

أعلمنـا أحـد عملائنـا ذات يـوم عـن قيـام خليـة مسـلحة بـالتخطيط لتنفيـذ عمليـة كبـيرة في كفـار سـابا، وقـد عثرنـا علـى أعضـاء الخليـة وألقينـا القبـض عليـهم، بيـد أننـا لم نعـثر علـى المتفجـرات، ونظـرا لأننـا كنـا في تلـك الآونـة قـد ألقينـا القبـض علـى العديـد مـن الخلايـا. واكتشـفنا كميـات كبـيرة مـن المتفجـرات والمخـازن، فقـد أصبحـت كـل كميـة متفجـرات مهمـة جـدا بالنسـبة لنـا وبالنسـبة للمسـلحين أيضـا، لـذا بـات مـن المـهم أن نعـثر علـى متفجـرات الخليـة آنفـة الذكـر، والـتي خبئـت لهـم في إحـدى بيـارات قلقيليـة في نقطـة (ميتـه) تحـول دون حـدوث اتصـال بـين أعضـاء الخليـة وأصحـاب المتفجـرات.

خـلال التحقيـق، قـال أعضـاء الخليـة أنـهم أعلمـوا بـأن المتفجـرات سـتدفن في بيـارة كبـيرة بـين سـطور أشـجار معينـة، ولم نعـرف أيـن تقـع هـذه البيـارة، ولم نرغـب في دفـع الجـرارات لاقتـلاع بيـارات بغيـة العثـور علـى المتفجـرات. فقـال "ميخـا" أنـه سـيتولى الأمـر، وتحـدث مـع القرويـين بلغتـهم، وسـألهم عـن عمـر الأشـجار الـتي سـتدفن المتفجـرات بـالقرب منـها، وطبيعـة ريـها. ومـا شـابه، ونجـح في قيادتنـا إلى المخبـأ. حيـث عثرنـا علـى كميات هائلـة مـن المتفجـرات.

وهنـاك محقـق آخـر هـو يعقـوب كوهـن، والـذي عرفـه الجميـع باسـم (يعقوبـا) وهـو مـن وحـدة المسـتعربين التابعـة لمنظمـة "البلمـاح"، وقـد قـرر، وهـو في سـن الأربعـين، الالتحاق بجهاز الأمـن العـام، وفي غضـون فـترة قصيرة، أصبح محققـا لا يشـق لـه غبـار.

كـان (يعقوبـا) يتحـدث العربيـة بطلاقـة، ورغـم أنـه كـان أكـبر المجموعـة الـتي أقودهـا سـنا، إلا أن سـنه لم تكـن عقبـة أمامـه في ممارسـة عملـه الصعـب، بـل ولم يحـل دون تطوعـه لتنفيـذ إحـدى المـهام الخطـرة جـدا في تلـك الآونـة.

وصلتنـا معلومـات تفيـد بـأن هنـاك خليـة قـد دخلـت إلى إسـرائيل بغيـة العمـل علـى إقامـة خلايـا جديـدة، وتنفيـذ عمليـات ضـد إسـرائيل، ولم تكـن المعلومـات الـتي بحوزتنـا كبـيرة، وكـل مـا عرفنـاه هـو أن بحـوزة الخليـة كميـة كبـيرة مـن الأسـلحة والمـواد المتفجـرة، وأن أعضاءهـا يتوجـهون إلى هـذه القريـة أو تلـك أثنـاء الليـل للتجـهز بالطعـام والمـاء والعلاجـات، ورغـم أنـا فعلنـا فـورا، جميـع مصادرنـا، في محاولـة للحصـول علـى أي خيـط، إلا أن محاولتنـا بـاءت بالفشـل، كـان الزمـن لا يعمـل لصالحنـا، فقـد كنـا نـدرك أن أعضـاء الخليـة في أوج اسـتعداداتهم لتنفيـذ العمليـات، وبالتـالي فـإن كـل تأخـير في إلقـاء القبـض عليهـم، قـد يكـون مصيريـا.

تدارسـنا الوضـع،وتوصلنـا إلى فكـرة تشـكيل خليـة وهميـة، تتحـرك في نفـس المنطقـة، علـى احتمـال أن تعـثر علـى الخليـة الـتي نطاردهـا، وأدركنـا أننـا نلعـب بالنـار، وأن تنفيـذ الفكـرة، يتطلـب وجـود أشـخاص محنكـين وقـائد فـولاذي،وقـد تطـوع يعقـوب للعمليـة دون أي تـردد.

ترددنـا طويـلا في السـماح لـه بذلـك،فقـد كنـا جميعـا أصغـر منـه سـنا بكثـير؛ وخشـينا مـن أخـذ هـذه المهمـة علـى عاتقنـا، بيـد أن يعقوبـا قـال ببسـاطة: "أنـا أكـثر

الأشخاص ملاءمة لهذه المهمة، وهذا هو الأمر الوحيد الذي يجب أن تأخذوه بعين الاعتبار" وفي نهاية المطاف استجبنا له، وبدأت أنا وهو في البحث عن أعضاء الخلية الوهمية، حيث كان يجب أن يتمتعوا بمزايا خاصة وأن يكونوا مقاتلين ممتازين، وقادرين على العمل في المنطقة في صورة (فدائيين) حقيقية بغية التغلب على شكوك القرويين الطبيعية، وقررنا أن نجند لهذه المهمة، أفضل ما لدينا، جنود دورية هيئة الأركان التي كان يرأسها آنذاك مناحم ديجلي، وبالتعاون مع يعقوبا، تم اختيار ثلاثة جنود ذوي هيئة وتقاطيع شرقية، ويجيدون اللغة العربية، ومطلعين على طبيعة تصرف القرويين، وزودناهم بالتجهيزات التي اعتاد الفدائيون التجهز بها، ملابس، وبنادق كلاشينكوف وكميات كبيرة من الذخيرة، وحملوا معهم أجهزة إرسال صغيرة لاستخدامها حين الحاجة، وأعطيناهم أغذية مماثلة للتي تحملها الخلايا الفدائية: أغذية محفوظة، من أنواع معينة، وجبنة عربية محلية، بل حتى الخبز كان مماثلا لخبز المنطقة، وأوعية مائية مشابهة أيضا.

طلبنا من (مخربينا) أن يختبئوا أثناء النهار، ويتوجهوا إلى القرى أثناء الليل ويدقوا على الأبواب، قائلين أنهم خلية أرسلت من الخارج، للعمل مع خلية أخرى، تم إرسالها، بيد أنهم لم يتمكنوا حتى الآن من الاتصال بها، لقد قررنا المخاطرة على اعتبار أن القرويين سيجدون صعوبة في التأكد من الحقيقة قبل وقت ما. الأمر الذي سيمنح (مخربينا) هامشا زمنيا معقولا للعمل، وأوصينا يعقوبا بأن يعمل على غرار الخلية الأخرى، وألا يخاطر بالدخول إلى مركز القرية، بل يكتفي بالمنازل الموجودة في أطرافها، على أن يعودوا كل ليلتين إلى المنازل التي دقوا أبوابها على أمل

أن يكـون أحـد القرويـين قـد عـثر علـى الخليـة الحقيقيـة، وأعلـم أعضاءهـا بـأن هنــاك خليــة تبحث عنــهم، وتلقـى منــها الأوامـر.

المطران كبوشي

نظرا لأننا لم نستطع تزويد (مخربينا)، بخارطة فقد اضطروا لحفظ المنطقة عن ظهر قلب، والتعرف على كل موقع ومكان فيها، وعندما بدأت العملية، توجهوا إلى المكان الموعود، وبدأوا يدقون على أبواب القرى، وقد تم استقبالهم في جميع المنازل بالترحاب، ومنحوا الطعام والماء الذي طلبوه، بيد أن (مخربينا) لم يتمكنوا من استخلاص أي معلومات من القرويين حول الخلية الحقيقية.

حرصت دائما خلال عملي على عدم التدخل في العمل الميداني الموكل إلى الآخرين،فقائد العملية هو الذي يتحمل كامل المسؤولية عن إنجاحها وإعادة جنوده سالمين، لذا اتخذت لي موقعا في جبل جرزيم واستخدمت أجهزة رقابة حساسة جدا، لالتقاط أي أنباء من (مخربينا)، مدركا أن الأمر يحتاج إلى وقت طويل.

بعد مضي الليلة الثانية دون جدوى، أخذت تسري في قيادة الجهاز معالم العصبية، وبدا أن رئيسي يهوا أربيل، يعتقد، أنني أعرض حياة الرجال للخطر دون جدوى. وكنا نتوجه إلى المنطقة بسيارة عربية، فيأتون إلينا ويعلموننا بما يحدث، ولم يكن هناك الكثير مما يمكن إعلامنا به.

قام أعضاء الخلية، بدورهم، على أكمل وجه، ووضعوا البذور، وبقينا بانتظار الحصاد، كان الوضع صعبا. اختباء طيلة النهار، والتأقلم مع الواقع، وعدم الاستحمام أو الحفاظ على الحد الأدنى من النظافة، وتناول الطعام بصورة سريعة وغير جيدة، كل ذلك، كان يتطلب أشخاصا غير عاديين.

وفي الليلة الرابعة، حدث الاتصال، فخلال زيارة (مخربينا) لأحد المنازل. قال لهم رب البيت أنه عثر على الخلية الحقيقية، وأعلم أعضاءها بأن هناك خلية تبحث عنهم، وأعضاءها يرغبون في الاجتماع بكم في الساعة الثالثة بعد ظهر الغد: وحدد مكان اللقاء-بستان معزول في المنطقة، وأعلم يعقوبه بعلامة للتعارف قالها له قائد الخلية.

وتحت جنح الظلام، أرسلنا وحدة مختارة إلى المكان للقاء الخلية، وتخليص (مخربينا) إذا ما حدث مالا تحمد عقباه، وقد قام الجنود بحفر خنادق عميقة، وقبل بزوغ الفجر، كانوا قد تمترسوا فيها، لقد كانت مواقعهم مموهة بصورة جيدة، إلى الدرجة التي لم يلاحظها، القرويون الذين توجهوا إلى حقولهم في الصباح.

وضعنا طائرة هليوكبتر على أهبة الاستعداد، وجلسنا بالانتظار. ولم نكن نرى شيئا من موقعنا في جبل جرزيم، بيد أن يعقوبه فتح جهاز إرساله، وأعلمنا بأنه يرى أعضاء الخلية الحقيقية يقتربون، كانوا أربعة أشخاص، وكل واحد منهم يسير على بعد كبير جدا من الآخر، وسمعنا في جهاز الإرسال يعقوبه وهو يصرخ بعلامة اللقاء، فيرد عليه رئيس الخلية الحقيقية بنفس النداء.

سار يعقوبه على رأس جنوده، فيما توجه إليه الفدائيون وراء قائدهم، وعندما التقوا، جلسوا جميعا وأشعلوا السجائر.

تحدث يعقوبه عن نفسه وعن قريته العربية، وقال أن لديه معلومات وأوامر للخلية موجودة في حقيبة أخفاها على بعد قليل، وقد رد عليه قائد الخلية بشيء ما، لم نستطع التقاطه في جهاز الإرسال، وفجأة سمعنا صوت إطلاق نار شديد. ومعركة تدور. حتى صمت جهاز الإرسال.

أمـرت الطـائرة بالتوجـه إلى المكـان، وقـد أحسسـت ببـوادر الشـر في نفسـي، وركبـت سيارتي الجيـب وطـرت إلى المكـان، وهنـاك وجـدت الفدائيـين الأربعـة قتلـى، ويـد يعقوبـه تـنزف دمـا جـراء إصابتـه برصاصـة في اصبعـه، وقـال لي يعقوبـه: إن قـائد الخليـة نظـر إلي فجـأة بشك، ودون أي سبب يذكـر، اسـتل مسدسـه وأطلـق علـي النـار، وحينـها قفز الجنـود مـن مخابئـهم وقتلوا أعضـاء الخليـة الأربعـة.

وصـل يـهودا أربيـل إلى المنطقـة بعـدي فـورا، وحملـني مسـؤولية إصابـة يعقوبـه بـالجرح وأطلـق صرخـة تـأثر، ووقفنـا جميعـا هنـاك مبتسـمين، في حـين انفجـر يعقوبـه ضاحكـا.

هـدأ أربيـل بعـد لحظـات، وأدرك أن العمليـة تكللـت، في نهايـة المطـاف، بالنجـاح التـام، رغـم إصابـة إصبـع القـائد، الـتي تمـت معالجتـها، بيـد أنـها بقيـت واقفـة دائمـا دون إمكانيـة لثنيـها.

كـان يعقوبـه يسـتحق وسـاما لجرأتـه، بيـد أن الجـهاز لم يكـن يمنـح أوسمـة، وكـل مـا في الأمـر، هـو أنـه ورجـال خليتـه حصلـوا علـى رسـائل شـخصية مـن رئيـس الجـهاز، أثنـى فيـها علـى مسـاهمتهم في تصفيـة الخليـة الخطـرة.

كـان العمـل في تلـك الفـترة في الضفـة الغربيـة وغـزة صعبـا للغايـة، وكنـا نـدرك أن مـن المحتمـل أن تنصـب لنـا الكمـائن، في كـل شـارع، أو منحنـى طريـق، وقـد أحبطنـا آلاف العمليـات مـن هـذا القبيـل، بيـد أنـه لم يكـن بمقدورنـا أبـدا، منعـها جميعـا، وسـاعدتني حاستي السادسـة في الكثـير مـن الحـالات الـتي لم نكـن نتلقـى فيـها معلومـات مسبقة.

سـافرت ذات ليلـة، بصحبـة مظِليـين مسـلحين، لالتقـاء عميـل في مخيـم اللاجئـين "عـين بيـت المـاء"، الواقـع علـى المدخـل الغربـي لنـابلس، وعندمـا اجتزنـا إحـدى الطرقـات

الضيقة، شاهدت عدة أشباح يحملون شيئا ما في أيديهم، ويفرون أمامنا. بيد أن حاستي السادسة جعلتني آمر بوقف السيارة فورا، وأرسلت المظليين لتمشيط المنطقة. بينما خرجت أنا من السيارة، وفجأة سمعت طرقة ما، وشاهدت قنبلة تسقط فوق السيارة، بيد أنها ولحسن حظي لم تنفجر.

ومرة أخرى، صحبت يهودا أربيل في قافلة مؤلفة من خمس سيارات عسكرية، لإلقاء القبض على مطلوب في الخليل، وفي منتصف الطريق أعلمت أربيل باللاسلكي أن لدي هاجسا سيئا بشأن هذه الرحلة، كان ذلك يبدو وقاحة مني. فقد كنت مجرد ضابط صغير قليل الخبرة، في حين كان أربيل أحد كبار ضباط المخابرات. وقد أوقف سيارته، وصرخ قائلا: إنني أعرقل العملية بسبب هستيريا غير مفهومة تتملكني، فأعلمته بهاجسي، وتوسلت إليه أن يتأكد من ذلك، فأمر ناقلتي الجنود المدرعتين المصاحبتين لنا بالتقدم وتمشيط الطريق، ولم تمض سوى دقائق معدودة حتى سمعنا صوت انفجار، وفتحت نيران شديدة على المدرعتين، بيد أنها لم تصب أحدا بأذى.

لقد طورت نظرية لنفسي، فيما بعد، تفيد بأن أفضل الفرص لعدم اصطدامنا بكمائن، هي الفرصة التي نسير فيها بسيارة وحيدة ودون حراسة، والسبب في ذلك، يرجع إلى أنني أدركت أن الخلايا المسلحة، تفضل التأكد من الهدف أولا، وفيما إذا كان هدفا عسكريا أم مدنيا، وقوافل السيارات تسهل عليهم هذا التشخيص. لذا، فضلت، فيما بعد، أن أسافر في سيارة وحيدة، تحت جنح الظلام وفي شوارع بعيدة ومعزولة، رغم أنني أدرك أن هذا التصرف يتعارض مع الإجراءات الأمنية التي يصر عليها جهاز الأمن العام، وقد أثبتت نظريتي مصداقيتها.

وإضافة إلى حاستي السادسة، زودت نفسي بوسائل أمنية لم تخيب رجائي أبدا، فأول حذاء اشتريته لابنتي طل-لا زال معلقا في سيارتي كتعويذة ضد عين الشر، إضافة إلى كتاب المزامير الذي أهداه إلي أحد المتدينين ذات يوم، والذي حملته معي ولم يفارقني أبدا، حتى يومنا هذا، حيث أحفظه في حافظتي الشخصية.

الشيطان مجسدا

رقاني يهودا أربيل، في آذار ١٩٧٢ إلى وظيفة رئيس شعبة إحباط المؤامرات السياسية في منطقة القدس والضفة الغربية، وتمركزت في قيادة الجهاز في القدس، وكانت أولى المهام الموكلة إلي هي العثور على جهاز تحرير وطباعة جريدة الشيوعيين "الوطن" الصادرة في الضفة الغربية.

كان الحزب الشيوعي الفلسطيني، في تلك الآونة، مرتبطا بالحزب الشيوعي في الأردن، وجريدته تعص بالتحريض ضد إسرائيل، وتوزع فقط على المشتركين، ومثلما هي الحال مع الحزب الشيوعي، كانت جريدته سرية للغاية، ويستحيل تعقبها ومعرفة وكرها.

وعندما تمكنا، بعد جهد جهيد، من العثور على طاقم التوزيع، اكتشفنا أن هذا الطاقم، لا يعرف شيئا عن مصدر التحرير والطباعة، بذلنا جهودا مضنية لمعرفة مصدر الورق والطباعة والتجهيزات، بيد أن جميع تلك الجهود ذهبت أدراج الرياح.

وقد تواصلت هذه الجهود، حتى مطلع الثمانينات عندما أصبحت قائدا للضفة الغربية والقدس وحينها فقط، وبفضل عمل دؤوب ومنهجي ومقارنة المعلومات، تمكنا من اكتشاف مكان الطباعة والتحرير في قبو أحد المنازل الخاصة، في بلدة الرام القريبة من القدس، ومنذ تلك اللحظة توقفت الجريدة عن الصدور.

وعندما تسلمت وظيفتي كرئيس لشعبة إحباط المؤامرات السياسية، توقفت عن العمل الميداني، وأصبحت أعمل بصورة أوسع في مجال تحليل الوضع. ومتابعة التطورات السياسية، في المنطقة، وتبلور التنظيمات بمختلف أنواعها.

واجتمعت بالعديد من الشخصيات لسماع وجهات نظرها، ومن ضمنها عبد الرؤوف الفارس عضو البرلمان الأردني السابق، الذي كان يسكن في قرية طلوزة. وعندما تقابلنا لأول مرة كان يقوم بإجراءات الاستقالة من منصبه.

كان تدخل الفارس في السياسات الداخلية في الضفة الغربية واسعا، إضافة إلى شبكة العلاقات الواسعة على الصعيدين السياسي والاقتصادي التي كان يقيمها مع كبار الشخصيات الفلسطينية، وقد جلست معه مطولا لسماع آرائه وتقديراته. وكرست أيضا وقتا طويلا للاجتماع بشخصيات فلسطينية أخرى، والتي زودتني بصورة وضع أمينة وحديثة.

شعرت ذات يوم، وأنا في منزلي، في عين حرود، بأنني متوعك، ولست على ما يرام، فتناولت قرصين لتخفيف آلامي، وفي طريقي إلى مكتبي أخذت معي متطوعتين سويديتين من الكيبوتس، كانتا تريدان الوصول إلى مكان ما، وفي الطريق فعل القرصان فعلهما، وشعرت بضباب شديد يغطي رؤيتي، ودون أن أشعر نمت على مقود السيارة عندما وصلت إلى أحد المنعطفات المتجهة إلى رام الله، فاصطدمت بسيارة تاكسي فلسطينية، مما جعل المتطوعتين تطيران من السيارة إلى الخارج، وأصيبتا بجراح طفيفة. أما أنا فبقيت سجينا بين حطام السيارة، وفقدت الوعي، وشاء حسن طالعي، أن تمر بالقرب من المكان، سيارة أحد زملائي، الذي سارع إلى استدعاء الإسعاف، التي نقلتني إلى المستشفى.

وحينما فحصني الأطباء، قرروا أن إصابتي خطيرة جدا، ولا أمل في بقائي على قيد الحياة، بيد أن الآلام الفظيعة التي عانيتها لم تترك لي أي فرصة للهدوء، وأجريت لي العديد من العمليات الجراحية، وبدا للأطباء أن لا مناص من بتر إحدى ساقي، وقرروا إجراء العملية على وجه السرعة، بيد أنهم غيروا قرارهم لسبب لا أدريه في اللحظات الأخيرة.

بقيت أسير (الجبس) سنة كاملة، وتماثلت ساقي للشفاء، رغم أنه بدا واضحا أنها لن تعود لطبيعتها إلى الأبد، وأنني سأبقي معوقا، وهذا ما حدث فعلا، وعندما غادرت المستشفى قرروا لي عجزا بنسبة ٥٠٪ إلى الأبد.

جهاز الأمن العام، ليس معتادا على منح ضباطه إجازات طويلة، إلى هذا الحد، لذا، فحتى عندما كنت لا أزال في المستشفى رهين الجبس، كانوا يحضرون لي أوراق العمل إلى هناك، فقد أدخلوا إلى غرفتي مثلا الطيار الليبي، الذي أصيب بجراح عندما اعترضت طائرته طائرات سلاح الجو الإسرائيلي وأرغمته على الهبوط في سيناء. ولم يكن يعرف من أنا، وعلي أن استجوبه كي أعرف ما إذا كان قد قال الحقيقة عندما زعم أنه دخل المجال الجوي الإسرائيلي خطأ.

لم يكن الأمر سهلا، فقد كان الطيار ابن السابعة والثلاثين يعاني من حروق في جميع أنحاء جسمه، وكان يتمتم بكلمات غير مفهومة، بيد أنه أصر على أنه دخل المجال الجوي الإسرائيلي خطأ، ثم كانوا يجلبون إلى غرفتي (فدائيين) جرحى كي أسمع منهم ما لم يقولونه في التحقيق.

وفي كانون الثاني ١٩٧٣، وعندما ازدادت آلامي بصورة رهيبة، ولم تفد جميع العلاجات في تخفيفها، أخبروني بمقتل صديقي الحميم باروخ كوهن في مدريد،

لقد شعرت أنني أصبت بصاعقة، فقد كان باروخ ذكيا وماكرا جدا، ولم أكن أتصور أن شخصا ما يمكن أن يخدعه.

لقد قتل باروخ في وضح النهار، وأفادت جريدة إسبانية، أنه شوهد قبل دقائق يتحدث مع قاتله، الذي أطلق عليه النار من مسدس كاتم للصوت، وفر بعد أن أصاب عابر طريق إسبانيا بجراح طفيفة، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة قال باروخ، "لقد كان فلسطينيا".

وذات يوم، زارني قائد اللواء اسحق، وقال لي: ما رأيك في أن تصبح رئيس شعبة إحباط الإرهاب". كان هذا الاقتراح يرفعني درجة، بيد أنه بدا اقتراحا مجنونا تماما. فقد كنت شبه إنسان، ولا أزن أكثر من خمسين كيلوغراما، ولا أستطيع التحرك تقريبا، فكيف سأستطيع ممارسة هذا العمل، لكن اسحق كان أحد الرجال القادرين على إقناع الشخص بكل ما يريده.

استغرق مني عملي الجديد في القدس غالبية وقتي. ميدانيا وفي المكتب، ولم أكن أذهب إلى بيتي إلا في فترات متباعدة، وما أكاد أنهي عملي حتى ألقي حشية على الأرض في مكتبي واستغرق في نوم عميق.

كان الحديث في تلك الآونة مطولا حول المطران هلاريون كبوتشي رئيس الكنيسة اليونانية الكاثوليكية في القدس منذ عام ١٩٦٥.

ولد كبوشي في سورية عام ١٩٢٢، وهو رجل وسيم يميل إلى الصلع قليلا، قوي البنية، وذو ذقن سوداء كالفحم، وقد اعتاد أولئك الذين يعرفونه أن يسموه "شيطان في عباءة". نظرا لأنه كان يرتدي عباءات فاخرة جدا، وعرفنا أنه محادث لبق، وذكي، وماكر، وأنه لم يزهد في ملذات الحياة بوصفه مطرانا.

وفي أحد الأيام، قدم شكوى للشرطة قائلا: إن سرقة حدثت في منزله، وأن اللصوص سرقوا خمسين ألف دولار. وعندما وصل المحققون إلى منزله ألغى-لدهشتهم الشكوى وقد أثارت هذه المسلكية شكوكهم.

ويبدو أنه كان يزعم، في البداية الإدعاء بأن المبلغ سرق منه، لكن عندما بدأ التحقيق، ساورته مخاوف من أن يكتشف المحققون الحقيقة، لذا عمد إلى إلغاء الشكوى.

ولم يكن كبوشي، أيضا، يتورع عن تهريب الذهب والمشروبات الروحية والسجائر وبضائع أخرى، والتي كانت تدر على كنيسته مبالغ لا بأس بها، خصوصا، وأن الفاتيكان، كان قد طلب منا، أن نسمح بتنقل رجال الدين المسيحي من الدول العربية إلى إسرائيل وبالعكس دون إجراء تفتيش لهم أو لسياراتهم.

ورغم أن جهاز الأمن العام رفض هذا الطلب بدعوى أن المنظمات قد تستغل هذه الثغرة، لصالحها، إلا أن الحكومة لم تكن ترغب في قلقلة علاقاتها مع العالم المسيحي ورفضت موقف جهاز الأمن العام.

ويقول رجال الجمارك والتفتيش على جسر الملك حسين الذي كان المطران كبوشي يعبره، إن تصرفاته كانت تختلف عن تصرفات رجال الدين المسيحي الآخرين، الذين كانوا يجلسون في سياراتهم في المقعد الخلفي، دون أن ينبسوا ببنت شفة، حتى مرورهم، أما هو، فكان يترجل من السيارة، مبتسما، هاشا باشا، ويصافح الجميع ويتحدث إليهم، ويوزع عليهم السجائر والحلوى، الأمر الذي أثار شكوك ضباط الجمارك والتفتيش، بيد أن أيديهم كانت مكبلة بالقرار الحكومي.

سكن كبوشي في منزل فاخر محاط بحديقة كبيرة في بيت حنينا على حدود الحي اليهودي (النبي يعقوب)، وقد اعتاد إقامة حفلات كوكتيل، وكان يستضيف خلال هذه الحفلات، كبار الشخصيات والوجهاء الفلسطينيين وكبار الشخصيات المسيحية وشخصيات إسرائيلية معروفة، ونظرا لعلاقاته الوطيدة مع الإسرائيليين اتهمته أوساط عربية، بالتعاون مع إسرائيل رغم أنه لا أساس من الصحة لهذه التهم.

ولم يكن كبوشي يخفي تعاطفه مع القضية الفلسطينية، وكان يتحدث علنا ضد الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية، وبادر إلى تنظيم مسيرات، بل ووقع على عريضة شجب لإسرائيل في أعقاب وفاة الرئيس المصري، جمال عبد الناصر، ونقل أموالا إلى العائلات الفلسطينية التي قتل أبناؤها في الصدامات مع الإسرائيليين، وأطلق فكرة تشكيل لجنة عليا سرية، لتنظيم مقاومة شاملة للاحتلال، وأيد فرض حظر على فلسطينيي الضفة الغربية العمل في إسرائيل، واعتاد القول: "من الأفضل للعربي أن يعيش الفقر على أن يخدم إسرائيل".

وفي السادس من آب ١٩٧٤، تلقيت مكالمة عاجلة من رئيس جهاز الأمن العام في القدس، حيث قال لي: "نحن نجلس الآن مع (توران)-تعال بسرعة". ومن الجدير بالذكر أن (توران) كان اللقب الرمزي (لعميل مرسل)، وأعني (بالعميل المرسل) هو العميل الذي نرسله للعمل في إحدى المنظمات في لبنان أو سورية بغية جمع معلومات وتزويدنا بها".

كان (توران) يعمل مدرسا، ويسكن في جبل المكبر، وكي نكسبه ثقة (فتح) ألصقنا به عمليتين لا علاقة لهما بالمنظمات: حريق شب بالقرب من مصنع للورق في منطقة (رومانا)، وعبوة ناسفة انفجرت بجوار منزل نائب رئيس شعبة ضريبة

الدخل، وقد زودناه بتفاصيل وافية عن العمليتين وأرسلناه إلى بيروت، فتقابل مع قائد القطاع الغربي لحركة "فتح" أبو فراس، وأعلمه أنه هو الذي أضرم النار في مصنع الورق، ووضع العبوة بالقرب من منزل نائب مدير ضريبة الدخل، ومن الجدير بالذكر، أن أبو فراس، هو مصطفى اللفتاوي-من مواليد القدس، ويعمل حاليا محافظا لرام الله.

وقد عرف، في تلك الآونة، بأنه أحد كبار الفدائيين الجريئين والأذكياء، وقد نجح في تجنيد عملاء، وأدخل معدات حربية إلى الضفة الغربية من الأردن وسورية ولبنان، ومن ضمنها عبر شخصيات من الأمم المتحدة ومطارنة-ووقف خلف العديد من العمليات الخطيرة، وقد بدت عملية مواجهته بمثابة حرب عقول وكنت أنا وهو نقف على جانبي المتراس، فقد كان هدفه تهريب أسلحة ومواد تفجيرية إلى الضفة الغربية، وكان هدفي منعه من ذلك، كان عليه بناء خلايا مسلحة في القدس والضفة الغربية وتفعيلها، وكان علي تصفية هذه الخلايا.

وقد سجلنا في تلك الآونة لصالحنا نجاحا كبيرا: حيث نجحنا في اكتشاف غالبية الأساليب التي يستخدمها أبو فراس لإدخال الأسلحة والمواد العسكرية إلى الضفة، وإحباط عمليات كان يخطط لها، وألقينا القبض على الجهات التي أدخلت هذه الأسلحة.

وإزاء هذا الوضع، أخذ يعاني من عجز شبه تام في المواد العسكرية العادية، مما اضطر نشطاء حركة فتح للنزوع نحو صناعتها يدويا، وهو الأمر الذي كان يحتاج إلى خبرة كبيرة، لم تكن متوفرة دائما، مما جعلهم ينزعون نحو المخاطرة بشراء مواد

متفجرة خام من السوق الحرة، أضف إلى ذلك أن العبوات المصنعة يدويا. كانت في أغلبية الحالات بدائية، وألحقت أضرارا أقل في حالات الانفجار.

لم يعتد أبو فراس تصديق روايات كالتي زودنا بها (توران)، بيد أنه هذه المرة صدقها، وأبدى إعجابه بعملياته، وجنده لحركة فتح. وقد تمكن (توران) من تزويدنا بمعلومات موثوقة حول نشاطات المنظمات، لكن هذه المعلومات لم تكن أبدا معلومات ذات أهمية خاصة، ورغم ذلك طلبت من سكرتيرتي إرجاء أو إلغاء بعض المواعيد التي ارتبطت بها، وتوجهت إلى مكان اللقاء لسماع ما يود قوله.

جرى اللقاء في منزل والدة أحد ضباط الجهاز، في مداخل القدس، وفي إحدى الغرف وجدته يجلس بصحبة اثنين من الجهاز، هما: مسؤول اللواء روني، والمسؤول الميداني شلومو. ورغم أنه لم يكن يعرف من أنا، إلا أنه استنتج أنني أحد الذين يشغلون منصبا كبيرا في الجهاز، وقد طلب منه الاثنان أن يعيد على مسامعي ما قاله لهما، فقال: إنه عاد من دمشق، حيث اجتمع هناك مع أبو فراس. الذي أخذه إلى (مرآب) في إحدى ضواحي المدينة. بيد أن المرآب كان مغلقا، فدخل الاثنان من فتحة جانبية. فوجد فيها سيارة مرسيدس حديثة، وعمالا يقومون بتفكيكها.

وقد أمر أبو فراس "توران" بمتابعة ما يحدث، ومعرفة كل صغيرة وكبيرة مما يفعلون. وقال له: "هذه السيارة ستتوجه إلى القدس بعد أن تخبئ فيها أسلحة وذخائر. وعندما تصل السيارة إلى القدس يجب عليك تفكيكها وأخذ الأسلحة والذخائر، وتوزيعها على رجالنا هناك، وسوف تتلقى تعليمات لاحقة بهذا الصدد". وقد بقي (توران) ثلاثة أيام في المرآب. وتابع عملية تخبئة الأسلحة في السيارة. والتي

ضمت مئات الصواعق والمواد المتفجرة البلاستية، ومربعات (تي ان تي) وأجهزة توقيت. وبنادق وذخائر.

ولدهشتنا البالغة، كشف (توران) النقاب لنا عن أن السيارة تخص المطران كبوشي. وأنها ستصل إلى القدس غدا، ورغم أن المعلومة كانت مذهلة، إلا أن أيا منا لم يطرف له جفن. وحافظنا على تقاطيع وجه لا مبالية، وكأننا سمعنا حدثا من العديد من الأحداث الأخرى التي تقوم بها فتح، فالتعليمات تؤكد ضرورة أن لا يبدي ضابط المخابرات إعجابه غير العادي بأي شيء يفعله العميل.

أما بشأن الأحداث التي وقعت في أعقاب هذا النبأ، فقد كتبت عنها في يومياتي ما يلي:

"أجرينا سلسلة من المشاورات العاجلة بمشاركة شخصيات رفيعة من قيادتنا في تل أبيب. وسارع رئيس الجهاز هرملين بنقل تقرير مفصل لرئيس الحكومة، اسحق رابين. الذي أراد التأكد من أن القصة حقيقية والمعلومات دقيقة، وحذر من أن اعتقال كبوشي وتفتيشه دون العثور على شيء معه، سيؤدي إلى أزمة سياسية حادة. بيد أن هرملين أقنعه بأن المعلومات مؤكدة، فاستدعى اسحق رابين وزير الخارجية ايغال ألون، ووزير الدفاع شمعون بيرس ووزير العدل حاييم تصادوق، لمناقشة المغزى السياسي المحتمل لاعتقال رجل دين رفيع المستوى، وفي نهاية المطاف، تلقينا أمرا باعتقال كبوشي شريطة أن يتم العثور بحوزته حقا على الأسلحة والذخائر.

اجتاز كبوشي جسر الملك حسين في السابع من آب دون أي مشاكل، وواصل طريقه إلى البلدة القديمة، وأوقف سيارته بجوار الكنيسة اليونانية الكاثوليكية.

"أرسلنا ضابطي مخابرات-رجلا وامرأة- إلى القدس على أنهما سائحان. وقد أخذا يلتقطان صورا لبعضهما البعض بجوار الكنيسة، مع الحرص على التقاط صورة للسيارة، لقد كنا نشتبه دائما بأن كبوشي يعمل في مجال التهريب. وكنا نلاحظ أن مؤخرة سيارته تبدو في كل مرة يعود فيها من الخارج. هابطة نحو الأرض بسبب امتلائها بالمواد المهربة، وعندما تسلمنا الصور، بدت مؤخرة السيارة أيضا منخفضة.

"وضعنا رقابة حول الكنيسة، وفي صبيحة اليوم التالي. أعلمنا المراقبون أن كبوشي استقل سيارته واتجه بها إلى رام الله فقررنا المخاطرة باعتقاله. وقامت سيارة مخابرات باعتراض سيارته على طريق القدس رام الله، وتوجه إليه رجال المخابرات على أنهم رجال شرطة يرتدون ملابس مدنية، وقالوا له أنه كان يسير بسرعة غير مسموح بها. وطلبوا أن يروا أوراقه وأوراق السيارة. وخلال ذلك قام أحدهم بفتح أبواب السيارة وإغلاقها. وابتعد قليلا وقال بجهاز الإرسال أن الأبواب ثقيلة للغاية. فأصدرنا الأمر: "اعتقلوه".

نقل كبوشي وسيارته إلى مرآب الشرطة في المسكوبية. بعد أن أخليناه من السيارات والأشخاص. وحرصنا تماما على عدم إشاعة أي شيء حول اعتقاله. في هذه المرحلة.

بدا وجه كبوشي جامدا. لكنني تنبهت إلى أن يديه كانتا ترتجفان عندما حاول إشعال سيجارة. وعندما شاهد الاستعدادات الجارية لتفكيك السيارة. بقي وجهه أيضا محافظا على جموده. بيد أنه لم ينجح في الكلام حينما عرضت عليه سيجارة. فقلت له: عندما ننتهي من معالجة سيارتك سنسمح لك بقول كل ما تريد. فأزاح وجهه عني وبدأ في تلاوة صلاة قصيرة.

ليس من الصعب تخيل ما هية الكارثة الوطنية التي كانت ستحل بنا لو لم يتم اكتشاف كبوشي والأسلحة التي هربها، واكتشاف الأشخاص الذين كانوا على صلة به، ولست أفهم، حتى الآن، المفارقة القائمة في أن يعمد رجل دين كان يفترض أن يبذل قصارى جهده للحيلولة دون سفك الدماء-للتعاون مع الفدائيين الذين لا هم لهم سوى إراقة الدماء وزرع الموت.

استغرقت عملية تفكيك سيارة كبوشي أربع ساعات ونصف الساعة، وقد أزلنا خلال هذا الوقت جميع القطع من أماكنها، وكومنا قطع السلاح والذخائر التي أخرجناها رويدا رويدا على الأرض، في الوقت الذي جلس فيه رئيس جهاز الأمن العام طيلة ذلك الوقت في مكاتب الشرطة في أحد المباني القريبة بانتظار انتهاء المهمة.

"كان اكتشاف كبوشي، ودوره في عملية التهريب مهما بالنسبة لنا، بيد أن معرفة الجهة التي كانت الأسلحة ستذهب إليها أكثر أهمية، خصوصا وأن جميع الدلائل تشير، إلى أنها ليست المرة الأولى التي يهرب فيها كبوشي معدات حربية موجهة إلى الخلايا، وقد أجرى التحقيق مع كبوشي فيكتور كوهن رئيس طاقم التحقيقات في جهاز الأمن العام.

حاول كبوشي في البداية التظاهر بأنه لا علم له بأي شيء، وأنه وضع سيارته في مرآب في دمشق، ولا يدري ما فعلوه بها، وعندها قلت له أن الأسلحة موجهة لقتل أبرياء، وإنني أعتقد أن كبوشي لا يساعد حركة "فتح" من أجل المال، ولربما أنه فعل ذلك كي يبدي تعاطفه مع النضال الفلسطيني والحيلولة دون الإلحاحات الموجهة إليه، بسبب علاقاته مع الإسرائيليين.

وفي مرحلة معينة من التحقيق اعترف كبوشي أنه نقل إرساليات سلاح بناء على توجيهات أبو فراس، وأنه هرب أسلحة قبل ذلك وحصل على مقابل نقدي.

وبتوصية من رئيس الحكومة، وجميع الجهات ذات العلاقة، قررنا تحويل كبوشي لفترة قصيرة، إلى عميل لنا بغية إلقاء القبض على أولئك الذين كانت الأسلحة موجهة إليهم، وقد عرضنا ذلك على كبوشي، وأعتقد أنه وافق على أمل أن تكتفي الحكومة بطرده من إسرائيل أو على الأقل أخذ ذلك بعين الاعتبار إبان محاكمته.

لقد أشرت خلال محاكمته أمام القضاء، إلى تعاونه معنا،بيد أن المطران لم يكتف بذلك، وادعى بإصرار، أننا وعدناه بألا نقدم ضده لائحة اتهام، إذا ما ساعدنا. بيد أنني نفيت ذلك بشدة.

بعد موافقته على مساعدتنا، أعددنا له رواية تغطية خشية أن يكون أحد معارفه قد شاهده، حينما أحضرناه إلى المسكوبية، أو إذا ما شاع نبأ اعتقاله، وطلبنا منه أن يقول أنه استدعي للتحقيق لأن رجال الجمارك على الحدود قالوا إن أبواب سيارته بدت لهم ثقيلة أكثر من اللازم، مما أثار شكوكا بأنه هرب مشروبات روحية.

وفي نفس اليوم، أطلقنا سراح كبوشي وسيارته بعد أن أعدنا تركيبها دون أن نترك أي دلالات تشير إلى أننا فككناها، وعندما عاد إلى منزله. اتضح مدى أهمية رواية التغطية التي أعددناها له. فقد توجه إليه عدد من معارفه وسألوه عما أرادته الشرطة منه، فروى لهم الرواية التي طلبنا منه روايتها، وزاد عليها بقوله: "لقد سخرت منهم. وصدقوا أن سيارتي كانت مليئة بالكتب المقدسة".

"استخدمنا كبوشي لعدة أيام. وكنت أنا ورئيس الشعبة العربية في الجهاز. نجتمع به سرا في قرية قريبة من القدس، خلف البيت المسمى (البيت الأحمر). قدم

كبوشي إلى اللقاءات دون ثقة بالنفس وخائفا، وأخذ يستعطفنا كي نقصر زمن اللقاء خشية أن يراه أحد معارفه.

وسلمناه في أحد اللقاءات حقيبتين كي يضعهما في سيارته، لأن تعليمات أبو فراس له كانت تنص على أن يترك السيارة في مكان محدد على أن يقوم (توران) بأخذها وتفكيكها وأخذ ما فيها، ثم إعادتها إلى مكانها، وقد فعل كبوشي ما طلبناه منه. وقام (توران) بالتنسيق معنا بأخذ الحقيبتين، وتركهما في مكان محدد وفقا لأوامر المسؤولين المحليين في حركة "فتح"، وقمنا نحن بمتابعة الشخص الذي قدم لأخذ الحقائب الوهمية، وهكذا اكتشفنا الخلية التي كانت المواد المتفجرة معدة لها.

وفي الثامن عشر من آب، وبعد أن حقق استخدام كبوشي هدفه، قدمناه أمام قاضي لاستصدار أمر اعتقال ضده بتهمة تهريب السلاح والمواد المتفجرة، وإقامة اتصالات مع منظمات معادية".

قدم كبوشي للمحاكمة، وحكم بالسجن اثنتي عشرة سنة، ومنذ اللحظة التي زججنا به في السجن، بدأت تنهال علينا طلبات العفو عنه من العديد من الجهات المسيحية في العالم.

وتصدر اسمه جميع القوائم التي قدمتها المنظمات الفلسطينية في كل مساومة حول تبادل الأسرى اليهود بالمعتقلين الفلسطينيين، لكن مناحم بيغن رئيس الحكومة–الذي كان يرغب في تحسين علاقات إسرائيل مع الفاتيكان، قرر طرده من البلاد. في أعقاب قضائه ثلاث سنوات في السجن، وهو الأمر الذي اعتقد أنه كان خطأ.

لقد ارتبط كبوشي من مكان تواجده في الخارج بالنضال الفلسطيني وبوسائل إعلامه وكان من المفروض أن ينضم عام ١٩٨٦ إلى "سفينة العودة"، وفي شباط ١٩٨٨ تم

نقل ١٣٥ فلسطينيا ممن طردوا من الضفة الغربية والقطاع منذ حزيران ١٩٦٧ إلى أثينا، ومن ضمنهم الشيخ عبد الحميد السايح، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني، وكان يفترض أن يعتلوا السفينة بصحبة المئات من الإعلاميين في العالم، والتوجه إلى شواطئ إسرائيل مطالبين بالسماح لهم بالنزول إلى الضفة، وهو الأمر الذي- ولا شك- ستعارضه إسرائيل، وبالتالي يظهرون للعالم مدى تصلبها ويحرجونها، بيد أن انفجارا غامضا في السفينة حال دون إبحارها.

وفي آذار ١٩٩٤، إبان تواجده في دمشق، اجتمع كبوشي مع وفد من العرب في إسرائيل، إبان زيارته لسورية، وقد استقبله أعضاء الوفد بالقبلات والعناق، فقال لهم كبوشي: "العودة إلى الوطن ستكون قريبا جدا".

قضية الأخوة الثلاثة

واصلنا استخدام (توران) كعميل للجهاز حتى قتل في آذار ١٩٩٠ على أيدي اثنين من (المجموعات الضاربة) في عهد الانتفاضة. وتمكنا فيما بعد، من إلقاء القبض عليهما، فاعترفا بأنهما لم يكونا يقصدان قتله، بل التحقيق معه، لكنه قال أثناء تحقيقه أنه تعرف على أحدهما، الأمر الذي حسم مصيره فورا. فقام الشاب الذي تعرف عليه بطعنه بسكين في جميع أنحاء جسمه حتى لفظ أنفاسه.

لقد اتضح لنا، فيما بعد، أننا كنا سنصل إلى كبوشي في نهاية المطاف حتى بدون الاستعانة بالمعلومات التي قدمها إلينا (توران)، فقد كانت أطراف الخيط في أيدينا قبل ذلك، كنتيجة للتحقيق في قضية خلية ذكية، مشكلة من ثلاثة أخوة من عائلة (الملاعبي) والتي كانت تسكن قرب المسجد في شعفاط.

ورغم أن جدة الثلاثة كانت يهودية، وأحد أشقائهم تهود وحمل اسما يهوديا، إلا أن ذلك لم يحل دون مشاركتهم في العمل العسكري ضدنا بصورة جعلت النوم يغادر عيوننا، وربما أن قرابتهم اليهودية، هي التي جعلتهم يعملون بكل قوتهم لإثبات استعدادهم للتضحية بكل شيء من أجل النضال الفلسطيني.

بدأت القصة في الزيارة التي قام بها أحد الأشقاء-زهير حسن عبد الكريم الملاعبي-للأردن للالتحاق بصفوف حركة "فتح"، كان زهير كهربائيا يناهز الثامنة عشرة، وطنيا متطرفا شديد الكراهية للإسرائيليين، وكان يرغب في التوجه إلى حسن أبو نجمة، المسمى (أبو داود)، والمعروف بكونه أحد كبار شخصيات المنظمة، وقد أعلم

زهير، أبو داود، أنه عمل عدة سنوات لدى اليهود، وأنه سئم ذلك، وأنه يتطلع لإتاحة الفرصة له لإشباع مشاعره الوطنية.

وعلى عكس ما هو متبع، لم يسارع أبو داود إلى تجنيده. بل قال: "لا زلت صغيرا جدا. أدرس ولا تضع أحلى سنوات عمرك في الحرب".

ويبدو أن (أبو داود) لم يكن مهتما حقا برفاه وأمن زهير الملاعبي. بل كان يشك في الشاب المتحمس، بسبب الدم اليهودي الجاري في عروقه. لكن زهير كان مصرا. وقد عاد إلى بلده. ثم سافر إلى الأردن ثلاث مرات محاولا. كل مرة، إقناع (أبو داود) بمدى إصراره على محاربة اليهود.

في نهاية المطاف، اقتنع (أبو داود)، وأرسله إلى بيروت مزودا برقم هاتف هناك. وحال وصوله اتصل بالرقم المذكور، ولم تمض ساعة حتى قدمت إليه سيارة تقل أبو فراس اللفتاوي.

أعجب أبو فراس بزهير. وأرسله إلى معسكرات التدريب في بيروت وسورية. وقبل عودته منح اسما حركيا (نادر) ومنح مبلغا ماليا كبيرا لتمويل عملية تشكيل خلية للعمل المسلح. وقائمة بأسماء (نقاط ميتة) كان يجب أن يعثر فيها على أسلحة وذخائر ومواد متفجرة. والتي ستهرب إليه. وقيل له. إن عملية تفعيله ستتم عبر رسائل شيفرية ستذاع من راديو بيروت.

عاد زهير إلى القدس. وأرسل شقيقيه زكي ورياض للتدريب في سورية. ثم انضم إليهما فيما بعد للتدرب على كيفية إطلاق صواريخ الكاتيوشا. وفي أعقاب التدريبات عاد زكي ورياض إلى القدس. بينما توجه زهير إلى بيروت للاجتماع بأبو فراس. الذي قابله مع مسؤول آخر من فتح يدعى أبو سامح. وقد تحدث أبو سامح عن

ضرورة تنفيذ عملية ذات أصداء ضد إسرائيل "عملية تهز إسرائيل وتمس بمعنويات الإسرائيليين".

طرحت العديد من الأفكار. ثم اتخذ قرار بقتل سائق سيارة تاكسي يهودي. وملء سيارته بالمتفجرات، ووضعها في أحد شوارع القدس التي تغص بالمارة.

عاد زهير إلى القدس حاملا الخطة، وشديد الحماس لتنفيذها، وقام بالتعاون مع شقيقيه بالإشراف على إعداد التفاصيل.

ومثلما أشرنا، اتسمت تلك المرحلة بقلة المواد المتفجرة، بسبب نشاط جهاز الأمن العام، وضبطه العديد من الخلايا، بيد أن الأخوة قرروا تنفيذ العملية بمواد أبسط وبالإمكان الحصول عليها.

وفي الرابع عشر من نيسان ١٩٧٤. استأجر الثلاثة سيارة (فولكسواجن) من وادي الجوز، حمراء اللون، واشتروا وعاء وقود ووعاء غاز. وأخفوهما في ساحة بيتهم. وبعد يومين، وبعد الظهر شقت السيارة طريقها باتجاه مستشفى "أوغست فيكتوريا" على جبل المراقبين، وكانوا يعتقدون أن المنطقة لن تعج بالناس في هذا الوقت.

طلب الثلاثة بالهاتف سيارة تاكسي من أحد مكاتب السيارات في القدس. وقبل أن يدرك السائق تسيون ابرجيل ماهية ما سيحدث صوب زهير مسدسا إلى فكه. وهدد بالضغط على الزناد إذا ما أصدر أي إشارة مشبوهة.

وفي هذه اللحظة، دخل زكي إلى السيارة، وضرب السائق على رأسه وشرع في خنقه، وعندما فقد وعيه هاجمه الأخوة الثلاثة وضربوه حتى مات، ثم وضعوه في صندوق السيارة، وأخذوا التاكسي والسيارة "الفولكسواجن"، باتجاه منزلهم في شعفاط.

وضع الأخوة وعاء الوقود وبالونة الغاز في صندوق سيارة السائق، ووضعوا إلى جواره عبوة ناسفة، وجهاز توقيت كهربائي، وأغلقوا الصندوق، ثم قادوا السيارة إلى شارع بن يهودا في قلب القدس، في تمام الساعة السابعة والنصف مساء، وغادروا المكان واثقين أن جهاز التوقيت سيفعل فعله بعد ساعة.

أعلموني فجر اليوم التالي أن هناك سيارة تاكسي مشبوهة متوقفة منذ ساعات مساء اليوم السابق في شارع بن يهودا، وقد فتح خبراء المتفجرات صندوق السيارة وعثروا هناك على السائق ووعاءي الوقود والغاز.

قام خبراء المتفجرات والشرطة بإخلاء المنازل المجاورة للسيارة، وإخلاء الشارع من المارة، ووضع الحواجز على جميع الطرق المؤدية إلى وسط المدينة، وساد جو من الرعب في القدس.

وبعد تفكيك العبوة، اتضح أنها لم تنفجر بسبب خطأ ما في جهاز التوقيت. بيد أننا كنا شديدي الخوف طيلة وقوفنا هناك من احتمال انفجار العبوة كل لحظة. وتذكرت أن إحدى العاملات معنا متزوجة من رئيس شعبة خبراء المتفجرات المقدم (ميرتشه) فاستدعيناه على الفور، وحينما شاهد العبوة، اقترح محاولة تفكيكها في مكان خال من السكان والمنازل، في باحة موقف السيارات الخالي لشرطة المدينة. وقررنا، عدم قيادة السيارة، لذا ربطناها بجنزير طويل إلى سيارة جيب التي أخذت تجر السيارة ببطء شديد متجاوزة جميع الحفر في الطريق، وبعد أن أخلينا جميع المنازل الواقعة على مسارها، وبعد وصول السيارة إلى المكان المحدد، قام (ميرتشه) وطاقمه بعملية التفكيك التي استغرقت عدة ساعات تمزقت خلالها أعصابنا خوفا.

احتلت قضية مقتل سائق السيارة والعبوة شديدة الانفجار التي لم تنفجر صور صفحات الصحف المحلية والعالمية، واستدعت حركة "فتح" الأخوة الثلاثة إلى سورية، في محاولة لمعرفة سبب عدم انفجار العبوة.

ورغم فشل العملية، إلا أن المنظمات أثنت كثيرا على جرأة الإخوة، وأرسلتهم للتدرب على إطلاق صواريخ الكاتيوشا، وطلبت منهم، في نهاية التدريبات، تصويب الصواريخ إلى أحد المباني الإسرائيلية ذات الأهمية السياسية المركزية، مثل الوزارات الحكومية، أو فندق يضم شخصيات سياسية رفيعة المستوى.

ومن الجدير بالذكر أن هذه، أول مرة، يتم إرسال خلية لتنفيذ عملية إطلاق صواريخ كاتيوشا داخل إسرائيل.

اجتمع أبو فراس بالإخوة الثلاثة ووجه إليهم تعليمات واضحة: في السابع من آذار عليهم إيقاف سيارتهم دون إغلاق الأبواب في مكان معين في قرية بيت حنينا، والتغيب عنها لمدة نصف ساعة، وكان من المفروض أن يجدوا في السيارة لدى عودتهم، صواريخ كاتيوشا، وقنابل وقواذف باتروكا صغيرة ومتفجرات وصواعق.

وقد تم إعادة زكي ورياض إلى القدس، في حين أبقي زهير في بيروت.

لا يدل مظهر أبو فراس الخارجي على حقيقة كونه رجل عمليات ذكيا وماكرا، فقبل أربعة أيام من موعد التنفيذ، اجتمع بزهير في بيروت وقال له: إن النقطة الميتة التي تم الاتفاق عليها ليست هي التي سيتسلم فيها القنابل والصواريخ، وقال له أنه خشي أن يتم اعتقال شقيقيه حال عودتهما إلى القدس، وبالتالي يضطران للاعتراف بمكان النقطة الميتة في بيت حنينا.

أما الآن وبعد أن تأكد من أنهما لم يعتقلا. فإن بمقدوره إخباره بالنقطة الميتة الحقيقية: النقطة هي حقا بيت حنينا: لكن مكان اللقاء ليس هو نفس المكان. في الساعة الثامنة والنصف. عليكم أن تدخلوا إلى المدرسة التابعة للكنيسة الكاثوليكية. وتذهبوا إلى دورة المياه، حيث سيكون بانتظاركم ثلاث حقائب ملأى بالكاتيوشا والقنابل".

كان الأخوة الثلاثة يعملون بمنتهى الإخلاص "لفتح". بيد أن المبالغ التي كانوا يتلقونها لم تكن كافية لتدبير شؤون حياتهم وتنفيذ العمليات. لذا كانوا يعتاشون من الاشتغال في الكهرباء وأعمال الصيانة. وفي نفس اليوم الذي كان عليهم أخذ الحقائب. طلب من اثنين منهم تركيب شبكة تلفزيون على سطح منزل قريب. كانت الشمس تميل نحو الغروب، عندما شاهدا سيارة مرسيدس سوداء تدخل إلى باحة المدرسة. وتدير ظهرها لبوابة الدخول إلى المبنى: كانت تلك سيارة كبوشي. وشاهد الإخوان رجلين يخرجان من السيارة وهما يحملان حقائب إلى المدرسة. ثم يعودان إلى السيارة التي انطلقت بهما. وبعد لحظات استكمل الإخوان تركيب الشبكة وامتطيا سيارتهما. وتوجها إلى المدرسة. وأخرجا الحقائب من دورة المياه.

وعندما أصبحت الكاتيوشا بأيديهم. باتت المسألة التي تواجههم هي اختيار الهدف. وقد طرحت عدة احتمالات. بيد أن القرار استقر في نهاية المطاف على فندق (الملك داود) والذي كان يفترض أن ينزل فيه وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر. في إطار الجولات المكوكية التي يقوم بها بين إسرائيل ومصر بغية التوصل إلى تسوية مرحلية. في أعقاب حرب ١٩٧٣.

نصب الأخوة الصواريخ على جبل المكبر ووجهوها نحو الفندق، وفي مكان آخر في المدينة أعدوا جهازا يدويا لإطلاق صواريخ "بازوكا" باتجاه حي المصرارة، وكانوا يعتزمون تفعيل الكاتيوشا والبازوكا في آن واحد.

قبل موعد إطلاق الصواريخ بوقت قصير، كان هناك بدوي كهل يسير في أحد طرقات تل الغول وهي تلة تقع بين القدس الغربية والنبي يعقوب، والتي بني عليها قصر الملك الحسين الذي بدأ بنايته قبل حرب ١٩٦٧، وفجأة سمع صوت هدير محركات سيارة فتوقف خلف شجرة ليراقب ما يحدث، وفجأة فتح أحد أبواب السيارة أثناء مسير السيارة وسقطت منها حقيبة، في الوقت الذي واصلت السيارة سيرها.

ويقول البدوي خلال استجوابه: ظننت أن في الحقيقة شيئا ذا قيمة، وعندما فتحتها وجدت فيها قنابل ومواد متفجرة وأسلحة فسارعت لاستدعاء الشرطة.

تم إعلامنا فورا بالحادث، فسارعنا إلى المكان، ولم يكن لدينا أي شك، في أن جهة ما ألقت بالحقيبة في نقطة ميتة، كي تلتقطها خلية أخرى.

قال البدوي، أنه شاهد بين ركاب السيارة أحد الأخوة الملاعبي، فسارعنا إلى الحي الذي يسكنون فيه، ومعنا قوة كبيرة من الشرطة وحرس الحدود، وطوقنا المنطقة كي نعثر عليهم، في الوقت الذي كان فيه الأخوة الثلاثة عاكفين على نصب صواريخ الكاتيوشا في جبل المكبر، وقد لاحظ أحد الأخوة أن شخصا ما في أحد المنازل القريبة يراقب ما يفعلون، ورغم أن الأوامر كانت لديهم قاطعة، وتقول: اقتلوا كل شاهد عيان لما تقومون به، إلا أن جدلا نشب بين الأخوة، فقد أراد زهير قتل الرجل وزوجته التي

كانت معه في البيت، بيد أن شقيقيه عارضا ذلك بشدة، لذا قرروا في نهاية الأمر إلغاء فكرة قتله، والعودة إلى البيت، وهو الأمر الذي لم يتساوق مع إصرار هذه الخلية.

عاد الثلاثة في سيارة البيجو التي يملكونها، وحينما شاهدوا الوضع في الحي، أدركوا أن قوات الأمن تمكنت من الوصول إليهم، لذا عمدوا فورا إلى إعداد رواية تغطية: أن يعود زهير بالسيارة ويقول إنه عاد لتوه من العمل، ويعود الإخوان زكي ورياض فيما بعد ويقولان أنهما كانا يتنزهان، وعمدوا إلى حزم الأسلحة التي بحوزتهم في معطف قديم وألقوا بها من السيارة، ومثلما تم الاتفاق عليه، عاد زهير بالسيارة، وبعد لحظات عاد شقيقاه حيث تم اعتقالهم ونقلهم إلى المسكوبية للتحقيق معهم.

وفي هذه الأثناء، عمل جهاز التوقيت لصواريخ "البازوكا" وانطلقت الصواريخ الثلاث باتجاه حي المصرارة، بيد أنها لم تلحق أذى بأحد، أما صواريخ الكاتيوشا في جبل المكبر، فقد اكتشفتها قوات الأمن بعد ذلك، وعثرت بعد عدة أيام على الأسلحة التي ألقوها في أحد الحقول القريبة من بيتهم.

جرت عملية التحقيق مع الثلاثة ببطء شديد، نظرا لرفضهم التعاون مع المحققين، وقد عملنا على إجراء مقابلات لهم مع أقاربهم كي يحثوهم على الاعتراف دون جدوى. وفي النهاية اقترح شخص ما أن نضرب على (وترهم اليهودي)، فأحضرنا إليهم جدتهم اليهودية، وسرعان ما أدركنا أننا ارتكبنا خطأ فادحا، فقد شتم الثلاثة المرأة العجوز ليهوديتها، وتشددوا أكثر في مواقفهم، وقال أحدهم للمحققين: "من ناحيتنا ليتكم تشنقون هذه المرأة على شجرة، ونحن من ناحيتنا على استعداد للمساعدة في ذلك بكل سرور".

وبينما كان التحقيق جاريا مع الأخوة، حاولنا معرفة كيفية وصول الأسلحة إليهم. فالحدود كانت مغلقة إغلاقا محكما، والسياج الحدودي، والوسائل الأمنية التي نتبعها جعلت عملية إدخال الأسلحة شديدة الخطورة وبالتالي لم يبق أمامنا سوى المعابر الحدودية الرسمية، والتي يعبرها شخصيات معينة -كرجال الدين المسيحيين- مثلا دون تفتيش.

وعندما نجحنا، في النهاية، في الحصول على اعترافاتهم، عرفنا أنهم أخذوا ثلاث حقائب ملأى بالمتفجرات والأسلحة من مدرسة بيت حنينا، مكان سكن كبوشي.

وإزاء معرفتنا بالرجل، وبمواقفه الوطنية وأعمال الفساد التي يمارسها، لم يكن من الصعب علينا الربط بين كل هؤلاء. لذا قررنا التنصت على هاتفه ومراقبته، وبينما نحن غارقون في كل ذلك، جاء العميل "توران" وأكد بمعلوماته شكوكنا. وفي الثامن من آب تم اعتقال كبوشي إبان تهريبه إرسالية سلاح أخرى وانتهت هذه القضية.

قدم الأخوة الثلاثة للمحاكمة وحكموا بالسجن المؤبد، ثم خرجوا في إطار صفقة التبادل مع أحمد جبريل، وتوجه زهير إلى الأردن، وتزوج وفتح محلا للأدوات الكهربائية في عمان، وبعد عدة سنوات زار عائلته في شعفاط بعد أن نجح في الاحتيال على السلطات عبر تغيير اسمه، بيد أن جهاز الأمن العام ضبطه وطرده من إسرائيل.

وشقيقه زكي أيضا ذهب إلى الأردن، وأصبح الذراع اليمنى لأبو فراس، وجند العديد من الأشخاص للعمل العسكري، وحاول التسلل إلى إسرائيل بهوية مزورة، بيد أنه طرد، وتواجد في مصر لبعض الوقت.

أما الشقيق الثالث رياض، فمكانه غير معروف لي-أخطأ رئيس جهاز الأمن العام فقد تم إطلاق سراح زهير وزكي فقط في صفقة جبريل، أما رياض فلم يطلق سراحه في الصفقة، وأطلق سراحه فيما بعد وهو موجود حاليا في القدس (المترجم).

وقد قامت قوات الأمن بتفجير منزل عائلة الملاعبي، وكانت تلك أول وآخر مرة يتم فيها تفجير منزل في القدس، ومنذ ذلك الحين كانت إسرائيل تغلق فقط منازل، أما ساحة الخرائب التي بقيت من هدم المنزل، فقد أصبحت رمزا وطنيا، كثيرا ما أجرى فيه الفلسطينيون الاعتصامات ضد إسرائيل.

قابلت أبو فراس في رام الله بعد تعيينه محافظا، وجلسنا نحن الاثنين. وتطرقنا لقضية كبوشي، ولمحاولاته إدخال أسلحة إلى الضفة، عبر رجال الأمم المتحدة، وتنفيذ عمليات في منطقة القدس، وتطرقنا هنا وهناك إلى بعض التفاصيل. بيد أننا لم نتطرق إلى أسماء الأشخاص الذين جندهم هو وكشفناهم نحن.

واصلت المنظمات في أعقاب قضية كبوشي العمل على تهريب المعدات الحربية إلى الضفة الغربية، وواصلنا نحن محاولاتنا لضبطها، وفي أيار ١٩٨٣ اعتقلنا على جسر الملك حسين شابا من (كفر عين) إثر عودته من الأردن، وقد زعم أنه ذهب لتسجيل اسمه في الجامعة-مثلما يفعل الكثيرون- في الوقت الذي كانت معلوماتنا تؤكد. أنه ذهب للالتحاق بالجبهة الديموقراطية التي يترأسها نايف حواتمة، وقد اعترف أثناء التحقيق معه بذلك، وقال أنه تم تحديد مقابلة له مع ممثل المنظمة في رام الله. وأن هذا الشخص سيأتي من لبنان وسيسلمه أسلحة، ويتسلم منه تقريرا مفصلا حول أماكن تجمع السياح في إسرائيل والفنادق، والأماكن السياحية الأخرى. والمصانع والسفارات الأجنبية بغرض التخطيط لعملية.

وفي اليوم الموعود، نصب الجهاز كمينا للرسول في وسط رام الله، ووقف أحد ضباط الجهاز وهو يرتدي ملابس عربية في المكان المحدد، وهو يمسك بيده علامة التعارف-جريدة الهدف اللبنانية.

قدمت إلى المنطقة سيارة من طراز (بي ام دبليو) تحمل لوحة أرقام لبنانية. ولم يكن تواجد السيارة شيئا شاذا، فقد كانت السلطات الإسرائيلية في تلك الآونة تمنح تصاريح لبعض السيارات اللبنانية من الجنوب للدخول مع أصحابها، توقفت السيارة بجانب ضابط المخابرات، فسارع رجالنا لتطويقها واعتقال اللبنانيين الجالسين فيها، دون أن يتنبه أي من العابرين في تلك اللحظة لشيء.

أخذنا الاثنين وسيارتهما للتحقيق، وإبان تفتيش السيارة اكتشفنا مخبأ أخفي بشكل ممتاز جدا، بين المقعد الأخير وصندوق السيارة، وتمكنا من الإفلات من جميع نقاط التفتيش الحدودية: اللبنانية والإسرائيلية والأمم المتحدة، وقد عثرنا على عدة بنادق كلاشينكوف وصناديق ذخيرة وقنابل يدوية، وصواعق كهربائية للتفجير.

عبر ثقب المفتاح

يعتبر قسم التوجيه بمثابة البؤرة النشطة في جهاز الأمن العام، ففيها يتم صهر العاملين فيه، وفقا لكفاءاتهم، ومتطلبات الجهاز، وفيها يمكن أن نعلم كل شيء عن كل عامل من عمال الجهاز، ومدى تميزه وتخلفه، واهتمامه، وفي هذا القسم، الذي كان يحتل جل اهتمام ابراهام أحيطوف، نموا عملية التثقيف على القيم والأخلاق، والحوافز، ومن بين جميع أولئك الذين اجتازوا دورات في هذا القسم، لم يخيب الآمال سوى قلة قليلة جدا، وخريجو هذا القسم، هم مثار فخر الجهاز، لذا اعتبرت اقتراح أحيطوف علي الانتقال من لواء القدس والضفة، لإدارة قسم التوجيه، تقديرا كبيرا لي.

تسلمت مهام منصبي الجديد في الأول من كانون الثاني ١٩٧٥. وتسلمت قسم توجيه كان لا يزال مجرد هيكل. مؤلف من طاقم مقلص: رئيس القسم وسكرتيرته وحفنة من مدربي إطلاق النار. وعدد من المسؤولين في مجالات شتى. وكان القسم يقع في مجال مسؤولية رئيس شعبة التخطيط والتنسيق. لكن ونظرا. لأن هذا المنصب لم يكن مشغولا. فقد شغله رئيس جهاز المخابرات. وكنت أنا بوصفي رئيسا للقسم. خاضعا له مباشرة. مما أتاح لي الكثير من المزايا. فقد أدركت أن قسمي سيحظى بالكثير من الاهتمام لديه. وسأحظى بباب مفتوح دائما. ورغبة في تطويري. أنا أيضا. على طريق تطوير القسم.

وسرعان ما توسعت أعمال القسم. وأخذنا على عاتقنا العديد من أعمال التوجيه. وتم التركيز على قضية الحماية. التي كان يفترض أن تشمل جميع قضايا الحماية الخاصة بالسفارات والطائرات. والمؤسسات الإسرائيلية في الخارج وغير ذلك.

قمنا ببلورة توجيهات واضحة للحراس على الطائرات والمطارات ومكاتب البيع التابعة لشركة العال. في حالة الاصطدام بمسلحين أو أي عمليات واستعنا كثيرا بـ "ديف بكرمنا". وهو رجل فريد من نوعه. مهاجر من الولايات المتحدة. ومحترف بكل معنى الكلمة. وقد اكتسب تجربته في الجيش الأميركي. وكان يتكلم العبرية المطعمة باللغة الإنجليزية. وكان يعمل معنا من الخارج.

وبعد أقل من عام عينت نائبا لرئيس الشعبة العربية. وكلفت بتطوير قسم الأبحاث العربي.

ولم يكن للجهاز قدرة أبحاث مستقلة ذات أهمية. وكان يعتمد بصورة رئيسية على أبحاث شعبة الاستخبارات العسكرية ووزارة الخارجية. وعلى وحدة

أبحاث صغيرة كانت تعمل في القسم العربي التابع للوزارة، ويخيل إلي، أنه كانت هناك مخاوف لدى الجهاز من تحمل المسؤولية. لقد كان من المريح للجهاز. جمع المعلومات وتنظيمها وتوزيع المعلومات بينما المسؤولية عن النتائج ستلقى على عاتق شعبة الاستخبارات.

حرصت خلال عملي الجديد على منح دفعة كبيرة لأبحاث الجهاز الذاتية. بيد أن الانفراج لم يأت إلا بعد وقت طويل. في أعقاب اندلاع الانتفاضة في كانون الأول ١٩٨٧ ـ عندما ألقيت على عاتق جهاز الأمن العام مسؤولية تقدير الوضع في أوساط العرب في إسرائيل. وفلسطيني الضفة والقطاع.

لقد قيل. آنذاك. أنه لو كانت لدى جهاز الأمن العام قدرة أبحاث جدية، في هذه المجالات قبل ذلك. لكان بالإمكان التنبؤ باندلاع الانتفاضة.

يخضع جهاز الأمن العام لرئيس الحكومة. ويقدم رئيسه التقارير له مباشرة. وفي عهد اسحق شامير لم تكن اللقاءات بين رئيس الجهاز وبينه تجري. بشكل دوري، بل وفقا للضرورة، حسب رؤية أي منهما. ولم تصبح اللقاءات دورية. إلا في أعقاب حادثة الحافلة ٣٠٠، حيث أصبح اللقاء يتم بين الجانبين مرة، أسبوعيا. إضافة إلى مشاركة رئيس الجهاز في جميع جلسات مجلس الوزراء. ذات العلاقة بالقضايا الأمنية.

لم تكن العلاقة بين أحيطوف ورئيس الوزراء رابين على ما يرام. وكان أحيطوف. لا يتوق للقاء رابين، وكذلك رابين، لذا كان يرسلني لإعلام رابين بالمستجدات في بعض الأحيان، ويقول لي: إذا سألك لماذا لم آت أنا، قل له أنني في

مهمة خارج المدينة، ولم يكن رابين يطرح أي أسئلة أخرى، حينما أطرح أمامه هذا المبرر.

ويخيل إلي أن السبب في هذا التنافر بينهما، يرجع إلى طبيعة الرجلين. حيث كان رابين بطبيعته خجولا ومنطويا على نفسه، في حين كان أحيطوف جادا وقاطعا وأحيانا حاد الألفاظ.

ويخيل إلي أيضا، أن الخلافات الشديدة التي نشبت بين رابين وشمعون بيرس، عام ١٩٧٦، في أعقاب انتخابات رؤساء البلديات في الضفة الغربية، أثرت على علاقات رابين وأحيطوف، فقد حظيت منظمة التحرير في تلك الانتخابات، بإنجازات كبيرة، مما حدا بشمعون بيرس، الذي يحتل منصب وزير الدفاع، لتوجيه انتقادات شديدة لرابين بوصفه مسؤولا عن جهاز الأمن العام، بدعوى أن الجهاز لم يحسن التنبؤ بالنتائج مما ألحق أضرارا جسيمة بإسرائيل، ورغم أن رابين رفض هذه الاتهامات، ورد عليها باتهامات مضادة، إلا أنه أيضا، غضب على أحيطوف وشعر بخيبة أمل معينة منه.

وذات يوم، استدعاني أحيطوف وسألني: هل لديك قميص أبيض؟ فقلت له ساخرا: لا يوجد لدي، لكن إذا كانت هناك ضرورة سأشتري واحدا. فقال: هناك ضرورة، منذ الآن أرجو أن تذهب إلى رابين يوم السبت، قبل جلسة الحكومة، وتعلمه بالمستجدات، وبما نفعله، وما هي تقديراتنا". ومنذ ذلك الحين، أصبحت أطلع رابين على ما يدور في الجهاز وعلى صعيد القضايا ذات العلاقة بالفلسطينيين، والقضايا الأمنية الأخرى. ولم يكن يبدي أي شكوك في تقديراتنا.

وكنت ألتقي، أيضا، مع شمعون بيرس، بين الفينة والأخرى، بوصفي نائبا لرئيس الشعبة العربية، وكانت لقاءاتي معه موضوعية جدا ومهنية، بيد أنه كان دائما يبدي تحفظا من تقديرات المخابرات، وفي حالات نادرة جدا، كان يقبلها كما هي. وكان يقول لي: "إنكم تشبهون أناسا ينظرون إلى بيت من ثقب المفتاح، وما ترونه، هو مهم جدا، بيد أنه ليس كل ما في هذا البيت، بل كل ما تسمح لكم زاوية الرؤية من الثقب رؤيته.

وأنا بوصفي وزيرا للدفاع، أحتاج لرؤية كل ما يجري في البيت، لذا أوافقك الرأي أحيانا، وأحيانا لا". وفي الكثير من الأحيان، كان يراوده شعور بأن رؤيتنا تضع عصا في إطار عربة رؤيته السياسية.

الحركة السرية اليهودية فاجأت الجهاز:

عادت مجموعة من مستوطني "كريات أربع" تبلغ ثلاثين شخصا، ليلة الثاني من آيار ١٩٨٠: من الصلاة، في الحرم الإبراهيمي، إلى بيت هداسا، في الخليل العربية، وقبل أن يدخلوا من الباب، فتحت عليهم النار، من بنادق من ثلاث بؤر وألقيت عليهم ست قنابل يدوية، مما أدى إلى مقتل ستة منهم، وإصابة ستة عشر آخرين بجراح، وأعلنت حركة "فتح" مسؤوليتها عن الحادث.

وبعد أربع سنين، من هذا الحادث، وعندما تم اعتقال مناحم ليبني-أحد رؤساء المستوطنين في الخليل بتهمة الانتماء إلى الحركة السرية اليهودية، تطرق خلال التحقيق إلى شعوره، في أعقاب عملية هداسا، فقال: "لقد نفذت العملية على أرضية التحريض المستمر في الشارع العربي ضد اليهود، وقد تجسد هذا التحريض، بأعمال عنف كلامية ومادية، مثل إلقاء الحجارة، وإشعال الإطارات والمظاهرات، ووضع

الحواجز على الطرقات، كما ردت وزارة الدفاع جميع دعاوى المستوطنين القائلة أنها لا تقوم بما يلزم للدفاع عنهم، وقد أعطيت أوامر للجنود تحظر عليهم إطلاق النار. حتى في الهواء وأصبحت صور رشق الحجارة، والجنود الذين يفرون أمامها. روتينية. الأمر الذي أشاع الخوف في "كريات أربع"، ومنع المستثمرين من الاستثمار في مصانعها، وجعل الكثير من عائلات المستوطنين يرغبون في مغادرة المستوطنة. وجعلت الإسرائيليين الراغبين في الانتقال للسكن في المستوطنة من وسط البلاد يحجمون عن ذلك".

لقد أيد الحاخام موشيه لفينجر-أحد زعماء المستوطنين. خلال اجتماع التضامن الذي عقد في أعقاب عملية (بيت رومانو)، القيام بعمليات انتقامية ضد العرب. وأيده في ذلك، الحاخامان ليئور ويوعزر أرئيل.

وفي الثاني من حزيران ١٩٨٠-أي بعد شهر بالضبط من عملية بيت هداسا. سمعت أصوات انفجارات شديدة في الضفة الغربية.

ففي الساعة السادسة وعشر دقائق، انفجرت عبوة ناسفة في أحد المحلات في سوق الخليل في البلدة القديمة، مما أدى إلى إصابة سبعة من العرب بجراح. وقد وقع الانفجار بالقرب من المكان الذي قتل فيه طالب المدرسة الدينية يهوشع سلومه بعيار ناري.

في الساعة الثامنة إلا عشر دقائق، خرج رئيس بلدية رام الله كريم خلف من بيته واتجه نحو سيارته الواقفة بالجوار. والتي أعارها له شقيقه. كان خلف يدرك أن سيارته معروفة جيدا للمستوطنين. وخشي أن تستخدم هدفا لاغتياله من قبل المتطرفين اليهود. لذا استعار سيارة شقيقه الكاديلاك. مؤمنا أنها آمنة.

أدار خلف السيارة، وعاد إلى الخلف بها كي يخرج من الباب، وحينها انفجرت عبوة ناسفة، مما أدى إلى بتر قدمه.

وبعد ربع ساعة، خرج رئيس بلدية نابلس بسام الشكعة، وهو أيضا من لجنة التوجيه الوطني، وهو أيضا كان شديد الحذر، يملك الشكعة ثلاث سيارات، وقد اعتاد اختيار واحدة منها في كل مرة يريد الخروج، دون ترتيب معين، وفي هذه المرة اختار سيارته (الأوبل) وعندما أدارها، انفجرت عبوة ناسفة مما أسفر عن بتر ساقيه.

وفي الوقت الذي أخذت الأنباء تتوارد إلى جهاز الأمن العام، أمر الحاكم العسكري بفحص سيارات رؤساء بلديات الضفة الغربية فورا، وسارع ضباط شعبة الإرهاب بصحبة الشرطة إلى منازل رؤساء البلديات الباقين وتوجه خبير المتفجرات الدرزي، سلمان الخرباوي، إلى منزل رئيس بلدية البيرة إبراهيم الطويل وبصحبته ضابط في الجيش يدعى روني جيله. وقد اتضح بعد عدة سنوات، أنه كان لهذا الضابط صلة بالحركة السرية.

فحص الخرباوي بدقة بالغة سيارة رئيس البلدية وزوجته اللتين كانتا واقفتين إلى جوار البيت فلم يعثر فيهما على شيء، بيد أن رئيس البلدية لفت نظره إلى أن هناك سيارة ثالثة في مرآب البيت، وأنه يستخدمها أيضا، توجه الخرباوي إلى المرآب فوجده مغلقا، ولا توجد فيه أي دلائل اقتحام، فنظر إلى السيارة من نافذة جانبية ،وحدث لديه انطباع بأن أي جهة لم تمس السيارة. ورغم ذلك، ومن أجل التأكد، قرر الدخول إلى المرآب وفحص السيارة. وعندما وصل إلى باب المرآب اصطدمت قدمه بسلك العبوة الناسفة التي زرعت هناك، مما أدى إلى حدوث الانفجار، وإصابته بجراح خطيرة، أفقدته بصره.

فاجأت عملية اغتيال رؤساء البلديات جهاز الأمن العام، والحقيقة هي أننا تلقينا قبل سلسلة الانفجارات، معلومات، حول وجود مخططات للقيام بأعمال عنف ضد العرب، ينظمها مستوطنون متطرفون، والذين كانوا في غالبيتهم العظمى من حركة "غوش أمونيم" التي تم تأسيسها في شباط١٩٧٤ في أعقاب حرب ١٩٧٣، بمبادرة من الحاخامات موشيه لفينجر واليعازر فلدما وحاييم دروكمان وأعضاء الكنيست زبولون هامر. ويهودا بن مائير-مفدال-، وثلاثة مستوطنين هم: يهودا هرئيل وحنان بورات ويوآل بن نون.

كان الهدف الأصلي من إقامة هذه الحركة، هو بناء هيئة أو جهة تناضل داخل حزب "المفدال" وتعزز مطالبه للحيلولة دون حدوث انسحاب في الضفة الغربية وغزة. وذلك على أرضية المعنويات الوطنية المتدنية واتفاقيات فصل القوات التي ارتبطت بانسحابات في سيناء والجولان.

وقد تحدث قسم من المؤسسين، بادئ ذي بدء، عن "نشاطات اجتماعية تثقيفية" وليس عن إقامة مستوطنات فورا؛ وقد تم التأكيد في عنوان الوثيقة الأولى لهذا التنظيم. على أن اسمه سيكون "غوش أمونيم-حركة لاستئناف تجسيد الصهيونية". لكنها عملت فيما بعد في مجال تنظيم المظاهرات، وسرعان ما ازداد داخله عدد المطالبين بالاستيطان. وعمدوا في البداية إلى إقامة مستوطنة (كيشت) في هضبة الجولان. ثم جرت محاولة إقامة "ألون موريه" قرب نابلس. ثم انضم إلى الجوش الحاخام تسفي يهودا هكوهن كوك-رئيس المدرسة الدينية (مركاز هرب). وأخذت تنطلق من شخصيات منضوية تحت لواء الجوش. تصريحات متطرفة دينيا.

التنظيم السري اليهودي

انضمت إلى "غوش أمونيم" جهات معتدلة كانت تعتبر نفسها تواصلا للاستيطان الطلائعي الذي بدأ في الفترة التي سبقت إقامة الدولة، إضافة إلى أوساط أعلنت أنها تعتبر نشاطاتها بداية الخلاص، لذا يستحيل إخضاع "غوش" للقواعد العادية المتبعة للعبة الديموقراطية، ومطالبته بأن يأخذ بعين الاعتبار -أكثر مما ينبغي- أوامر الحكومة المنتخبة، وكان المتطرفون منهم يعتقدون تماما، أن الهدف- توطين أرض إسرائيل دينيا- يسمح لهم بانتهاج واستخدام جميع الوسائل المتاحة، بما فيها الوسائل العنيفة.

كانت الجماعة المتطرفة التي تبلورت داخل "الغوش" ذات نظرية "صوفية مسيحية" تنادي بعدم انتظار عودة المسيح، بل يجب العمل على تسريع عودته.

واعتقد أصحاب وجهة النظر آنفة الذكر مثلا، أن هدم المسجد الأقصى سيدفع بالدول العربية إلى شن حرب جهاد مقدس ضد إسرائيل، الأمر الذي "سيرغم الله" على المسارعة لإنقاذ شعبه!!، أي أن هدم المسجد سيفضي بالضرورة إلى بلورة دولة إسرائيل كدولة دينية.

توفرت لدينا معلومات حول وجود مثل هؤلاء الأشخاص داخل "غوش أمونيم"، وراقبنا نشاطاتهم بيد أنهم كانوا متقوقعين على أنفسهم، يديرون أمورهم سرا، وباءت جميع محاولاتنا لاختراقهم بالفشل.

ورغـم ذلـك. لم نكـن نعتقـد أن تـهديدات هـذه الجماعــة. ســـتخرج إلى حـــيز التنفيـذ في الزمـن المنظـور. ولا شـك أن العمليـات الـتي وقعـت ضـد رؤسـاء البلديـات. في الضفة الغربية. أكـدت أننـا كنـا على خطـأ.

عقـد رئيـس الجـهاز. ابراهـام أحيطـوف. اجتماعـا طارئـا. في ظـل أجـواء شـديدة التوتـر. وبـدا جميـع الحـاضرين شـديدي الغضـب والإحبـاط. بسـبب الفشـل الاسـتخباري. والمفاجـأة التامـة. والإحسـاس أننـا جميعـا لا زلنـا نتخبـط في الظـلام. رغـم أن كـلا منـا كـان يـدرك. أن علـى الجـهاز أن يكـرس قصـارى جـهده. لإلقـاء القبـض علـى الفـاعلين. وتم إيكـال هـذه المهمـة لقـائد القـدس والضفـة الغربيـة بالاسـتعانة بشـخصية تمـت اسـتعارتها من وظيفة أخـرى. حيـث قـام الاثنـان ببلـورة قائمـة أوليـة بأسمـاء المشتبهين.

أدى الاسـتعراض الأول للمعطيـات المتعلقـة بعمليـات التفجـير مجموعـة مـن الحقـائق:

*الأهـداف: كـانت جميـع الأهـداف مـن أعضـاء لجنـة التوجيـه الوطـني.

*التوقيـت: بعـد شـهر بـالضبط مـن عمليـة بيـت هداسا.

*التنفيـذ: تنفيـذ مـتزامن. الأمـر الـذي يـدل علـى الرغبـة في خلـق تعـاطف إعلامـي واسـع.

. كـانت جميـع هـذه المعطيـات. تشـير باتجـاه متطرفـين يـهود. لم نكـن نعـرف هوياتـهم وبـدا بوضـوح. أن عمليـة التنفيـذ. تمـت بـترتيب عسـكري مـن الدرجـة الأولى. فقـد جمـع الفـاعلون. في البدايـة. معلومـات مفصلـة. ولم ينفـذوا العمليـات إلا بعـد بلـورة هـذه المعلومـات.

أضف إلى ذلك. أن الاختبارات التي تم إجراؤها أفادت، بأن المواد المتفجرة المستخدمة. هي من النوع المستخدم في الجيش الإسرائيلي.

وبناء على النتائج الأولية للمتابعة. قدر أحيطوف أن العملية كانت مخططة على أيدي مجموعة من الأشخاص ممن حصل بعضهم على تدريب وتجربة. على صعيد المتفجرات في الجيش. وطرح فكرة أن يكون لبعض المخططين علاقة قربى مع من قتلوا في بيت هداسا. وأن عملية محاولة اغتيال رؤساء البلديات. كانت ردا انتقاميا. ولا شك أن النظرية. آنفة الذكر. كانت معقولة. لكنها لم تكن مجدية في المرحلة الأولى من التحقيق.

أربع سنوات تقريبا. تخبط جهاز الأمن العام في الظلام. وبذل جهودا مضنية استخدم وفعل خلالها جميع المصادر الاستخبارية. والتنفيذية. والتحقيق والوسائل التكنولوجية. على نطاق لم يسبق له مثيل. طيلة وجود الجهاز. ورغم ذلك لم ننجح بالإمساك برأس الخيط. مما أثار الكثير من الإحباط في نفوسنا. نظرا لأن العملية لم تكن معقدة إلى هذا الحد. فقد بدا. ظاهريا. أنه يكفي أن نفتح عيوننا على المجموعات اليمينية المتطرفة. ونتابع نشاطاتها. ونعمل للعثور على الأماكن السرية التي يستخدمونها لإخفاء الأسلحة والمواد المتفجرة: ثم الشروع بالاعتقالات. أما على أرض الواقع. فلم يكن الأمر على هذا النحو. وبدا لنا أننا نفتش عن إبرة في كومة قش. لقد أدركنا أن الجماعة التي نعمل ضدها تعمل بمنتهى السرية. وأن الفهم الأيديولوجي الذي يحملونه. سيحول دون تعاون أي منهم معنا. ورغم الوسائل العديدة التي استخدمناها. بقينا نراوح في أماكننا دون جدوى.

وخلال التحقيقات التي مارسناها، ارتكبنا أيضا أخطاء، مثل القرار الخاص بإدخال ضباط وحدة العمليات التابعة للجهاز إلى "كريات أربع"، في أعقاب عملية رؤساء البلديات، لمراقبة المشبوهين المحتملين، وسرعان ما اتضح أن العملية كانت متسرعة.

وصل ضباط العمليات إلى "كريات أربع" بعد يوم أو يومين، في صورة ضباط من الجيش الإسرائيلي، لكنهم لم يستطيعوا خداع أحد وسرعان ما تم كشفهم.

اتضح لدينا، أن أحد الأشخاص المتطرفين الذين حاولنا إسقاطهم في شباكنا. يعيش قصة حب رومانسية حساسة، سيؤدي الإعلان عنها، إلى التسبب بإحراج شديد له ولآخرين، واقترح أحد المسؤولين إعلامه بأن الإعلان عن القصة سيلحق أضرارا به. وأن نحاول ابتزاز معلومات منه مقابل ذلك، ولم نعمد إلى اعتقاله.بيد أننا ألمحنا له أننا على إطلاع على جميع خبايا القصة، لكن وبدلا من أن ينهار ويتعاون، قدم شكوى عبر محاميه ضدنا، والذي سارع لإرسال رسالة إلى مكتب رئيس الحكومة حول الأساليب الفظيعة التي يلجأ اليها جهاز الأمن العام، وقد استدعى مناحم بيغن. إبراهام أحيطوف. وتبادل الاثنان كلمات قاسية، رفض خلالها بيغن أسلوب الجهاز. رغم أن ابراهام أوضح له، أن الأمر يتعلق بحركة سرية خطرة، وضرورة بذل جميع الجهود. واستخدام جميع الوسائل المكنة لتصفيتها، وأمره بيغن بأن يكف عن ملاحقة الشاب.

وأعتقد أن من السهل التنبؤ بمشاعر أحيطوف إزاء توبيخ بيغن له. إزاء معرفة أحيطوف لمدى تعاطف بيغن مع المستوطنين.

وخلال العام الذي بقي لأحيطوف، حتى إنهائه خدمته، جرى تقليص التحقيق في قضية الحركة السرية اليهودية إلى حد كبير، وأعتقد أن أحيطوف فسرّ مسلكية بيغن تفسيرا خاطئا.

ولا شك، أن بيغن كان يتعاطف مع الكثير من المستوطنين المتورطين في القضية، فقد كان يصفهم بأنهم شخصيات وزعماء وطنيون، وتلامذة حاخامات، مليئون بالروحية الصهيونية، وحاملو لواء أرض إسرائيل الكاملة، وممن كانوا قدوة للكثيرين، لكن بيغن كان فوق كل ذلك، ولا يمكنه أن يعرقل عمل الجهاز، لذا، ليس من المعقول أن يكون قد أصدر أمرا بتقليص التحقيق في القضية.

وفي المقال الذي كتبه أحيطوف، في الثالث عشر من آب ١٩٨٣–أي بعد سنتين ونصف السنة، من استقالته، قال في جريدة دافار: "إن عدم إلقاء القبض على أولئك الذين قطعوا أقدام رؤساء البلديات، يعكس فشلا استخباريا غير عادل، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ألم يضع محققوا الجهاز الفرصة في متابعة جماعة جماهيرية معينة، والتي كان من المتوقع أن تقوم بأعمال سرية؟

"لم تفاجئ غالبية العمليات الاستيطانية غير المسموح بها الكادر السياسي الأعلى الذي سلم بها، فهو لم يعمل، فقط على تأهيل تلك العمليات، بل أزال جميع القواعد الموضوعية والعادلة والرسمية لنشر الجهاز للرقابة في أوساط تلك المجموعة".

"إن المعلومات الاستخبارية الجيدة، لم تكن فقط لتعفينا من التخبط والضبابية، بل كانت ستضع حدا لعملية خطرة".

قبل شهرين من إنهائه خدمته، عينني أحيطوف قائدا للمخابرات في القدس والضفة الغربية، واتفق معي، على أن أبقى في هذا المنصب لسنة واحدة، على أن يحل

محلي، بعد ذلك، يوسي جينوسار، القائد الجديد للواء الشمالي، وذلك بغية إتاحة الفرصة لجينوسار، لاكتساب تجربة كافية في الشمال، قبل أن يتسلم هذا المنصب المهم.

لقد خدمت في هذه الوظيفة (المؤقتة) ست سنوات كاملة. إلى أن تم تعييني نائبا لرئيس جهاز الأمن العام.

وفي كانون الأول ١٩٨٠ أنهي أحيطوف مهمته وعين بدلا منه نائبه ابراهام شلوم الذي كان آنذاك يشغل منصب رئيس شعبة الحماية، والذي كان رجل عمليات بالفطرة. ومنطويا على نفسه، ويسعى للكمال.

هاجر ابراهام شلوم في طفولته مع ذويه من برلين، ووالده ابن لعائلة إسبانية ثرية. ووالدته من عائلة يهودية إيطالية. وفي سنوات الأربعين خدم في "البلماح" ولم يبرز خلال خدمته تلك، بشكل خاص. بيد أنه كان شديد الانضباط. وفي أعقاب الحرب. جنده إيسر هرئيل للمخابرات. وكان شديد الإخلاص للعمل، ويجيد الألمانية والإنجليزية، وإزاء إجادته للإنجليزية، ضمه هرئيل إلى الطاقم الذي ألقى القبض على إيخمان في الأرجنتين.

وأكثر ما يميز شلوم-مثلما أكد ذلك الكثيرون-هو أنه لا يتمتع بأي ميزة. لقد كان من الأشخاص الذين يشكلون حضورا تاما أحيانا. وأحيانا تكاد لا تراهم. ليس لأنهم فارغون. بل لأنهم لا يثيرون لديك إحساسا بضرورة إلقاء نظرة ثانية على شخصياتهم.

حافظ شلوم على قدر كبير من البعد عن الآخرين، وكان يتحدث مع الغالبية. في قضايا العمل. وبلهجة حاسمة: ومن الجدير بالذكر. أن أعضاء الجهاز يعيشون شعورا أسريا ويتبادلون الانتقادات. لكن إبراهام شلوم لم يكن يشارك في ذلك أبدا.

وعندما كان يدعى إلى مناسبات اجتماعية حرص على حضورها، بيد أنه حرص أيضا على البقاء جامدا عن بعد.

وكان شلوم أيضا، يتمتع بعين نفاذة بشكل مدهش، وهو الذي أنشأ شعبتي العمليات والحماية. بل ويمكنني القول، أنه أحد الأشخاص الجذريين وواسعي الأفق الذين قابلتهم في حياتي. إضافة إلى قراءاته الواسعة وخبرته الاقتصادية، ولم يكن لديه أصدقاء كثيرون. وكان يقضي ساعات الفراغ القليلة، في الإبحار مع ابنه الضابط في سلاح البحرية. في زورقهم الراسي في أحد مرافئ تل أبيب.

تسلم شلوم قيادة الجهاز بمنتهى الشدة والطاقة، ونجح في الحفاظ على الأنماط التي اتبعها سابقوه، وتحسين الأداء، وتحسين مكانة المخابرات في أوساط الأجهزة الاستخبارية. وكانت الجهات السياسية المختلفة تكن له الكثير من التقدير. فقد كانت تحليلاته للوضع دائما، واضحة ودقيقة، وعندما كان ينهض للحديث كان الهدوء يخيم على القاعة. وقد ازداد هذا التقدير، إبان الحرب اللبنانية.

لقد حاولت، في أعقاب كل لقاءاتي معه تحليل طبيعة تفكيره، بيد أن ذلك لم يكن سهلا فقد كان رجلا عنيدا، ويتمسك بنظرياته، وكثيرا ما دهشت لمسلكيته الغريبة. وذات مرة زرت وإياه منطقة المسجد الأقصى، التي كانت قد شهدت حوادث شديدة. بدا الوضع وكأنه ساحة حرب، وعندما مررنا أمام أحد جنود حرس الحدود، الذي بدا وكأنه خرج لتوه من ساحة القتال، مهلهل الملابس، أشعث، مرهقا. توقف شلوم أمامه بسيارته، وصرخ عليه قائلا: "اعتمر قبعتك فورا، هل تسمع". لقد كاد الجندي الذي لم يميز من هو الشخص الذي يتكلم معه، أن يكيل له لكمة.

هب شلوم للتحقيق في قضية الحركة السرية والذي بدا أنه تجمد. حيث لم يضف أي معلومات جديدة. وفي أيار ١٩٨١. كلف روبن حزاك. رئيس شعبة التنسيق والتخطيط-والذي أصبح فيما بعد نائبا لرئيس الجهاز-بمتابعة التحقيق. وبعد عدة أسابيع. شكل حزاك طاقما برئاسته. لمتابعة التحقيق. وكان أبرز أعضاء الطاقم كرمي جيلون. الذي ترأس القسم اليهودي. وقد عكفنا في هذا الطاقم الذي عمل حتى نهاية التحقيق على التحليل. والدراسة. والتخطيط التنفيذي. وتفعيل المصادر. واستقاء العبر. وفي غضون فترة قصيرة. بدأت المعلومات تتدفق علينا. وهو الأمر الذي تطلب منا تمحيصا ودراسة بصورة جادة. وقد سمح مستوى أعضاء الطاقم. باتخاذ القرارات الفورية وإعطاء أوامر تنفيذ المهام. دون انتظار. مع اتفاقنا على توخي أقصى درجات السرية.

من يقرأ مجلات النساء؟؟

طرأ تحول مفاجئ في الثامن والعشرين من أذار ١٩٨٢على التحقيق. فقد استدعي كهربائي من القدس. لإجراء إصلاحات في المبنى الإداري "لكريات أربع". وبينما كان يقوم بعمله في الطابق الثالث. اكتشف زرا صغيرا. ما كاد يضغط عليه. حتى انزاح غطاء خشبي كان يغطي حفرة مظلمة. فأزاح الكهربائي لوح الخشب. وعثر داخل الفتحة على كيس من البلاستيك وفيه قفازات مطاطية ورزمة ملفوفة بعدة أوراق من الجريدة النسائية (أت). ومن داخل هذه الرزمة برزت خيوط كهربائية. خشي الكهربائي أن تكون هذه الرزمة عبوة ناسفة. وسارع لاستدعاء الأشخاص الموجودين في الإدارة: المستشار الاقتصادي وطبيبة نفسية. ورئيس إدارة "كريات أربع" زئيف فريدمان.

وعندما فتح فريدمان الرزمة. عثر في داخلها. على عدة قطع (تي ان تي). لكنه لم يعثر على صواعق أو ساعة توقيت. وقد أمر ضابط الأمن بتسليمه إلى الشرطة. وقد اتضح لنا فيما بعد. أن فريدمان. أخفى قسما من العبوة التي عثر عليها.

فحصنا ما تم العثور عليه. وعثرنا فيه على شيء واحد: جعلنا نعتقد أننا وصلنا أخيرا إلى الخيط الذي قد يساعدنا في التحقيق. فالأوراق التي لفت بها العبوة. أخذت من مجلة (أت) الصادرة في أيار ١٩٨٠-أي في موعد قريب من عملية الحركة السرية اليهودية. واعتقدنا أن إخفاء العبوة جاء نظرا لأن الفاعلين لم يتمكنوا-من استخدامها. أو أنهم أخفوها هناك إلى حين استخدامها لاحقا وافترضنا أن عائلة الشخص الذي أخفى العبوة، تقرأ مجلة (أت)، فتوجهنا إلى موزع المجلة، وطلبنا منه أن نعرف أسماء المشتركين في "كريات أربع"، ففحص سجلاته. وقال أنه باع سبعة أو ثمانية أعداد في أيار ١٩٨٠. في "كريات أربع"، بيد أنه لا يتذكر من اشتراها. فحصنا فيما إذا كان فريدمان، أو أي جهة من موظفي إدارة "كريات أربع"، قد اعتاد قراءة (أت) فكانت النتيجة سلبية.

أرسلنا مجموعة من رجالنا لإجراء استطلاع وهمي في "كريات أربع" حول مدى جدوى الإعلان في (أت) كي نكتشف من الذي يقرأه، وأيضا دون جدوى. فحصنا فريدمان بجهاز كشف الكذب، وخلصنا إلى استنتاج مفاده أن فريدمان وضابط الأمن قد يكونان مسؤولين عن الاحتفاظ بالعبوة وإتلاف أدلة وليس أكثر. فقدمناهما إلى المحكمة التي حكمت على الأول بالسجن لمدة تسعة أشهر مع وقف التنفيذ، وعلى الثاني لستة أشهر مع عدم التنفيذ. وهكذا عدنا إلى نقطة البداية في القضية.

وفي السابع من تموز ١٩٨٣. طعن ثلاثة أشخاص طالب المدرسة الدينية أهارون جروس بالسكاكين قرب سوق الخليل. وأخذوا سلاحه وفروا من المكان. وبعد عدة ساعات قدم وزير الدفاع ورئيس الأركان. وأنا في طائرة هليوكبتر إلى مكان الحادث. وهناك هاجم المستوطنون الوزير موشيه آرنس. وقد خلصه الجنود المتواجدون في المكان. وفي نفس الليلة. هاجم مستوطنو "كريات أربع" سوق الخليل. وأضرموا النار في العديد من محلاته.

قدرنا. إزاء هذا الوضع. أن الحركة اليهودية السرية ستعود لتوجيه ضربة جديدة انتقاما لمقتل جروس. لذا. عمدنا إلى تعزيز جهازنا التنفيذي والاستخباري. بيد أننا لم نعثر على أي دلائل تشير إلى احتمال تنظيم عمليات انتقامية. وكان طاقم التحقيق بقيادة حزاك. يعقد جلسة أسبوعية أو أكثر عند اللزوم.

تنبهنا خلال عملنا في فحص المعلومات المتواردة إلينا. إلى أن شخصا يدعى اسحق خيبرم. من مستوطنة "رمات مجشميم". والمسمي (أقله) سينقل أشتالا للزراعة من هضبة الجولان إلى مناحم ليبني. الذي يترأس رابطة استئناف العمليات الاستيطانية في الضفة الغربية. لزراعتها في مستوطنة "سوسيا" الواقعة في جنوب جبل الخليل.

وبدا. لأول وهلة. أن الأمر عادي وليس فيه أي شيء غير طبيعي. فالمستوطنون في "سوسيا" بحاجة إلى أشتال. وفي هضبة الجولان هناك شروط جيدة للزراعة. بيد أن السؤال الذي طرح نفسه هو: أليس من الغريب أن يتم نقل هذه الأشتال كل هذه المسافة الطويلة مع أنه بالإمكان الحصول عليها من مكان قريب. دون صعوبة تذكر؟؟ والأغرب من ذلك. أن النقاش حول نقل الأشتال. تحول بين الاثنين

إلى نقاش يومي.وبناء على ذلك. طرح في مرحلة معينة. في أوساط الجهاز. أن الأشتال ليست سوى أسلحة ومتفجرات يعتزم الاثنان نقلها من مخبأ إلى آخر. وهكذا. سارعنا إلى وضع رقابة على (جينرم وليبني) ومقربيهما.

كان ليبني أحد الزعماء البارزين في أوساط مجموعة متطرفي "غوش أمونيم". وقد خدم في الجيش الإسرائيلي. وأنهى دورة ضباط. وعمل كضابط تجارب في وحدة كانت تعمل على تطوير المعدات الخاصة. وفي أعقاب دراسة هندسة سيارات في كلية الهندسة التطبيقية. سكن في "كريات أربع". وكان صامتا وعنيدا وذا ثقة كبيرة جدا بالنفس. وقدرة على قيادة الآخرين.

وضعنا رقابة أيضا على عدد من الضباط الآخرين وانتهجنا العديد من الأساليب للحصول على معلومات حولهم قد تؤدي إلى كشف أي علاقة بينهم وبين عملية وضع القنابل في سيارات رؤساء البلديات، جمعنا كما كبيرا من المعلومات. وفي السادس والعشرين من تموز ١٩٨٣ ، بات واضحا: أن الحركة السرية ستضرب ضربتها عاجلا. وسرعان ما حدث ذلك في الكلية الإسلامية في الخليل. حيث قام مجهولون بإطلاق النار وإلقاء القنابل اليدوية على الكلية، مما أدى إلى مقتل ثلاثة أشخاص. وإصابة ثلاثة وثلاثين آخرين بجراح.

كنت. آنذاك. مع وزير الدفاع، عندما وصل النبأ وقطع حوارنا. وقد طرت بصحبة رئيس الأركان إلى مكان الحادث. وقد أعلمنا شهود عيان: أنه كان بحوزة المنفذين بنادق كلاشينكوف، وأنهم فروا من المكان بسيارة من طراز بيجو تجارية. ذات لون أبيض. وقد أكدت جميع الأدلة. أن المنفذين استخدموا أسلحة خاصة بالجيش الإسرائيلي. وأنهم مدربون جيدا.

لم نستطع التحقيق مع أي شخص ممن كنا قد وضعنا عليهم الرقابة. نظرا لعدم وجود أي أدلة تجرمهم. ولإدراكنا أنهم لن يعترفوا بأي شيء طالما لم تتوفر الأدلة. أضف إلى ذلك. أن غالبية المشبوهين. كانوا نشطاء جماهيريين. وهذه النشاطات تشكل غطاء جيدا لعملهم السري.

حقا. كان لدينا عملاء في أوساط المستوطنين. لكننا كنا نعتقد أن هؤلاء العملاء. قد يزودوننا بمعلومات مضللة إذا كانوا أقرب إلى المستوطنين منا. ونظرا لعدم كونهم من بين الوسط المباشر. أو حتى غير المباشر للمنفذين. فقد أدركنا. أنهم لن يكونوا مجديين لنا. ولن يأتي الخلاص على أيديهم. لذا لم يكن أمامنا من خيار. سوى مواصلة جمع المعلومات ومقارنتها وتعزيزها. مع الإدراك بأن الفاعلين سيقعون إن عاجلا أم آجلا. في أيدينا.

مضى شهر منذ عملية الكلية الإسلامية. وفجأة وصلت إلينا معلومة تبشر بأننا أحرزنا تقدما كبيرا. فقد أعلم ضابط رفيع المستوى. أحد رؤساء شعب الجهاز. إن شخصا ما–وصفه بأنه صديق حميم–قدم إليه. وعرض أمامه خطة لتفجير المسجد الأقصى. وكشف له النقاب عن أن بحوزة المنفذين. جميع المواد التخريبية اللازمة لإخراج الخطة إلى حيز التنفيذ. ورغم أن الضابط رفض إطلاعنا على اسم (الصديق) إلا أن التحقيق المعقد الذي أجريناه. قادنا إلى أن هذا الصديق هو يشوعا بن شوشن.

وبن شوشن قصير القامة. يناهز الثامنة والثلاثين. من مواليد القدس. ويعمل في مجال تدريس التوراة. وكان يثير الاحترام لدى كل من يتصل به. وعندما التحق بالجيش. أرسل إلى وحدة (شيكد) كمراقب للطعام. بيد أنه طالب بأن نجعله جنديا. وقد تصادق رئيس الوحدة معه. واستجاب له. بل وأرسله إلى دورة ضباط.

وخلال حرب ١٩٧٣ أصيب إصابة بليغة وعندما تماثل للشفاء أصبح أحد نشطاء "غوش أمونيم". وعين فيما بعد ضابط دفاع قطريا.

وعندما تحققنا من أمره. وجدنا اسمه ضمن القائمة التي نتابعها: بوصفه أحد المتطرفين اليمينيين، تلك القائمة التي تضم أسماء أحد عشر شخصا: وكان جميع هؤلاء الأشخاص. يرتبطون إلى بعضهم البعض بعلاقات اجتماعية وطيدة. ويعتبر يهودا عتصيون أحد أبرز هؤلاء الأشخاص. والذي يمكنه أن يمسك عصا القيادة-حسب تقديراتنا-لأي مجموعة متطرفة، لتنفيذ أي عملية في الضفة.

وعتصيون خريج المدرسة الدينية (مركان هرب)، وجندي سابق في وحدة الهندسة العسكرية، وأحد مؤسسي مستوطنة "عوفرا".

وبدت وجهات نظره الخاصة بالخلاص اليهودي بعيدة المدى، ولم يتردد في التأييد العلني للقيام بعمليات ضد العرب. وقد عاد اسمه ليظهر أمامنا فيما يتعلق "بجبل البيت" إبان جمعنا معلومات حول بن شوشن. فقد أخبرتني جهة موثوقة-أن يهودا عتصيون. سلم زوجة بن شوشن مفتاحا، وطلب منها أن تحتفظ له به. حتى يأتي لأخذه ذات يوم. كان ذلك المفتاح لمخزن كبير للأسلحة. أقامه عتصيون في القدس.

ومن الجدير بالذكر. أن جهاز الأمن العام، اقتحم فيما بعد، هذا المخزن. وأخذ الأسلحة الموجودة فيه وسجل علامات إطلاق النار الموجودة عليها في أحد المختبرات، بغية مقارنتها مع العلامات التي ستكون على العيارات النارية التي سيستخدمها أعضاء الحركة السرية في المستقبل. وقد تمت إعادة الأسلحة إلى المخزن دون أن تشعر أي جهة بشيء. لكننا لم نحتج إلى هذه الدلالات، لأن أعضاء المجموعة. اعتقلوا قبل أن تستخدم الأسلحة.

خلق لنا أحد الأشخاص الذين نتابعهم مشكلة فنية، فقد كان يعيش في السكن الداخلي للمدرسة الدينية (مركان هرب) في القدس. الأمر الذي جعل من الصعب العثور على نقطة رقابة له في هذه المنطقة الدينية الحساسة. لذا، لم يكن هناك مناص من إقامة هذه النقطة، في فندق هيلتون، الواقع على بعد حوالي كيلومتر من المدرسة. وكان من الصعب تمييزه من هناك. نظرا لأن ملابس جميع طلبة المدرسة موحدة وكان المشبوه يمتلك دراجة نارية قديمة. اعتاد التجوال بها في ساعات المساء في القدس. مما جعل مسألة ملاحقته في القدس المكتظة، شبه مستحيلة. وكأن الأمر لا يكفي. فقد بدأ في فترة ما. يستخدم دراجات سباق. وفي حالة اصطدامه بشاخص يحظر دخول وسائل النقل. كان يحمل دراجته على ظهره، ويقطع بها هذا الشارع ثم يعاود ركوبها والتجوال.

تواصلت عملية ملاحقته. وذات يوم وصل المراقبون وهم يتابعونه. إلى مبنى سكني متعدد الطوابق في مفترق طريق "كيرن هيسود.وشلوم عليخم". وقد دخل إلى ساحة المبنى وأوقف دراجته جانبا. وأخذ يتجول فيه منحنيا إلى الأرض بين الفينة والأخرى وكأنه يلتقط شيئا ما وقد اقترب المراقبون منه لمعرفة ما يفعل. بيد أنه سارع إلى مغادرة المكان.

اعتقد المراقبون أنه كان يدفن في أماكن معينة شيئا ما. أو تعليمات تتعلق بالحركة السرية. وعندما تم فحص الساحة. اتضح أنه كان يتأكد من صنابير المياه لأنه يعمل جنائنيا في المبنى.

مرهم صيني لإزالة الآلام

تواصلت عمليات متابعة المشبوهين دون كلل أو ملل. وقد اكتشف أعضاء الوحدة التنفيذية التي تقوم بأعمال المراقبة. أن اثنين من المشبوهين وهما: شاؤول نير وبنيامين تسيدون. يقومان بزيارة حوانيت لبيع طائرات شراعية وصغيرة في تل أبيب وبيتح تكفا. وأنهما يبديان اهتماما بشراء طائرة، تستخدم بجهاز سيطرة عن بعد. وأجهزة راديو ذات قناتين. وقد زعما في أحد المحلات. أنهما يريدان الطائرة للتنقيب عن النفط. وزعما في محل آخر. أنهما يريدان الطائرة والراديو لابن أحدهما. الذي يجتاز دورة جوية في كتائب الشبيبة. بيد أنهما لم يشتريا الطائرة. ولم نعرف ما الذي كانا يخططان له.

وبينما كنا نواصل نحن. تحقيقاتنا وقعت حادثة شديدة الإحراج لنا. فقد لاحظ حراس الوقف اقتراب أربعة أشخاص إلى المسجد الأقصى خلسة. فطاردوهم. وحينئذ ترك الأربعة المواد التي كانوا يحملونها وفروا من المكان.

أثار هذا الحادث شعورا بعدم الارتياح لدينا. فقد وضعنا قائمة بأسماء المشبوهين وتعقبناهم. وأمرنا رجالنا بألا يدعوهم يغيبون عن أعينهم ليلا ونهارا. وأملنا أن نتمكن من إلقاء القبض عليهم متلبسين، وها هم يقومون بمحاولة لتنفيذ عملية جديدة في المسجد الأقصى. رغم كل ما فعلناه. وقد ازداد الشعور بالإحباط. عندما اتضح لنا. أن من بين المواد العسكرية والمتفجرات التي تركها الفارون الأربعة. خلفهم. مرهما صينيا لتخفيف آلام الرأس. ومن خلال المعلومات التي جمعناها. علمنا أن مناحم ليبني. يعاني من آلام رأس مزمنة. وسألنا أنفسنا: كيف نجح في التملص من المتابعة؟؟ ونظرا لأننا كنا نتلقى تقارير متواصلة حول جميع تحركاتهم ليلا ونهارا.

فقد خرجنا بانطباع مفاده. أن أيا من المشبوهين. لم يكن أحد الأربعة الذين حاولوا تدمير المسجد الأقصى.

لقد تمكنت الشرطة فيما بعد من إلقاء القبض على الأربعة الفارين. واتضح أن أيا منهم ليس مدرجا على قائمتنا. لقد كان الأربعة يسكنون في (لفتا) في مبان بائسة. وحققنا معهم. فاتضح لنا أنه لا علاقة لأي منهم بالحركة السرية.

شعرنا بالارتياح إثر ذلك. خصوصا وأن الأشخاص الذين نتابعهم كانوا يتصرفون بصورة طبيعية. الأمر الذي جعلنا نعتقد أنهم لا يعرفون بأنهم ملاحقون. لذا. كانت القضية قضية وقت. حتى نضع أيدينا على المشبوهين.

اتخذنا. في تلك الآونة. جميع الإجراءات. توطئة لاحتمال اعتقال المشبوهين. فحددنا ثلاثة أماكن للتحقيق. وأعلمنا رئيس الحكومة اسحق شامير. الذي تعامل مع القضية بألم بالغ-فقد كان يدرك بوصفه عضوا سابقا في حركة ليحي السرية. مدى إصرار هؤلاء الأشخاص على تنفيذ العملية التي يسعون لتنفيذها. ومدى احتمال أن يبالغوا في ذلك. وأكثر ما ضايقه هو حقيقة أن هؤلاء الأشخاص هم متدينون. ويؤمنون "بأرض إسرائيل الكاملة".

ثلاثة يهود وعبوة ناسفة

نيسان ١٩٨٤!

مضت أربع سنوات منذ بدء التحقيق. وأخيرا وصلتنا. في السادس والعشرين من نيسان المعلومة التي انتظرناها طويلا. فقد أعلمنا أحد مصادرنا. أن هناك استعدادات لتنفيذ عملية. فقد شوهد ثلاثة من المشبوهين وهم يقومون بتحميل عدة

رزم في سيارة خاصة. في "كريات أربع". وقد اتجهت السيارة باتجاه القدس، وسارع رجالنا بتعقبها.

كان ذلك في إحدى ساعات الليل المتأخرة، الأمر الذي جعل عملية المتابعة صعبة. نظرا لقلة السيارات في تلك اللحظات في القدس. وفي بعض الحالات. لم يكن هناك. على الطريق. غير سيارة المشبوهين وسيارة جهاز الأمن العام. التي تتعقبهم. الأمر الذي قد يثير شكوك المشبوهين. ولهذا السبب، عمد رجال الجهاز، للقيام بالعديد من المناورات كاستبدال السيارات، وكان رئيس الشعبة التنفيذية أيهود يتوم. يشرف على عملية المتابعة. في حين أشرفت أنا. على قيادة العملية في منطقة القدس. أما رئيس الجهاز ابراهام شلوم فكان يتابع العملية من منزله.

مارس الكثير من رجالنا المرتبطين بالتحقيق ضغوطا علي كي آمر بإيقاف السيارة المشبوهة واعتقال من فيها. بدعوى أن من المؤكد أننا سنعثر على المتفجرات فيها. وحثوني على ذلك قائلين: "يجب أن نقوم بالاعتقال في أسرع وقت ممكن. قبل أن تثور شكوك المشبوهين ويتملصوا منا".لكنني أصررت على الانتظار قائلا: "إذا كان الثلاثة يريدون تنفيذ عملية حقا. فإنني مصر على ضبطهم ساعة وضع المتفجرات، لأن التلبس سيكون أفضل دليل يمكن الحصول عليه".

وفي حوالي الساعة الثانية فجرا، وصلت سيارة المشبوهين إلى موقف سيارات في حي عربي في القدس الشرقية. وقد ترجل الثلاثة منها، ووقفوا بجوار خمس حافلات عامة. كانت تقف في الموقف، ينتظرون الوقت المناسب لوضع العبوات الناسفة فيها. ثم يعودون إلى سيارتهم.لكننا لم نعتقلهم فورا، فقد كان من المهم، بالنسبة لنا. أن نعرف ما إذا كانوا يعتزمون تنفيذ عملية أخرى أم لا. لكن يبدو أنهم أتموا

مهمتـهم. ورغـم ذلـك. تابعنـاهم حتـى وصلـوا إلى مـنزل في حـي "رمـات اشـكول". وهنـاك سـددنا عليـهم المنـافذ واعتقلنـاهم. وهـم الأخـوان شـاؤول وبـاراك نـير مـن "كريـات أربـع". وعـوزي شـريف مـن القـدس. ونسـيب الحاخـام لفينجـر.

دفعنـا الثلاثـة المذهولـين إلى مدخـل إحـدى العمـارات. ووضعنـا القيـود في أيديـهم. وقـد اعـترفوا بوضـع العبـوات الناسـفة. لكنـهم رفضـوا الاعـتراف بهويـة الذيـن أرسـلوهم.

بقـي أمـر واحـد. فقـد وضعـت العبـوات في الحـافلات الـتي كـانت علـى وشـك الانطـلاق. وقـد بـدت تلـوح في الأفـق. أشـعة الشـمس الأولى. الأمـر الـذي تطلـب العمـل بسـرعة لمنـع حـدوث الانفجـار وإلحـاق الأذى بحيـاة الآخريـن.

وكنـا نـدرك مـن تجربتنـا. أن العبـوات الناسـفة تـزرع بذكـاء كبـير. كـي يصبـح مـن الصعـب تفكيكـها. دون إصابـة الشـخص الـذي سـيقوم بـالتفكيك. وقـد توجـه رجـال الجـهاز إلى شـاؤول نـير وقـالوا لـه: لقـد تابعنـاكم طيلـة الليـل. والآن أرونـا أيـن وضعتـم العبـوات. وإذا لم تفعلـوا ذلـك. سـيؤدي الوضـع إلى مقتـل خـبراء المتفجـرات التـابعين للجيـش والشـرطة". ويبـدو أن نـير اسـتعاد رباطـة جأشـه مـن الصدمـة وقـال: حسـنا سـأريكم أين وضعنا المتفجـرات. كـل الاحـترام لكـم. أنتـم أفضـل جـهاز أمـن في العـالم".

عدنـا إلى الموقـف. ولدهشـتنا البالغـة لم نجـد سـوى أربـع حـافلات. أمـا الحافلـة الخامسـة فقـد انطلقـت في طريقـها لنقـل المسـافرين. فأرسـلنا عـددا مـن رجالنـا لملاحقتـها. وقـد عـثروا عليـها علـى بعـد قليـل قبـل أن تحمـل الركـاب. هـذا في الوقـت الـذي بـدأ الثلاثـة بتفكيـك العبـوات الناسـفة بسـلام.

حرصنا طيلة فترة متابعة المشبوهين على عدم إعلام أي جهة بما يجري. وحال اعتقالهم. استدعيت إلى مكتبي المستشار القضائي للحكومة. وقائد شرطة لواء القدس. وضباطا. رفيعي المستوى. من القيادة القطرية. وأطلعتهم على ما حدث.

وفي الساعة الخامسة صباحا. استصدرنا أوامر اعتقال ضد جميع المشبوهين الذين رغبنا في اعتقالهم. ولم تكن تتوفر لدينا أدلة ضدهم. والبالغ عددهم سبعة وعشرين شخصا. منهم خمسة وعشرون من حركة "غوش أمونيم"، وقد تم تنفيذ عمليات الاعتقال. على دفعتين. في آن واحد. في القدس وإسرائيل والضفة الغربية وهضبة الجولان.

كان مناحم ليبني في مكتبه. عندما قدم إليه أحد رجال جهاز الأمن العام وطلب منه أن يرافقه وكانت والدة الأخوين نير. قد اتصلت به قبل فترة وجيزة وسألته عما إذا كان يعرف أين إبناها؟؟ وقالت إنها تحاول العثور عليهما منذ ساعات الصباح الباكر. دون جدوى وقد ثارت مخاوف ليبني، خشية أن تكون العبوات قد انفجرت. وقتلت الثلاثة.

وقد أعلمه رجل جهاز الأمن العام. أن الجهاز على علم بالدور الذي لعبه. خصوصا على صعيد زرع العبوات في الحافلات. فقال ليبني: "لا علم لي بما تتحدث عنه".

لم نعمد إلى اعتقال يهودا عتصيون فورا، بل تركنا له فسحة من الوقت. تصل إليه فيها الأنباء حول اعتقال زملائه. وبدء تضييق الخناق حول رقبته على أمل أن يدفعه ذلك. للمسارعة إلى مخزن المتفجرات لتفريغه ونقله من مكانه وحينئذ نضبطه متلبسا. بيد أن عتصيون خيب آمالنا. ولم يتحرك حتى قبضنا عليه.

أخذ رجال الجهاز يدقون على أبواب المنازل والمصانع وأماكن العمل الأخرى. ويعتقلون المشبوهين الذين بدوا شديدي الدهشة. ولم نلق أي مقاومة. بل لقد قالت لنا زوجة أحدهم: الحمد لله أنكم جئتم أخيرا. لقد انتهى الكابوس الآن.

كان يشوعا بن شوشن من بين المعتقلين الأوائل. وقد حققت أنا معه. وطلبت أن أعرف كل شيء عن خطة تفجير المسجد الأقصى. فطلب أن أضمن له عدم تقديم الأشخاص ذوي العلاقة للمحاكمة مقابل شهادته. لكنني أوضحت له. أنني لا أستطيع منحه مثل هذا الوعد-لقد زعم في محاكمته. أنني وعدته بذلك. ونكثت وعدي.

كشف لي بن شوشن النقاب. عن أن فكرة تدمير المسجد الأقصى ولدت في عقل دان باري-٣٩ سنة- وهو من مواليد فرنسا وابن لعائلة كاثوليكية، لكنه تهود وهاجر إلى إسرائيل. وقد كانت لديه مخططات بعيدة المدى. حول خلاص إسرائيل: ورسالتها المسيحية. وحول ضرورة الإخلال بالتوازن القائم بين الأديان في البلاد لصالح اليهودية. وقد اعتبر المسجد الأقصى بمثابة (رجس). وفقا لما هو وارد في سفر دينيئيل. وقد طرح أمام مناحم ليبني ويهودا عتصيون. ويشوعا بن شوشن فكرة تدميره. وقد استحوذت الفكرة عليهم تماما. وفي أعقاب عملية رؤساء البلديات اعتقدوا أن هناك ضرورة لتنفيذ عملية مماثلة للفكرة التي طرحها باري.

وقد بدأ ليبي الاستعداد لذلك. فجند بوسي تسوريه-وهو ضابط احتياط في لواء جولاني ونتن نتنوز-سكرتير "جوش أمونيم". وضابط اتصال الحركة مع الكنيست. وشاؤول نير.

وقد عقدت المجموعة اجتماعا في أحد مزارع "الأفوكادو" في هضبة الجولان. ثم قامت بأعمال الرقابة للمكان. والتقطوا صورا للمسجد من زوايا مختلفة: من جبل

الزيتون. ومن سطح المدرسة الدينية بالقرب من حائط البراق، ومن حديقة عامة صغيرة تقع بالقرب من مستشفى "أوغستا فيكتوريا". ودرسوا طبيعة الحراسة على المسجد الأقصى. وخططوا طريق الانسحاب. وقرأوا كل ما كتب حول المسجد. ومحتوياته وكنوزه ومكتبته.

وعندما شرعوا بالتخطيط للعملية نفسها، طرحت العديد من الاحتمالات. ومن ضمنها اقتحام المسجد بسيارة مدرعة. والقدوم إليه في صورة جنود وإخلاء المصلين بدعوى وجود عبوة ناسفة. واستغلال الذعر الذي سيسود لزرع العبوات الناسفة. بل لقد درسوا أيضا فكرة قصفه جوا وتدميره.

بعد التنظيم السري..

أجرت المجموعة حسابات دقيقة أيضا لتحديد الأماكن الأنسب لزرع المواد المتفجرة بصورة تجعل الأضرار كبيرة إلى حد كبير جدا. وقد توصلوا في نهاية المطاف إلى استنتاج مفاده. أنه إذا ما صنعوا صناديق بصورة معينة وملؤوها بالمواد المتفجرة وألصقوها إلى جدران الحافلة: فسوف تفعل فعلها. على أفضل وجه، وقاموا لهذا السبب. بتفصيل سبعة وعشرين صندوقا من هذا النوع: لدى مصنع في بلدة (نستسيونا)–وادي حنين. ليتسع كل منها لـ (٣٥٠) غراما من المتفجرات البلاستية. وقاموا بسرقة وعاء يسمى بالعبرية (تسيفع)–الثعبان–وهو وعاء مليء بمئات الكيلوغرامات من المتفجرات: ويستخدم في شق الطرق للمدرعات في حقول الألغام وتدمير أسيجة شائكة معقدة. وقد تم دفن (تسيفع) في منزل أحد المعتقلين في (كفار نوب)–وقد عثرنا على الصناديق مخفية في منزل معتقل آخر. واكتشفنا مخبأه وفيه مسدسات مزودة بكواتم صوت لحماية زارعي العبوات الناسفة في المسجد.

لقد تم تجميد خطة تدمير المسجد. في نهاية الأمر: بعد أن قال بعض الحاخامات المقربين إلى أعضاء الحركة السرية. خلال المشاورات التي جرت معهم. إن الشعب ليس جاهزا في الآونة الحالية لعملية من هذا القبيل. وأن من الجائز وقوع العديد من الضحايا خلال هذه العملية.

قبلت المحكمة المعلومات التي جمعها جهاز الأمن العام خلال عمله. والتي لولاها. ولولا ضبط المتهمين في حالة تلبس. لأصبح من الصعب جدا إدانة المتهمين. لقد

أثبتت تجربتنا. أن الأشخاص الذين يعملون بمبررات أيديولوجية. يصمدون في التحقيق. ويصبح من الصعب استخلاص اعترافات منهم.

حكم على أعضاء الحركة السرية السبعة والعشرين بالسجن لفترات مختلفة تتراوح بين خمسة وعشرين شهرا وحتى المؤبد. وأصدر رئيس الدولة حاييم هرتسوغ العفو عن اثني عشر شخصا منهم بعد أن أعربوا عن ندمهم على ما اقترفت أيديهم.

وفي أعقاب انتهاء هذه القضية. أردنا معرفة عدد الساعات التي قضيناها في حل قضية الحركة السرية. وقد وجدنا أن رجال شعبة العمليات في الجهاز قضوا خلال الفترة الواقعة بين تموز ١٩٨٣ ونيسان ١٩٨٤. ثلاثين ألف ساعة عمل. استخدموا خلالها أكثر من مائة اسم شيفري لأشخاص وعمليات.

بدت التركيبة البشرية لرجال الحركة السرية فريدة من نوعها. فقد كانت غالبيتهم مثقفة وخريجي المدارس الدينية. والجيش الإسرائيلي. وممن يمثلون الأيديولوجية الصهيونية الدينية. وهو الأمر الذي يعكس مدى صعوبة زرع عملاء في مثل هذه الجهات المتطرفة.

أضف إلى ذلك. أن مثل هؤلاء الأشخاص يدركون. أن جهاز الأمن العام يطلق عيونه خلفهم. لذا نراهم شديدي الحرص والشكوكية ويتفحصون بدقة بالغة كل من يرغب في الانضمام إليهم. ويتنبهون لكل من يطرح الكثير من الأسئلة. وعندما يعثر الجهاز على جهة ما. يمكنه زراعتها في أوساط هذه الفئات. لا يجد امامه مناصا من قبولها دون التفكير في عملية الاختيار. ومن هنا. يمكننا ان نتفهم مدى الصعوبة في تفعيل اشخاص ذبيشاي ربيب الذي برز اسمه في اعقاب مقتل اسحق رابين.

وعندما يتحدث جهاز الأمن العام عن اليمين المتطرف. فإنه لا يقصد بذلك الجهات اليمينة العاملة على صعيد الخطوات الاحتجاجية حتى لو كانت تصريحاتهم شديدة اللهجة. فلو أن زعماء مجلس المستوطنات. دعوا إلى إغلاق محاور الطرقات احتجاجا على الاتفاق مع الفلسطينيين. فإن الجهاز لن يوليهم أي اهتمام.

وجهاز الأمن العام. يضع في قائمة اليمين الأشخاص المنفردين أو المجموعات التي تتبنى نظريات مسيحية مثل تعجيل الخلاص لإسرائيل عبر أعمال العنف. أو الجهات التي ترفض صلاحيات مؤسسات السلطة المنتخبة. بسبب النظريات العنصرية أو الدينية أو الأصولية التي تتبناها.

والأهداف التي تقود وتوجه الجماعات اليمينة ليست موحدة. ويمكن أن تتضمن سلسلة العوامل التالية أو بعضها: إلغاء النظام الديموقراطي في الدولة. وتطبيق احكام التوراة بمفهومها اللغوي. الإطاحة بالعرب وإبعادهم لأسباب عنصرية. تسريع مسيرة الخلاص اليهودي واتخاذ خطوات على أرض الواقع لإقامة الهيكل. ومن الجدير بالذكر ان هناك حاخامات إسرائيليين يعتبرون تسليم أراضي من أرض اسرائيل. إلى الغرباء شبيه بسفك الدماء. ورغم أن هذا الرأي غير شائع في أوساط جميع الحاخامات. الا أن أصواتهم غير مسموعة ازاء القلة التي تتبناه.

وعلى غرار جميع التنظيمات الاخرى. هناك درجات متفاوتة من التطرف في اوساط المنظمات اليهودية اليمينيه. ففي أعقاب إخراج حركة (كاخ) عن القانون. اسست على أرض الواقع حركتين. اعتبرت كل منهما نفسها استمرارا لنظرية مائير كهانا. مؤسس حركة (كاخ). وتضم الحركتان شخصيات مهووسة سريعة الغضب-تم

استيرادها-من الولايات المتحدة ومصاحبتها مع متطرفين محليين.و الجهتان لا تتورعان عن استخدام جميع الوسائل المذمومة في سبيل طرد العرب من البلاد.

وهناك مجموعات على غرار "أمناء جبل البيت".والتي قررت انتهاك الوضع الراهن في هذا المكان، شديد الحساسية، بأساليب لا يمكن اعتبارها لدى الأوقاف الإسلامية. سوى ممارسات تحريضية.

وإضافة إلى أولئك الذين يخططون بأدق التفاصيل لبناء الهيكل. بل ويخيطون ملابس الكاهن الأكبر. تعمل مجموعات متطرفة-خصوصا في الضفة الغربية-صغيرة وكبيرة. ممن يؤيدون أرض إسرائيل.

وجميع هذه الحركات. والعديد من الحركات الأخرى المماثلة-وقسم منها سري-تتطلب تغطية استخبارية جذرية ودائمة. لأنه يكفي قيام إحدى هذه المجموعات الصغيرة بعمل ما. كي تعرض حياة الناس للخطر. وتشويش مسار الحياة اليومي. وإيقاع إسرائيل في تعقيدات سياسية.

وعمل جهاز الأمن العام. والجهود التي يبذلها على هذا الصعيد لاتصل أنباؤها إلى الجماهير والجهاز يمنع عمليات اعتداء لا حصر لها على العرب. من رشقهم بالحجارة. وسد الطرق التي يسيرون عليها. إلى العديد من أعمال العنف الأخرى التي تمارس ضدهم.

والمتطرفون. يميزون بين نوعين من جهاز الأمن العام: جهاز الأمن العام الجيد. وهو الجهاز العامل في أوساط العرب. لمنع العمليات المعادية لاسرائيل. والقاء القبض على (المخربين) والبحث عن المطلوبين. وجهاز الأمن العام السيء. وهو الجهاز

الـذي اعتقـل أعضـاء الحركـة السـرية اليهوديـة، وفعـل العميـل أبيشـاي ربيـب. ويمنعـهم من عمل مـا يحلـو لهـم.

يرتبـط تجنيـد العمـلاء دائمـا بالكثـير مـن الصعوبـات: أمـا تجنيـد عمـلاء للعمـل في أوسـاط اليـهود. فـهو مهمـة شـديدة الصعوبـة وشـديدة التعقيـد. وضـابط الارتبـاط الـذي يجنـد مثـل هـذا العميـل. يشـبه. إلى حـد بعيـد: الشـخص الـذي يسير في حقـل ألغـام. فـهو مـوزع بـين القلـق علـى سـلامة الجماهـير. وبـين الحفـاظ علـى حريـة العمـل والتعبـير. الناجمـة عـن وجـود النظـام الديموقراطـي. إضافـة إلى المنـاحي السياسـية العامـة. لـذا فإننـا في أمـس الحاجـة لإبـداء قـدر كبـير جـدا مـن الليونـة والأنـاة والصبر،فلـو أننـا قلنـا لعميـل محتمـل مثـلا "إحـك لنـا مـا تعرفـه عـن زملائـك" فـلا شـك أننـا سـنخيفه، ولربمـا نحصـل علـى ردود فعـل عكسـية تمامـا للـتي كنـا نتوقعـها. وقـد يفكـر أننـا نطالبـه بخيانـة زملائـه. والأفكـار الـتي يتبناهـا. لـذا فإننـا بحاجـة إلى وسـائل إقنـاع أكـثر ذكـاء وفطنـة. فنقـول لـه مثـلا: هنـاك توتـر يسـود منطقـة سـكنك بـين اليـهود والعـرب ونحـن نرغـب في الحفـاظ علـى الهدوء. لـذا نطلـب منـك أن تفتـح عينـك وتعلمنـا بكـل عمـل شـاذ قـد يـؤدي إلى نشـوب حالـة فوضـى". فـإذا مـا كـان الرجـل. حقـا. معنيـا بالحفـاظ علـى الهـدوء في منطقتـه. فقـد يتعـاون معنـا. دون أن يـرى في ذلـك خيانـة ثقـة لزملائـه.

ولا أذكـر أبـدا. أننـا جندنـا لهـذا الهـدف. أي شـخص كـان حـافزه الشـخصي المـال فقط. وذلـك لسـببين:

*خشـية أن يشـعر. ذات مـرة، بوخـز الضمـير ويرتـد علـى عقبيـه: لأن غالبيـة المسـتوطنين اختـاروا طريـق الاسـتيطان لأسـباب أيديولوجيـة.

*أسباب استخبارية. فعميل من هذا القبيل. وخصوصا. إذا كان غارقا في أزمة مالية. سيبذل قصارى جهده للحصول على معلومات. وفي حالة عدم تمكنه. قد يختلق معلومات للحصول على أجر.

لا شك أن المال مهم. بيد أنه لا يجب أن يكون. بأي حال. الحافز الوحيد. ويجب أن تكون لديه حوافز أخرى: بنية نفسية وشخصية معينة. أو مواجهته لمشاكل داخل المجتمع الذي يعيش فيه وغير ذلك.

فقد حصلنا على تعاون مثلا. من قبل المستوطنين الذين كانوا يعارضون النشاطات التي تقوم بها المجموعات الاستيطانية المتطرفة. في الضفة الغربية. فقد آمن أولئك المستوطنون. أن هذه المجموعات تمس بتطور الاستيطان. لذا. فإن الواجب يقتضي عرقلة الأعمال التي يقومون بها. وقد أملوا جميعا. أن يساعدونا بصورة تؤدي إلى تواصل حياتهم دون عوائق. فقد كانوا يأملون في التعايش السلمي مع جيرانهم العرب. دون إتاحة الفرصة للمتطرفين من العسكرين بتخريب جهودهم. ومن الجدير بالذكر. أن المساعدات التي قدموها للجهاز. دون انتظار للحصول على جائزة ما. مكنتنا من الحيلولة دون وقوع العديد من أعمال العنف. التي كانت ستلحق أضرارا جسيمة.

ألحقت قضية الحركة السرية اليهودية ضررا كبيرا جدا بالأيديولوجية التي كان أعضاء الحركة يتبنونها. فقد أثارت حقيقة وجود مثل هذه الحركة. ثائرة وغضب قطاعات جماهيرية واسعة. والتي اعتبرت الأعمال التي قام بها أعضاء الحركة– بتر أرجل رؤساء البلديات في نابلس ورام الله. وجريمة قتل طلاب الكلية الإسلامية في الخليل. والضرر الجسماني الذي أصاب خبير المتفجرات الدرزي. سليمان الخرباوي.

وزرع عبوات ناسفة في حافلات مدنية–اعتبرتها بمثابة انتقام إجرامي أحدث مسا خطيرا. دون أي وجه حق. بالصورة العامة للمستوطنين. أضف إلى ذلك. أن إلقاء القبض على أعضاء الحركة وأسلحتهم في حالة التلبس. أوضح للجهات المتطرفة الاخرى. والتي كان يمكنها. هي أيضا. أن تسير على نفس الطريق. أن أعين الجهاز تراقبها بدقة.

لقد أمل أن يؤدي إدراك حقيقة استحالة التأثير على المسارات السياسية. بأساليب الإرهاب. وعدم القدرة على تجنيد إجماع عام يؤيد العنف. حتى في أوساط المستوطنين أنفسهم. وسجن أعضاء الحركة السرية خلف القضبان. لفترات طويلة–أن يؤدي إدراك كل ذلك. إلى نتيجة واحدة: أن طريق العنف وأعمال الانتقام لن تفضي إلى إنجاز الأهداف على المدى البعيد.

إن إدراك الصعوبات الكبيرة القائمة على صعيد إقامة حركات سرية من هذا القبيل يعتبر عاملا رادعا. بيد أن الردع ليس كافيا. كي يجعل الجهاز يزيل هذه القضية من جدول اهتماماته. بل إن الأمر على العكس تماما. ويجب على الجهاز أن يبذل جهدا اكبر في هذا المجال. مما كان يبذله سابقا. والسبب في ذلك واضح: إذا أرادت جهة متطرفة ما تنفيذ عمليات إجرامية من هذا القبيل. رغم ما حدث للحركة السرية وأعضائها. فلا شك أنها ستستقي العبرة من قضية الحركة السرية. وستتوخى السرية والحذر أضعافا مضاعفة.

أضف إلى ذلك. أن الصعوبات القائمة على صعيد تشكيل حركات سرية. في الآونة الحالية. يمكن أن تؤدي إلى ولادة ظاهرة (المخرب الوحيد) مثلما حدث في حالة (إيجال عمير). وهو الأمر الذي يسعى جهاز الأمن العام لإحباطه.

لقد سئلت في العديد من المرات. عما إذا كان من المحتمل أن تقوم حركة سرية يهودية جديدة في إسرائيل؟؟ ومن البديهي القول. أنه لا توجد لدي ردود واضحة، بيد أن بمقدوري القول، أنه طالما بقي هناك جدل أيديولوجي دائر بين اليمين واليسار. وطالما بقيت تصدعات وانقسامات في المجتمع الإسرائيلي. فليس من المستبعد أن تبرز هنا وهناك. بعض الحالات الفردية لمن يقومون بأعمال التخريب. أو جماعات هامشية تتطلع للانتقام، أو جماعات تتطلع لإحراز إنجازات سياسية بالقوة.

وبناء على هذه الصورة. تعزى أهمية كبيرة للنشاطات الوقائية التي يقوم بها جهاز الأمن العام على هذا الصعيد. والمتمثلة في المتابعة المنهجية لكل ما يحدث في أوساط الجهات المتطرفة واكتشاف الأخطار قبل وقوعها.

ولا تكفي النشاطات التي يقوم بها جهاز الأمن وحده، على هذا الصعيد. بل يجب أن تشاركه جهات أخرى أيضا، مثل الجهازين القضائي والشرطي. اللذين يحتلا مكانة بارزة.

وليس سرا القول: إن الشرطة ترددت أكثر من مرة. في فتح ملفات وإجراء تحقيقات فعالة في أعقاب انتهاكات قانونية وتشويش النظام العام. كما أن النيابة العامة. لم تبد دائما حاسمة ودؤوبة. بما فيه الكفاية. لتقديم المتطرفين اليهود إلى العدالة.

أضف إلى ذلك. أن تواجد القوات العسكرية الإسرائيلية بصورة كثيفة يشيع الأمن والطمأنينة في أوساط المستوطنين. وتقليص هذه القوات. وبالتالي غياب الشعور بالأمن. يعتبر أحد الأسباب الرئيسية. التي تدفع باتجاه تشكيل الحركات السرية.

لذا. يتوجب على الجيش الإسرائيلي والكادر السياسي إجراء حوار دائم ومنهجي مع المستوطنين في كل مكان. وعلى جميع المستويات. بغية إزالة الشعور باللا أمان من أوساطهم. والشعور بالعزلة والنبذ.

ونحتاج من الحاخامات تصريحا أو فتوى صريحة، تشجب الإرهاب والمتطرفين. مهما اختلفت أنواعهم، كما يجب أن نفكر جيدا، في أسلوب معالجة الزوار اليهود لمنطقة المسجد الأقصى. وعدم ترك الأمور على ما هي عليه الآن. بحيث يتم تفتيش كل يهودي. يرغب في مثل هذه الزيارة. تفتيشا دقيقا، نظرا لأن الشعور بالمهانة والإذلال الذي يرافق عمليات التفتيش، يؤدي إلى تصعيد التطرف في نفوس الأشخاص الذين يعتبرون متطرفين أصلا، وإنني أقترح أن يتم الاتفاق مع الفلسطينيين. في إطار التسوية الدائمة، على أن يخصص ركن للصلاة لليهود داخل حدود المسجد الأقصى نفسه.

"كل واشرب لأننا سنموت غدا"

لم تكن حرب عام ١٩٨٢ مفاجئة لجهاز الأمن العام. فقد وضع رئيس الجهاز. وكبار مسؤوليه في صورة المخطط. بيد أنهم لم يطالبوا بتقديم خطة عمل من جانبهم. وكل ما كلفوا به. هو إلغاء الإجازات عشية اندلاع الحرب. في المنطقة الشمالية. ووضع العاملين هناك. في حالة التأهب.

لقد تراكمت لدينا خبرة واسعة حتى نشوب الحرب في مجال العمليات الوقائية في منطقة الحزام الأمني في لبنان. كما تم إدخال مسؤول جهاز الأمن العام-في عهد تسلمي قيادة الشمال، خلال الفترة الواقعة بين ٧٩-١٩٨٠للعمل في إطار وحدة

الارتباط التابعة للجيش الإسرائيلي مع لبنان. ولم يكن للجهاز أي تدخلات أخرى فيما يدور في لبنان.

وفي أعقاب اجتياح الجيش الإسرائيلي للبنان في الحادي عشر من حزيران ١٩٨٢ بخمسة أيام فقط. بدأت جهات عسكرية رفيعة المستوى. تطالب بدخول جهاز الأمن العام أيضا إلى لبنان. وترجع هذه المطالبة. إلى افتقار الجيش الإسرائيلي آنذاك إلى تجربة على صعيد تفعيل الأمن الوقائي.

وقد توجه رئيس الجهاز ابراهام شلوم إلى الكادر السياسي وطلب معرفة رأيه في هذه القضية. ولم يمض يومان. حتى جاء الرد قائلا: الكادر السياسي يبارك عمل الجهاز في لبنان. بغية إحباط العمليات التي يخطط الفدائيون لها.

وقد احتاج الأمر إلى بضعة أيام. للاستعداد والتنظيم. والجدل والمشاورات بين القادة. وفي العشرين من حزيران أصبح الجهاز في لبنان.

لم تكن قوة الجهاز العاملة في اللواء الشمالي. قادرة على تزويد العملية بالطاقة البشرية اللازمة. لذا ألقيت هذه المهمة على عاتق الجهاز بكامله-على لواء القدس. والضفة الغربية. واللواء الجنوبي والقيادة وغيرها.

وفي نهاية المطاف. أصبح رجالي يشكلون. تقريبا. نصف عدد عمال الجهاز في لبنان. لقد اكتسبوا جميعا خلال سني عملهم الطويلة. في الضفة والقطاع. تجربة واسعة في مجال الحرب الاستخبارية والعمل في مناطق محتلة.

ويمكن الاستدلال على نمط عملنا. والأجواء التي أحاطت به. من حقيقة ان رجالنا بدأوا هذا العمل. منذ صبيحة العشرين من حزيران. وقبل أن يحلوا حقائبهم ويدخلونها إلى المكتب الذي منح للجهاز. في مبنى مدرسة في منطقة صور. ولم تكد

تمضي ساعة واحدة منذ وصولهم إلى المنطقة. حتى جلس محققو الجهاز في سيارتهم. مع احد العرب للتحقيق معه واستقاء معلومات أولية حول المنظمات في المنطقة.

كانت المنطقة اللبنانية تعج بالشخصيات ذات الأهمية في المنظمات الفلسطينية. ولم يمض يوم. دون أن نتلقى معلومات حول تحركات أحد أبطال "العمليات الفدائية المعادية" المعروفين.

وقد كرس محققو الجهاز. جل جهدهم. في هذا الاتجاه. ولم يكونوا ليتخلوا عن أي معلومة أو شائعة دون ملاحقتها. وتمكنا فعلا. من إلقاء القبض على عدد كبير جدا من الفدائيين وقادتهم. وكانت أنجع العمليات. هي تمكننا من قتل عزمي الزغير وضابط عملياته زكي الواسط.

كان اسم عزمي الزغير معروفا لنا جميعا. ويخيل إلي أنه لم يكن هناك شخص في جماعة المخابرات أو الوحدات الخاصة. لم يخطط أو يبادر أو يأمل في تصفية هذا الرجل-قبل حرب ١٩٨٢-والذي كان ذا باع طويل في تنظيم العمليات العسكرية داخل إسرائيل وفي الضفة والقطاع.

تلقينا معلومات حول مكان تواجد الزغير وضابط عملياته. قبل أقل من أسبوع من مشاركة جهاز الأمن العام في العمل في لبنان.

وأفادت المعلومات. أن الاثنين يسكنان في فيلا فاخرة على شاطئ البحر. على بعد ثمانية كيلومترات شمالي صور. وبعد أن تأكد رجالنا من هذه المعلومات. توجهت تحت جنح الظلام. قوة من وحدة حرس الحدود الخاصه ومعها أحد رجال جهاز الأمن العام. وقروي لبناني كان على صلة بالاثنين ويعرفهما.

توقفت السيارات العسكرية-مثلما هو مألوف. على بعد ما من المكان. وتوجهت القوة سيرا على الأقدام عبر البيارات. وتم تطويق الفيلا. دون أن يلاحظ الزغير وضابط عملياته شيئا. وحينما أصدرت الأوامر. اقتحم جنود الوحدة الفيلا. ودارت معركة قتل خلالها الاثنان. وقد تناهت أصداء العملية إلى كل مكان. ورفعت معنوية ومكانة جهاز الأمن العام.

وحتى منتصف عام ١٩٨٣-أي بعد سنة واحدة من اجتياح الجيش الإسرائيلي للبنان. تم اكتشاف ١٠٦ خلايا. كانت تعتزم القيام بعمليات ضد الجيش الإسرائيلي في لبنان. واعتقال (٥٣٠٠) مشبوه. وحل لغز ٩٢ عملية عسكرية.

ويعتبر الحارس العربي للمقبرة اليهودية في بيروت. أحد أفضل العملاء الذين جندناهم لخدمتنا. لقد اتضح لنا. أن الرجل لا يكتفي بالعمل كحارس. بل كان يقوم ليلا بالأعمال المعادية لنا. فاكتشفناه. وقبل بالتعاون معنا. وقد زودنا بمعلومات ثمينة للغاية حول المطلوبين لنا. رغم أنه بقي حارسا للمقبرة.

حال دخول الجهاز للعمل في لبنان. بذل "الموساد" جهودا مضنية لإقناع رئيسه إبراهام شلوم. بالشروع بالتعاون التنفيذي المباشر مع الجهات الأمنية والاستخبارية التابعة لحزب الكتائب المسيحي. وقد رغب شلوم بأخذ انطباع مباشر أولا. عن الجهات والعناصر الاستخبارية المركزية في الكتائب. لذا سافر هو ونائبه روبن حزاك إلى بيروت حال دخول الجيش الإسرائيلي إلى المدينة. للالتقاء برئيس جهاز مخابرات الكتائب. زاهي البستاني. والتقى الاثنان -خلال زيارتهما لقيادة الكتائب في بيروت- مصادفة بقائد القوات المسيحية بشير الجميل. ابن مؤسس الكتائب بيير الجميل. وقد تحدث هذا الشاب-الذي تم اختياره في أيلول ١٩٨٢.

رئيسا للبنان-كثيرا، وبصورة مبالغ فيها، حول قدرة المسيحيين ورغبتهم في محاربة المنظمات الفلسطينية. وأعلن عن استعداده للتعاون الكامل مع جهاز الأمن العام الإسرائيلي في الجنوب.

ورغم عدم امتلاك الجهاز، في تلك الآونة، الوسائل الكفيلة بتمكينه من التحقق من مدى صحة هذه الأقوال، إلا أن الانطباع الذي حدث لدى شلوم ونائبه، هو أن في تلك الأقوال شيئا من الصحة، وأن من المفيد محاولة تفحص الأمر.

وفي أعقاب لقاء التعارف آنف الذكر، جرى لقاء عمل، بعد يومين أو ثلاثة، في مصب نهر الزهراني بمشاركة البستاني رئيس جهاز الأمن والمخابرات التابع للكتائب، والذي تم خلاله الاتفاق حول أساليب الاتصال، والأهداف ذات الاهتمام المشترك، وجدول الأولويات. وهكذا بدأت الاتصالات المباشرة بين الجهاز والجهات الأمنية الاستخبارية الكتائبية.

بدا كم المعلومات الكاذبة الذي تلقاه الجهاز من المصدر الجديد، في غضون الأسابيع الأولى هائلا جدا، وهو الأمر الذي أرهق الجهاز دون أي ضرورة، بل لقد وصل الوضع في نهاية تموز ١٩٨٢، إلى أن رئيس وحدة جهاز الأمن العام طرد بغضب رسول الكتائب الذي حضر إليه حاملا رسالة جاء فيها أن هناك خمسة عشر (مخربا) يختبئون في قبو.

أما المحاولة التي قام بها الجهاز للحصول على معلومات استخبارية في آب ١٩٨٢، في منطقة (علي) فقد ظهرت في نهاية المطاف عديمة الجدوى. وفي نهاية المطاف توصلت الى استنتاج محتوم، مفاده ان رجال الكتائب، حاولوا تغذية المخابرات

الإسرائيلية بمعلومات هادفة بغية دفع الجيش الإسرائيلي للعمل ضد خصوم المسيحيين على أرضية طائفية أو سياسية.

وفي نهاية ذلك العام. قطعت الاتصالات المباشرة عمليا. بيد أن ذلك لم يمنع رجال الكتائب من التوجه إلى قيادة الجهاز في منطقة صور. طلبا لنيل بعض المميزات. أو تقديم المعلومات.

لم يتسرع الجهاز. من جانبه. بنقل معلومات إلى الكتائب. وقد جاءت أحداث صبرا وشاتيلا والعديد من الأعمال الشاذة الأخرى. التي قام بها المسيحيون. في جنوب لبنان. دون التنسيق مع الجيش الإسرائيلي. أو جهاز الأمن العام. كي تؤثر إلى حد كبير. على التقديرات الخاصة بذلك. وتمنع الجهاز من نقل أي معلومات للمسيحيين لفترة طويلة.

بيد ان الجهاز. وتحت وطأة الضغوط التي مارسها "الموساد". الذي كان راغبا جدا في تواصل الاتصالات مع الكتائب-نقل إليهم بعض المعلومات. التي لم يكن بالإمكان استخدامها كأساس لتنفيذ عمليات. وحرص الجهاز على عدم تضمين تلك المعلومات أي أسماء لمشبوهين في المنطقة التي يسيطر عليها الجيش الإسرائيلي. كي لا تقوم الكتائب بعمليات انتقامية هناك.

وفي كانون الثاني ١٩٨٣. استجاب الجهاز للضغوط التي مارسها "الموساد". للاجتماع برؤساء الاستخبارات الكتائبيين واستئناف التعاون المباشر بين الكوادر الميدانية من الجهتين في لبنان.

وخلال اللقاء [illegible] رؤساء الاستخبارات الكتائبيون [illegible]. وأكدوا وجود [illegible] من المعلومات بحوزتهم. ورغبتهم في التعاون [illegible].

وأعربوا عن استعدادهم لتنفيذ عمليات مستقلة في جنوب لبنان. واستعادة الأسرى الذين سلموهم إلى الجيش الإسرائيلي بعد انتهاء هذا الجيش من التحقيق معهم. بيد أن مسؤول الجهاز رفض هذا العرض. وقال لهم أنه يحظر عليهم العمل في مناطق الجنوب التي يسيطر عليها الجيش الإسرائيلي.

وفي أعقاب تلك المقابلة. ومطالبة الكتائبيين الملحة بإقامة اتصالات ميدانية. تم الاتفاق على إقامة صلة تجريبية بين ضابط المخابرات الإسرائيلي لمنطقة صيدا. وبين مسؤول جهاز المخابرات الكتائبي. وخلال اللقاءات التي جرت بعد ذلك. في صيدا. قدم المسيحيون لأول مرة تقارير مكتوبة. بيد أن فحصها. أكد أنها معلومات لا قيمة لها. حول أشخاص في فترة ماقبل حرب ١٩٨٢.

وفي الثامن عشر من شباط ١٩٨٣ اقترح قائد جهاز الأمن العام في لواء الشمال. يوسي جينوسار. في النقاش الذي جرى لدى رئيس الجهاز قطع العلاقات المباشرة مع الكتائب. وحذر من أن الأضرار التي ستلحقها معلومات الكتائب بالجهاز. أكبر من اي فوائد قد يجنيها. وبرر اقواله تلك. بتصرفات الكتائبيين الوحشية. وتصفيتهم لخصومهم بصورة بشعة. وتعذيبهم جنسيا لإحدى المعتقلات الفلسطينيات. وقال إن مجرد ابقاء الصلة قد يفسر من قبلهم على أنه بمثابة منحهم الشرعية بالسكوت. للقيام بعمليات غير مشروعة. وأيده جميع الحاضرين في وجهة نظره. وقد أجمل رئيس الجهاز الجلسة بالقول. أنه سيعلم "الموساد" وقائد القطاع الشمالي بقطع الجهاز العلاقات مع الكتائب. وفي هذه الحالة ستطالب الكتائب بنقل المعلومات الى جهاز الأمن العام عبر الموساد

أبدا الجهاز اهتماما منذ بدء عمله في لبنان. بإقامة صلة استخبارية مع جهات استخبارية تابعة للحكومة المركزية الشرعية. كانت التقديرات تؤكد أن قدرة أجهزة المخابرات اللبنانية. متدنية حقا-رغم تقديرات "الموساد" المخالفة تماما-بيد أن من المهم القيام بمحاولة لدراسة كل ما هو موجود-بين أيديهم. السبب في ذلك يرجع إلى أن بيروت تحولت إلى مركز للبعثات والمخابرات السرية والمنظمات المسلحة المختلفة.

ولم يكن رئيس جهاز الأمن العام. يجري اتصالات مع الكتائب فقط. ففي الثالث عشر من تشرين الأول ١٩٨٢. اجتمع في أول مقابلة رسمية. مع رئيس جهاز الأمن العام اللبناني. والذي عرض أمامه وأمام نائبه ورئيس القسم العربي في الجهاز تركيبة الجهاز الاستخباري اللبناني. وطلب المساعدة وقد استجاب له رئيس المخابرات الإسرائيلي. وتم الاتفاق على بلورة خطة اتصالات مستقبلية.

وفي الثالث عشر من كانون الثاني ١٩٨٣. عقد لقاء آخر مع رئيس جهاز الأمن العام اللبناني في منزله ببيروت. وجاءت تقديرات المخابرات الإسرائيلية لكفاءة وقدرة المخابرات اللبنانية على محاربة العمليات المسلحة. سلبية. وأدركوا أن رئيس جهاز المخابرات اللبناني. ليس مخلصا تجاه الكادر السياسي اللبناني الأعلى.

ويقول أحد رجال جهاز الأمن العام الإسرائيلي الذين شاركوا في اللقاء: "لقد وجدنا أمامنا رجلا يفكر بالقيام بمؤامرة. في المستقبل مستغلا قوات الكتائب التي سيتم تسريب رجالها بصورة سرية الى المخابرات اللبنانية". والحقيقة هي انه لم يتم إقامة علاقات منظمة بين جهاز الأمن العام والمخابرات اللبنانية. كان الجهاز ينقل الكثير

مـن المعلومـات إلى المخـابرات اللبنانيـة عـبر "الموسـاد"، بيـد أن مـن شـبه المؤكـد، أنـها لم تسـتخدمها. ولم يفـهم جـهاز الأمـن العـام الإسـرائيلي السـبب في عـدم اسـتخدامها لهـا.

كـان رئيــس الجــهاز ابراهـام شـلوم. يعــزو أهميـة كبـيرة للقضيـة اللبنانيـة. إيمانا منـه. بـأن هـذه القضيـة تحتـل مكانـة رئيسـية في سلم أولويـات إسـرائيل. وكـان شـلوم سـرعان مـا يتحـول إلى مصـدر رئيسـي للمعلومـات. خـلال جلسـات الحكومـة. وفي جميـع الاجتماعـات الأخـرى الـتي تنـاقش الوضـع اللبنـاني. وكـان رئيــس الحكومـة منـاحم بيغـن ووزير دفاعه أرئيـل شـارون. يكـثران مـن توجيـه الأسـئلة إليـه بـهذا الصـدد.

وصلـت الانتقـادات الشـديدة. الـتي وجهتـها الجماهـير للتدخـل الإسـرائيلي في لبنـان. أيضـا إلى جـهاز الأمـن العـام. وقـد بـدأ عمـال الجـهاز مثـل الجنـود الإسـرائيليين الآخريـن يتسـاءلون عـن مـدى مصداقيـة بقـاء إسـرائيل في لبنـان؟؟ رغـم أن هـذه التسـاؤلات لم تمـس بمسـتوى آدائـه وفعاليتـه. خصوصـا وأن موقـف الحكومـة كـان ينص علـى البقـاء في لبنـان. ولم يكـن الجـهاز قـد اعتـاد اتخـاذ موقـف. عندمـا يتعلـق الأمـر بجـدل سياسـي. فجهاز الأمن العام ينفـذ سياسـة الدولـة. وهـذا هـو سـر قوتـه.

ورغـم ذلـك. كـان مـن السـهل أن نشـعر بالغليـان والتذمـر في أوسـاط نسـاء رجـال جـهاز الأمـن العـام العـاملين في لبنـان. وفي مرحلـة معينـة. وجـدت أن مـن الأفضـل. أن أعقـد لهـن اجتماعـا. وجلسـنا جميعـا في غرفـة الطعـام في مركـز الجـهاز في القـدس. وقـد وجهـن خـلال الاجتمـاع انتقـادات شـديدة. وطـالبن بـالخروج فـورا مـن هنـاك.

جهاز الأمن في لبنان

دفع الجهاز ثمنا باهظا من حياة عامليه في لبنان. وفي الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٨٢ انهار مبنى الحكم العسكري في صور. وقد قتل تسعة من عملاء الجهاز بين من قتل في الحادث. وبعد سنة تقريبا–في الرابع من تشرين الثاني– اقتحمت سيارة مليئة بالمتفجرات قاعدة الجيش الإسرائيلي في صور وانفجرت بالقرب من المبنى الذي كنا نستخدمه مقرا. مما أدى إلى مقتل ثلاثة من الجهاز. كما قتل اثنان آخران إبان أدائهما العمل في لبنان.

وفي أعقاب انسحاب الجيش الإسرائيلي من منطقة الحزام الأمني في منتصف عام ١٩٨٥. طرح الجهاز مبادرة إنشاء أجهزة أمنية يقوم جيش جنوب لبنان بتشغيلها وتفعيلها في كل بلدة ومدينة من المنطقة المحتلة. وكانت هذه الأجهزة تقوم بجمع المعلومات وتفعيل العملاء الذين يتوجهون إلى شمال لبنان. وكلفوا بالإشراف على المعابر الحدودية المختلفة–بما فيها رأس الناقورة ومعبر زومريا. وكانت هذه الاجهزة تعالج جميع المسائل ذات العلاقة بالأمن الداخلي. وتدير التحقيقات في سجن الخيام

كانت جميع الأعمال تجري بالتنسيق مع جهاز الأمن العام الإسرائيلي. الذي كان يقوم ايضا باعمال توجيه وتدريب وتأهيل جيش الجنوب عبر دورات خاصة تجري في المجالات المختلفة: التحقيقات. الحماية وما شابه ذلك.

لم يكن عمل اجهزة الامن. انفة الذكر. في مناطق المعادية. سهلا. وكان جنود الاجهزة. يعتبرون بمثابة هدف للعصابات. لذا عملوا في اطار توتر شديد.

ومخاطرة متواصلة. وقد لاقى الكثير منهم حتفهم في عمليات الاغتيال التي قام بها "حزب الله". ورجال المنظمات الفلسطينية واللبنانية.

أقامت قيادة لواء الجهاز مقرها في مبنى قديم في المطلة. وأشرفت من هناك على ما يحدث على الجانب الآخر من الحدود. كان رجال الجهاز يسافرون بسرعة بالغة ودون توقف في المنطقة. للاجتماع مع نشطاء الأجهزة لتوجيههم وتلقي التقارير اللازمة. ولأخذ انطباع عن كثب. عما يحدث. لقد نجحنا في تطوير منظومة فعالة لجمع المعلومات. وتلقينا الكثير من المعلومات حول احتمال وقوع عمليات. وأحبطنا الكثير منها.

أدى تجذر "حزب الله". في جنوب لبنان. إلى تحميل الجهاز عبئا كبيرا. وتطلب استعدادا استخباريا شديد التعقيد. نظرا لأن إمكانية اختراقه استخباريا بوصفه حزبا أصوليا. مثل حركتي "الجهاد الإسلامي" و"حماس" كانت صفر. فهو لا يقيم قواعد أو مكاتب معروفة. وفي أماكن ثابتة. ومقاتلوه يجدون المأوى في منازل مؤيدي الحزب وفي أحضان الطبيعة وغيرها. ومن الصعب نيلهم هناك. ومن الصعب إدخال عملاء إلى مثل هذه المباني.

لم ينته تدخلي فيما يحدث في الجنوب بعد عودة عمال الجهاز إلى قواعدهم في الضفة الغربية والقدس. فقد عينت في الأول من أيار ١٩٨٧ نائبا لرئيس الجهاز. وبعد أحد عشر شهرا رئيسا له. وبحكم وظيفتي تلك أكثرت من التجول في منطقة الحزام الأمني. ووفقا للإجراءات المتبعة. كنت أسافر في سيارات مرسيدس مدنية تحمل لوحات أرقام لبنانية وبرفقة حراس. وكنت ألتقي عمال الجهاز هناك. وضباطا إسرائيليين وضباطا من جيش الجنوب وتابعت التحقيقات التي تجري مع المشبوهين.

وتحدثت مع سكان المنطقة، لقد تكشفت أمام ناظري، صورة (سريالية) غريبة في الجنوب. فقد شاهدت على الطرقات العديد من الأولاد الذين لم تتجاوز أعمارهم الرابعة عشرة، وهم يقودون سيارات مرسيدس حديثة بسرعات جنونية، وشاهدت المحلات التجارية تغص بكل ما لذ وطاب من جميع أنحاء العالم دون جمارك، الخمور المعتقة والملابس من أحدث طراز. وشاهدت الملاهي الليلية وبيوت اللهو، وهي تفيض على جنباتها من كثرة الناس، كان هناك شعور في كل مكان يقول: "كل واشرب لأننا سنموت غدا".

وفي نفس الوقت كان جنود جيش الجنوب على بعد أمتار قليلة من هذا الوضع غارقين في وضع شبه حربي: يربضون في مواقعهم. يقومون بجولات. ويقتحمون منازل. ويطاردون فدائيين ويعرضون حياتهم للخطر في كل لحظة. ويمكنني القول. أنهم بذلوا أقصى ما بوسعهم. وقاموا بالواجب الملقى على عاتقهم على أفضل وجه. ليس من أجل مصلحة إسرائيل بل لحماية عائلاتهم وضمان مستقبلها. والحقيقة أنه لم يكن لديهم أي خيارات أخرى.

كان التحالف الذي نشأ بيننا وبينهم وطيدا جدا. بيد أنهم كانوا خائفين من أن نتخلى عنهم في يوم من الأيام. وقد ازدادت هذه المخاوف في أعقاب إعلان إسرائيل. عن تفكيرها بإمكانية. الانسحاب من جنوب لبنان. بناء على قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٤٢٥.

وليس من الصعب أن نتفهم الخوف الذي يسيطر على رجال جيش جنوب لبنان. فهم يدركون أنه إذا ما انسحبت إسرائيل من المنطقة. فإن الحكومة اللبنانية- وخصوصا السوريين الذين يسيطرون على الدولة عمليا-سيتعاملون معهم كخونة

وجواسيس مع العدو. ويخشون أيضا من أن يؤدي انسحاب إسرائيل إلى قطع مصدر ارتزاق أقاربهم الذين يعملون في إسرائيل.

لقد أصبحت ضرورة العثور على وسيلة تجعلنا نخرج من جنوب لبنان-سواء أكان ذلك بناء على قرار ٤٢٥. أو أي صيغة أخرى-مسألة حرجة وملحة بالنسبة لنا. فنحن غارقون في الوحل اللبناني. منذ سنوات طويلة. وهو الأمر الذي يكلفنا ثمنا باهظا من الدماء. وفي نفس الوقت يطرح أمام المجتمع الإسرائيلي العديد من التساؤلات. فتواجدنا في الجنوب لا يمكننا فقط من الدفاع عن مستوطناتنا الشمالية. بل يمكننا أيضا. من الدفاع عن آخرين لا ينتمون إلينا. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل بالإمكان الدفاع عن مستوطناتنا الشمالية دون التواجد في لبنان؟؟

و"حزب الله". هو عدونا الرئيسي في الجنوب. وهو من أخطر المنظمات وأكثرها تطرفا. وإيران تمسك بمقاليد هذا الحزب. الذي يستمد مفاهيمه من تعاليم الإسلام الشيعي الصلبة والمتطرفة. في الوقت الذي تتمسك فيه المنظمات الأخرى التي نواجهها بتعاليم الإسلام الأكثر اعتدالا.

ومقاتلو "حزب الله". معروفون بإصرارهم وقسوتهم. وقد أدى قربهم من الشيوخ الذين يقودونهم. إلى عدم التردد في التوجه إلى الهدف. حتى وهم يدركون أن إمكانية نجاتهم ضئيلة جدا. وهم يشبهون إلى حد كبير. انتحاريي حركتي "حماس" و"الجهاد الإسلامي".

يضع "حزب الله" لنفسه أهدافا بعيدة المدى. فهو لا يكتفي-بناء على منشوراته-بالمواجهات مع إسرائيل في جنوب لبنان. بل يتطلع أيضا إلى تحرير القدس. وتأثير سورية ينصب في غالبيته على الطائفة المسيحية في لبنان. أكثر مما هو على

"حـزب الله". لـذا. فـإنني أرفـض وجهـة النظـر القائلـة أن إنجـاز السـلام مـع سـورية. سيؤدي إلى وضـع حـد "لحـزب الله". حقـا أن إنجـاز السلام مـع سـورية. سـيحدث تغيـيرا في تـوازن القوى في لبنـان. وسـيؤثر دون أدنـى شـك علـى شـدة عمليـات "حـزب الله". بيـد أنـه لن يصفـي تطلعـات هـذا الحـزب أو أهدافـه. وغاياتـه بعيـدة المدى.

إن الإعـلان المتواصـل مـن قبـل إسـرائيل حـول رغبتـها في الخـروج مـن لبنـان. لا يشير حسب اعتقـادي إلى نيـة صادقـة مـن جانبـها. بـهذا الشأن. فـهذه التصريحـات تـأتي في الغـالب لتخفيـض حـدة الانتقـادات الموجهـة إليـها نظـرا لتعليقـها للمسـيرة السـلمية مـع الفلسـطينيين. وهـذا هـو أيضـا هـدف إقحـام الولايـات المتحـدة ودول أخـرى في هـذه القضيـة.

إن جميـع هـذه الأمـور ترمـي لمارسـة ضغـوط علـى لبنـان. وتحويـل هـذه الضغـوط إلى إنجـاز إسـرائيلي. إن الحـل الوحيـد للمشـكلة اللبنانيـة مثلمـا أراه: يتمثـل في التوصـل إلى تسـوية مـع سـورية.وحتـى إذا لم يتمكـن. الاتفـاق مـع سـورية، مـن القضـاء علـى عمليـات "حـزب الله". فممـا لا شـك فيـه أنـه سـيحد منـها جـدا. ولا يجـب أيضـا اسـتبعاد فكـرة الحـوار مـع "حـزب الله" كليـا. فرغـم الصـورة الصلبـة الـتي تبـدو للحـزب. إلا أن هنـاك جـهات معتدلـة تعمـل في داخلـه إضافـة إلى الجـهات المتصلبـة والمتطرفـة. وأنـا أعتقـد أن العثـور علـى وسـطاء جيـدون يمكنـه أن يـؤدي إلى نتـائج جيـدة علـى صعيـد الحـوار مـع الحـزب.

أضـف إلى ذلـك أنـه يتوجـب علـى إسـرائيل إجـراء حـوارات مـع الجـهات المختلفـة الأخـرى في لبنـان. كالشيعة والـدروز. وكـل محاولـة تفضـي إلى التخلـي عـن منطقـة الـنزاع في لبنان. هـي محاولـة جيـدة.

إن التوصل إلى تسوية في لبنان، سيتطلب من إسرائيل العمل على تعزيز حدودها الشمالية بصورة مكثفة جدا إلى الحد الذي يجب أن تصبح فيها مغلقة نهائيا. أمام أي محاولات تخريبية حدودية.

نزهة شارون

بدأ مسؤولو جهاز الأمن العام في المشاركة في جلسات المجلس الوزاري المصغر منذ أن طرحت القضية اللبنانية لأول مرة على جدول الأعمال السياسي. ومن الجدير بالذكر. أن هذه المشاركة قلصت في عهد اسحق شامير، إلى حد كبير. فيما عمل اسحق رابين. حينما تولى رئاسة الحكومة إلى توسيعها جدا.

وكنت. بوصفي رئيسا للجهاز. أشارك في جلسات الحكومة، وخصوصا في القسم الأول منها الذي يعرف بكونه جلسة المجلس الوزاري المصغر. إلى جوار رئيس الأركان. ومنسق الأعمال في المناطق، ومفتش عام الشرطة. حيث كان كل منا يقدم تقريرا حول وضع الضفة والقطاع من وجهة اختصاصه. وكثيرا ما تلقيت. خلال الجلسة. تقاريرا ساخنة. فكنت أقوم بإبلاغ الموجودين بها فورا. وكنت أقدم تقارير حول عملنا والنشاطات التي نقوم بها والإنجازات التي نحققها. وأحضر معي رؤساء الأقسام الذين شاركوا في العمليات. وخصوصا في أعقاب الانفجارات أو عمليات إطلاق النار ضد جنودنا أو مواطنينا. فالوزراء لم يكونوا يتوجهون إلى مكان الحادث. وبالتالي. فإن تقرير الجهاز كان يقدم إليهم صورة وضع موثوقة.

وكان أرئيل شارون. وموشيه شاحك. من بين الوزراء الذين يأتون إلى الجلسة الحكومية. ولديهما صورة جيدة عن الوضع. ويحملان خرائط وأدلة تؤكد أقوالهما.

بدأت معرفتي بأرئيل شارون، عندما كنت أعمل قائدا للواء القدس وكان هو وزيرا للدفاع. فقد أكثرت من التجوال معه في الضفة الغربية. وكان شارون يسند رأسه إلى منظار بيده، عندما نتجول في طائرة هليوكبتر، ويراقب المنطقة دون توقف.

وقد أدركت مع مرور السنين، أن هذا هو أسلوبه لاختيار أماكن المستوطنات الجديدة. وفي الكثير من الأحيان، كان يأمر الطيار بالهبوط في إحدى المناطق الصخرية. ويقفز خارجا، ويقارن المنطقة مع الخرائط الموجودة بحوزته، وبعد مضي عدة أيام من الزيارة، كانت التراكتورات تتدافع إلى المنطقة لإعدادها لنقل الكرافانات إليها.

لم أكن اتفق مع شارون دائما في قراراته، بيد أنني لم أملك سوى الإعجاب بجذريته، وخبرته الواسعة، واستعداده لمواجهة الجلسات الحكومية وقدرته على الحسم والتنفيذ.

وفي الكثير من الأحيان، كنا نخرج في قوافل بالسيارات، حيث يأمر بالتوقف قرب أحد الأحراش، أو في منطقة ذات منظر طبيعي جميل. ويقوم رجاله بإنزال الطعام، وفي جو النزهات الذي يخلقه يروي لنا النكات، وينفجر ضاحكا قبلنا جميعا.

تصادقت أيضا مع زعيم حزب "شاس" آرييه درعي، وفي إحدى جلسات الحكومة، توجه إلي بوجه غاضب، وقال لي: لقد اعتقدت أنك يهودي حقيقي، لكنني عرفت أنك لست كذلك" فسألته عن سبب قوله، فرد قائلا: سمعت أنك انتقلت إلى منزل جديد ولم تضع (مزوزة) -عضادة توضع على الباب وتحمل الكلمات العشر التي أنزلها الله على موسى- فقلت له أنا لست ملحدا، بيد أنني أيضا لست يهوديا متدينا. فأنا أؤمن بالمصير وبقوة موجهة تحدد طريق الحياة" فقاطعني قائلا: " هذا هو بالضبط.

أنت تقصد الله". وأصر على الالتقاء بي في بيتي في نفس الليلة. وعندما استجبت له. قدم من القدس خصيصا، ووضع (مزوزة) على باب بيتي.

لقد أقضت هذه القصة الصغيرة مضجعي. فيما بعد. قبل أيام معدودة من استقالتي من رئاسة جهاز الأمن العام. فخلال محاكمة آربييه درعي بتهمة الفساد. زعم أحد شهود الدولة ضده، أنه يعرف أن جهاز الأمن العام. نفذ عمليات تنصت بطلب من الشرطة. وأن قائمة الأشخاص الذين تم التنصت على خطوطهم الهاتفية سربت إلى الأوساط المقربة من درعي. الذي كان أحد الأشخاص الواردة أسماؤهم في قائمة التنصت. وقد اتضح في المحكمة أن الشاهد أدلى بهذه الأقوال. قبل عدة سنوات بيد أن الشرطة لم تتحقق منها. ولم تقم الشرطة أو النيابة العامة. بإعلام جهاز الأمن بذلك. وقد عرفت بالقصة من وسائل الإعلام.

ومن الجدير بالذكر أن جهاز الأمن العام يقوم حقا بتنفيذ عمليات تنصت لخدمة الشرطة. بناء على أمر قاض لوائي. بيد أن تورطه في هذه العملية هو تورط فني بحت. وهو لا يعدو كونه مقاولا ينفذ ما يلقى على عاتقه دون اهتمام بالتفاصيل.

وحينما قرأت ما أوردته وسائل الإعلام شعرت أنني أغلي غضبا. فإذا كان هناك تسريب ما. فلا شك أن الأمر يعتبر تجاوزا خطيرا. لذا. كان ينبغي البدء بالتحقيق فورا لمعرفة الجهة التي سربت.

اتصلت بالمستشار القضائي للحكومة ميخائيل بن يائير. وطلبت منه شفويا وكتابيا. أن يقوم بالتحقيق في مسألتين: لماذا لم تقم الشرطة ونيابة الدولة باعلامنا. ومن هي الجهة التي سربت إذا كانت الأنباء التي نشرتها وسائل الإعلام صحيحة. فمن هي الجهة المسربة؟

استجاب بن مائير لمطلبي وعين طاقم تحقيق لمعرفة ما إذا كان التسريب من الشرطة. أم من الجهاز. ولضمان نجاعة التحقيق. لم يتم إشراك أي عناصر من الجهاز أو الشرطة أو نيابة الدولة في طاقم التحقيق. وعين اللواء احتياط موشيه جردون رئيسا للطاقم. وعضوية روبن كوبنت وعيزر تسفرير. وقد استدعى الطاقم العشرات من رجال الشرطة والجهاز. وغيرهم لسماع أقوالهم وقد أكد كوبنت أن قدوم آرييه درعي إلى منزلي في ساعة مساء متأخرة. لوضع مزوزة على باب منزلي. يؤكد وجود علاقة حميمة بيننا. واستنتج من ذلك. أنني أخبرت درعي بوجود عملية التنصت. أو أنني أطلقت كلمة. واستنتج درعي الباقي. وقد تم استدعائي مرتين في أعقاب تركي للجهاز للفحص بجهاز كشف الكذب. وكان السؤال الذي وجهه لي الفاحص على الجهاز هو: هل طيلة خدمتك في الجهاز قمت بأي ممارسة غير مشروعة؟؟ ولم أصدق ما تسمعه أذناي. فصرخت فيه قائلا: لا يمكنك أن تسأل رئيس جهاز الأمن العام سؤالا كهذا". ويخيل إلي أنني شعرت آنذاك. بنفس المشاعر التي تجتاح المحقق معه. ولم يأل المحققون جهدا في ممارسة الضغوط علي. لإيقاعي في المصيدة وتحويل شهادتي إلى الاتجاه الذي يرغبون فيه. ولم تسفر نتائج الفحص بجهاز كشف الكذب. عن نتائج تذكر مما جعل إدانتي غير ممكنة.

كانت التقارير التي يقدمها الجهاز تحظى باهتمام كبير في أوساط الحكومة والمجلس الوزاري المصغر. وكان الوزراء يصغون لما يقال إصغاء تاما. ولم يحدث أن مست تعليقاتهم بعمل الجهاز. لقد وجهت انتقادات مرات عديدة. إلى الجهاز. بيد أنها كانت دائما انتقادات موضوعية جدية.

وكـان إسحق رابـين يحـرص علـى أن يعـرب مسـئولو الجـهاز والجـهات الأمنيـة عن آرائـهم بحريـة تامـة. ويقدمـوا تقـارير كاملـة، وتوصيـات حتـى ولـو كـانت تلـك التقـارير والتوصيـات لا تـروق للـوزراء بسـبب معارضتـها لمواقفـهم، وكـان يعتـبر ذلـك مـن واجب الخبراء. وقـد تصرفـت أنـا علـى هـذا النحـو.

كـاد التسـريب مـن جلسـة الحكومـة يثـير جنونـي. فـإذا مـا قلـت مثـلا أمـام الـوزراء في السـاعة التاسـعة أن المـزاج السـائد في أوسـاط الفلسـطينيين ليـس جيـدا. أسمـع في نشـرة الأخبـار في السـاعة العاشـرة أن رئيـس جـهاز الأمـن العـام، أعلـم الحكومـة بـأن المـزاج السـائد في أوسـاط الفلسـطينيين صعـب. لقـد بلغـت الأمـور الحـد الـذي اضطـررت فيـه في بعـض الأحيـان للتشـاور مـع رابـين. عمـا إذا كـان مـن الملائـم طـرح هـذا الموضـوع أو ذاك أم لا. نظـرا لحساسـيته خـلال إحـدى الجلسـات الحكوميـة.

لقـد طلبـت العديـد مـن الجـهات في المـاضي مـن جـهاز الأمـن العـام التحقيـق في التسـريبات مـن جلسـة الحكومـة أو الجيـش، أو جـهات رسميـة أخـرى. وقـد كـانت سياسـة الجـهاز. ولا زالـت عـدم التدخـل في مثـل هـذه القضايـا، بيـد أنـه، في بعـض الحـالات استجاب للطلبـات الـتي وجـهت إليـه. وعلـى أيـة حـال. فـإن الجـهاز في عـهدي لم يقـم بـإجراء أي تحقيقـات بـهذا الشـأن. وكنـت أقـول: إن الجـهاز أخـذ علـى عاتقـه عـدم التدخـل في مثـل هـذه الأمـور كـي لا تلتصـق بـه أي ذرة مـن ذرات الوحـل السياسـي. وكنـت أبـرر موقفـي بـالقول: إن مـن الصعـب العثـور علـى المتـهم. فلـو أن الأمـر يتعلـق مثـلا بفقـدان مبلـغ مـا مـن خزينـة هـذه الجهـة أو تلـك، سيصبح بالإمكـان التحقيـق مـع جميـع ذوي العلاقـة شخصيا وبجـهاز كشـف الكـذب. أمـا في حـالات التسـريب فمـن الصعـب العثـور علـى الجهـة الـتي يجـب التحقيـق معـها.

لقد نشبت علاقات وطيدة بين العديد من الوزراء كيوسي سريد، الذي عارض في البداية تعييني رئيسا للجهاز ومع شولاميت ألوني وإسحق موداعي. وروني ميلو. إبان شغله منصب وزير الشرطة.

القــــدس

ومنذ تطبيق إسرائيل القانون على القدس الشرقية، وضمها إلى إسرائيل. والمسجد الأقصى يتحول إلى بؤرة تدفن في أعطافها عبوة هائلة من الأحاسيس والمشاعر المصحوبة. في الكثير من الأحيان، بأعمال عنف من اليهود والعرب في آن واحد وبناء على ذلك احتلت هذه البؤرة مكانة مركزية في تقديرات الوضع الوطني التي تتطلب تنسيقا دقيقا بين الجهات السياسية والاستخبارية والتنفيذية في إسرائيل. وبينها وبين المجلس الإسلامي الأعلى ورجال الوقف العاملين في المسجد الأقصى. وقد شغلت هذه القضية الجهاز بين الفينة والأخرى.

ولا زلت أذكر جيدا العاصفة التي قامت في العالم العربي. في آب ١٩٦٩ والدعوات للجهاد في أعقاب قيام سائح أسترالي مريض نفسيا يدعى "مايكل دنيس روهان" بإضرام النيران في المسجد الأقصى. لقد رغبنا جدا في الحيلولة دون اندلاع المشاكل بين الأديان في منطقة جبل البيت.

وفي أواخر أيلول ١٩٩٠. أعلن "أمناء جبل البيت" وهي مجموعة يمينية يبلغ عددها حوالي خمسين شخصا. أنهم يعتزمون القيام بخطوة رمزية. على جبل البيت. تتمثل في وضع حجر الأساس للهيكل. وحددوا موعدا لذلك. في الثامن من تشرين الأول في اليوم الرابع من عيد العرش. أي في الوقت الذي تجري فيه في باحة حائط البراق مراسيم بركة الحاخامات. وقد رفضت المحكمة العليا الالتماس الذي قدمته حركة

"أمناء البيت" لإقامة المراسيم الرمزية. آنفة الذكر. وأكدت الشرطة لموظفي الأوقاف الإسلامية. أنها لن تسمح لأعضاء الحركة بعمل ذلك. ورغم ذلك دعت الأوقاف المسلمين للتجمع في منطقة المسجد الأقصى في نفس اليوم.

وقد تنبأ قلبي بحدوث مشكلة. إزاء اجتماع مثل هذا الحشد الغفير من المسلمين في الوقت الذي يتجمع فيه جمع يهودي غفير مشابه.

في الثالث من تشرين الأول. اتصلت بوزير الشرطة روني ميلو. وقلت له: إن لدي إحساسا داخليا مقلقا. وعرضت عليه عقد اجتماع لجميع الجهات ذات العلاقة للاستماع منهم إلى تقدير للوضع ووضع المخططات اللازمة بيد أن ميلو لم يستجب لي فورا. وقال: "لا يوجد لدي وقت". لكنني واصلت إلحاحي حتى وافق على تخصيص الوقت اللازم لعقد لقاء. وفي يوم الجمعة وقبل أربعة أيام من اللقاء المرتقب. اجتمعنا في ساعات الصباح الباكر. في مكتبه بتل أبيب. وقد حضر الاجتماع مفتش عام الشرطة يعقوب تيرنر. وقائد لواء القدس. آرييه بيبي. ورئيس شعبة المخابرات في القيادة القطرية رافي بيلد. وممثل عن قائد القطاع الأوسط. قمت بتحليل الوضع. وقد اعتمد ميلو على ما قلته حينما تحدث عن وجود شعور لديه. بأن الوضع في القدس أخذ في التدهور. فقال مفتش عام الشرطة. أنه قرر بمناسبة الأعياد. تعزيز الوضع في القدس. بشكل جدي. وقد امر ميلو بتنفيذ ذلك فورا.

إن ما حدث بعد أربعة أيام. كان أسوأ من جميع الكوابيس التي لاحت لي. فبينما عشرات آلاف اليهود يملأون ساحة حائط البراق. يوم الأحد في حوالي الساعة التاسعة صباحا. تجمع في المسجد الأقصى وحوله عشرات آلاف المسلمين [illegible] حيث انطلقت أصوات مكبرات الصوت صارخة: الله اكبر [illegible]

اليهود وما شابه" وفي نفس الوقت توصل تدفق الشبان العرب إلى المنطقة. وعلقت الدراسة في مدارس القدس. وأخذ المعلمون يشجعون الطلبة على التدفق إلى المسجد الأقصى.

عاد ضباط الشرطة. وأكدوا لمسئولي الأوقاف الإسلامية. أنهم لن يسمحوا لجماعة أمناء جبل البيت. بالوصول إلى منطقة المسجد الأقصى. وطلبوا منهم تهدئة النفوس. دون جدوى. بل كان الأمر على العكس تماما. فقد عمد الخطباء وعلى رأسهم نائب المفتي الشيخ. محمد الجمل الرفاعي على تحريض المسلمين ضد اليهود "الذين سيصعدون إلى المسجد الأقصى لوضع حجر الأساس للهيكل". وسرعان ما بدأ عشرات الآلاف يهاجمون رجال حرس الحدود الأربعة والأربعين الموجودين في المكان. ورشقوهم بالحجارة والقضبان الحديدية. وقام مئات الشبان بمهاجمة مركز الشرطة في المكان. مما حدا برجلي الشرطة المتواجدين في المكان للهروب. ولم تجد العيارات النارية التي أطلقت في الهواء. والقنابل المسيلة للدموع نفعا. فقد أخذ الشبان القنابل المسيلة والقوها مرة أخرى على رجال الشرطة مما أدى إلى إصابة عشرة من رجال الشرطة بجراح. وأخلي رجال الشرطة من هناك. في نفس الوقت الذي تواصلت فيه عملية اخلاء المصلين اليهود من باحة حائط البراق.

وحال اخلاء رجال الشرطة. تزايد مطر الحجارة. والقيت كتل كبيرة على باحة حائط البراق وباتجاه مكان تجمع تعزيزات الشرطة. وباتجاه الطريق. الذي تجمعت فيه. آنذاك الحافلات التي تحمل آلاف اليهود العائدين من الصلاة لدى حائط البراق. مما ادى الى اصابة بضعة ركاب.

بدأ اقتحام الشرطة "لجبل البيت" في الساعة الحادية عشرة. لكن الجماهير الثائرة لم تتراجع أمام الشرطة الذين أخذوا يطلقون العيارات المطاطية وعندما واصلت الجماهير هجومها. أطلق رجال الشرطة العيارات النارية. في البداية في الهواء. ثم باتجاه الجماهير. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف. وعندما تراجعت الجماهير إلى داخل المساجد. أمرت الشرطة بوقف إطلاق النار. وقد أسفرت تلك الأحداث عن مقتل واحد وعشرين شابا مسلما أحدهم من العرب في إسرائيل. وأصيب ثلاثة وخمسون شخصا آخر بجراح. وأصيب واحد وعشرون شرطيا بجراح جراء رشقهم بالحجارة. إضافة إلى تسعة مصلين يهود.

أثارت الحادثة ثائرة العالم العربي. ودعت منظمة التحرير إلى وضع قوات طوارئ دولية في منطقة الأقصى. وسارع الأردن إلى تقديم شكوى إلى مجلس الأمن الدولي. وأعلنت لجنة المتابعة الخاصة بالعرب. في إسرائيل عن إضراب احتجاجي لمدة يومين. في الوقت الذي بدأت فيه إسرائيل عملية تبادل اتهامات. وأطلقت نداءات لإقالة مفتش عام الشرطة الذي تغيب في ذلك اليوم عن القدس.

عين رئيس الحكومة. إسحق شامير في العاشر من تشرين الأول لجنة لاستيضاح الحقيقة برئاسة اللواء احتياط تسفي زمير. وكلفها بدراسة الأحداث التي وقعت. وقد وجهت اللجنة في تقريرها. انتقادات شديدة للكادر القيادي الأعلى في الشرطة. وقيل أن قائد اللواء الجنوبي. وقائد منطقة القدس. لم يأخذا بعين الاعتبار. التأثير المتراكم للانتفاضة المتواصلة. ولا الأجواء المتوترة التي أثارتها الجهات التخريبية. والخطابات التحريضية التي أطلقها المؤذن والخطيب في المسجد الأقصى.

وهو الأمر الذي كان يتطلب من قيادة الشرطة طرح مبادرات، كما أن الشرطة لم تعد مخططات لمواجهة مثل هذه الحالات".

وأثنت اللجنة على جهاز الأمن العام، الذي كانت بحوزته معلومات مسبقة حول ما سيحدث، في الوقت الذي لم تكن الشرطة على علم بشيء.

مكنتني العلاقات الوطيدة التي أقمتها مع الوزراء من حل جميع المشاكل بمحادثة هاتفية مباشرة مع الوزير ذي العلاقة، وقد طورت علاقة خاصة وحميمة مع دان مريدور الذي شغل منصب وزير العدل خلال الفترة ١٩٨٨-١٩٩٩ وعالج بحكم منصبه العديد من القضايا ذات العلاقة بجهاز الأمن العام. وكان يفحص مرة واحدة. كل شهرين-مثلما ينص عليه القانون-قوائم الجهات التي يتنصت جهاز الأمن العام عليها، وقد ألفت حملها إليه في مكتبه، حيث كان يطلع عليها ثم يسأل أسئلة ويعقب على بعضها.

ومن الجدير بالذكر أن عمليات التنصت على بعض الجهات لا تبقى أبدية. بل هي محدودة في هامشها الزمني لعدة أشهر، وإذا ما رغب الجهاز بعد هذه الفترة في مواصلة التنصت على نفس الجهة، فإنه لا يستطيع عمل ذلك، على مسئوليته الشخصية. أضف إلى ذلك أن الجهاز قادر على التنصت على شخص ما، فيما يتعلق بقضية واحدة فقط. يقرها رئيس الحكومة. فإذا ما كان الجهاز مثلا يتنصت على جهة ما متهمة بالتجسس. واتضح خلال عملية التنصت أن هذه الجهة تخفي أيضا شيئا للضرائب، فإنه لا يستطيع استخدام المعلومات التي حصل عليها ضد هذه الجهة لسببين أولا: أن التنصت لم يتم لهذا الهدف. ثانيا: أن هذه المخالفات القانونية ليست من مهام الجهاز.

وفي حالة اكتشاف جرائم خطيرة، خلال عملية التنصت كالقتل مثلا. فإن من المرجح أن يتم نقل هذه المعلومات إلى الشرطة بحذر بالغ، وبصورة لا تكشف عملية التنصت نفسها.

وفي الكثير من حالات التنصت تم التقاط وتسجيل محادثات لا علاقة مباشرة بينها وبين الهدف. الذي وضعنا التنصت من أجله، فقد كانت هناك محادثات حول تنظيمات سياسية جديدة، ومبادرات سياسية مختلفة، ومخططات لإقامة مستوطنات جديدة. وكانت هذه المحادثات تنقل لإعطاء الرأي. وكنت في الغالب. أتخذ قرارا بعدم التبليغ عنها، لأنها لا تشكل خطرا سياسيا. ويكون القائمون على التنصت بحاجة لتدخل رئيس الجهاز إذا ما تم التقاط محادثات بين الجهة موضوع المراقبة وبين جهات في السلطة، وفي هذه الحالة. يجب على رئيس الجهاز أن يأمر بإبقاء ما تم تسجيله أو شطبه نهائيا.

-الحافلة ٣٠٠-

رئيس الجهاز يفرض تعتيما

صعد أربعة فلسطينيين من سكان قطاع غزة عشية يوم الخميس الموافق الثاني عشر من نيسان ١٩٨٤ مسلحين ببنادق رشاشة على الحافلة رقم ٣٠٠ في المحطة المركزية في تل أبيب وقد انطلقت الحافلة باتجاه عسقلان في الساعة ١٨,٢٠ حاملة حوالي أربعين مسافرا. وقد أعلم مسافران -تم إنزالهما في الطريق. الشرطة باختطاف الحافلة. ولم ينجح المطاردون في وقف الحافلة إلا بإطلاق النار على إطاراتها بالقرب من دير البلح بقطاع غزة.

كنت آنذاك أشغل منصب قائد لواء القدس والضفة الغربية، ومشغولا بمطاردة العديد من المجموعات المسلحة، وقد اتصل بي قائد القطاع الأوسط، وأعلمني بأمر الاختطاف، وقال: أنه سيتوجه إلى هناك جوا، وسألني عما إذا كنت أرغب بمرافقته. فرددت عليه بالنفي.

وإبان سيطرة الجيش على الحافلة قتلت مجندة إسرائيلية. وقتل اثنان من الخاطفين، واعتقل اثنان آخران، ونقلا للتحقيق.

ورغم أن وسائل الإعلام لم تنشر نبأ الاختطاف، إلا أن المنطقة سرعان ما عجت بالصحفيين الإسرائيليين والدوليين. وقد سادت حالة فوضى في المكان، وأخذ الصحفيون يتجولون بالقرب من الحافلة، والتقطوا الصور وحاولوا التقاط شيء ما من أفواه الخاطفين.

وفي نهاية التحقيق معهما أصدر رئيس الجهاز ابراهام شلوم، أمرا بقتلهما. فقام رئيس شعبة العمليات ايهود يتوم وعدد من جنوده بأخذ الاثنين إلى حقل مظلم. وقتلوهما. وفي البيان الرسمي الذي أعلنه الناطق العسكري جاء أن الخاطفين الأربعة قتلوا أثناء عملية السيطرة على الحافلة.

ولم تمض سوى أيام معدودة، حتى نشرت وسائل الأعلام الأجنبية أنباء تفيد بأن اثنين من الخاطفين قتلا بعد إلقاء القبض عليهما حيين.

وقد استندت هذه الأنباء إلى تقارير صحفية وصور تم التقاطها أثناء عملية السيطرة على الحافلة وقام الرقيب العسكري بحظر نشرها.

وقد اكتفت وسائل الإعلام الإسرائيلية باقتباس ما أوردته وسائل الإعلام الأجنبية، بيد أن جريدة "حداشوت" خرقت أمر الرقيب بعد عدة أيام، ونشرت صورة الاثنين لدى القبض عليهما حيين والجنود يقودهما بعيدا عن الحافلة.

وأثار نشر الصور عاصفة في إسرائيل اضطر في أعقابها وزير الدفاع. موشيه آرنس في السادس والعشرين من نيسان ١٩٨٤ لتعيين لجنة تحقيق برئاسة اللواء احتياط مائير زوريع.

ولم أكن أعلم في البداية أن رجال جهاز الأمن العام هم الذين قتلوا الاثنين. فقد تم فرض حالة تعتيم تامة داخل الجهاز على القضية وتفاصيلها. وحرص ابراهام شلوم على عدم إطلاع أي جهة على السر باستثناء أولئك المتورطين فيها وحفنة أخرى من المقربين إليه.

الحافلة ٣٠٠ تغرق "الشاباك" في الوحل

لم يكن روبن حزاك-نائب رئيس الجهاز في المنطقة إبان استيلاء الجيش على الحافلة، فقد غادر دير البلح مبكرا، لاضطراره للسفر إلى الولايات المتحدة، وحينما عاد التقينا في مكتبي، وسألته هل الشائعات الخاصة بقتل المسلحين صحيحة؟ فقال لي: " دعك من هذا". وقد أثار رده غير المتوقع شكوكا لدي، بأن الشائعات صحيحة.

لقد فكرت كثيرا في هذه القضية، وساءلت نفسي كيف كنت سأتصرف لو أنني كنت رئيسا لجهاز الأمن العام. حاولت أن أضع نفسي مكان ابراهام شلوم. وتساءلت عما إذا كان أمر القتل قد صدر "بصلاحيات رسمية"؟. وقد زعم إسحق شامير أن التقارير التي تلقاها من موقع الحدث، لم تكن صحيحة. أما رئيس الجهاز فقد ألقى مسئولية إعطاء أمر القتل على وزير الدفاع ثم صحح أقواله، وقال: إن الاثنين كانا شبه ميتين عندما أخذا للتحقيق. ومن الجدير بالذكر أن ابراهام شلوم أكد بعد سنوات أنه هو الذي أصدر أمر القتل وفقا للسياسة العامة التي وضعها إسحق شامير.

إن ما يثير دهشتي حتى اليوم هو كيف أن شخصا كابراهام شلوم، رجل عمليات حذر وجذري. وشديد الانتباه لم يدرك ما ستتمخض عنه مثل هذه العملية، التي غطاها عدد من مندوبي وسائل الإعلام يفوق عدد القوات التي كانت موجودة.

وعندما تم تعيين لجنة تحقيق برئاسة اللواء مائير زوريع، طلب رئيس جهاز الأمن العام من يوسي جينوسار، أن يعمل ممثلا للجهاز في اللجنة. ويقول جينوسار: إن شلوم قال له، عندما طلب منه ذلك: إن رجال جهاز الأمن العام هم الذين قتلوا المسلحين، وأنه أعلم رئيس الحكومة بذلك بعد يومين.

وجينوسار قصير القامة قوي البنية ذكي ودؤوب، وكان يعرف الجهاز معرفة جيدة. ولد في فيلنه عام ١٩٤٦ ووصل إلى إسرائيل مع ذويه عام ١٩٥٧ في موجات الهجرة الروسية البولندية. وقد لقبوه في المدرسة الروسية باسم (جيد). وفي إسرائيل ألصق به الأولاد ألقابا مثل "روسي وشيوعي". لكنه فضل عدم إعلام ذويه بذلك. والرد على الأولاد بقبضة يده.

وبينما كان يدرس في الجامعة اندلعت حرب عام ١٩٦٧ وأصبح جهاز الأمن العام بحاجة إلى عمال جدد، فترك دراسته والتحق بالجهاز. وقد قال في إحدى المناسبات: " اعتبرت التحاقي بالجهاز بمثابة رسالة ومساهمة اجتماعية مهمة". وقد وصل في تلك الآونة روبن حزاك وبيلج رداي اللذان كان يهودا أربل يكن لهما معزة خاصة. وقد قرر جينوسار أن ينضم إلى هذين الشخصين. ولم يكن أمامه، في هذه الحالة. سوى أن يتميز في عمله، وهذا ما فعله.

كنت رئيس جينوسار في طولكرم. ومنذ ذلك الحين تابعت تقدمه باهتمام كبير. ولن أكون مبالغا، إذا ما قلت أنه كان أبرز محقق في تاريخ الجهاز. كان يجيد الروسية والعربية. ويتمتع بمزايا وكفاءات لا يتمتع بها إلا المحقق والقادة الموهوبون. فهو ذكي، ماكر، فطن، ذو اطلاع واسع في العديد من القضايا.

ومن الجدير بالذكر أن ابنه (شاحر) قتل في قطاع غزة في حادثة سيارة كان يقودها أحد سكان غزة. وقد اتضح أن الحادث لم يكن عملا مقصودا.

قدمت لجنة زوريع نتائج تحقيقاتها بعد ستة أسابيع من الحادث. وقد جاء فيها أن المسلحين قتلا جراء حدوث كسور في الجمجمة. بيد أنها لم تهتد إلى من قتلهما. وأكدت أن الاثنين تلقيا ضربات من إسحق مردخاي-الذي كان آنذاك قائدا

لسلاحي المظليين والمشاة برتبة عميد، وقاد عملية تخليص ركاب الحافلة- ومن رئيس شعبة العمليات التابعة "للموساد" أهود يتوم، ومن ضابط مخابرات آخر وضابط شرطة.

وبعد سنتين من حادثة الحافلة ٣٠٠، تم الكشف عن حقيقة ما حدث، وانشغلت وسائل الإعلام بهذه القضية ليلا ونهارا. ووجهت أصابع الاتهام إلى يوسي جينوسار. حيث قيل أنه في النهار كان منخرطا في تحقيقات اللجنة. وفي الليل، كان يلتقي مع ابراهام شلوم، والمستشارين القضائيين للجهاز، ليخبرهم بالشهادات والاستنتاجات التي تم الخلوص إليها، ويعد معهم مسبقا الشهادات التي يجب أن يدلي بها موظفو الجهاز، الذين سيستدعون للإدلاء بشهاداتهم.

وفي صبيحة اليوم التالي، كان يصغي للشهود مع أعضاء اللجنة، ويقدم في المساء استنتاجاته وملاحظاته لشلوم حولها، لكن جينوسار، نفى بشدة، أن يكون قد نسق عمليات الإدلاء بالشهادات أمام اللجنة رغم تأكيد زوريع فيما بعد، العكس. ويقول زوريع: " لقد شممت أن هناك شيئا ما يحدث، وقلت لجينوسار ضاحكا أن بمقدوره أن يعد الشهادات وينسقها من مكتبي وألمحت له، أكثر من مرة إلى أن الشهادات منسقة. فضحك جينوسار، وشرع باستخدام الهاتف من مكتبي".

ومن الصعب أن أعرف كيف كان أي إنسان في مكان جينوسار سيتصرف، بيد أنني أجرؤ على القول، أن تورطه النسبي راجع إلى تمسكه بالهدف الذي وضعه نصب عينيه. لقد وصل إلى مرتبة رفيعة في الجهاز، وكان من الصعب جدا عليه، أن يرفض طلب شلوم لأن يكون ممثلا للجهاز في اللجنة، لقد مست أزمة الجهاز في تلك الآونة شغاف قلبه، وآمن بأن كفاءته وإخلاصه لشلوم وللجهاز والهدف ستمكنه من تخليص الجهاز من الوحل.

وجه جامد التقاطيع وأعين باردة

قرر المستشار القضائي للحكومة- في أعقاب المشاورات رفيعة المستوى التي أجراها- تعيين طاقم تحقيق جديد، ذي صلاحيات قضائية للعثور على الجناة المسئولين عن قتل المسلحين، وتم تعيين نائب عام الدولة، يونه بلطمون، رئيسا للطاقم، وعضوية ممثلين من أذرعة الأمن ووزارة العدل. وفي نهاية التحقيق، قرر الطاقم تقديم العميد إسحق مردخاي لمحاكمة إنضباط، على أرضية تأكيده أن مردخاي سارع في أعقاب إلقاء القبض على الاثنين للتحقيق معهما، خشية أن يكون قد بقي في الحافلة عبوات ناسفة مفخخة، وقام أثناء التحقيق بضرب أحدهما في رقبته. وقد سلم مردخاي الاثنين إلى جهاز الأمن حيين في أعقاب التحقيق معهما. وبعد شهرين من التحقيق المتواصل (وحرب التشريح ما بعد الوفاه) أفادت الفحوص أن هناك العديد من الدلائل التي تشير إلى استخدام العنف مع الاثنين عبر ضربهما بعقب مسدس إسحق مردخاي، ولكمات وركلات من قبل خمسة أشخاص من محققي الجهاز، وثلاثة من رجال الشرطة. وفيما بعد، تم كشف النقاب عن عمليات التغطية واختلاق الأدلة التي قام بها الجهاز أمام طاقم التحقيق.قدم اسحق مردخاي للمحاكمة أمام قاضي عسكري وحيد وبرئ من التهمة نهائيا. كما قدم خمسة من محققي الجهاز إلى المحاكمة بتهمة التصرف بصورة غير ملائمة وتمت تبرئتهم هم أيضا.

وأود أن أقول أنه لا أساس من الصحة لما قيل ولا زال يقال: من أنه تم تدبير مؤامرة من قبل الجهاز لإدانة إسحق مردخاي، وإخراج الجهاز بريئا طاهر الكفين. وقد قال لي شلوم آنذاك، أنه إذا تمت إدانة مردخاي بالقتل، فسوف يعلن عن تحمله كافة المسئولية.

وفي أعقاب تبرئة مردخاي، بدا أن القضية قد وصلت إلى نهايتها، وتوجه شلوم وزوجته في إجازة إلى الخارج لمدة شهر، وحل محله نائبه روبن حزاك. ويخيل إلي أن حزاك بدأ يفكر في هذه الآونة بالمطالبة بإقالة شلوم. وقد انضم إليه، في هذه المطالبة، شخصيتان من كبار أعضاء الجهاز هما بيلج رداي، رئيس شعبة الأجانب، ورافي ملكا، رئيس الشعبة الإدارية. وكان الثلاثة يقولون: أنه ونظرا للورطة التي وضع شلوم إسحق مردخاي فيها وزيف واختلق الأدلة، وكذب على الجهاز القضائي، فإنه فقد الصلاحيات الأخلاقية والقيادية التي تخوله ترؤس الجهاز. وفي صبيحة اليوم التالي لعودة شلوم، ذهب حزاك لزيارته، وطالبه بالاستقالة. ولم يناقشه حزاك أبدا في ماهية إصدار أمر القتل، بل قال: إن إصدار الأمر، في الوقت الذي كان المكان يعج بالصحفيين وغيرهم، كشف جهاز الأمن العام وعرضه للتقولات، وعلى شلوم أن يدفع الثمن وقد أصغى إليه شلوم، ورفض في نهاية اللقاء، الاستقالة، مما حدا بحزاك لطلب لقاء برئيس الحكومة شمعون بيرس، فوعده شلوم بأن يعمل على إتمام هذا اللقاء. وبعد أسبوعين دعي حزاك لمقابلة بيرس، الذي أصغى إليه، ورفض طلبه.

مرت على شلوم فترة صعبة للغاية، فقد كان رجلا شديدا، وتنفيذيا من الدرجة الأولى، وصاحب إنجازات كبيرة جدا، في المجال الاستخباري، الأمر الذي أسهم إسهاما كبيرا، في الحفاظ على أمن الدولة.

ووفقا لمعرفتي لشلوم، فإنني أعتقد أنه كان يؤمن بصورة قاطعة، أن قتل الاثنين سيعتبر عاملا رادعا. وقد زعم أنه عمل "بصلاحيات وإذن" وبناء على رأي رئيس الحكومة، آنذاك إسحق شامير. وقد شعرت بالألم الشديد لأزمته، بيد أن مستقبل الجهاز كان يؤلمني أكثر لذا قلت له أنني اعتزم الاجتماع برئيس الحكومة

للتحدث معه حول مستقبل الجهاز. وقد أدرك بحسه، أن لقائي ببيرس سيسهم في إنهائه لوظيفته، لذا قال لي: "لن يقدم لقاؤك مع بيرس أي مساعدة كانت". وحاول إثنائي عن نيتي، بيد أنني كنت مصرا على موقفي فوافق على ترتيب اللقاء.

اقترحت على بيرس، في لقائنا، أن يزور كبار مسئولي الجهاز وأن يعرب عن تأييده لهم. وقلت له أن مصلحة الجهاز ومصلحة شلوم نفسه، تقتضي بأن يعلن رئيس الجهاز نيته دراسة إمكانية استبدال شلوم ووعدت بأن أبقى في الجهاز سنة أخرى. في حالة تعيين رئيس جديد لمساعدته في عمله. وبعد أن أصغى إلي قال بيرس: " شكرا يعقوب، أعد بأن أتحدث مع قيادة الجهاز"، لكنه لم يأت ولم يتطرق إلى ما قلته له بشأن استبدال شلوم. وقد اتضح لي فيما بعد أن بيرس اقتنع بأقوال شلوم، بأن حزاك وزملاءه يطالبون بإقالته للحلول محله، لذا قرر دعم شلوم.

ووسط هذه العاصفة، أعلن حزاك ورداي عن استقالتهما من الجهاز، وتمت إقالة مالكا من منصبه. وصلت ادعاءات ثلاثة مسئولي الجهاز إلى آذان المستشار القضائي فاستدعاهم. وسمع أقوالهم وتلقى منهم معلومات ووثائق بشأن قتل المسلحين. ومحاولات تدبير الشهادات الكاذبة وتلفيق الأدلة. وقد توجه المستشار القضائي إسحق زمير بعد أن اقتنع بصدق دعواهم إلى رئيس الحكومة، وطلب منه إقالة شلوم فورا بيد أن بيرس رفض الاستجابة له، رغم أن زمير أكد أنه إذا ما استقال شلوم، فإنه سيعتبر القضية منتهية بالنسبة له.

وفي الرابع عشر من أيار ١٩٨٦ قدم زمير شكوى جنائية إلى مفتش عام الشرطة: ضد شلوم. كان قد مضى عامان على حادثة دير البلح وقتل المسلحين. وفي نفس الوقت قدم مالكا شكوى إلى المحكمة العليا ضد رئيس الحكومة ورئيس الجهاز.

وطـالب أن يقدمـا تـبريرا حـول أسـباب إقالتـه مـن منصبـه وسـبب عـدم إقالـة رئيـس الجـهاز فـورا.

وفي نفـس الشـهر أصيـب جـهاز الأمـن العـام بـسـهزة شـديدة. فقـد أفـاد التلفزيـون الإسـرائيلي أن تحقيقـا يجـري ضـد موظـف رفيـع في جـهاز الأمـن العـام، بسـبب قضيـة مـا، وسرعان ما كشفت إذاعـة (الـبي بـي سـي) أن هـذا الشخص هـو ابراهـام شـلوم.

عقـد شـلوم في هـذا الوقـت اجتماعـا لقيـادة الجـهاز، وبتقـاطيع جـامدة تمامـا. وأعـين بـاردة كالعـادة استعرض مـا حـدث علـى أرض الواقـع، وقـال أنـه أصـدر أمـرا بقتـل المسلحين بيـد أنـه لم يسـهب في هـذه النقطـة، وطلـب أن نعلـم مرؤوسـينا بذلـك.

لقـد حـدث لدينـا انطبـاع بـأن المطلـوب منـا أن نقـرأ علـى مرؤوسـينا في الجـهاز، مـا أمـلاه علينـا رئيـس الجـهاز، دون أن تمنـح لهـم الفرصـة لتقديـم أي ملاحظـات علـى ذلـك. وكلمـا أكـثر شـلوم مـن التقـارير مـن هـذا القبيـل، كلمـا ازدادت الشـكوك لـدي بأنـه لا يطـرح أمامنا الحقيقة كاملـة، بـل يطـرح الجـانب الـذي يـراه هـو منـها.

كنـت آنـذاك أشـغل منصـب قـائد منطقـة القـدس والضفـة الغربيـة، واتسـمت تلـك الآونـة بـالعديد مـن العمليـات، وكشـف العديـد مـن الخلايـا وبنـاء علـى ذلـك، عقدنـا اجتماعـات مطولـة مـع مرؤوسـينا الذيـن كـانوا يقدمـون الكثـير مـن التسـاؤلات حـول قضيـة (الحافلـة ٣٠٠) دون أن يكـون لدينـا ردود شـافية لهـا، ممـا اضطرنـي لأن أفتـح قلـبي لهـم وأقـول: أنـني لا أقبـل قبـولا تامـا، جميـع التفسـيرات الـتي تقـدم إلي، وسـرعان مـا جـاءت النتيجة. فقـد عمـد شـلوم إلى إقصـائي أكـثر عـن الاجتماعـات ولم يعـد يطلعـني علـى الكثـير.

طرحـت مطالبـات في تلـك الآونـة لتشـكيل لجنـة حكوميـة للتحقيـق في القضيـة. وفي إطـار محاولـة لتهدئـة النفـوس، قـرر وزيـر العـدل إسـحق موداعـي بموافقـة رئيـس

الحكومة شمعون بيرس، والقائم بأعماله إسحق شامير قبول استقالة المستشار القضائي للحكومة زمير. وفي الأول من حزيران ١٩٨٦ تم تعيين القاضي اللوائي يوسف حريش بدلا منه بيد أن هذا التعيين السريع، أثار أقاويل لدى الكثيرين بأن الحكومة ترغب في إقصاء زمير وتعيين شخصية مريحة لها.

وخلال المشاورات التي أجراها المستشار القضائي مع رئيس الحكومة تم العثور على طريقة لوضع حد للقضية: أن يقدم ابراهام شلوم استقالته وفي نفس الوقت يطلب من رئيس الدولة حاييم هرتسوغ، العفو عنه مسبقا وقبل تقديم لائحة الاتهام ضده عن جميع التهم المنسوبة إليه. وفي الخامس والعشرين من حزيران ١٩٨٦ قدم شلوم استقالته لرئيس الحكومة.

قدم رئيس الجهاز وثلاثة آخرون من موظفيه طلب عفو إلى رئيس الدولة الذي استجاب لهم، بعد أن عثر هو والقضائيون على فقرة في القانون تسمح له بذلك. والحقيقة هي أن هذا العفو جاء بغية شطب الشكوى الجنائية التي قدمها زمير. وقد ذكر شلوم في كتاب طلب العفو أنه أعطى أمر القتل (بصلاحيات وإذن)-أي بناء على استشارة رئيس الحكومة إسحق شامير، في الوقت الذي ادعى فيه شامير بإصرار أن عملية قتل المسلحين تمت دون معرفته أو إذن منه. وقد بلغ عدد الذين منحهم الرئيس العفو، في هذه القضية، أحد عشر من عمال جهاز الأمن العام.

وفي كانون الأول من نفس العام، أعلن طاقم قضائي برئاسة المستشار القضائي حريش أن شامير بريء من جميع التهم التي وجهها إليه شلوم. وأوصى الطاقم بعدم تقديم الأحد عشر شخصا الذين عفا عنهم رئيس الدولة للمحاكمة. ومن الجدير بالذكر أن ستة التماسات قدمت إلى المحكمة العليا ضد قرار العفو، بيد أن المحكمة ردتها

جميعا بالأغلبية حيث توصل قاضي المحكمة مائير شمجار، ونائبه مريم بن بورات. إلى رأي قضائي يقول: " إن من حق رئيس الدولة العفو عن الأشخاص قبل تقديمهم إلى المحاكمة في حين توصل القاضي اهارون براك إلى رأي مخالف.

وبعد عشر سنوات من انتهاء هذه القضية، اعترف ايهود يتوم في مقابلة مع جريدة يديعوت احرونوت أنه قتل بيديه المسلحين بناء على توجيهات رئيس جهاز الأمن العام.

بدا جهاز الأمن العام حتى قضية الحافلة ٣٠٠، كمستنبت غطيت جميع جوانبه بستائر ثقيلة، لا تسمح بالرؤية خارجه، ولم يفكر الكثيرون منا أبدا بإمكانية إزاحة الستائر في بعض الأحيان للإطلاع على الأحوال السياسية في الخارج، أو مدى قوة وسائل الإعلام والرأي العام.

كان الجهاز مغلقا تماما ومنغلقا على نفسه. كنا نقوم بأعمالنا سرا بعيدا عن الأضواء دون خوف من أي تدخلات أو انتقادات وسائل الإعلام. بدا هذا الوضع مريحا لنا: وأيضا لشعب إسرائيل، لأنه أتاح لنا الفرصة لتوجيه كل طاقتنا لإحباط العمليات الإرهابية وضمان سلامة الجماهير.

انفجرت قضية (الحافلة ٣٠٠) داخل المستنبت، دون أن نكون على أهبة الاستعداد لمواجهة الانفجار والاختباء في المكان المناسب. لتجنب الشظايا التي أصابت الجدران وإصابتنا جميعا بجراح. وبدأت وسائل الإعلام تستعرض كل ما لدينا يوميا. أعمالنا. تقديراتنا. وأساليب عملنا التي حرصنا تماما في الحفاظ على أسرارها وكشفت كل شيء أمام العامة.

وفجأة، تعلمنا ما أدركه الكثيرون، قبل ذلك بوقت طويل: في الأنظمة الديمقراطية لا يمكننا أن نحظى بدعم سياسي مطلق. فالسياسيون يسارعون عندما يشتمون رائحة الخطر تهدد مقاعدهم إلى التنصل من كل ما يمكن أن يهزمهم. وابراهام شلوم لم يفهم هذه النقطة. ومثل الكثيرين منا سار سنوات طويلة على حبل دقيق جدا في منطقة الضباب القانونية نظرا لأن الظروف السائدة تطلبت ذلك.

وعندما وقع الفشل الكبير كان عليه أن يدرك أنه منذ هذه اللحظة سيبقى وحيدا أمام فريق الإعدام.

لقد كان على شلوم عندما اتخذ قرار تشكيل طاقم التحقيق في القضية، أن يتوجه إلى رئيس الحكومة ويقول: أنا أنحي نفسي من منصبي، نظرا لأنني أرغب في إكمال دراستي في هارفرد أو كمبريدج، بيد أنه لم يفعل ذلك، الأمر الذي عرض الدولة، والجهاز كله، لهزة عنيفة دون أي مبرر. وفي نهاية المطاف، اضطر للاستقالة وفي نفس الوقت، غادرت الجهاز شخصيات رفيعة: روبن حزاك، رافي مالكا، بيلج رداي وغيرهم وهم يشعرون بالانكسار الداخلي.

ويوسي جينوسار أيضا دفع الثمن، ورغم أنه كان يعارض العفو بصورة عامة. إلا أنه اضطر لقبوله، نظرا لأنه قيل له: أن رفضه للعفو يمنع آخرين من قبوله، أضف إلى ذلك. أن قبوله العفو سيحول دون أجراء تحقيق واضطرار عمال الجهاز الآخرين إلى كشف أساليب العمل وقضايا أخرى سرية أثناء التحقيق معهم، بغية الدفاع عن أنفسهم.

لم يتخل أريئيل شارون–الذي كان قائدا للقطاع الجنوبي إبان عمل جينوسار في نفس القطاع عن جينوسار، فعندما عين وزيرا للصناعة والتجارة. قام بتعيين

جينوسار مديرا لمعهد التصدير، رغم معارضة مجلس الإدارة. وقد بدا جينوسار فيما بعد كحليف لشارون، بيد أنه ولسبب ما حدث شرخ في علاقتهما.

وفي مطلع التسعينات، انضم جينوسار لحزب العمل، وأراد تقديم نفسه لانتخابات الكنيست، بيد أن وزير العدل السابق حاييم تصادوق عارض ذلك، وطلب من أعضاء الحزب عدم انتخابه. وفي أعقاب انتخابات الكنيست الثالثة عشرة عام ١٩٩٢ أراد وزير الإسكان والبناء بنيامين بن اليعيزر تعيينه مديرا لمكتبه، بيد أن محكمة العدل العليا رفضت ذلك، في أعقاب الالتماس الذي قدم إليها، على أرضية قضية (الحافلة ٣٠٠).

أما ابراهام شلوم، فقد قطع علاقاته تماما تقريبا مع دولة إسرائيل، وأصبح يتحرك بين نيويورك ولندن وأصبح هذا الرجل الذي كان يعرف أكثر من الجميع: أقلهم معرفة. بل لقد سألني في إحدى زياراته النادرة لإسرائيل: "قل لي يعقوب، من هو وزير المالية الإسرائيلي الآن؟".

لقد شعرت أن رئيس الدولة، حاييم هرتسوغ، كان يفتش عمن يؤيده قبل منح قرار العفو لأعضاء الجهاز وكان يتشاور مع الكثيرين في ذلك. كان عليه اتخاذ قرار صعب للغاية. بالنسبة له لقد كان العفو حسب رأيي نتاجا ضروريا للواقع الذي يواجهه الجهاز، رغم الانتقادات الشديدة التي وجهت إلى هرتسوغ بسبب ذلك. لقد كان الجهاز كله بحاجة إلى هذا العفو كي يتمكن من تطهير الأجواء.

وعندما عينت رئيسا للجهاز حرصت على منح الرئيس هرتسوغ إحساسا بأننا نكن له احتراما كبيرا، نظرا لأنه هب لمساندة الجهاز عند الحاجة وأكثرت من

دعوته لإلقاء المحاضرات في الاجتماعات التي نعقدها، خصوصا وأنه كان ذا خلفية أمنية غنية، بوصفه رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية سابقا.

وأسفرت الهزة العنيفة التي أصابت جهاز الأمن العام عن تعيين يوسف هرملين رئيسا للجهاز لولاية ثانية بدلا من ابراهام شلوم. وقد جاء إلينا من مكتب مراقب الدولة، حيث كان يدير شعبة الرقابة على الجهاز الأمني. وعندما تولى منصب رئاسة الجهاز كان في الحادية والستين مليئا بالتجارب والخبرة والاتزان، بيد أنه لم يكن قادرا على مجاراة وتيرة العمل التي فرضت على الجهاز.

وقد عمل هرملين على إبطاء وتيرة العمل، الأمر الذي مس بروحية الوحدة. بيد أننا كنا جميعا ندرك أنه موجود بصورة مؤقتة حتى إيجاد البديل. ورغم أنني لم أعرفه قبلا، إلا أن أول مقابلة بيننا استغرقت زمنا طويلا بروحية جيدة. وبعد تسعة أشهر من تعيينه، عينني نائبا لرئيس الجهاز، وحرص على أن يضيف لصيغة التعيين ما يلي: " أرجو أن لا تعتبر هذا التعيين مني بمثابة التزام لتعيينك رئيسا لجهاز الأمن العام".

كيف يمكن الحذر من
التنويم المغناطيسي

كان كل ما يرغب فيه هرملين هو العودة إلى بيته من الخدمة بسلام. وقال لي في إحدى جلساتنا: " كل ما أرغب فيه هو أن أتفرغ لأحفادي وأن أساعدهم في دروسهم". ولم يكن يتصور حدوث أي هزات في الجهاز في عهده.

تم تعيين لجنة القاضي موشيه لنداو للتحقيق في أساليب تحقيق الجهاز مع الأشخاص المشبوهين بالقيام بأعمال تخريبية. وقد شكلت لجنة لنداو في أعقاب قضية

(نافسو). وعزت نافسو، هو ابن لإحدى العائلات الشركسية، من (كفر كما) في الجليل الأسفل. وقد خدم في وحدة الارتباط مع جنوب لبنان، كمسئول عن نقل الأسلحة والذخائر والتجهيزات الطبية لقوات سعد حداد. وقد شارك في دوريات هذه القوات، وجمع من القرويين معلومات حول نشاطات المنظمات الفدائية. والتقى في إطار عمله مع عدد من المخربين المزدوجين الذين لم تكن موثوقيتهم موضع شك، وأحدهم مختار (كفر شابا) المسمى أبو قاسم والذي كان خاضعا لرقابة جهاز الأمن. وقد تم اعتقاله في نهاية المطاف والتحقيق معه بتهمة التعاون مع المنظمات "التخريبية".

وخلال التحقيق قال أن نافسو، اجتمع مع أحد قادة منظمة التحرير وتلقى منه حقائب ملأى بالمتفجرات لنقلها إلى إسرائيل، وأنه كان يحصل على خمسة آلاف ليرة لبنانية، مقابل كل حقيبة ينقلها.

وبناء على هذه الشهادة، تم اعتقال نافسو في كانون الثاني ١٩٨٠. وقام يوسي جينوسار بالتحقيق معه، وقدم إلى المحاكمة بتهمة التجسس لصالح المنظمات. ونقل معدات حربية إلى العدو.

وقد أدانته المحكمة بجميع التهم المنسوبة إليه، وحكمت عليه بالسجن لمدة ثماني عشرة سنة. وتخفيض رتبته إلى جندي (غر) وطرده من الجيش، على الرغم من أن نافسو زعم أن اعترافاته أخذت منه بأساليب تحقيق غير مشروعة. وقد استأنف أمام محكمة عسكرية أعلى. بيد أنها ردت استئنافه.

وفي أعقاب قضاء سبع سنوات من سجنه، ووقوع عملية (الحافلة ٣٠٠). كشف النقاب عن طبيعة جينوسار، مما حدا "بنافسو" تقديم التماس جديد إلى المحكمة بشأن محاكمته وحكمه. وشاء حسن طالع (نافسو) أن يتم تعديل أحد القوانين

القضائيـة العسـكرية في تلك الآونـة، الأمـر الـذي مكنـه مـن مطالبـة رئيـس المحكمـة العليـا بإعـادة النظـر في قضيتـه، مسـتندا في دعـواه، إلى التحقيـق مـع جينوسـار، وإثبـات قيامـه بـالعمل علـى تشـويش الإجـراءات القضائيـة في قضيـة (الحافلـة ٣٠٠)، وقـد أكـد جينوسـار خـلال التحقيـق أن الجـهاز انتـهج أسـاليب مماثلـة في السـابق. وقـد زعـم (نافسـو) أن قضيتـه هـي إحـدى القضايـا الـتي قصدهـا جينوسـار بأقوالـه وقـال أن جينوسـار عذبـه، وبصـق في وجهـه، وأسمـاه مخربـا. وقـال لـه: أنـه لا يسـتحق التحـدث معـه باللغـة العبريـة، وأسـقطه أرضا ووضع قدمـه فوقـه، هـذا إضافـة إلى الضغـوط النفسـية الأخـرى الـتي مارسـها عليـه.

وخـلال النظـر في قضيتـه تم الاتفـاق بـين النـائب العسـكري والدفـاع علـى صفقـة تم خلالهـا إلغـاء جميـع التـهم الـتي وجـهت إلى نافسـو سـابقا، واسـتبدلت ببنـد بسـيط يقـول: انحـراف عـن صلاحياتـه وقـد اعـترف "نافسـو" أنـه التقـى إبـان إحـدى زياراتـه لمـنزل أبـو قاسـم مـع شـخص قـدم إليـه نفسـه علـى أنـه ذو علاقـة بالمنظمـات المسـلحة، وأنـه علـى اسـتعداد لتقديـم معلومـات إليـه حولهـا. وفي اللقـاء الثـاني أعلمـه هـذا الشـخص أنـه ضـابط كبـير في حركـة فتـح، وأن لقاءهمـا السـابق صـور سـرا وطلـب منـه التعـاون معـه وإلا فإنـه سيرسـل الصـور إلى المخـابرات الإسـرائيلية، لكـن "نافسـو" رفـض ذلـك، ولم يطلـع أي شخص بمـا جـرى.

قبـل قضـاة المحكمـة العليـا الثلاثـة الصفقـة الـتي تم عقدهـا بـين النـائب العـام والمحـامي. وقـد أخـذوا بعـين الاعتبـار أن نافسـو كـان سـجينا لمـدة سـبع سـنوات ونصـف السـنة في حـين أن التهمـة الـتي اعـترف بـها تسـتحق حكمـا بالسـجن لمـدة خمـس سـنوات وقرر القضـاة الحكـم عليـه بالسـجن لمدة سنتين منـذ يـوم سـجنه وتخفيـض رتبتـه مـن مـلازم أول إلى رقيـب أول، وإخراجـه فـورا مـن السـجن.

ازدادت حدة العاصفة التي إثارتها قضية "نافسو"، في أعقاب التقرير الذي نشرته منظمة "بتسليم" حول أساليب تحقيق جهاز الأمن العام. وهكذا، وفي أعقاب العاصفة التي أثارتها قضية (الحافلة ٣٠٠)، ثارت عاصفة جديدة حول ما يجري في زنازين تحقيق الجهاز. وبدا واضحا للجميع أن هذه القضية لن تهدأ قبل أن يتم فحصها حتى النهاية. وبناء عليه قررت الحكومة تشكيل لجنة تحقيق حول "أساليب وإجراءات التحقيق في الجهاز، بشأن الأعمال التخريبية المعادية والإدلاء بالشهادات أمام المحاكم فيما يتعلق بهذه التحقيقات" وقد ترأس هذه اللجنة، رئيس المحكمة العليا المتقاعد موشيه لنداو، وعضوية مراقب الدولة يعقوب ملتس واللواء احتياط إسحق حوفي، رئيس الموساد السابق.

حدث ذلك في الحادي والثلاثين من أيار ١٩٨٧، أي بعد حوالي شهر من تعييني نائبا لرئيس الجهاز. وكانت أولى المهام التي كلفني بها هرملين، بلورة وجهة نظر الجهاز، بشأن القضايا آنفة الذكر وجمع المواد والأدلة التي تؤيدها.

وكلف المحامي تسفي طرلو-وهو عقيد احتياط، وشغل سابقا منصب مدير عام وزارة العدل. بأن يكون شريكي في هذه المهمة. وكنا نحن الاثنين ندرك أن تحقيقات جهاز الأمن العام أصبحت مع مرور الأيام مسألة حساسة تتدخل فيها وسائل الإعلام بصورة موسعة جدا.

ومن الجدير بالذكر أن جهاز الأمن العام، كان يعمل حتى نشوب حرب ١٩٦٧ في مجالين فقط هما: مواجهة أعمال التجسس الأوروبي الشرقي على إسرائيل. والحيلولة دون تشكيل تنظيمات وطنية معادية، في أوساط العرب، في إسرائيل. ولم

يتجاوز جهاز التحقيق آنذاك أكثر من سبعة محققين، أربعة منهم كانوا يعالجون قضايا الوسط العربي.

وفي عام ١٩٦٦- أي خلال العام الأول الذي التحقت فيه بالجهاز تم التحقيق مع ما لا يزيد عن مائة وخمسين شخصا من جميع القطاعات. بيد أن حرب ١٩٦٧ خلقت وضعا جديدا مختلفا في أهدافه، فقد كلف جهاز الأمن العام بمواجهة الخلايا الفلسطينية المسلحة التي تعج بها الضفة والقطاع وداخل إسرائيل وأيضا خارج حدودها. وكانت التحقيقات، إحدى أهم الوسائل لكشف هذه الخلايا وإلقاء القبض عليها. وإحباط أعمالها.

هناك قسم خاص للتحقيقات في قيادة جهاز الأمن العام. بيد أن الغالبية العظمى من المحققين موزعون في مراكز التحقيق في جميع أنحاء إسرائيل وهم خاضعون إداريا ومهنيا لرؤساء الأقسام. ومن الجدير بالذكر أن مراكز التحقيق كانت موجودة في كل مدينة من مدن الضفة والقطاع حتى خروج الجيش الإسرائيلي منها. وكان أكبرها في غزة.

عملية تأهيل المحققين وشروط الخدمة مماثلة تقريبا لعملية تأهيل الضباط الميدانيين. وتشتمل هذه العملية. على تعلم اللغة العربية والمشاركة في دورات استخبارية. والفارق القائم بين الجانبين هو أن الضباط الميدانيين يجرون تحقيقات على فترات متباعدة وفي ظروف عاجلة وميدانية. في حين يعمل المحققون في مجال التحقيق بصورة مكثفة طيلة الوقت.

لقد حقق الجهاز في غضون السنوات الثماني والعشرين منذ بدء الاحتلال وحتى إنهائي لمهام عملي فيه مع عشرات الآلاف من المسلحين أو المشبوهين في حين أن

عـدد المحققـين الذيـن قـاموا بـهذه المهمـة لم يتجـاوز عشـرات الأشـخاص، وقـد أسـفرت تحقيقاتـهم عـن الكشـف عـن أكـثر مـن ٧٠٪مـن التنظيمـات المعاديـة والمسـلحين الأفـراد ونصـف المعـدات الحربيـة. ومـن الجديـر بـالذكر، أن تصـاعد نجـم حركـتي "حمـاس" و"الجـهاد"، أدى إلى أن يكـون ٨١٪ مـن الذيـن تم التحقيـق معـهم عـام ١٩٩١ مثـلا مـن الحركـات الإسـلامية، وبعـد سـنتين وصلـت هـذه النسـبة إلى ٥٤٪. ورغـم أن الاعـتراف بتنفيـذ العمليـات ذو أهميـة كبـيرة، إلا أن الحصـول علـى المعلومـات الـتي تـؤدي إلى إحبـاط العمليـات الإرهابيـة في المسـتقبل كـان أشـد أهميـة، وقـد أسـفرت التحقيقـات، في هـذا المجـال، عـن نتـائج جيـدة جـدا. كـانت التحقيقـات مـع المعتقلـين الفلسـطينيين في زنـازين الجـهاز صعبـة ومضنيـة. ومنـذ لحظـة اعتقـالهم، كـانت التـهديدات تحلـق فـوق رؤوسـهم: مـن المنظمـات الـتي لم تكـن تـتردد في قتـل المتعـاونين مـع سـلطات الاحتـلال، حتـى داخـل السـجون. والمعتقـل الـذي يعـترف، ويسـلم زمـلاءه إلى الاعتقـال، كـان يتعـرض لخطـر المـوت. وكـانت الأنبـاء القائلـة أن معتقـلا معينـا اعـترف وأدلى باعترافاتـه أمـام المحققـين بكـل المعلومـات الـتي أرادهـا تنتقـل مـن إحـدى غـرف السـجن إلى الأخـرى بسـرعة كبـيرة جـدا. وحتـى لـو لم يتـم اكتشـاف اعترافاتـه في مرحلـة التحقيـق فـإن زمـلاءه سـرعان مـا يكتشـفون ذلـك خـلال محاكمتـه. أضـف إلى ذلـك أن الازدحـام الشـديد في زنـازين التحقيـق والمعتقـلات مسـت إلى حـد كبـير بشـروط العـزل للمحقق معـهم، وأتـاحت الفرصـة لزملائـهم لممارسـة الضغـوط عليـهم كـي لا يتعـاونوا مـع المحققين.

وسائل التحقيق

رجال المنظمات قتلوا الآلاف من أبناء شعبهم ممن اشتبهوا بتعاونهم معنا، وفي الكثير من الحالات لم يكن هناك أي أساس لهذه الشكوك، وقد نجح رجال المنظمات في إشاعة الخوف في أوساط الجماهير، ودفع الكثير من المحقق معهم، إلى عدم المسارعة بالاعتراف، حيث كان كل من يصمد في التحقيق، يحظى بمكانة رفيعة بين زملائه، وكان من بين المعتقلين، كثير ممن انضموا إلى المنظمات بدوافع أيديولوجية، وهو الأمر الذي عزز قدرة صمودهم، فقد أدركوا أن عليهم التزام الصمت، وعدم الإدلاء بمعلومات حول زملائهم، وأن هناك ثمنا لذلك، وطالما أن سمعتهم لم تلوث، كانوا يضمنون ألا يمس اعتقالهم بإمكانية الارتزاق والمعيشة لدى عائلاتهم، فقد كانت لجان دعم المعتقلين المخلصين نشيطة وسخية، أضف إلى ذلك، أن اتفاقيات تحرير المعتقلين التي جرت عدة مرات بين إسرائيل والمنظمات، فعلت هي الأخرى فعلها، وقد وصل الكثير من المعتقلين إلى زنازين التحقيق، وهم يدركون أنه حتى لو تم تقديمهم للمحاكمة وحبسهم، فإن إسرائيل ستضطر لإطلاق سراحهم في إحدى صفقات تبادل الأسرى.

وفي إطار محاولتهم جعل الأمور أصعب بالنسبة لنا، وزعت المنظمات على أعضائها كتيبات صغيرة حول أساليب التحقيق والصمود، وكانت غالبية المعتقلين تعرف القواعد الواردة في هذه الكتيبات شفهيا. وقد احتفظت بإحدى هذه الكتيبات للذكرى. وقد تضمنت، بادئ ذي بدء، مقدمة طويلة، تدعو المحقق معهم، لعدم الاعتراف في التحقيق والصمود أمام جميع الضغوط النفسية والجسدية"، إن بمقدور

المحقق معه السيطرة على أقواله وأفعاله، فهو يستطيع الجلوس إذا أمره المحقق بالوقوف، ويستطيع الكلام إذا ما أمروه بالسكوت، والكلمات غير قادرة على تحريك اللسان، إن توجيه الألفاظ النابية والشتائم إلى المحقق معه، وإدخال من انهاروا إلى زنزانته للتأثير عليه، لا تبرر الاعتراف أبدا".

ثم يتطرق الكتيب إلى العديد من أساليب التحقيق التي أكدها المعتقلون الذين تم الإفراج عنهم، ومن الجدير بالذكر، أن هناك مبالغة واختلاقا في معلومات هذه الكتيبات، وأورد هنا بعض النماذج الواردة فيها:

*أسلوب المحقق الطيب والشرير: هذا الأسلوب شائع في أوساط المحققين الإسرائيليين، حيث يجري عمليات التحقيق في الغالب محققان، ويبدو أحدهما أثناء التحقيق مجرما، لا يعرف الرحمة، في حين يبدو الثاني مهذبا، لطيفا، متحليا بالصبر، ويقوم دائما بوقف عمليات التعذيب، ويعطي انطباعا بأنه يرغب في الدفاع عن المعتقل. وعندما يقوم الأول بتوجيه الإهانات والضرب، يسارع الآخر للقول له: "توقف عن ممارساتك البربرية، وتعامل مع المعتقل كإنسان"، وينصح المعتقل بالاعتراف، كي يجنب نفسه الإهانات والتعذيب، وهكذا، عندما يدخل المحقق "الطيب" إلى غرفة التحقيق: يشعر المحقق معه بالارتياح. وعندما يدخل المحقق الشرير يشعر بالخوف، وبمقدور كل معتقل، أن يقاوم هذه الطريقة، فبكلمة منه يستطيع تحويل المحقق الطيب إلى شرير، وبالتالي يحرم المحققين من استخدام هذا الأسلوب معه.

*أسلوب المعرفة الكاملة: يعمل المحقق دائما، على التقليل من شأن وأهمية المعلومات التي يدلي بها المحقق معه، بدعوى أنه لا يهتم بأن يعترف أولا يعترف

لأنـه يعـرف كـل شيء، وكـل مـا يريـد معرفتـه، الأسـباب الـتي حـدت بـه للقيـام بأعمـال تخريبيـة. وعندمـا يتمكـن المعتقـل مـن السيطرة علـى نفسـه، يتخلـى المحقـق عـن اسـتخدام هـذا الأسـلوب.

*أسـلوب إثـارة المشـاعر: الغـرض مـن هـذا الأسـلوب هـو التأثـير النفسـي علـى المحقـق معـه عـبر إثـارة مشـاعر الحـب أو الكراهيـة في نفسـه، أو إثـارة خوفـه علـى حياتـه أو أعضـاء جسـمه أو قدرتـه الجنسـية، أو تـهديده بـاللواط أو باغتصـاب أمـه أو أختـه أو إحـدى قريباتـه أو بممارسـته الضغـوط الجسـمانية عليـه بـالضرب، مـع إعطائـه انطباعـا بـأن هذا الوضـع سيسـتمر زمنـا طويـلا.

ويعتـبر هـذا الأسـلوب ذا أهميـة خاصـة نظـرا لأن المحقـق يسـتخدم معرفتـه بـالعـادات والقيـم الاجتماعيـة للمحقـق معـه، ولا شـك أن المحقـق معـهم السـذج والبسـطاء. سـيكونون علـى اسـتعداد للاعـتراف بـأي شـيء، حينمـا يشـاهدون أختـهم وهـي تتلقـى الضربـات، أو وهـي عاريـة تتعـرض للتـهديد بالاغتصـاب، وفي هـذه الحالـة يكـون علـى اسـتعداد للتضحيـة بنفسـه مـن أجـل وقـف الإهانـات، فالتقـاليد العربيـة "المتعفنـة" تقـول أن شـرف البنـت في عـين والدهـا أو شـقيقها أغلـى مـا في الوجـود، بـل هـو أغلـى مـن الوطـن والثـورة.

لقد كـانت هـذه التقـاليد هـي السـبب في هجـرة مئـات الآلاف مـن أبنـاء شـعبنا الراغبـين بالحفـاظ علـى شـرف أسـرتهم، ويجـب أن نعـرف أن أي مجتمـع إنسـاني حديـث لا يـولي أهميـة للبكـارة في الفتـاة.

*أسـلوب الأزمـة الفجائيـة: في الوقـت الـذي يخضـع فيـه المعتقـل للتعذيـب. يدخـل المحقـق إلى زنزانتـه عميـلا يزعـم أن المخـابرات تعذبـه، وفي كـل يـوم يعـود هـذا

العميل إلى الزنزانة مدعيا أنه عاد من التحقيق، يبدأ وصف التعذيب الذي تعرض له، فيقول أنهم ضربوه على خصيتيه، وأحضروا ابنته إليه وهي عارية، وحقنوه بمادة أفقدته الوعي، والعميل يرمي بكل ذلك، لدفعه إلى الانهيار والاعتراف.

*أسلوب تشتيت الأفكار: تقف مجموعة من المحققين أمام المعتقل، وكل واحد منهم يسأله سؤالا مختلفا بغية تشتيت أفكاره وإرهاقه ودفعه للاعتراف.

ويتبدل المحققون كل بضع ساعات على المعتقل لبلبلته وإرباكه والتأثير على وضعه النفسي والجسماني، ويجب على المعتقل، في هذه الحالة، أن يحافظ على صمته وكبريائه، ولا شك أن مثل هذا النوع من التحقيق لن يتواصل إلى الأبد، بل سينتهي بإحدى نتيجتين: إما باقتناع المحققين ببراءته، أو يصلون إلى اقتناع باستحالة استخلاص أي معلومات منه.

*أسلوب الضرب والتعذيب: فإذا ما أبدى المعتقل مثلا الخوف من مواصلة ضربه على أذنه خشية أن يصاب بالصمم، أو أنه يخشى الضرب على خصيتيه كي لا يصاب بالعقم، أو أنه يصرخ كلما ضربوه أو يطلب الرحمة، فإن المحقق سيواصل ضربه على تلك الأماكن بغية إرغامه على الاعتراف.

أما إذا ما أبدى المحقق معه صمودا، فإن المحقق سيشعر بالإرهاق. ومن المألوف، أن يستغل المحقق فترات الاستراحة بين كل فترتي تعذيب كي يسأل المحقق معه فيما إذا كان على استعداد للاعتراف؟؟ وفي هذه الحالة على المحقق معه أن يستغل هذه الفترات للاستراحة.

*أسلوب الإغواء: عندما يفشل المحقق في إرغام المحقق معه على الاعتراف، فإنه يلجأ إلى أسلوب آخر فيحاول حث المحقق معه، على الاعتراف بعدة كلمات

حلـوة. بــالقول لــه أنــه يجــب أن يفكـر في مصلحتــه، ويعــرض عليــه مثــلا مســاعدته في التعليـم، بإعادتـه إلى عملـه، ويعـده بعـدم تفجير منزلـه، شـريطة أن يعــترف.

*أسـلوب التنويـم المغناطيســي، ترمــي هــذه الطريقــة لكسـر ردود الفعــل الإراديـة، فـالمحقق معـه يـرد في هـذه الحالـة، مثلمـا يطلـب منـه خبـير التنويـم، ويجـب أن نعـرف، أن التنويـم لا يمكـن أن يحـدث دون تجـاوب بـين الخبـير الـذي يمـارس التنويـم، وبـين المحقـق معـه، لـذا فـإن هـذا الأسـلوب، لـن يكـون مجديـا، إذا مـا اعتـبر المحقـق معـه الخبـير عـدوا. ويمكـن إفشـال الخبـير، عـبر عـدم الاسـتجابة لما يـأمر بــه، فـإذا طلـب مـن المحقـق معـه النظـر باتجـاه معـين يجـب عليـه النظـر باتجـاه آخـر، وإذا طلـب منـه الجلـوس بـلا حـراك. يجـب عليـه التحـرك بـلا توقـف، والتفكـير في أشـياء أخـرى وعـدم التفكـير بمـا يقوله لـه الخبـير".

ويتضمـن الكتيـب أيضـا أسـاليب تقـوم علـى الفحـص بجـهاز كشـف الكـذب، وعلـى أدويـة يمكـن أن تضعـف المحقـق معـه، وعلـى تمثيليـات يتـم ترتيبـها لإقنـاع المحقـق معـه بأن لا جـدوى مـن عـدم الاعـتراف.

ومـن الجديـر بـالذكر، أن غالبيــة الأســاليب المطروحــة في الكتيــب لا أســاس لهــا من الصحــة، وهــي ترمـي لإعـداد المحقـق معـه للاحتمـالات الأسـوأ.

وتقـوم زنــازين التحقيــق، في الغــالب، داخــل معتقــلات أو بــالقرب منــها. وتحتـوي علـى غـرف انتظـار وغـرف تحقيـق، وزنـازين توقيـف للمعتقلــين، وغرفـة للقـائد وغـرف لطواقـم العمـل. وغـرف التحقيـق عاريـة تمامـا مـن أي صـور علـى الجـدران، والأثــاث الوحيـد الموجـود في الغرفـة، هـو طاولـة ومقـاعد لاسـتخدام المحقـق والمحقــق معــه، وهنـاك بعـض مـن هـذه الغـرف مـزود بوسـائل رقابـة، أمـا غـرف الانتظـار، فيقـف فيــها المعتقلـون

بانتظار دورهم للتحقيق، وفي الغالب، يتم عزل كل واحد منهم عن الآخر، بوضع كيس على رأس كل واحد منهم.

ومن الجدير بالذكر، أن عواد حمدان توفي عام ١٩٨٧ جراء وضع الكيس على رأسه وعدم دخول الهواء إليه للتنفس، ولم يثبت التحقيق الأسباب الحقيقية للوفاة. وطرحت فكرة أن يكون قد لدغ من حشرة سامة، ومنذ ذلك الحين، تم تغيير بعض الأوامر، وأرغم أحد المحققين على الاستقالة.

شرعنا: أنا وتسفي طرلوا، بإعداد المواد المطلوبة للجنة "لندوي" التي كان من المفروض أن تحقق في أساليب التحقيق، وكان الجهاز، آنذاك، يعيش أزمة على أرضية قضية (الحافلة ٣٠٠) وقضية نافسو، وساد بينه وبين نيابة الدولة عدم ثقة، كما أن محاولة الجهاز تحميل اسحق مردخاي، مسؤولية قتل أسيري الحافلة الـ ٣٠٠، وتر العلاقات بينه وبين الجيش.

وباتت هناك ضرورة، لأن تقوم اللجنة المخولة بالتحقيق في أساليب تحقيق الجهاز بوضع قواعد عمل واضحة له، تخلصه من الضبابية التي كان يفرضها على نفسه. وقد تلاءمت نوايا الجهاز، هذه المرة، مع نوايا الكادر السياسي.

عكفت، أنا وطرلو، على إعداد المادة الخاصة باللجنة ليلا ونهارا، وجمعنا معلومات واسعة جدا حول أساليب التحقيق والنظريات التي تستند إليها، وقدمنا هذه المادة في الوقت المطلوب إلى اللجنة. وكي نحول دون وصول أعضاء الجهاز إلى هذه المادة، كلفت وحدة الحماية في وزارة العدل، بالحفاظ على المادة، وليس وحدة الحماية في الجهاز.

استقرت لجنة "لندوي" في مدرسة التمريض قرب مستشفى (شعري تصيدق)، وعمل طرلو معها، كممثل من قبل الجهاز، وساعدها في العثور على المادة المطلوبة، من بين المواد التي قدمناها إليها عند الحاجة، وقد استدعيت مرة واحدة للمثول أمام اللجنة وتقديم إفادتي. ورغم أنني كنت، آنذاك، نائبا لرئيس جهاز الأمن العام. إلا أن شهادتي تناولت مهام عملي السابق، كقائد لواء القدس والضفة الغربية. فاستعرضت أساليب عمل محققي الجهاز، وأسهبت في شرح التقديرات التي وضعناها نصب أعيننا أثناء التحقيق.

وفي الثلاثين من تشرين الأول ١٩٨٧، قدمت اللجنة نتائج عملها واستنتاجها إلى رئيس الحكومة اسحق شامير، بعد أن عقدت ثلاثا وأربعين جلسة، استمعت خلالها إلى واحد وأربعين شاهدا، من بينهم رؤساء حكومة سابقون وحاليون، وعمال الجهاز القضائي المدني والعسكري، وخبراء في العديد من المهن الأخرى، وأشخاص ممن تم التحقيق معهم على أيدي محققي الجهاز. وقام أعضاء اللجنة بجولات في زنازين التحقيق، وفي نهاية المطاف، قدمت اللجنة إلى اسحق شامير، تقريرين: أحدهما سري والآخر علني. وأكدت اللجنة في القسم العلني، أن هناك حالات تحقيق يجب فيها استخدام الضغط الجسدي على المحقق معهم المشبوهين بالأعمال العدائية.

وأكد القسم العلني أيضا، أنه لا يجب تقديم محققي جهاز الأمن العام إلى المحاكمة. ممن قدموا إفادات وشهادات كاذبة إلى المحكمة، رغم الخطورة البالغة القائمة في ممارساتهم، نظرا لأن تقديمهم إلى المحاكمة، قد يؤدي إلى شل عمل وحدة التحقيقات في جهاز الأمن العام. ولا يجب تقديم عمال الجهاز المتورطين في عمليات ضغط جسدي أو نفسي. على المحقق معهم. إلى المحاكمة. نظرا لأنهم يعملون بأمر من

مسـؤوليهم للحصـول علـى معلومـات حيويـة حـول المنظمـات الإرهابيـة. ورغـم ذلـك. شجبت اللجنـة تحويـل الأكـاذيب والإفـادات الكاذبـة، إلى نمـط متبـع.

ورغم أن أسلوب الإفادات الكاذبـة لم ينتـهج، بـأمر مـن قـادة الجـهاز، إلا أنـهم اعتـبروا مسـؤولين عـن بقائـه وتواصلـه، وقـد أشـارت اللجنـة إلى أن مـن المناسـب تعيـين مراقـب داخلـي ومستشـار قضـائي رفيـع المسـتوى للجـهاز. وعلـى أن يشـرف علـى الجـهاز أيضـا في القضايـا التنفيذيـة.

إن الهجمـات والانتقـادات الـتي اعتـادت منظمـات حقـوق الإنسـان توجيهـها إلى أسـاليب التحقيـق. جعلـت تقريـر لجنـة "لنـدوي"، ذا أهميـة خاصـة، لقـد كـانت هـذه المـرة الأولى. الـتي يقـوم فيـها كـادر رفيـع المسـتوى-لجنـة تحقيـق حكوميـة-بالموافقـة علـى ضـرورة التمييـز بـين تحقيقـات الشـرطة للحصـول علـى أدلـة. وبـين تحقيقـات الأجـهزة الاسـتخبارية الراميـة إلى منـع العمليـات الإرهابيـة. وقـد تم التعبـير عـن ذلـك في مجموعـات التوجيـهات الـتي تضمنـها التقريـر السـري للجنـة، والـذي تضمـن سلسـلة مـن أسـاليب التصـرف والممارسـات العامـة أثنـاء التحقيـق وتم تحديـد مجموعـة مـن المحظـورات. والتطـرق بإسـهاب إلى صلاحيـات الكـوادر المختلفـة في الجـهاز الـتي يمكـن أن تسـمح بانتـهاج أسـاليب تحقيـق مختلفـة، والـتي أطلـق عليـها اسـم "الضغـط الجسـدي المعتـدل" مثـل منـع المعتقـل مـن النـوم والعـزل، والتقييـد والهـز. وتغطيـة الـرأس وغـير ذلـك. والهـامش الزمـني لاسـتخدام هـذه الأسـاليب. بـل لقـد تم التـأكيد علـى أن صفـع معتقـل وقـح. يتطلـب مصادقـة مسـبقة مـن الكـادر الأعلـى. وأوصـت اللجنـة. بتشـكيل لجنـة وزاريـة خاصـة لمناقشـة الحـالات الشـاذة ولتطبيـق التوجيـهات الـتي تضمنـها الملحـق السـري.

تبنت الحكومة التوصيات بكاملها، ولم تؤد الإجراءات الجديدة، إلى جعل وضع جهاز الأمن العام، أسهل، بيد أنها وضعت خطا فاصلا بين الماضي غير المنظم، والواقع الجديد المنظم، والخاضع لقواعد ملزمة.

لقد مكنتنا توجيهات اللجنة من تركيب جدول صلاحيات ومسموحات داخلية تلزم بصورة قاطعة جميع المحققين على جميع المستويات.

ومنذ ذلك الحين، تم تقديم التماسات لا حصر لها إلى محكمة العدل العليا، طلب فيها المحققون والمنظمات التي وقفت من ورائها إلغاء قانونية جدول التوجيهات الذي وضعته لجنة "لندوي" ورغم أن المحكمة ردت جميع الالتماسات، إلا أنه لم يجر حتى اليوم نقاش قضائي عميق لهذه القضية. وبقيت آراء القضائيين مختلفا عليها تجاهها.

وإنني أعتقد أن النتائج التي خلصت إليها اللجنة جريئة، إضافة إلى كونها مطلوبة، حيث لا يوجد أي خيار آخر، ففي الدول التي تواجه حربا إرهابية يصبح من المناسب تبني قسم كبير من هذا التقرير، ووضعه في صورة تشريع، ولأسفي البالغ، فإن وزارة العدل قررت عدم إدراج تفاصيل قضية التحقيق بمشروع القانون الذي قدم إلى الكنيست.

تضليل معد بصورة مسرحية جيدة

أخذ جهاز الأمن العام توصيات لجنة "لندوي" بمنتهى الجدية. وعندما توليت رئاسة الجهاز في نيسان ١٩٨٨، بذلت قصارى جهدي لتنفيذها، وقد أسهم هذ. التقرير والتقارير الأخرى التي تلته في تنقية الأجواء العامة، رغم أنها أثقلت جدا على عمليات التحقيق وعمل المحققين.

وفي ظل هذا الواقع الجديد، ازدادت أهمية وسائل التحقيق الذكية والأحابيل بمختلف أنواعها. إن استغلال هذه الأساليب والأحابيل هو برهان واضح على مدى كفاءة المحقق. ومن نافل القول الإشارة إلى أنه يحظر علي الإسهاب في التطرق إلى جميع الأحابيل التي كنا نستخدمها لذا سأتطرق فقط لبعض منها.

ففي العديد من الحالات، عندما كان المعتقل يصر على عدم الاعتراف. كنا نعمد إلى إدخاله إلى زنزانة يوجد فيها عدد من المتعاونين مع الجهاز، والذين يقدمون أنفسهم إليه على أنهم مسؤولون في التنظيمات المختلفة. وفي غالبية الأحيان. كانوا يلعبون دورهم بصورة كاملة. فكالوا الشتائم للمحققين. وأشركوا المعتقل في أسرار يقولون له أنها أسرار تنظيمية. ويحذرونه من المعتقلين الآخرين بالادعاء أنهم عملاء. وفي الكثير من الأحيان. تمضي أسابيع. حتى يتمكنوا من اكتساب ثقة المعتقل. وعندما يمنحهم ثقته. كان في الكثير من الأحيان. يصل إلى درجة كتابة الكثير من اعترافاته خطيا. كي يرسلوها إلى قيادة التنظيمات في الخارج سرا.

ولا زالت عالقة بذهني إحدى الأحابيل التي مارسناها في تموز ١٩٩٣. وفي صبيحة اليوم التالي كتبت في مذكراتي:

سعيد "مخرب" قديم. ويعتبر شديد الصلابة. والمعلومات الاستخبارية التي بحوزتنا تعزو إليه زرع عبوات ناسفة في مبنى الحكم العسكري في بيت لحم. الأمر الذي أدى إلى مقتل جندي وإصابة اثنين بجراح. ولدينا معلومات. لها ما يبررها. تؤكد أن بحوزته معلومات حول خلايا تعتزم القيام بعمليات في إسرائيل. لذا كان من الأهمية بمكان. أن ندفعه للاعتراف في أسرع وقت ممكن. قبل أن يفوت الأوان.

حاولنا معه العديد من الأساليب، خاطبنا مشاعره، دون جدوى. وبعد بضعة أيام من التحقيق المكثف، أبدى ليونة، ووافق على أن يروي لنا كل ما يعرفه، شريطة أن نتيح له الفرصة لاجتياز الحدود إلى الأردن.ووعد عندما يصبح بالقرب من نهر الأردن أن يفضي لنا بمعلومات مسهبة.

كان هذا الوضع، هو بالضبط ما نريده، بيد أننا خشينا أن يختلق رواية وهمية لا أساس لها من الصحة، عندما نصبح قرب النهر، ويفر قبل أن نتمكن من استخلاص كل الحقيقة منه، لذا، درسنا جميع الاحتمالات، وقررنا القيام بعملية تضليل فريدة تجعله يقول لنا كل شيء، وقمنا بإشراك العشرات من عمال الجهات والجنود في هذه العملية.

اخترنا مكانا على حافة واد، بعيدا عن نهر الأردن، ووضعنا على طوله يافطات تحذيرية تقول: "الحدود أمامك" باللغات العبرية والإنجليزية والعربية. وفي ساعة متأخرة، أخرجناه من المعتقل، ووضعناه في إحدى سيارات الجهاز وانطلقنا باتجاه الموقع، وكنا بين الفينة والأخرى نصطدم بحاجز (مسرحي) يأمرنا بإيقاف السيارة، وينظر قائده داخلها، ليبدو وكأنه تلقى أمرا بالسماح للمعتقل بالمرور، وفي أحد الحواجز أعلمنا قائده أن الجنود الذين سيساعدون المعتقل في اجتياز الحدود بانتظارنا في الموقع المتفق عليه، ونحن نعلم، أن المعتقل يجيد العبرية، ونراه يراقب ما يحدث باهتمام كبير.

"واصلنا مسيرتنا، وأعطيناه له مبلغا من الدنانير الأردنية. كي يتمكن من تدبير نفسه حينما يصبح على الجانب الآخر، وتنتهي المسيرة بجوار أحد المواقع العسكرية الإسرائيلية الحقيقية التي تم إعداد وتوجيه قائده بصورة جيدة.وقد قام

القائد بتوجيهنا إلى نقطة جدول مائي قريب، وقال لنا: هذا هو نهر الأردن. وينشر القائد خارطة طوبوغرافية أمامنا، ويشير إلى نقطة في النهر عليها: ويقول: هذا هو أفضل مكان لاجتياز النهر إلى الجانب الأردني.

قال المعتقل: "الآن سأروي لكم كل شيء ومثلما اعتقدنا سابقا. أخذ يروي لنا رواية كاذبة اختلقها، بيد أننا لم نعلق أبدا. وأبدينا وكأننا نصدق كل ما يقوله. وقلنا له: نظرا لأنه وفى بالتزامه ولم يخدعنا. فإننا نحن أيضا سنفي بالتزامنا. وسيقوم الجنود بتأمين وصوله إلى نقطة العبور المذكورة، وفي نفس الوقت. يتم فتح النار من النقطة التي يفترض أنها الجانب الآخر من النهر-الجانب الأردني-وتنطلق قنابل إنارة لتضيء المنطقة كلها، بدا المعتقل خائفا، وتساءل: ما هذا؟؟ ولم يدرك أن جنودنا هم الذين يطلقون هذه القنابل وفقا للاتفاق معهم.

"قلنا له: إن الجنود الأردنيين لاحظوا وجود حركة مشبوهة. لذا فتحوا النار". فبدا وكأنه تجمد في مكانه. وقال: سيقتلونني. لا أريد العبور. أعيدوني إلى المعتقل". فقلنا له: أصبح الوقت متأخرا جدا، لقد دفعنا بقواتنا لتمهيد الطريق لك لاجتياز النهر. فكما طلبت منا، والآن عليك أن تعبره. مع السلامة".

"تواصل إطلاق النار طيلة الوقت، فأخذ يتوسل إلينا أن نعيده إلى المعتقل. فقلنا له: لا تستطيع أن تستغفلنا، فنحن نعرف أن جميع اعترافاتك كاذبة، ورغم ذلك. لا نريد أن نراك. هيا اذهب". لكنه يرفض الذهاب. ويقدم إلينا اعترافا كاملا. وهذا بالضبط ما توقعناه".

لم أحقق مع معتقلين بوصفي رئيسا للجهاز. إلا في حالات نادرة وخاصة جدا. بيد أنني ساعدت المحققين في التأثير على المعتقل عبر إحضار شخصية مهمة.

وكـان المحققـون يقدمونـني إليـه بوصفـي جـنرالا ، قـدم إلى مركـز التحقيـق بصـورة عفويـة ، وكنـت في هـذه الحالـة أبـدأ حـوارا مـع المحقـق معـه ، حـاولت خلالـه إقناعـه بالتعـاون بالأسـاليب الهادئـة ، وفي الكثـير مـن الأحيـان، كـان المحقـق معـه يتـأثر مـن توجـه جـنرال إليه ، ويوافـق علـى التعـاون.

كـي نتـأكد مـن صحـة اعترافـات معتقـل، كـان يجـب مقارنتـها مـع معلومـات أخرى تم اسـتقاؤها مـن جـهات أخـرى ذات علاقـة بـه.

ومـن ضمـن الأسـاليب الـتي انتـهجناها ،كنـا نعمـد إلى إجـراء لقـاء يبـدو وكأنـه مصادفـة، بـين المعتقـل وأحـد الأشـخاص الذيـن اعـترف عليـهم. وهنـاك العديـد مـن الأسـاليب المتبعـة لذلـك ، كـأن يخـرج المحقـق مـن غرفـة التحقيـق، ثـم يتـم إدخـال الشـخص الآخـر إلى الغرفـة وكـأن الأمـر تم بالصدفـة، ونقـوم بمراقبـة رد فعلـه، مـن مكـان خفـي، كـي نـأخذ انطباعـا فيمـا إذا كـان اعترافـه صحيحـا أم لا.

هنـاك مسـألة يضعـها محقـق الجـهاز نصـب عينيـه دائمـا ، وهـي أن تتضمـن اعترافـات المعتقـل حقـائق لم توردهـا وسـائل الإعـلام حـول العمليـة أو الانفجـار الـذي تم إلقـاء القبـض عليـه بسـببها ، وهـذه الحقـائق المعروفـة فقـط لنـا ولـه ، تمكننـا مـن التـأكد مـن صحـة اعترافاتـه.

لقـد اعـترف بعـض المعتقلـين تحـت الضغـوط بعمليـات لم يرتكبوهـا أصـلا ، وحـال اكتشـافنا لذلـك ، كنـا نطلـق سـراحهم فـورا ، لقـد حرصنـا دائمـا علـى إفـهام المحقـق بـأن قبول اعتراف كاذب من المعتقـل علـى أنـه حقيقـة ، هـو فشـل مـهني ذريـع لـه.

لقد وجهت الانتقادات الخاصة بأساليب التحقيق دائما من قبل أشخاص لم يسبق لهم أن كانوا في وضع المحقق الذي يدرك أن المعتقل يخفي معلومات حول عمليات على وشك أن تقع في حين أنه عاجز عن إرغامه على الاعتراف.

لقد أقرت لجنة "لندوي" أسلوب منع المحقق معه من النوم كوسيلة للتحقيق في ظل شروط معينة، فعندما لا ينام المحقق معه بصورة كافية ،يصبح شديد العصبية وشديد القلق، ومشوش الحواس. وفي هذه الحالة، يجد من الصعب البقاء على وضعه خشية أن يفقد سيطرته على جميع المعلومات التي يخفيها.

ومن الجدير بالذكر، أن هذا الأسلوب هو سيف ذو حدين، فقد يدفع عدم النوم المحقق معه باختلاق اعترافات كاذبة شريطة أن نسمح له بالنوم.

ومنذ أن تسلمت قيادة الجهاز، أمرت بوضع جهاز حاسوب في كل غرفة من غرف التحقيق، ويتوجب على المحقق، أن يقوم بتسجيل الساعة التي بدأ التحقيق فيها، دون السماح للمعتقل بالنوم، وعندما يصل الهامش الزمني- الذي سمحت به لجنة "لنداو" لمنع المحقق معه من النوم إلى نهايته، يطلق جهاز الحاسوب صفيرا خاصا.

وحينئذ يضطر المحقق للسماح للمحقق معه بالنوم. لقد انتهجنا صورة مماثلة أيضا تجاه أساليب التحقيق الأخرى، وهكذا استخدمنا جهاز الكمبيوتر كرقيب فعال وناجع بصورة دائمة، ومن الجدير بالذكر، أن أساليب الرقابة على أساليب التحقيق: هي من أحدث الوسائل والأساليب المتبعة في أجهزة العالم.

كانت شكاوى المحقق معهم ترسل في السابق إلى مراقب جهاز الأمن العام. وكي أشدد الرقابة. والحيلولة دون حدوث وضع يقوم فيه الجهاز بفحص الشكاوى

ضده بنفسه، قررت بالتشاور مع وزير العدل ونائب الدولة، إخراج هذه المهمة من أيدي الجهاز، وأصبحت مهمة الرقابة بأيدي شعبة التحقيق مع رجال الشرطة، التابعين لوزارة العدل.

ولا تقتصر الشكاوى على المحقق معهم فقط، بل هناك العديد من الشكاوى تصل إلى الشعبة من ذوي المحقق معه، ومحاميه ومن الصليب الأحمر، وحركات حقوق الإنسان، ومن منظمة العفو الدولية، ومن أعضاء كنيست وشخصيات عامة، وجهات أخرى.

ومقدمو الشكاوى يدركون مدى حساسية الرأي العام الإسرائيلي لهذه القضية، وهم يعتقدون أن كثرة الشكاوى، ستحرك الحكومة، ويدفعها لتقليص أو وقف استخدام أساليب التحقيق التي أثبتت جدواها في كبح جماح الإرهاب.

وفي الحالات التي ثبت أن هناك انحرافا عن القواعد العامة التي تم الأخذ بها، حرصت على اتخاذ الخطوات اللازمة، ومن ضمنها عقوبات تأديبية، بل وتقديم إلى القضاء.

ومن الجدير بالذكر، أن غالبية وسائل التحقيق المنتهجة، في جهاز الأمن العام، ليست نتاجا للفكر الإسرائيلي، فالمحققون في الدول الغربية يستخدمون وسائل أكثر حدة بكثير من الوسائل التي نستخدمها في إسرائيل عندما يتعلق الأمر بالأعمال الإرهابية، بيد أن الرقابة الجماهيرية الأشد حول قضايا التحقيق جاءت من نصيبنا، ولم يكن أمامنا سوى معالجتها.

ويجب أن ندرك، أن وتيرة وصول المحقق إلى حالة الإرهاق التام والعجز. هي أسرع الوتائر بالنسبة للأشخاص، فإلى أي حد يمكن للمحقق أن يجلس في غرف

التحقيق وزنازينها الضيقة، ليواجه القتلة الذين يكنون منتهى الحقد لإسرائيل؟؟ إلى أي حد بمقدور الإنسان أن يحافظ على هدوئه بينما يقف أمامه قاتل جنود ومدنيين يسخر منه بمنتهى الوقاحة؟؟ في الوقت الذي يتوجب فيه على المحقق أن يطلب إذنا من أجل أن يأخذ بتلابيبه ويهزه فقط، وليس أن يصفعه.

وجهاز الأمن العام يبذل قصارى جهده من أجل تقليص حجم الأضرار المتراكمة في نفس المحقق بسبب التوتر النفسي الذي يعيشه إلى أقل حد ممكن. والأساليب في هذا الاتجاه متنوعة: كإعطائه إجازات للقيام بفسحات في نهاية الأسبوع، مع أبناء عائلته، إجازات إضافية، إكمال الدراسة، منحه دورات مهنية. وعلى غرار جميع الأشخاص الذين يقعون في أزمات شخصية، يحق لكل من أعضاء الجهاز زيارة الأطباء النفسيين، في حين يتحمل الجهاز جميع التكاليف. ويقوم الطبيب النفسي بإعلام الجهاز، بعدد المرات التي زاره فيها أعضاء من الجهاز، دون ذكر أي أسماء، كانت الأضرار النفسية دائما طفيفة، ويكفي عدة لقاءات مع الطبيب النفسي، يقوم خلالها عامل الجهاز بالإفضاء بمكنوناته، حتى ينتهي كل شيء.

وأتذكر أننا اضطررنا مرة واحدة فقط للمطالبة بعرض أحد موظفي الجهاز على طبيب نفسي. ففي أعقاب الشكاوى المتكررة من العديد من الجهات، بما فيها منظمة العفو الدولية (أمنستي)، اتضح لنا أن أحد المحققين يتصرف بعنف بالغ. تحدثت مع قائده. وأجريت حوارات مع زملائه، فاتضح لي أن هناك شيئا ما. قام بإخفائه. عندما التحق بالجهاز: لقد كان في طفولته ضحية للعنف داخل عائلته. وقد أقنعته بعرض نفسه على طبيب نفسي. وانتهت الأزمة سريعا. ولا زال يخدم حتى الآن في الجهاز بصورة طبيعية تماما.

أفادت المعلومات الاستخبارية، أن خالد الشيخ علي -وهو فدائي من غزة- نصب كمينا لدورية عسكرية في غزة، وفتح النار عليها، مما أدى إلى مقتل ضابطين. وقد تم اعتقاله ونقله للتحقيق في زنازين غزة، وقد أشرفت على التحقيق طواقم متعاقبة، عملت بصورة شديدة للغاية، بغية دفعه للاعتراف، بيد أن خالد رد عليهم بوقاحة. وتحداهم وأخرجهم عن طورهم، مما حدا بأحد المحققين للكمه في بطنه. فانقلب خالد على الأرض، وأخذ يتلوى من الألم ويصرخ، فاستدعى المحققون الممرض الذي طلب نقله إلى المستشفى، وهناك لفظ أنفاسه.

حدث ذلك بعد ثلاث سنوات من تقديم لجنة "لندوي" استنتاجاتها، بيد أن جهاز الأمن العام كان لا يزال محط اهتمام الجماهير، وحال انتشار نبأ مقتل خالد الشيخ ثارت عاصفة عاتية، كان الجميع بانتظار رؤية ما إذا كان الجهاز يطبق توصيات اللجنة بشأن القيود المفروضة على أساليب التحقيق أم لا؟؟

وبأمر من نائب الدولة، فتحت الشرطة تحقيقا في ظروف وفاة الشيخ، واستجوبت المحققين، والمسؤولين عنهم في زنازين التحقيق في غزة دون جدوى.

ثارت ثائرة وسائل الإعلام، مما حدا بنائب الدولة دوريت بيانيش، الاتصال بي وهي مذعورة، وطلبت مني أن أحقق في القضية، وقالت لي: "انت الشخص الوحيد المؤهل لعمل ذلك".

لم أستطع أن أرفض طلب نائب الدولة، وكان يبدو أن هناك تجاوزا قانونيا، وأن الشرطة لم تكتشف الفاعل، كان رفضي لطلب بيانيش، سيؤدي إلى إضرام الجمرات الخابية تحت الرماد، وتمس بالجهاز وبصورته من جديد.

تقرير مراقب الدولة وواجبات الجهاز

كـانت هـذه الحالـة فريـدة مـن نوعـها، فرئيـس الجـهاز لا يقـوم كـل يـوم بـالتحقيق مـع عمالـه، وكنـت أدرك أنـه إذا مـا اكتشـفت الفـاعل فسـيتحتم علـي تقديمـه للمحاكمة. وإذا ما أدين سيرسل إلى السجن.

أغلقت مكتبي على نفسي زمنا طويـلا كـي أفكـر في القضيـة، وفكـرت في مـدى خيبـة الأمـل الـتي سيشـعر بـها عمال الجـهاز مـن هـذه القضيـة، فبـدلا مـن أن أحميـهم بوصفـي رئيسا للجـهاز، أقـوم بتسليمهم للشرطة، بيـد أنـني كنت أقـول لنفسـي، يجـب أن تدافـع أولا وقبـل كـل شـيء عـن الجـهاز، وتحـرص علـى طـهارة أيـدي عمالـه، والتـأكد مـن أن تطبيـق القـانون، هـو النـبراس الـذي يـهتدون بـه، وكنـت أدرك أنـني أقـف أمـام قـرار صعـب للغايـة.

وفي سـاعة متـأخرة مـن الليـل. استدعيت طـاقم التحقيـق في غـزة، وقـائده ورئيـس شعبة التحقيقـات في الجـهاز، كـان هنـاك حـوالي ستة محققين ممـن حققـوا مـع خـالد الشـيخ بالتناوب.

تحدثـت مطـولا حـول أخلاقيـة الجـهاز، الهجمـات الـتي شـنتها الجماهـير علينـا في كـل مـرة انحرفنـا فيـها عـن إجـراءات التحقيـق. وأشـرت إلى الأضـرار الـتي لحقـت. بالجـهاز جـراء ذلـك، وقلـت أنـه لا يجـوز، بـأي حـال، أن نلقـي بالانحرافـات عـن الإجـراءات تحـت البسـاط بـل يجـب معالجتـها، لـذا فـإنني أنتظـر أن يقـوم الشـخص الـذي قتـل خـالد الشـيخ، بالاعـتراف بذلـك أمـامي الآن، ولم أعـد بعـدم تقديمـه للمحاكمـة. لكنني وعدت بـأن أهتـم شـخصيا بـأن يحظى بمعاملـة معقولـة.

بدت الأجواء في الغرفة شديدة التوتر، وقد أصغى الجميع إلي باهتمام كبير. وعندما انتهيت من أقوالي طلبوا الخروج خارج الغرفة للتشاور، وبقيت أنا في الغرفة. كانت الساعة، حوالي الواحدة ليلا عندما دق باب الغرفة محققان صغيران، ودخلا. وانفجرا بالبكاء وقالا أنهما هما اللذان قتلا الشيخ، وبعد أن هدأا قالا إن عجرفة ووقاحة الشيخ، جعلتهما يفقدان سيطرتهما على نفسيهما.

وفي حوالي الساعة الثالثة صباحا، أيقظت بيانيش من نومها، وأعلمتها بالنتيجة فطلبت مني التوجه إلى ضابط التحقيقات اللوائي في الشرطة العقيد طل. فطلب مني أن أرسل الاثنين إليه فورا، وراقبت من النافذة سيارة الجهاز وهي تقل الاثنين إلى مكتب تحقيقات الشرطة، وتمنيت ألا أرى هذا المنظر بعد ذلك للأبد.

تم تعليق عمل المحققين حتى انتهاء التحقيق، وجرى منحهما راتبا جزئيا. بيد أن زملاءهما أنشأوا صندوقا لمساعدتهما، وكنت ألتقي بهما بين الفينة والأخرى للتعرف على أوضاعهما.

ومن الجدير بالذكر، أن أحدهما كان في السابق حارسا للشخصيات الإسرائيلية الرفيعة، لذا اتصل بي الكثير من تلك الشخصيات-وعلى رأسهم أرئيل شارون-للسؤال عن كيفية مد يد المساعدة لهما.

قدمت الشرطة لائحة اتهام ضد الاثنين. وقدما إلى المحاكمة بتهمة القتل الخطأ، وقد مثلت خلال محاكمتهما، كشاهد دفاع، فتحدثت عن الوضع النفسي الذي يعيشه المحققون: وعن سير عمليات التحقيق، وعن حالات الإحباط التي يعيشها المحققون إبان محاولتهم الحصول على معلومات من الأشخاص الملوثة أيديهم بالدماء

لإنقاذ حياة الآخرين، وطلبت من القضاة الأخذ بعين الاعتبار، اعترافهما دون ممارسة أي ضغوط.

وقد حكمت عليهما المحكمة بالسجن لمدة ست سنوات، وقام زملاؤهما بزيارتهما دائما، كما تابعت أنا عن كثب ما يحدث معهما، وعندما أفرج عنهما استقالا من الجهاز.

لقد اعتاد العديد من المعتقلين تقديم شكاوى ضد المحققين، واتهامهم بالانحراف عن الإجراءات المتبعة، وكان بعضهم قد قدم الشكاوى لتبرير اعترافاتهم الكاملة أثناء التحقيق أمام زملائهم، وكانت غالبية الشكاوى، تأتي من زنازين التحقيق في غزة، ورغم أن الكثير من الشكاوى لم يكن لها أي أساس من الصحة، إلا أن النيابة العامة، وبالاتفاق مع جهاز الأمن العام عملت على تشكيل لجنة مشتركة لفحص أساليب التحقيق في غزة، برئاسة نائبة النائب العام راحيل سوكر، وعضوية المراقب الداخلي للجهاز، حاييم حوفي، ورئيس الشعبة العربية، وقد تعهدت رئيسة اللجنة بعدم استخدام المواد التي سيتم جمعها، لتقديم المحققين الذين ستوجه إليهم الانتقادات للمحاكمة.

سببت اللجنة لي خيبة أمل شديدة، قبل أن تبلور استنتاجاتها، لقد تم تشكيل اللجنة بالاتفاق بين النيابة العامة والجهاز للتحقيق في شكاوى المعتقلين الغزيين، وإصلاح ما يجب إصلاحه، بيد أن التساؤلات التي طرحتها اللجنة. والمعلومات التي تلقيتها، أشارت إلى اتجاهات اللجنة. فقد اتضح لي أن اثنين من أعضاء اللجنة يهاجمان الجهاز بشدة دون أن يأخذا بعين الاعتبار كثرة العمليات

التخريبية، والشروط الصعبة التي يعيشها المحققون في زنازين التحقيق، والأوضاع النفسية التي يواجهونها، وقد أشرت إلى أعضاء اللجنة بهذه الحقائق، دون جدوى.

لقد عثر أعضاء اللجنة في زنازين التحقيق في غزة على مخالفات وانحرافات أكثر مما أعلن عنه الجهاز، وأعتقد أن التقرير الذي أعدته اللجنة ألحق ظلما شديدا بطاقم التحقيق هناك، وعكر صفو العلاقات والأوضاع داخل الجهاز.

ضايقني ذلك جدا بيد أنني اضطررت لاستقاء العبرة، وأمرت باستبدال قائد التحقيقات في غزة وأمرت المحققين هناك بالحرص تماما على تطبيق والأخذ بما هو مسموح وما هو ممنوع.

ولأسفي البالغ، فقد استخدمت مراقب الدولة مريم بن بورات تقرير (سوكر) أساسا لتقريرها، حول تحقيقات جهاز الأمن خلال الفترة ١٩٨٧-١٩٩٢.

إن الأشخاص الذين قاموا بعملية الفحص تصرفوا كموظفين في شعبة مالية، فقد فحص كم عدد (الهزات) التي يسمح للمحقق بالقيام بها في ثلاث ثوان، وكم هزة قام بها المحققون فعلا أو كم عدد الصفعات المسموح بها، وكم عدد الصفعات التي وجهها المحققون فعليا، لقد نسي الفاحصون، من هم الأشخاص الذين نحقق معهم. وإلى أي حد يمكن لأي تحقيق أن يكون مصيريا، وكيف سنبدو في أعين تلك "الحيوانات البشرية" عندما سننشغل ونوجه جل اهتمامنا لعد عدد الهزات التي ننفذها بدلا من التركيز على المهمة الأصلية المتمثلة في كيفية إرغامهم على كشف الأسرار الفظيعة التي يخفونها.

استدعيت (تسفي طرلو) بعد أن تلقيت مسودة التقرير، كي يساعدني في الرد عليه. وعندما قرأها غلى غضبا، وأطلق سيلا من السباب الذي لا أستطيع إيراده هنا.

واحتل مكتبي وغرق في الكتابة. للرد على مراقب الدولة، وبعد عدة أشهر تمكنا من بلورة رد مقنع. حسب اعتقادي لأكثر من ٩٠٪ من ادعاءات مراقب الدولة.

وقبل عدة أشهر من إنهائي مهام عملي كرئيس للجهاز، قدم التقرير إلى رئيس الحكومة: اسحق رابين، ولرئيس لجنة رقابة الدولة، ولرئيس لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست، هذا ولم ينشر تقرير مراقب الدولة، حيث قبلت الجهات المسؤولة رأينا الخاص: بعدم نشر التقرير المتعلق بأساليب التحقيق. وبعد وقت قصير من إنهائي لخدمتي ناقشت لجنة رقابة الدولة التقرير، وقد اندلع خلاف حاد خلال النقاش بين ممثلي الجهاز وبين مراقبة الدولة، وقد قال رجالنا أن التقرير لا يأخذ بعين الاعتبار الاحتياجات التنفيذية للجهاز ويبرز انحرافات هامشية، أضف إلى ذلك، أن كل ما حدث في الفترة التي سبقت مطلع التسعينات وهي الفترة التي تناولها التقرير-لم يعد ذا أهمية بالنسبة للمرحلة الحالية، فقد تم تصحيح الأخطاء التي وقعت في تلك الفترة.

لقد تدهورت علاقاتي إلى أسوأ حد ممكن مع مراقب الدولة مريم بن بورات. وأنا أعتقد أنها تصرفت مع الجهاز، بصورة عامة، ومعي بصورة خاصة بصورة ليست جيدة.

الثمن:أزمة شخصية

ليس من السهل أن تصبح أحد عاملي جهاز الأمن العام، وقد أدركنا ذلك أثناء عملنا، ولهذا السبب كنا نقول للمرشحين الجدد للانضمام إلى الجهاز أن يفكروا مليا ويتشاورون ويستشيرون، فيما إذا كان هذا الطريق هو حقا الطريق الملائم لحياتهم. وكنا نقول لهم: "تحدثوا مع زوجاتكم: قولوا لهن أن العمل الذي

ستمارسونه مرهق للغاية، ويتطلب غيابا متواصلا عن البيت، وحذرناهم من أن وقتهم ليس ملكا لهم، فقد يتفقوا مع زوجاتهم على نزهة ما، ثم يستدعوا إلى الجهاز قبل الخروج إلى النزهة بلحظات قليلة". وفي بعض الحالات، عاد إلينا أولئك الأشخاص وقالوا: "لقد تشاورنا مع زوجاتنا، وهن لا يوافقن على هذا العمل". وبصورة عامة، كنا نتخلى عن هذا الشخص، لكن، إذا كان حيويا بالنسبة لنا، فقد كنا نعمل على الالتقاء بزوجته أو صديقته، ونوضح لها إلى أي حد هو حيوي بالنسبة لنا، وإلى أي مدى أهمية الرسالة، التي سيأخذها على عاتقه وطنيا، كي تستطيع عائلته وأبناء شعبه العيش بهدوء وسلام.

حتى حينما كنا نستطيع إقناع الزوجات، كان الواقع في الكثير من الحالات، يصبح أقسى بكثير مما كن يعتقدن، لقد التقيت بالكثيرات من زوجات عمال الجهاز اللاتي بلغ السيل الزبى لديهن ونفذت قدرة تحملهن للغياب المتواصل للزوج، والخوف من حدوث شيء ما له، وقد بذلت قصارى جهدي لإقناعهن وتهدئتهن، وفي غالبية الأحيان، كان مثل هذا اللقاء، دون معرفة عامل الجهاز مسبقا.

لم أكن أعتبر مثل هذه اللقاءات شيئا شاذا، فالجهاز كان يسارع إلى معالجة المشاكل التي يواجهها عامل الجهاز في بيته، بغية توفير الراحة النفسية له أثناء عمله. ولم تقتصر المساعدات المقدمة إلى عمال الجهاز من القادة. على حل مشاكلهم الشخصية مع زوجاتهم، بل لقد قدم زملاؤهم أيضا المساعدات لهم، فعندما كنت أعمل في نابلس مثلا، لم يكن عمال الجهاز يعودون إلى منازلهم لفترات طويلة، الأمر الذي يثير مشاكل كثيرة جدا مع زوجاتهم، وقد كان زملاء عامل الجهاز، الذي يواجه مشاكل في بيته، يحثونه على أخذ إجازة طويلة يقضيها مع زوجته لإصلاح الخلافات.

وهو الأمر الذي يتطلب منهم العمل بدلا منه، وتولي المهام التي كان يمارسها هو. إضافة إلى مهامهم هم.

وعندما تزوجت (ياعيل)، لم أفكر أبدا بأن حياتنا أيضا، ستصل إلى لحظات حرجة بسبب الخدمة، وكلما تدرجت في سلم المناصب، كلما أصبح انشغالي وأيضا مشاكلي معها أكبر. لقد أصبحت أنا وهي أكثر فأكثر، غرباء عن بعضنا البعض وبدا لنا بوضوح، أنه إذا لم أتخذ الخطوات اللازمة فإن مصير زواجنا هو الانهيار.

كانت خدمتي في جهاز الأمن العام، من زاوية معينة، سببا مؤكدا لتقويض حياتي الأسرية وقد حدث ذلك أيضا، للعديد من عمال الجهاز الذين قضوا أياما وليالي في العمل بعيدا عن البيت، لقد كان واضحا لي ولياعيل، منذ البداية، أن العمل سيسرق مني الكثير من الوقت وسيأتي على حساب أسرتي، ورغم ذلك بدأنا حياتنا على افتراض أن أي شيء، لن يتمكن من هز حياتنا، ولا حتى انقطاعي عن البيت ليالي طويلة، بيد أننا كنا نحن الاثنين، مخطئين. وقد مضت عليها أوقات كانت فيها في أمس الحاجة إلي خصوصا حينما أنجبت ابننا البكر، ولم أكن إلى جوارها. بيد أنني كنت في تلك الآونة مشغولا بمطاردة (المخربين) في شوارع البلدة القديمة في نابلس، وبتجنيد العملاء، والبحث عن مخابئ الأسلحة والمواد المتفجرة، الأمر الذي حال دون تواجدي في البيت.

بدأت أشعر، نتيجة للمشاكل المتواصلة، بأن علاقتي بأسرتي، آخذة في التفكك والتدهور يوما بعد يوم. وكنت أشعر بالأسف البالغ لذلك، ورغبت في إعطاء ياعيل والأولاد ونفسي فرصة أخرى، من أجل ترميم عائلتي. فلجأت إلى صديقي وزميلي في الخدمة، "روبن حزاك" الذي كان آنذاك نائبا لرئيس الجهاز. وقد جاء

توجهي إليه، عندما علمت أن (رافي مالكا) على وشك إنهاء عمله كرئيس جهاز الحماية في أوروبا، وقلت له، إن تعييني في هذه المهمة، سيسهم في إصلاح ذات البين بيني وبين أسرتي، وسيمكنني من تخصيص وقت أكثر لهم، وربطهم بي، ورغم أن الحماية، لم تكن المجال الذي أعددت نفسي للتقدم على صعيده، إلا أنني كنت على استعداد لقبوله. كي أقنع نفسي بأنني بذلت كل ما بوسعي، وقلت له إنني أستطيع التوجه إلى رئيس الجهاز ابراهام شلوم مباشرة، بيد أنني أفضل التوجه إليه، كي يوصي بذلك، وكنت مقتنعا، بأنه إذا ما سمع شلوم بما حدث لي فسيوافق فورا على تعييني في الوظيفة.

وعندما مرت الأيام دون رد، سألت حزاك فقال لي: "لقد قابلت شلوم، بيد أنني لم أوص بك، بل قلت له. أنه لا يجب إرسالك إلى أوروبا أبدا. "واستطرد بصورة قاطعة. أنت أرفع شخصية في الشعبة العربية، ولا شك أن الجهاز سيرتكب خطأ جسيما، إذا ما تخلى عنك في هذا الوقت بالذات الذي تعتبر مصلحة الجهاز فوق كل اعتبار".

كنت. حتى تلك اللحظة. أثق في روبن حزاك ثقة عمياء. واعتقدت أنه الشخص الوحيد الذي يمكنني التوجه إليه عند الأزمة، وفجأة. انهار كل ذلك. بغمضة عين. وشعرت بإحباط شديد. وقلت له ما أشعر به. ومنذ تلك اللحظة أصبحت العلاقات بيننا تتسم بالبرود.

وعندما كلف حزاك بالتحقيق في قضية الحركة السرية اليهودية، نشب بيننا توتر شديد. على أرضية تحديد الصلاحيات. بشأن التحقيق في هذه القضية.

وعندما طرح اسمي كمرشح لرئاسة الجهاز، كان حزاك قد أصبح خارج الجهاز. بيد أن العديد من مقربيه مثل (بيلج رداي)، كانوا لا زالوا في مناصب رفيعة، وقد بذلوا قصارى جهدهم لإحباط التعيين، وأشاروا إلى وجود علاقات متينة بيني وبين شخصيات عربية، وإلى كوني وقفت موقف المتفرج، عندما انفجرت قضية (الحافلة ٣٠٠). كانت تلك الاتهامات مضحكة، فعندما بدأت التحقيقات في قضية الحركة السرية، طلبت من حزاك أن يعلمني بما حدث، بيد أنه امتنع عن ذلك، وعندما أنهى عمله في الجهاز سألته عن سبب ضمي، إلى ما دبره ضد (ابراهام شلوم)؟؟ فقال لي: "لقد أردت أن تبقى بعيدا عن كل ذلك، لأنني أعددتك نائبا لي، عندما يتم تعييني رئيسا للجهاز"

لم أغضب، ولم أكن أحمل رغبة في الانتقام، لما سببوه لي وللجهاز من آلام. واعتبرت ما فعلوه، بمثابة عمل لا منطقي. إذا لم يكن أسوأ من ذلك، وقطعت العلاقات بيننا تقريبا.

"مخربان" يعتمران قبعات متدينين

عينت في الأول من نيسان ١٩٨٨، رئيسا للجهاز، وبناء على النهج المتبع: كان من المفروض، أن تجري مراسيم التعيين في مكتب رئيس الحكومة، بيد أنني تنازلت عن تلك المراسيم، وقلت لرئيس الحكومة، اسحق شامير أن الوقت ليس مناسبا. فقد كان الجهاز جريحا، ولا زال يلعق جراحه. أضف إلى ذلك، أن المراسم لم تكن لازمة على صعيد رئيس الجهاز (يوسف هرملين)، الذي عاد إلى الجهاز قبل سنتين كي يعين وريثا للجهاز. وقد استجاب شامير لي، واكتفى بدعوتي أنا وهرملين إلى جلسة الحكومة، وقدم إلي كتاب التعيين، أمام الوزراء، ولم يرق تعييني للجميع.

فقد زعم البعض أنني لا أستحق هذا التعيين نظرا لأنني وقفت موقف المتفرج إبان قضية (الحافلة ٣٠٠).

تسلمت رئاسة الجهاز بعد خمسة أشهر من اندلاع الانتفاضة، ولم يكن الجهاز جاهزا لمواجهة موجة المظاهرات التي اندلعت آنذاك رغم أنه حذر قبل ذلك بوقت طويل، من المزاج السائد في الشارع العربي، ومن الاتجاه الذي تنحو الزعامة المحلية نحوه، كنا ندرك أن هناك برميل بارود قائما، وأن شخصا ما سيشعل الفتيل في يوم ما، بيد أننا لم نعلم متى سيحدث ذلك.

كان للانتفاضة مغزى تاريخي خاص، فهذه أول مرة في تاريخ الشرق الأوسط التي لا تتصرف الجماهير وفقا لأوامر قياداتها، بل تأخذ زمام المبادرة بأيديها، ولم تتشاور القيادات المحلية مع منظمة التحرير للشروع بالانتفاضة، ولم تتلق منها أوامر حول كيفية التصرف، لقد شيد الشارع الفلسطيني رويدا رويدا البنية التي قام عليها التنظيم الذي قاد الأحداث.

ولو أن إسرائيل عملت مسبقا، ونجحت في الحيلولة دون إقامة مئات الروابط المهنية والتنظيمات الطلابية الفلسطينية في اتحادات الطلبة في الجامعات. وتوسع وتجذر مجموعات الشبيبة لحركة "فتح" و"الجبهة الشعبية"، لكان من الجائز أن تتأجل الانتفاضة إلى موعد آخر، وربما لم تكن لتنشب أصلا. لقد كانت الجهات التي أشرنا إليها هي القوى التي حملت على أكتافها الانتفاضة في الضفة والقطاع. وقد شاءت سخرية القدر، أن تكون إسرائيل هي التي وضعت إلى حد كبير بنية الانتفاضة.

كان الشارع الفلسطيني قد أصبح ناضجا تماما لتفجير برميل البارود. ولم يكن ينقصه سوى إشعال الفتيل. الذي سرعان ما أشعل في التاسع من كانون الأول

١٩٨٧ عندما قتل ثلاثة شبان من قطاع غزة جراء اصطدام سيارتهم بشاحنة إسرائيلية. ورغم أن الحادث كان حادث سير عاديا، إلا أنه كان كافيا جدا لإشعال البارود وتفجير الانتفاضة.

وفي نفس اليوم اندلعت حوادث عنيفة في مخيم جباليا، وسرعان ما اندلعت وانتشرت الأحداث إلى مخيم بلاطة، وتجسدت في عدد لا يحصى من المظاهرات. و"خرق النظام" والمنشورات ورشق الحجارة والزجاجات الحارقة، والطعن بالسكاكين والعمليات، في أوساط التجمعات السكنية الإسرائيلية.

أرسلني يوسف هرملين، في الأيام الأولى لاندلاع الانتفاضة، لتقديم تقرير إلى الحكومة، وكان وزير الدفاع "اسحق رابين، في الخارج، وقد أفدت في تقريري أن أحداث العنف والشغب" أوسع بكثير من المألوف، وأكبرها، وقع في مخيمي جباليا بقطاع غزة، وبلاطة في نابلس. وقد أكدت تقديرات وحدة الأبحاث في الشعبة العربية التابعة للجهاز. أن هده التطورات ليست عادية، واعتقدنا في هذه المرحلة، بأن بالإمكان خنق الانتفاضة، بيد أننا لن نستطيع الحيلولة دون الانفجار القادم.

وقلت للوزراء، أن الجهاز يقترح دفع قوات كبيرة إلى الشارع لقمع الانتفاضة، وقد وافق رئيس الحكومة شامير، على أن الوضع في الضفة والقطاع مقلق، ويجب معالجته، بيد أنه امتنع عن اتخاذ خطوات عملية لذلك، ولم يبد أن الوزراء قلقون أكثر مما ينبغي.

وفي غضون أيام معدودة، خرجت الأمور عن السيطرة تماما، وأصبحت الأحداث شبيهة بكرة ثلج تتدحرج على منحدر وتكبر رويدا رويدا.

ووجد الجهاز الأمني نفسه في دوامة مشاكل عويصة جدا، وليست مجرد عمليات منفردة يقوم بها عدد من (المخربين) والتي تتم معالجتها موضعيا فقد أصبح على الجهات الأمنية، مواجهة عشرات آلاف المتظاهرين العنيفين شبانا وكبار سن في آن واحد وفي أماكن شتى، لقد كان طفل صغير قادرا على إلقاء حجر، شريكا في المظاهرات، ولم تكن هناك نهاية لأسماء نشطاء الانتفاضة التي تصل إلينا. ولم نكن نستطيع معالجتهم جميعا، ولا شك، أن الإحباط كان كبيرا جدا في أوساطنا خصوصا عندما نجد لدينا قوائم بأسماء النشطاء من راشقي الحجارة، وفي نفس الوقت لا نستطيع إلقاء القبض عليهم نظرا لأن جدول الأولويات يرغمنا على العمل في مكان آخر. كان علي أن أجري. بين الفينة والأخرى، تقديرات لسلم الأولويات. والجهة التي يجب أن أوجه إليها الجهود أولا: هل يجب أن أعمل أولا على تصفية بؤر المقاومة التي لا زالت في مراحل التنظيم الأولى، أم أن أخلي المحاور الرئيسية في نفس المنطقة. والتي قام المتظاهرون الغاضبون بإغلاقها.

شكلت لجان شعبية في الضفة والقطاع. وقامت هذه اللجان بقيادة قسم كبير من النشاطات والمبادرات في عهد الانتفاضة. ووقف على رأس هذه اللجان. القيادة الوطنية الموحدة. والتي لم يكن لها قائد وزعيم. وكانت في حقيقة الأمر. بمثابة لجنة تنسيق بين اللجان الشعبية. وكانت هذه القيادة تنقل توجيهاتها إلى الجماهير. عبر المنشورات التي تحمل أرقاما ترتيبية. وكانت هذه المنشورات تدعو الجماهير إلى الإضراب أو مقاطعة المنتجات الإسرائيلية وقتل المتعاونين مع إسرائيل وتجار الأراضي. وعملاء جهاز الأمن العام. لقد أصبحت عمليات قتل العملاء. وإضرام النيران في ممتلكاتهم ظاهرة شائعة في الضفة والقطاع. وقد تمكن جهاز الأمن العام.

مـرات عديـدة، مـن تفريـق القيـادة الوطنيـة وإلقاء القبـض علـى أعضائـها، بيـد أنـها كـانت سرعان ما تعود إلى الحياة من جديد، بشخصيات جديدة.

لقـد ولـدت الانتفاضـة عـددا مـن الزعمـاء البـارزين، وأبرزهـم الشـيخ أحمـد ياسـين.

ومـن الجديـر بـالذكر، أن الشيخ ياسـين، كـان يلعـب وهـو في سـن السادسـة عشـرة علـى شـاطئ بحـر غـزة. فسـقط علـى ظـهره وأصيـب إصابـة خطـرة في عمـوده الفقـري، ولم ينجـح الأطبـاء في إنقـاذه مـن الشـلل، وفي عـام ١٩٧٤، عندمـا أدى فريضـة الحـج، كـان لا يـزال يقـف علـى قدميـه، وإن كـان بحاجـة إلى مسـاندة، أمـا الآن، وبعـد أن تجـاوز السـتين. فقـد اضطـر لاسـتخدام كرسـي مقعديـن كـي يتحـرك، ولا يسـتطيع تحريـك سـوى رأسـه. ويعـاني مـن سـعال دائـم، والتـهاب في الجـهاز التنفسـي، وآلام معـدة، وبواسـير، وهـو متزوج مـن امرأتـين وآب للعديـد مـن الأولاد.

لقـد حولـه عجـزه الجسـماني، وعلمـه الواسـع في الديـن الإسـلامي، وتواضعـه إلى شـخصية مقدسـة في قطـاع غـزة، حيـث يتحـدث المواطنـون هنـاك بتـأثر وحمـاس، عـن المعجـزات الـتي يقـوم بـها، وقدرتـه علـى شـفاء الأمـراض، إلى الحـد الـذي جعلـت صـوره تلصـق علـى المنشـورات، والكتـب، والرسـائل البريديـة، والميداليـات، واعتـبر مشـرع و مفت في الشـؤون الدينيـة، وهـو الرجـل الـذي أسـس حركـة حمـاس.

لقـد بـرزت حركـة حمـاس في البدايـة، كهيئـة شـرعية وتم تسـجيلها لـدى مسـجل الهيئـات والروابـط في إسـرائيل باسـم المجمـع الإسـلامي، وحـاولت هـذه الهيئـة العثـور علـى حلـول لمشـاكل التعليـم والضوائـق الاقتصاديـة للمواطنـين الغزيـين.

لقد وجدنا أنفسنا، في حيرة، في الكثير من الأحيان، إبان النقاشات التي جرت مع شخصيات حكومية رفيعة حول كيفية التصرف تجاه هذه الهيئة. وكان هناك من اعتقد بضرورة تشجيع نشاطات هذه الهيئة، كثقل مواز لمنظمة التحرير. بيد أنني عارضت ذلك، وقلت لو أننا واثقون من أن هيئته ستعمل في المجال الجماهيري العام. لكانت هذه الفكرة جيدة، لكن الإسلام بطبيعته، لا يستطيع الاكتفاء بهذه النشاطات، فالإسلام يقوم على أسس الجهاد ومحاربة الكفار والعمل على إقامة نظام إسلامي، لذا. فإن الفرصة كبيرة لأن تتحول هذه الهيئة في يوم من الأيام، حينما تصبح الفرصة سانحة، إلى منظمة "إرهابية" عنيفة. واقترحت أن تتم إزالة هذه الفكرة من جدول الأعمال،وهذا ما حدث فعلا.

تلقى ياسين أموالا، وتعززت قواه،وحول بمرور الأيام هيئته إلى منظمة مقاتلة باسم حركة المقاومة الإسلامية، والتي تعني الأحرف الأولى من اسمها "حماس" وهذه الكلمة تعني أيضا في اللغة العربية الجرأة والبطولة.

وفي عام ١٩٨٤. تم اعتقاله، وقدم إلى المحاكمة بتهمة حيازة سلاح ومعدات حربية وقيادة منظمة معادية، وأدين وحكم بالسجن لمدة اثنتي عشرة سنة،وبعد سنة واحدة. أفرج عنه في صفقة تحرير الأسرى. مع أحمد جبريل.

كان أحمد ياسين، ولا زال، زعيم حركة حماس وصاحب القرار فيها. وكان يصدر التوجيهات ويصيغ المنشورات والبيانات التي لعبت دورا مهما في الانتفاضة:

فقد كانت تأمر المواطنين في غزة متى يضربون، ومتى وأين يرشقون الحجارة، ومتى يتظاهرون. وإضافة إلى الأوامر العملية. كانت تلك المنشورات. مليئة بالمفاهيم الأيديولوجية.

هـزت الانتفاضـة الجـهاز القضـائي الـذي أقامتـه إسـرائيل، إلى حـد كبـير، وتم تجميـد القضـاء المدنـي والجنـائي، بصـورة مطلقـة، وحـل الشـيخ ياسـين محلـه، فعمـل كمحكـم، وفـرض الأحكـام علـى منتـهكي القـانون، ممـا أسـهم في تعزيـز سـيطرة حركـة حماس في القطـاع، في الوقـت الـذي كـان تأثيره في الضفـة الغربيـة أقـل بكثـير.

فكرنـا في اعتقالـه، وتقديمـه للمحاكمـة، كلمـا كـان ذلـك ممكنـا، بغيـة تشـويش نشـاطات حركـة حمـاس، بيـد أننـا لم نجـد مـن الممكـن زرع عمـلاء في حمـاس، لجمـع معلومـات ضـده، بـل إن العمـلاء القلـة الذيـن كـانوا يتعـاونون معنـا رفضـوا بشـدة، عندمـا طلبنـا منـهم معلومـات حـول الشـيخ ياسـين، وقـالوا لنـا: "كـل شـيء نعـم، أمـا الشيخ فـلا". كان الاحـترام الـذي يكنونـه لـه، فـوق جميـع الاعتبـارات.

حظيـت حركـة حمـاس، خـلال الانتفاضـة، بزخـم كبـير جـدا في قطـاع غـزة، وتفحـص منشـورات الحركـة يؤكـد أن الهـدف لم يكـن التظـاهر وتشـويش النظـام العـام، بـل أكـثر مـن ذلـك بكثـير، فقـد رفعـت حمـاس الجهـاد فـوق سـلم الأولويـات ـحـرب مقدسـة لتحريـر فلسـطين، وهـو الأمـر الـذي أثـار حمـاس الجماهـير، وجعلـها تنضـم إلى الحركـة، بـأعداد كبـيرة ومـتزايدة.

جـاء تعزيـز صفـوف حركـة حمـاس، علـى حسـاب حركـة فتـح والمنظمـات الفلسـطينية الأخـرى، وسـرعان مـا تحولـت إلى أكـبر حركـة مقاومـة في قطـاع غـزة، والـتي حملـت علـى أكتافـها الانتفاضـة كلـها، أضـف إلى ذلـك، أن حمـاس حظيـت بسـمعة جيـدة، كونـها خاليـة مـن الفسـاد، علـى عكـس المنظمـات الأخـرى الـتي كـان المسـؤولون فيـها يسـرقون ثلثـي المساعدات المقدمـة إليـهم علـى الأقـل، أمـا حمـاس، فقـد حـافظت علـى نقائـها طيلـة الطريـق.

وقـف الجنـدي (آفي سـبورت) في السـادس عشـر مـن شـباط ١٩٨٩، بانتظـار ركـوب مجـاني في مفـترق طـرق (هوديـه) في الجنـوب، وقـد توقفـت سـيارة تحمـل لوحـات أرقـام إسـرائيلية، بـالقرب منـه، فشـاهد فيـها شـخصين يعتمـران قبعـة المتدينـين اليـهود. فدخل إليـها (سـبورت) -الـذي لم يشـك أبـدا في شـيء- وانطلقت السيارة فـورا مـن المكـان.

لم يكـن معتمـرو القبعـات، سـوى محمـد نـاصر ومحمـد المبحـوح- وهمـا مـن نشـطاء حركـة حمـاس، اللـذان أرسـلا لاختطـاف جنـدي وقتلـه. أمـا السـيارة الـتي اسـتخدمت في العمليـة، فقـد تمـت سـرقتها مـن إسـرائيل، وفي الطريـق أطلـق محمـد نـاصر عيـارين نـاريين علـى رأس وصـدر سـبورت، وبعـد أن مـات، نـزع الاثنـان ملابسـه ودفنـاه بـين مفـترقي "هوديـة" و"جبعـاتي"، وغـادرا المكـان، أمـا سـلاحه وأشـياؤه الشـخصية، فقـد تم تسـليمها إلى شـخصين مـن حركـة حمـاس، كانـا بالانتظـار في قطـاع غـزة، ثـم قـاد الاثنـان السـيارة المسـروقة إلى منطقـة بـئر السـبع -وتركاهـا هنـاك وعـادا إلى القطـاع.

وفي الثـالث مـن أيـار- أي قبـل أيـام معـدودة مـن اكتشـاف جثـة سـبورت- سـرقت الخليـة سـيارة أخـرى مـن منطقـة "رمـات جـان" واختطفـت الجنـدي "إيـلان سـعدون" وقتلتـه، ودفنتـه في منطقـة "بلمـاحيم" واتجـها نحـو غـزة، وعندمـا حـاولا تـهريب السـيارة إلى غـزة عـبر حقـول كيبوتـس (مفلسـيم) شـاهدهم حـارس الكيبوتـس، فتركـا السـيارة وفـرا مـن المكـان، وقـد عـثرت قـوات الأمـن الـتي اسـتدعيت وفحصـت السـيارة، علـى آثـار دمـاء، مما جعلنا نعتقد أن جريمة قتـل قـد نفـذت، بيـد أننـا لم نخمـن مـن هـو القتيـل.

وضعـت المنطقـة الـتي فـر إليـها الاثنـان تحـت التحقيـق، وافترضنـا أن مـن الجـائز أن يكونـا مـن سـكانها، أو أنـهما يتلقيـان مسـاعدات مـن سـكانها، وبنـاء علـى التجربـة

اعتقدنا أن الفاعلين نشطاء، وليسوا من الشخصيات الرفيعة التي تحرص على عدم تلطيخ أيديها بالدماء.

درسنا قائمة نشطاء حركة حماس في المنطقة، واعتقلنا أحدهم سرا. وأحضرناه إلى حاجز إيرز وأجرينا معه التحقيق المبدئي هناك، ولم أشارك في هذا التحقيق. بيد أنني جلست قريبا من المكان أنتظر التطورات.

اعتقدنا في البداية، أننا اعتقلنا الشخص الخطأ، فقد اتضح لنا أنه لم يشارك في عملية القتل ولا في الإعداد، ورغم ذلك، أسفر التحقيق عن نتائج، حيث حصلنا منه، على أسماء نشطاء من حركة حماس في مخيم جباليا، ممن يعتقد أنهم قد يعرفون شيئا ما.

جندنا قوات كبيرة وطوقنا المخيم، وأخذنا نفتشه من منزل إلى آخر. وأشرفت على العملية من طائرة الهليوكبتر التي حلقت فوق المخيم، وقد عثرت القوات أثناء التفتيش على المخزن الذي أودع فيه سلاح وأشياء "إيلان سعدون" الشخصية، بيد أننا لم نتمكن من اعتقال الفاعلين أنفسهم.

واصلنا التحقيق، وبعد عدة أشهر نجحنا في اكتشاف هوية الفاعلين. وعرفنا، أنهما نجحا في الفرار إلى مصر، مثلما فعل العديد من المطلوبين، وكان المصريون يتعاملون معهما بأسلوب بسيط، فقد اعتقلوهما، وحققوا معهما، ثم طردوهما من الأراضي المصرية، لأنهم لم يرغبوا في تراكم تجمع إسلامي متطرف لديهم.

طلب سفيرنا في مصر، البروفيسور يعقوب شامير-بناء على توجيهاتنا-لقاء عاجلا مع الرئيس حسني مبارك، وأوضح له، أن إسرائيل تتفهم وضع مصر الحساس. لذا، فإنها لا تطالبها بتسليمها محمَد ناصر ومحمد المبحوح؛ بيد أنها تطالبه بأن يأمر

وزير داخليته، ورئيس جهاز المخابرات، بأن يحقق معهما لمعرفة مكان دفن "إيلان سعدون"، وقد اتصل الرئيس مبارك بحضور شامير، بوزير داخليته، وأمره بالحصول على المعلومات المطلوبة، فوعد بذلك، وطلب من شامير الاتصال به بعد ثلاثة أو أربعة أيام، للحصول على النتيجة، وعندما اتصل السفير في الموعد المحدد، لم يحصل على أية نتيجة، وبعد يومين، طردت السلطات المصرية الاثنين من أراضيها، وقد اتضح لنا، فيما بعد أن الرئيس ووزير الداخلية، لم يقصدا الحصول على أي معلومات. وأنهما نفذا مسرحية أمام السفير.

ولم نتمكن من العثور على جثة "سعدون" إلا في الثامن والعشرين من تموز ١٩٩٦، وبعد أن ساعدتنا السلطة الفلسطينية، حيث تم العثور على جثته في منطقة (بلماحيم)، تحت طريق قمنا بشقه قبل فترة وجيزة.

قمنا في أعقاب مقتل "سسبوت" و"سعدون" بحملة اعتقالات واسعة النطاق في أوساط حركة حماس، وتمكنا من اكتشاف بنية تحتية واسعة ومنتظمة للحركة في مناطق شتى من القطاع، واعتقلنا غالبية النشطاء في الذراع العسكري التابع لها. لقد اعتقلنا في نهاية المطاف حوالي خمسمائة نشيط ومسؤول والذين اعترفوا بالعديد من العمليات ضد إسرائيل، وبقتل العديد ممن اشتبهوا بتعاونهم معنا، وبإدارة مقاه تبيع المشروبات الروحية، والمتاجرة بالمخدرات، وممارسة البغاء. وقد كشفت التحقيقات وسائل تعذيب فظيعة كان النشطاء يمارسونها مع من يجري التحقيق معهم قبل تصفيتهم.

حماس والشيخ ياسين والتمويل الخارجي

كان الشيخ أحمد ياسين يترأس جميع الأذرع التي ارتكبت هذه الفظائع، وكان قد عكف قبل سنة ونصف السنة من إقامة "حماس" رسميا، على تشكيل خلايا الذراع العسكري. وقد وضع أعضاء هذه الخلايا الفتوى التي أصدرها، والتي تجيز قتل كل من لا يتمسك بمبادئ الإسلام-سواء من اليهود أو العرب-نصب أعينهم، وجعلوها نبراسا يهتدون به.

وعكف الشيخ ياسين، في نفس الوقت، بصورة دؤوبة، على بناء جهاز تنظيمي كبير، تضمن جهاز دعاية مؤلفا من أكاديميين وطلبة، وخصوصا من بين طلبة الكلية الإسلامية في غزة، وجهاز لمعالجة أوضاع الطلبة، وجهاز عسكري لتفعيل كتائب عز الدين القسام، ودفعها للقيام بعمليات.

كانت غالبية قوة حماس، موجودة في قطاع غزة، أما في الأماكن الأخرى، مثل رام الله والخليل، والمناطق القروية من نابلس، فقد كانت لديه خلايا صغيرة.

لقد تم تجنيد غالبية أعضاء الذراع العسكري لعز الدين القسام من أوساط طلبة الكلية الإسلامية في غزة، والتي كانت، ولا تزال، أحد قلاع حركة حماس، مثلما كانت ولا زالت كلية النجاح في نابلس، قلعة لها في الضفة الغربية.

لقد لعبت المساجد أيضا دورا بارزا في نشاطات حركة حماس السرية، حيث استخدمت لإخفاء أرشيف الحركة، وكمكان لاجتماعات نشطائها وقادتها، لقد كانت المساجد مستنبتا أيديولوجيا "للإرهاب". فجميع المسلمين يؤمون المساجد-مرة أسبوعيا على الأقل، في الوقت الذي لم يكن بالإمكان أن ندخلها.

وكل اقتحام لمسجد، كان يتطلب تصريحا خاصا من وزير الدفاع. وحتى حينما كانت لدينا أسباب وجيهة لدخول هذا المسجد أو ذاك، لم نكن ندري فيما إذا كان الوزير سيمنحنا إذنا بذلك أم لا، فقد كان الجميع يدركون أن دخول قوات الأمن الإسرائيلية، لأي مسجد سواء أكان جنودنا يرتدون بزاتهم الرسمية أم لا، سيثير حالة غليان ويضرم نيرانا رهيبة.

كان الشيخ ياسين يدرك أن حملة الاعتقالات ستطاله، فقد كان القائد الأعلى، وجميع الخيوط تقود إليه، وبالتالي، فإن مسألة اعتقاله لم تكن سوى مسألة وقت. لذا سارع الشيخ ياسين إلى تعيين نائب له لترميم الحركة في أعقاب حملة الاعتقالات الواسعة، وهو إسماعيل أبو شنب أحد شخصيات حماس المعروفة في قطاع غزة.

اعتقلنا الشيخ ياسين، ووجهت إليه تهمة التورط في مقتل "سسبورت" و"سعدون". بيد أنه نفى أي علاقة له بالقتل، والحقيقة، هي أننا لم نعثر على أي وثائق مكتوبة أو موقعة منه، تدل على أنه شارك في التخطيط لاختطاف وقتل الجنديين. فنظرا لشكله، لم يكن مؤهلا للكتابة، وكان يملي أوامره على الآخرين. لذا تمت إدانته، بناء على الشهادات التي أدلى بها نشطاء حماس، أثناء التحقيق.

لقد تقابلت معه عدة مرات في معتقل "اشمورت" في "كفار يونه"، وكان هناك معتقلان يلازمانه دائما لخدمته، وقد أثار اهتمامي جدا، بطبيعة تفكيره وطريقته في التعبير عنه، ولم أشهده أبدا يثور أو يفقد رباطة جأشه أو يصرخ، كان صوته ذا الصفير الخاص، يعطي لجليسه انطباعا، بالاعتدال، لكن هذا الاعتدال كان اعتدال إنسان شديد التطرف، لا يمكن أن يكون في يوم من الأيام حادا أو يقول: "سوف ندمركم، أو سنلقيكم إلى البحر" بل سيتحدث عن التعايش المشترك، والذي يعني

حسب فهمه. قيام دولة يعيش فيها العرب واليهود وأبناء الديانات الأخرى تحت حكم إسلامي. ولم يعترف الشيخ ياسين. بأي تورط في نشاطات حماس، أو بعمليات قتل أو اختطاف أو عمليات، لقد عمل الشيخ ياسين بصورة مماثلة، لمؤسس حركة (كاخ) اليهودية المتطرفة، الحاخام مائير كهانا. الذي لم يصدر أي أمر لتنفيذ عمليات. بل أطلق التصريحات والمقولات ويمكن لمؤيديه أن يفسروا ذلك مثلما يريدون. أدانت المحكمة الشيخ ياسين وحكمت عليه بالسجن المؤبد إضافة إلى خمس عشرة سنة، وتم الاتفاق مع اسحق رابين. على طرده من البلاد شريطة أن يلتزم بعدم العودة إلى الضفة والقطاع في غضون السنوات العشر القادمة، بيد أنه رفض العرض. وقال: "سأخرج من المعتقل إلى بيتي وليس إلى أي مكان آخر". وقد تم الإفراج عنه عام ١٩٩٧. بأمر رئيس الحكومة، نتنياهو: في أعقاب التسوية التي تم التوصل إليها مع الملك حسين. في إطار صفقة الإفراج عن اثنين من عمال جهاز الأمن العام اللذين حاولا اغتيال خالد مشعل في عمان.

كان هناك شخص آخر مشبوه بالمشاركة في التخطيط لاختطاف وقتل "سسبورت" و"سعدون"، وهو أيضا، أحد كبار مسؤولي حركة حماس (صالح شحادة). ويعتبر شحادة: كاتم أسرار الشيخ ياسين. وهو شاب في منتصف الثلاثينات، ملتح، وضليع في الشؤون الدينية-حسن المحيا، بيد أنه كان يخفي وراء هذا القناع شخصية أحد القادة الأكثر قسوة في أوساط حماس: وكان مسؤولا أيضا عن تجنيد مرشحين جدد. وكان كل مرشح يجتاز العديد من الاستجوابات والتحقيقات للتأكد من أنه ليس عميلا لجهاز الأمن العام.

تحدثت مرات عديدة مع شحادة، وكي أؤثر عليه، أحضرت مرات عديدة. قائد القطاع الجنوبي، اسحق مردخاي، وضباط آخرين رفيعي المستوى إلى التحقيق. وقد حرمناه من النوم. وحققنا معه بصورة مكثفة وطويلة، لكنه كان قويا ومصرا على عدم الخنوع، وقد وافق على الاعتراف بحقائق لا تقبل الجدل، عرضناها أمامه، لكنه رفض تقديم أي معلومات، مهما كانت غير ذلك، وكان من المنطقي أن يفعل ذلك. فالمكانة التي يحتلها في "حماس"، كانت تتطلب أن تكون شخصيته قوية وصلبة، وإلا لما وصل إلى ما وصل إليه، فمثل هؤلاء الأشخاص، قادرون على امتصاص جميع وسائل التعذيب، ومواجهة أي إغواءات في التحقيق.

اعتقلنا أيضا محمد شريتح رئيس الخلية (١٠١) والمسماة أيضا خلية جباليا، وهي الخلية المسؤولة عن مقتل "سسبورت" و"سعدون". لقد كان شريتح قاتلا محترفا، متلونا، ويتلقى أوامره من شحادة، وكانت جميع الخيوط تقود إلى زعيمهم الشيخ أحمد ياسين.

كان جهاز الأمن العام، في سني الانتفاضة، يوجه خطوات جميع قوى الأمن في الضفة الغربية وغزة: الجيش، حرس الحدود والشرطة، كما اضطر الجهاز لملاءمة نظرياته القتالية مع الواقع الجديد.

أسفرت التحقيقات مع المعتقلين الكثيرين عن نتائج جيدة. لذا قررنا مواصلة التحقيقات وتوسيعها. وفي إطار ذلك بادرنا إلى تشكيل وحدة تحقيقات درزية في الجيش الإسرائيلي، وقام الجيش بتوجيه محققي هذه الوحدة، الذين كانوا جميعا يخدمون في الجيش الدائم.

وقد تم تجميعهم في البداية، في سجن الذارعة الواقع شمالي الضفة الغربية، حيث كان يتم نقل المتظاهرين إلى هناك، ثم عمل هؤلاء المحققون، فيما بعد، في سجن "انصار"، بقطاع غزة، والذي اعتقل فيه الكثيرون من منظمي المظاهرات والمشاركين فيها.

وفي إطار محاولات الحد من نشاطات نشطاء الانتفاضة، أجرينا آلاف الاعتقالات الإدارية، وعززنا جهاز الحراسة والحماية لرجالنا الذين كانوا يعملون ميدانيا، ويتوغلون داخل الأماكن الخطرة معرضين حياتهم للخطر.

تواجدت أنا بنفسي في مراكز التحقيق أوقاتا طويلة، وكنت أجتمع بعمال الجهاز الموزعين في كل مكان من الضفة الغربية، ويجب أن نتذكر، أن الجهاز كان في تلك الآونة مشغولا أيضا بالعديد من المسائل الأخرى ذات الأهمية الكبيرة جدا، فقد لاحقنا الجواسيس الروس، واليمين واليسار المتطرفين. وقدمنا الحماية لجميع الشخصيات في إسرائيل والسفارات وطائرات العال والسفن الإسرائيلية في جميع أنحاء العالم، والمهاجرين الروس.

لقد كانت الانتفاضة المتواصلة هي السبب في جلب بداية المسيرة السلمية إلى المنطقة، لقد أرهقت الجماهير العربية في الضفة والقطاع، وأوضاعها الاقتصادية تدهورت، وتضاءلت قدرتها على التحمل، هذا على الصعيد الفلسطيني. أما على الصعيد الإسرائيلي، فقد توصل الإسرائيليون إلى قناعة أنه ودون مسيرة مصالحة. فإننا لن نخرج من هذه الورطة أبدا.

يعتبر رئيس جهاز الأمن العام أيضا (وزيرا لخارجية الجهاز). لذا التقيت، في إطار عملي، مع رئيس الحكومة ووزير الدفاع. خلال الجلسات الأسبوعية الحكومية، وخلال جلسات خاصة كنا نعقدها، ومع أعضاء المجلس الوزاري المصغر.

وعندما شغل رابين منصب رئيس الحكومة ووزير الدفاع، أصبحت اللقاءات معه دورية، وكنت أحب الجولات التي أقوم بها بمعيته ميدانيا، فقد كان يحرص على القيام بجولة في الضفة والقطاع، مرة واحدة على الأقل، أسبوعيا، إضافة إلى دعوتي الدائمة إلى جلسة الخارجية والأمن التابعة للكنيست، وتقديمي تقارير شاملة إلى اللجنة الفرعية لشؤون الاستخبارات وغير ذلك.

قبلة خطرة

كانت حركة "حماس"، أقدر من أي منظمة فلسطينية أخرى على امتصاص الضربات واسترجاع نفسها والنهوض من جديد، وكان بمقدورنا اعتقال مئات النشطاء، وضبط كميات كبيرة جدا من المعدات الحربية والأسلحة، ومصادرة آلات الطباعة والمنشورات وبرامج العمل، والتسبب في تباطؤ نشاطات الحركة، إلى حد ما، بيد أنها كانت سرعان ما ترفع رأسها مجددا بعد بضعة أشهر.

لقد كانت عملية تصفية يحيى عياش (المهندس) عام ١٩٩٦، بمثابة أوجع ضربة نزلت بحركة "حماس"، ورغم ذلك، لم يمض سوى وقت قصير، حتى أعلنت عن العودة إلى الجهاد، ونفذت العديد من العمليات الانتحارية، ورغم ذلك، فإن الحركة كانت بحاجة إلى هامش زمني طويل نسبيا، من أجل إحياء البنية التحتية التنظيمية والسياسية في أعقاب عمليات الإحباط التي تقوم بها إسرائيل.

ولدى "حماس"، قدرة كبيرة على تجنيد الانتحاريين، وهي تختارهم عادة من بين الأشخاص الذين قدمت إليهم وإلى عائلاتهم مساعدات، إبان غرقهم في أزمات وضوائق اقتصادية أو احتاجوا إلى علاجات طبية، فقد كان الاعتراف بالجميل "لحماس"، هو أحد العوامل المهمة في استعداد المجندين للقيام بعمليات انتحارية.

ويلعب رجال الدين، دورا مهما في إعداد هؤلاء الأشخاص لتنفيذ المهام الملقاة على عاتقهم، فهم يعدونهم بأن مشاركتهم في الجهاد المقدس سيمنحهم مكانة شهيد، وهي مكانة رفيعة جدا في الجنة، إضافة إلى تقديم المساعدات إلى عائلاتهم بعد وفاتهم.

لقد شاركت في جميع مراحل التعامل مع حركة "حماس"، فقد كانت هذه القضية، شديدة الأهمية، مما اضطرني، لإيلائها اهتماما كبيرا، بوصفي رئيسا لجهاز الأمن العام، فقدمت التوجيهات إلى شعبة الأبحاث، وشاركت في التخطيط للعمليات الخاصة بإلقاء القبض على المطلوبين، وتابعت النشاطات التي تقوم بها الحركة عن كثب، وشاركت في التحقيق مع المعتقلين، وقرأت مئات الاعترافات، وأطلعت رئيس الحكومة على التطورات، وكذلك الوزراء.

لقد تأثرت جدا، بمدى السرية التي تحيط بها حركة "حماس" نشاطاتها، فمثلا وجدت أن حفنة قليلة من مئات الأشخاص الذين حققنا معهم، يعرفون صالح شحادة، إضافة إلى أنهم لم يكونوا يعرفون الكثير عن نشاطاته.

والسرية في إطار خلايا عز الدين القسام كانت أدق وأشد، وهذا هو السبب الذي جعل هذه الخلايا ترفع رأسها بسرعة، بعد كل ضربة نوجهها لها. وكلما كان أعضاء الخلايا أقل معرفة، كلما تضاءلت إمكانية إلقاء القبض على الشخصيات الرفيعة التي تقف خلف النشاطات القاتلة وإدانتها، لقد مارس زعماء حركة "حماس"،

المعتقلون، نشاطاتهم بنفس الوتيرة، من المعتقل، فقاموا عبر زوارهم بتفعيل خلايا عز الدين القسام، وقد اكتشفنا العديد من الأساليب والطرق التي كان المعتقلون يستخدمونها لنقل الرسائل والأوامر، ومن ضمن هذه الوسائل كانوا ينقلون الرسائل الملفوفة جيدا من فم إلى آخر إبان تبادل القبلات ساعة الزيارة.

ورغم الصعوبات الجسيمة، التي واجهناها في زرع عملاء داخل حركة "حماس"، إلا أننا حققنا نجاحات لا بأس بها. ففي مطلع التسعينات نجحنا في تجنيد عميل مقرب جدا لأوساط "حماس"، ولم يكن الرجل متدينا بمعنى الكلمة، بيد أنه أكثر من الذهاب إلى المساجد والإصغاء إلى خطب الأئمة، والأهم من هذا، هو أنه كان يتمتع بثقة كاملة لدى نشطاء "حماس".

والعميل المذكور يناهز الثلاثين، وكان يرغب في التوجه إلى الأردن لاستكمال تعليمه، وقد استدعاه مسؤول جهاز الأمن العام في المنطقة، وتحدث معه، فنشأ تفاهم بين الاثنين، وقد عمد في البداية، إلى تزويدنا بمعلومات حول النشاطات الاجتماعية والجماعية للحركة، ثم لاحت الفرصة له لتقديم مساعدات لنا في قضايا أكثر جدية.

وبعد عدة أشهر من تجنيده، فرت من معتقل الظاهرية مجموعة من الشبان كان قد تم اعتقالهم بتهمة التظاهر، ووصلت إلينا معلومات تفيد بأن اثنين منهم انضما إلى خلية عسكرية تابعة لحركة "حماس" تخطط للقيام بعمليات ضد إسرائيل، وكنا نعلم أن أعضاء الخلية المذكورة هم من كبار المطلوبين. فقد كانت لدينا معلومات تنسب إليهم القيام بعمليات ضد اليهود في منطقتي الخليل والقدس، بما فيها قتل مردخاي لفيد وابنه شلوم.

في السادس من كانون الأول ١٩٩٣ توجه مردخاي لفيد-٥٦سنة- من منزله في (تلة الخارصينه) في "كريات أربع"، إلى طريق الخليل-القدس، وبصحبته أربعة من أبنائه الأربعة عشر. وبينهم شلوم ابن التاسعة عشرة، والذي يدرس في المدرسة الدينية (إفرات). وقد وقف لفيد وأبناؤه الثلاثة مع شلوم حتى تتوقف سيارة لتقله مجانا إلى المدرسة.

وفجأة، قدمت من الجهة الشرقية سيارة نقل تجارية صغيرة من طراز بيجو، وتوقفت، وترجل منها مسلحان، وثلاثة آخرون وفتحوا النار على لفيد وأبنائه، أصيب لفيد وشلوم إصابات خطيرة، وتوفيا بعد عدة دقائق، أما الثلاثة الآخرون فقد أصيبوا بإصابات تتراوح بين طفيفة ومتوسطة.

كان مردخاي لفيد مهندسا، وقد قدم إلى إسرائيل من روسيا عام ١٩٦٨، ويعتبر من أوائل المستوطنين في شمالي الضفة الغربية، ثم ارتحل من هناك إلى "كريات أربع". أثارت العملية عاصفة عاتية في إسرائيل وفي أوساط المستوطنين.

وبعد أقل من ثلاثة أشهر، قام الدكتور باروخ غولدشتاين-صديق لفيد-بفتح النار على المصلين في الحرم الإبراهيمي في الخليل، وقتل تسعة وعشرين شخصا، وأصاب مائة وخمسة وعشرين آخرين بجراح، وقد اعتبر مستوطنو "كريات أربع"، هذه العملية، ردا على عملية قتل لفيد.

أصبحت صور أعضاء الخلية التي نفذت العملية، والعديد من التفاصيل الأخرى حولهم بحوزة جميع رجال الأمن في المنطقة. وقد عرف أعضاء الخلية ذلك، لذا قللوا من الخروج من الشقق التي كانوا يستترون فيها. وكان عميلنا، آنف الذكر، أحد عناصر الارتباط القليلة جدا معهم، فقد كانوا يثقون به ثقة عمياء، وهكذا ثبت

أننا كنا على حق، عندما عملنا على تجنيده.إن الهدف الذي وضعناه نصب أعيننا في تجنيد العملاء هو أن يكونوا معروفين في الأوساط التي يعيشون فيها كمخلصين، مما يتيح لهم الفرصة للانخراط في الخلايا المحلية، والاتصال بالمطلوبين.

وذات يوم، أعلمنا العميل أنه سيلتقي مع أحد الفارين من معتقل الظاهرية، ولا شك أنه كان بمقدورنا متابعته، وإلقاء القبض على الفار، واستنطاقه، حتى يعترف بمكان وجود زملائه، بيد أننا اعتقدنا أن مثل هذه الخطوة (ستحرق) عميلنا بالتأكيد، لذا قررنا متابعة الأمور عن كثب وعدم التدخل.

جرى اللقاء بين الاثنين تحت جنح الظلام على مداخل قرية قريبة من الخليل. ولم يتطرق الفار إلى أسماء زملائه، بيد أنه قال إن الخلية التي يعمل معها تصف نفسها (برأس الحربة) للخلايا المسلحة في الضفة الغربية، وقال إن قسما من أعضائها، قدموا من غزة، وطلب من عميلنا أن يعلم أحد مواطني (بيت أمر) أن ينقل ما وعد به إلى (النقطة الميتة) المتفق عليها، ولم نكن نعلم ما الذي وعد مواطن بيت أمر نقله، بيد أننا افترضنا أنها مواد متفجرة، أمرنا عميلنا أن ينقل لمواطن بيت أمر رسالة أخرى، أن يقول له: " إن الفار يريد أن يعلم مكان النقطة الميتة بالضبط، وقد سقط الرجل في المصيدة، وأعلمه بمكانها، دون أن يشتبه في شيء، فسارعنا لوضع رقابة عليها".

عاد العميل إلى الفار، وأعلمه بأنه نفذ ما طلبه منه، وافترق الاثنان بعد تحديد موعد آخر للقاء. وفي اللقاء الثاني، أحضر العميل بناء على توجيهاتنا، طعاما وشرابا، فالتهمه الفار بسرور بالغ، وتوطدت العلاقة بين الاثنين. ورغم أننا واصلنا

الرقابة على "النقطة الميتة" إلا أن الأمر لم يسفر عن أي نتيجة، وقد تواصلت اللقاءات بين العميل والفار.

وفي أحد اللقاءات، كشف الفار النقاب للعميل، عن أن الخلية تخطط للقيام بعملية كبيرة بعد حوالي ثلاثة أسابيع، وهمس له قائلا إن أعضاء الخلية يختبئون في حي أبو سنينه في الخليل، وفي الليل قامت قوات كبيرة بتطويق خمسة منازل من منازل حي أبو سنينة، آملين أن يعثروا على أعضاء الخلية في إحداها، وقد قاد العملية اللواء شاؤول موفاز، الذي كان آنذاك قائدا للقوات الإسرائيلية في الضفة الغربية، وتواجد أيضا قائد القطاع الأوسط داني يتوم، وفي حوالي الساعة السادسة صباحا، أحضرنا عددا من وجهاء الخليل، وطلبنا منهم أن يدخلوا المنازل الخمسة، ويطلبوا من أعضاء الخلية الاستسلام، وقلنا لهم إذا لم يستسلموا فسوف ندمر المنازل على رؤوس أصحابها.

فعل الوجهاء ما أمرناهم به، ثم عادوا وقالوا أنهم لم يجدوا في المنازل أي مسلحين، بيد أننا لم نصدقهم، وواصلنا توجيه النداءات لأعضاء الخلية بالاستسلام، وفي ساعات الظهر، انطلقت عدة عيارات نارية من أحد المنازل، ومنذ تلك اللحظة، نشبت معركة طيلة ثماني عشرة ساعة، قتل خلالها عدد من المسلحين، وسلم الباقون أنفسهم. كانت المعركة قاسية، وقد استخدم فيها الجيش الصواريخ، وقد قتلت امرأة فلسطينية عندما خرجت لتنشر غسيلها، وأصيب خمسة جنود بجراح طفيفة، ومن ضمنهم شاؤول موفاز نفسه، الذي أصيب بخدوش وتم تضميدها ميدانيا.

وفي أوج المعركة، وجه ياسر عرفات نداء إلى وزير الخارجية الأميركي، والرئيس المصري، للعمل على وقف المعركة، بيد أن القتال انتهى قبل أن تتمكن أي

جهـة مـن التدخـل، لقـد كـانت هـذه المعركـة شـاذة، علـى صعيـد هامشـها الزمـني، والمعـدات الحربيـة الـتي اسـتخدمت فيـها، والضجـة الدوليـة الـتي أثارتـها.

بذلنـا جـهودا جبـارة في إطـار محاربتنـا "لحمـاس"، كـي نسـد القنـاة الـتي تتدفـق منـها الأمـوال إلى الحركـة، وكلمـا كـبرت "حمـاس"، كلمـا ازدادت قدرتـها علـى جمـع الأمـوال والدعايـة، نظـرا لحاجتـها إلى قـدر أكـبر مـن المـال لتغطيـة نفقاتـها، كـانت هنـاك حاجـة لتمويـل عمليـات الطباعـة والسـفريات، والعديـد مـن بنـود النفقـات الأخـرى، وكـانت الأمـوال تأتيـها مـن العديـد مـن الجـهات الإسـلامية المتعاطفـة معـها، مـن السـعودية والكويـت والـدول العربيـة الأخـرى، وقـد سـاعدها في ذلـك علاقاتـها المتشـعبة مـع الإخـوان المسـلمين والمنظمـات الأصوليـة الأخـرى، في مصـر والأردن والسـعودية.

وتدفقـت مبـالغ مـن المـال أيضـا، مـن الولايـات المتحـدة، حيـث تعمـل حركـة "حمـاس" هنـاك منـذ عـام ١٩٨٨ وقد أشـرف علـى ذلـك، عربـي مـن سـكان شـيكاغو يدعـى محمد صلاح الملقـب بـأبي أحمـد-٤٠ سـنة- مـن مواليـد مخيـم قلنديـة للاجئـين.

تلقينـا معلومـات في كـانون الثـاني ١٩٩٣، مـن مصـادر المتعـاونين معنـا في "حمـاس"، تفيـد بـأن مواطنـين أميركيين مـن أصـل عربـي، وصـلا إلى إسـرائيل كـل علـى حـدة، بغيـة ترميـم البنيـة التنظيميـة والعسـكرية للحركـة، الـتي أصيبـت بـأضرار جسيمة، في أعقـاب موجـة الاعتقـالات والإبعـاد لنشـطاء "حمـاس".

الأول هـو محمـد صـلاح، والثـاني محمـد جـراد الملقـب بـأبي أنـس-٣٧سـنة- مـن مواليـد عـين يـبرود في منطقـة رام الله، وهـو أيضـا مـن سـكان شـيكاغو، وحـال وصولهمـا، وبنـاء علـى أوامـر قيادتـهما هنـاك، أجريـا اتصـالا مـع نشـطاء الحركـة الذيـن بقـوا خـارج المعتقـلات في رام الله، والقـدس والخليـل وغـزة، وسـلموهم مئـات آلاف الـدولارات، لإتاحـة

الفرصة لهم لمواصلة نشاطاتهم، وكانت لدى الاثنين توجيهات أيضا، لإجراء اتصالات مع نشطاء الحركة الإسلامية من العرب في إسرائيل.

عثرنا عليهما في فندق (مكة) في القدس الشرقية، وبعد ملاحقة متواصلة اعتقلناهما في الخامس والعشرين من كانون الثاني بعد خمسة عشر يوما من قدومهما إلى إسرائيل. وفي أعقاب اعتقالهما، اعتقلنا أربعين شخصا من نشطاء "حماس". وقد اكتشفنا أنه وقبل سفر صلاح إلى إسرائيل قام بإعداد أربعة نشطاء عرب لتنفيذ عمليات ضد إسرائيل، ومن المفروض أن يصلوا في أعقابه، في غضون فترة قصيرة.

واكتشفنا أن هذه الزيارة، لم تكن زيارته الأولى لإسرائيل، فقد زار الخليل، قبل ستة أشهر. في أيار ١٩٩٢، لوضع البنية التحتية لخلايا عز الدين القسام في المنطقة.

لقد أدى اعتقالهما، ليس فقط إلى تشويش مخططات منظمي الخلية الجديدة، بل كشف أيضا النقاب عن الأساليب التي تنقل فيها الأموال، وقد اكتشفنا أن مبالغ طائلة مخصصة لتمويل النشاطات العسكرية، لحركة "حماس"، نقلت في الغالب من خلال رسل، إضافة إلى استخدام التحويلات البنكية لتمويل النشاطات العامة للحركة، وكانت الأموال تودع في بنوك عربية في الأردن، ودول مجاورة، باسم صرافين في القدس الشرقية.

وكان هؤلاء الصرافون يتوجهون إلى الأردن ويحضرون الأموال المودعة ويسلمونها لحماس، بعد خصم العمولات بنسبة ١٠٪، وهكذا تدفقت الملايين على صندوق حركة "حماس"، التي كان يديرها الشيخ أحمد ياسين في غزة، والشيخ جمال حمامي في الضفة الغربية، كانت هذه الطريقة مدروسة، وقد تم استغلالها سنوات

طويلة على أيدي قسم كبير من سكان الضفة الغربية، دون أن تكون هناك طريقة قانونية للحيلولة دون هذا التدفق.

اتصل بي رئيس الحكومة، خلال التحقيق مع الاثنين، وطلب مني إجراء لقاء مع صحفية من جريدة "نيويورك تايمز"، تدعى جوديت ميلر، وتقديم معلومات يمكن نشرها من التحقيق.

حدث ذلك في أعقاب تسليمنا المعلومات التي تم استقاؤها من الاثنين، بصورة مبدئية إلى أذرعة المخابرات الأميركية، والتي تعاملت معها بشكوكية.

استجبت لطلب رئيس الحكومة والتقيت الصحفية في فندق "هيلتون"، في تل أبيب، وأخبرتها بمعلومات حول بنية حركة "حماس" في الولايات المتحدة، وحول نشاطاتها المتشعبة هناك، وحول أسلوب نقل الأموال لنشطاء المنظمة في الضفة والقطاع.

أحسست بأن المعطيات التي قدمتها إليها، أثرت فيها، بيد أنها طلبت-كي تقتنع-أن أسمح لها بحضور إحدى جلسات التحقيق. وقد توجهت إلى رئيس الحكومة وأعلمته بمطلبها، فتصرف بصورة شاذة للغاية، وسمح لي بذلك، شريطة أن لا يراها المحقق معهما.

أخذت الصحفية إلى مركز التحقيق في رام الله، وقدمت للمحققين سلسلة من الأسئلة وكانت الصحفية قد أعدتها مسبقا، وقام المحققون بتوجيهها إلى المحقق معهما، بوجودها، دون أن يتمكنا من رؤيتها، وقد أقنعتها أجوبتهما، وقامت بكتابة مقالة تم نشرها في الصفحة الأولى للجريدة بعناوين بارزة.

وفي نهاية التحقيق توجهت إلى الولايات المتحدة، وأعلمت المباحث الفدرالية بالمعلومات ذات العلاقة ببنية حركة "حماس" هناك، ونشاطاتها وأساليب اتصالاتها.

ووسائل نقل الأموال إلى الضفة والقطاع. وقد تعامل رجال المباحث بشكوكية كبيرة، مع المعلومات التي قدمتها إليهم، بل وألمحوا إلي بصورة واضحة، أنني بالغت كثيرا، بيد أنني أصررت على موقفي، وطلبت منهم تشديد الرقابة على نشاطات الحركة.

وفي أعقاب المتابعة والتحري الواسع اللذين أجرتهما المباحث-والمصحوب بنقاشات متواصلة اقتنعوا بأقوالي، وقاموا بتعميق الرقابة وتشديدها، وفي عام ١٩٩٧، تم سن قانون في الولايات المتحدة، يقلص إلى حد كبير جدا، إمكانية نقل الأموال "لحماس"، ولمنظمات "الإرهاب" الأخرى.

ونتيجة لذلك، تم اعتقال محمد صلاح، هناك قبل سنة، إثر عودته إلى شيكاغو، بعد أن قضى فترة عقوبته في إسرائيل واستأنف نشاطاته في الحركة، وقد نشرت وسائل الإعلام الأميركية، العديد من المقالات، حول أساليب نقل الأموال إلى المنظمة.

لم يكن "لحماس"، في تلك الآونة، أرضية تنظيمية على غرار حركة فتح والجبهة الشعبية والديموقراطية، وقد ولد في الحركة عبر الزمن، أسلوب عمل واضح، فقد ألقيت على عاتق نشطاء رفيعي المستوى، في الحركة، تنظيم النشاطات الجماهيرية والعسكرية، وكان الشيخ أحمد ياسين هو الذي يعينهم، وكانت نشاطاتهم مستقلة تماما، بوحي من الشيخ ياسين، دون أن يتم تأطيرهم في إطار رسمي، وهم الذين يحددون أهداف العمليات، وجداول الأولويات، والأهداف التي ستوجه إليها المساعدات.

ومن الجدير بالذكر، أن هناك نوعا من أنواع القيادات المحلية، في دول أخرى، ومن ضمنها الولايات المتحدة. وهذه القيادات تعمل بصورة أساسية، على نقل

المعلومات والمال، وإدارة العلاقات العامة، والاستشارات، وأحيانا تشارك في بلورة السياسات العامة، وفي بعض الأحيان، تندلع صراعات قوى، وتحدث انشقاقات وتمزقات زمنية بين القيادات المختلفة، وبينها وبين الزعامة في الضفة الغربية والقطاع، بيد أن تطورات من هذا القبيل، لم تكن لتؤثر في نشاطات حركة "حماس". على أرض الواقع، نظرا لأن القرارات الأساسية والعملية. حكر على الزعيم الرئيسي. ومجموعة من كبار زملائه، الذين يتقبلون سطوته دون أي احتجاج.

تعتبر محاولة قطع المسيرة السلمية وإيقافها، أحد الأهداف التي تسعى إليها "حماس".ويؤمن كبار مسؤوليها، بأنه إذا ما صعدت الحركة من عملياتها، فإن الرأي العام الإسرائيلي سيمارس ضغوطا على الزعامة الإسرائيلية لوقف المسيرة السلمية. و"حماس" لا ترغب في قيام دولة فلسطينية علمانية ديموقراطية، بل ترغب في قيام دولة إسلامية،بيد أن زعماء الحركة يدركون أن خوض مواجهة مع السلطة الفلسطينية، في الآونة الحالية، سيكون خطأ، وقد أدركوا في أعقاب سلسلة العمليات التي نفذتها الحركة عام ١٩٩٦، أن السلطة الفلسطينية، على استعداد لإيقاع أذى بليغ بهم، وأن بمقدورها عمل ذلك، بصورة منهجية، ولهذا السبب، حرصت حركة "حماس"، على عدم تجاوز الخط الأحمر في علاقتها مع السلطة الفلسطينية في نفس الوقت. الذي تواصل فيه العمل على توسيع بنيتها وإحراز المزيد من القوة.

وحركة "حماس"، تحظى باحترام كبير في الشارع العربي، فقد أصبحت في نظر الكثيرين بمثابة الحركة التي تحمل على عاتقها وحدها عبء مقاومة الاحتلال الصهيوني. وكتائب عز الدين القسام تحظى بإعجاب وتقدير كبيرين جدا، بل حتى أن الغالبية الصامتة في الشارع الفلسطيني، على استعداد للاستجابة، عن رضى.

لتوجهات زعماء الحركة، لمد يد المساعدة لهم، وتقديم المال والخدمات المختلفة للخلايا المسلحة.

ومن الجائز، أن تعمد "حماس" في المستقبل، إلى دراسة مسألة التحول إلى حزب سياسي، أو تشكيل إطار بديل للسلطة الفلسطينية، ولا شك أن هذا السيناريو، سيصبح ممكنا، إذا ما تقلصت قوة تأثير السلطة، جراء شعور الفلسطينيين بخيبة أمل من إنجازاتها.

وليس من المستبعد أن تتمكن حركة "حماس"، من الحصول خلال الانتخابات، على تأييد عشرات وربما مئات الآلاف من المواطنين الفلسطينيين، وعند الحاجة فإن في مقدور "حماس"، أن تجني الكثير من الفائدة من جهازها القوي في الجامعات والمساجد، وبؤر القوة الأخرى، بيد أن المواجهة في الآونة الحالية مع السلطة الفلسطينية ليست سهلة وذلك نظرا لأن قسما من الجماهير العربية العلمانية لا زال يعتبر النشاطات العامة، والجماهيرية التي تقوم بها حركة "حماس"، كإكراه ديني، في الوقت الذي خلقت فيه السلطة الفلسطينية، انفتاحا إلى حد ما في أعقاب الحجاب الذي فرض على النساء، فقد بنيت متنزهات على شاطئ غزة، وفتحت مقاه، وأخذت العديد من العائلات تسبح في البحر دون فصل بين الرجال والنساء.

ولا شك أن لدى "حماس" قدرة تنفيذية مؤكدة ومثبتة، وكذلك الجهاد الإسلامي، وإن كانت قدرته أقل، وفي مقدور هاتين الحركتين تجنيد انتحاريين لتنفيذ عمليات كبيرة بسرعة، أضف إلى ذلك، أن من السهل عليهم، في الآونة الحالية العمل.

وإزاء المماطلة والمراوحة في المسيرة السلمية، وتجميد الإنجازات التي أحرزتها السلطة الفلسطينية في المجال السياسي جراء ذلك، فإنها لا تقوم بالحد من

خطوات "حماس"، وطالما ظلت المسيرة السلمية عرجاء، فمن المحتمل أن يظل الوضع الحالي الذي تمتنع فيه "حماس" عن القيام بعمليات، وتمتنع فيه السلطة عن التعامل معها بشدة، وعندما تتقدم المسيرة، ستستأنف العمليات، بيد أن من المنطقي القول أنه سيكون حينئذ للسلطة الفلسطينية مصلحة في منع عمليات "حماس" إضافة إلى نشاطات جهاز الأمن العام والجيش الإسرائيلي.

العمل في جـهاز "الشاباك"

شكوى إلى رئيس الحكومة

كانون الثاني ١٩٩٠-كانون الأول ١٩٩٠

مكانـة رئيـس جـهاز الأمـن العـام الرفيعـة لا تجعلـه فقـط حاكمـا وحيـدا علـى رأس هـذا الجـهاز المعقد، بـل تحملـه أيضا مسؤولية كـل مـا يحـدث داخلـه، والجـهاز هـو هيئـة صغـيرة نسـبيا، ومنغلـق علـى نفسـه إلى حـد كبير، وهـو مرغـم علـى الارتجـال بصـورة متواصلـة، وإبـداء حساسـية دائمـة، ويكفـي ارتكـاب أحـد عمـال الجـهاز العـاديين خطـأ، كـي يخلـق ورطـة سياسـية حقيقيـة ويـزج برئيـس الجـهاز في أتـون حملـة انتقـادات واسـعة علـى خـط الجبهـة الأولى.

ويصبـح الوضـع أسـوأ، أضعافـا مضاعفـة، عندمـا يتعلـق الأمـر بـالأوامر الـتي يصدرهـا رئيـس الجـهاز فجميـع الأنظـار، وخصوصـا أنظـار أولئـك الذيـن يحسـدونه علـى النجاحـات الـتي يحرزهـا، تنصـب عليـه وترقبـه دون توقـف، وتشـن هجماتـها دون هوادة، عندما يبدو أن هنـاك شيئا مـا ليـس علـى مـا يـرام.

وفي السـادس والعشـرين مـن كـانون الأول ١٩٩٠، قدمـت للقـائي الأسـبوعي مـع رئيس الحكومـة اسحق شـامير، وقـد شـاهدت علـى مكتبـه رسـالة صفـراء اللـون، وهـو الأمـر الـذي أثـار اسـتغرابي، لأن مكتـب شـامير كـان يبـدو نظيفـا مـن أي ملفـات أو وثـائق عندمـا يتم اللقاء معي، والأمـر الثـاني الـذي لاحظتـه، هـو أن وجـه شـامير مقطـب جـدا.

لقـد اعتـاد شـامير، منـذ قضيـة (الحافلـة ٣٠٠)، أن يجتمـع مـع رئيـس الجـهاز بحضـور سـكرتيره العسـكري عزرائيـل بتـو، وكاتبـة الاخـتزال للشـؤون الأمنيـة الحساسـة

(ميتكه يفه)، بيد أنني فوجئت هذه المرة، حينما طلب من الاثنين مغادرة الغرفة، وعندما بقيت أنا وهو، توجه إلي قائلا:

"اسمع يا يعقوب، وصلتني رسالة من جهات مقربة إليك، وهي رسالة ليست جيدة وتحمل انتقادات ضدك لمسلكيات غير مناسبة، وهناك من يتحدث في الجهاز حول ذلك، وأنت لديك تأثر، ليس جيدا على الأشخاص".

صمت شامير لحظة، وحملق في وجهي المليء بالدهشة، ثم واصل حديثه قائلا: "يقولون أن لديك أصدقاء من العرب، وأنك تعيش حياة لا تتناسب مع مركز رئيس جهاز الأمن العام" وغير ذلك.

سألته من هي الجهة التي كتبت الرسالة، وما هي الشكاوى الواردة فيها؟؟ رفض شامير الإفصاح عن اسم كاتب الرسالة، بيد أنه تطرق بإسهاب إلى الشكاوى الواردة فيها، والتي كانت تتعلق بصغائر، مثل الإنفاق على الضيافة في مكتبي، ودهن سيارتي أكثر من مرة وغير ذلك، نفيت التهم الواردة في الرسالة، وقلت: "لست أدري من هي الجهة التي كتبت الرسالة، بيد أنه مما لا شك لدي فيه، أن اليد الطولى في كتابتها لمراقب الجهاز، حاييم حوفي، الذي يستخدم رئيسي شعبتين في الجهاز بغية الإطاحة بي". وقلت له، على سبيل المثال: إن أيهود يتوم، هو رئيس الطاقم الإداري والذي يملك صلاحيات استبدال سيارة رئيس الجهاز مرة كل عدة سنوات، وعندما آن الآوان لاستبدال سيارتي البيجو (٤٠٥)، تسلمت بدلا منها سيارة مدهونة بلون أزرق فاقع جدا ومثير للانتباه، فطلبت منه استبدالها بسيارة ذات لون أبيض لا يثير الانتباه، فقال إنه لا يوجد حاليا سيارة لها مثل هذا اللون، واقترح أن يتم طلاؤها بلون أبيض، فقبلت ذلك".

عــدت إلى مكتــبي غاضبـــا، واســتعرضت جميـــع التـــهم الـــواردة في الرســالة، وجلست كـي أكتـب لـه رسـالة ردا عليـها:

"منـــذ أن عرضــت علــي سلســلة الانتقــادات والشــكاوى المقدمـــة ضـــدي، ولـــدي إحسـاس صعـب للغايـة مـن الإهانـة والإحبـاط نظـرا لاضطـرارك لمناقشـة اتـهامات لا أسـاس لهـا مـن الصحـة ومؤامـرات، وأكـثر مـا يضايقني، هـو وجـــود عمـال داخـل الجـهاز الـذي بذلت قصـارى جـهدي مـن أجـل بنائـه وترميـم صورتـه-لا هـم لهـم، سـوى الكيـد لي وتلويـث سمعـتي بالأكـاذيب، فـهم ينسـبون إلي إقامـة علاقـات غـير منطقيـة مـع العـرب. لقـد عملـت في الشـعبة العربيـة عشـرين سـنة، ومـن خـلال الآلاف مـن أبنـاء الأقليـات الذيــن جندتــهم، والتقيـت معـهم، وعشـرات آلاف العـرب الذيـن عـالجت قضايـاهم، بقيـت علــى صلــة واهيــة مـع ثلاثـة أشـخاص منـــهم فقــط، ولا أقيــم علاقــات وطيــدة مــع أي منــهم. وعلــى فــترات متبـاعدة، يتصلـون بـي للسـؤال عـن صحـتي، وفي بعـض الأحيـان، ومثلمـا هـو متبـع في الوسـط العربـي، يطلبـون خدمـة مـا، وقـد عمـدت إلى تقديـم هــذه الخدمــة، طالمـا أن الأمـر ممكــن، ولا يتعـارض مـع القـانون، أو أوامـر الجـهاز، ولم أقـم في أي مـرة بتفضيـل مصلحتـــهم".

*أمـا فيمـا يتعلـق بنمـط الحيـاة غـير الملائـم لرئيـــس الجـهاز، فـإن هــذه التهمــة تسـبب لي الكثـير مـن الاكتئـاب، لقـد قلصـت، منـذ أكـثر مـن سـنتين، علاقــاتي الاجتماعيــة تمامــا، ولم أعــش أبــدا، حيــاة غــير ملائمــة، ولا أشــعر بــالخجل مــن انفتــاح علاقـــاتي الاجتماعيـة المتنوعــة.

"وبوصفـي رئيسـا لجـهاز الأمـن العـام، فـإنني أقــوم بتنفيــذ مـا هــو ملقــى علــى كـاهلي، وأتحمـل المسـؤولية الثقيلـة بأمانـة ومنطقيـة وإخـلاص، والنتـائج الـتي أســفر عنــها عملـي أمـامكم: لا تحتـاج إلى تنويـه مـني.

"إن أشد ما يؤلمني، هو أن شخصيات من الجهاز، وممن أنا رئيسها، تحاول إلحاق الأذى بي، بصورة شخصية، دون أي وجه حق أو أساس من الصحة، انطلاقا من حوافز، لا أدريها، الأمر الذي يؤدي للمساس بالجهاز وعماله المخلصين".

استدعاني شامير، بعد فترة، وقال لي: إنه يصدقني تماما، بيد أنه يفضل أن تتحدث معي جهة حيادية حول الشكاوى-كي لا يقال إنني وهو، أنهينا الموضوع، في حديث على انفراد-واقترح اللواء احتياط رفائيل وردي-قائد القوات الإسرائيلية السابق في الضفة الغربية، فوافقنا على ذلك. وبعد عدة أيام، اتصل بي وردي، ودعاني إلى مكتبه. وهناك وجدته يجلس، وأمامه كومة ملفات حول كل قضية من الشكاوى الواردة في الرسالة، وقد بدأ استجوابي بصورة دقيقة ساعة بعد الأخرى، ويوما وراء الآخر. وأخذ يوجه إلي أسئلة تحمل جانب إهانة، فقد سألني مثلا: "لماذا اشتريت لرئيس جهاز الأمن العام البلجيكي، هدية بمبلغ (٣٢٠) شيكلا، ولم تشتر هدية أرخص؟؟" ولماذا أرسلت ورودا بمبلغ مائة شيكل لمراقبة الدولة؟؟ وبمائة وعشرين شيكل للقاضي لندوي، عندما حصل الاثنان على جائزة إسرائيل؟؟ ولماذا كان يجب إنفاق مبلغ (١٢٥٠) شيكل في الحفلة التي أقمتها لوفد وكالة المخابرات المركزية-وألف شيكل في الاستقبال الذي أقمته لمديرة رفيعة المستوى في إحدى أجهزة الأمن الأوروبية والتي زارتنا هنا؟؟

أثـارت هـذه الأسـئلة ثـائرتي، وقـررت تقديـم اسـتقالتي، وقـد حـاول صديقـي المحـامي (ورعـي سلوني) إثنـائي عـن عزمـي، بعـدم اتخـاذ مثـل هـذه الخطـوة الخطـيرة، واقـترح علـي أن أتحـدث أولا مـع رئيـس الحكومـة، وأنـا شـديد التـأثر، وقلـت لـه: "لا يوجد لـدي وصف أصـف بـه مـا أتعـرض لـه سـوى أنـه عمليـة تعذيـب وتنكيـل، ولست علـى استعداد للتحمـل أكـثر مـن ذلـك".

شـعرت بالإهانـة مـن أسـلوب معالجـة رئيـس الحكومـة للقضيـة، وحـدث لـدي انطبـاع، بـأن القضيـة لا تهمـه مـن قريـب أو بعيـد، ولم يبـد متضايقـا مثلمـا توقعـت، ولم يحدث لـدي انطبـاع، بأنـه يـدرك عمـق الضـرر الـذي يلحقـه بالجـهاز وبـي جـراء هـذه التـهم الباطلـة.

عرضـت التـهم الموجهـة إلي، خـلال جلسـة قيـادة جـهاز الأمـن العـام، وبـدت الأجواء عكرة للغاية، وهـو الأمـر الـذي أثـار كـآبتي أكـثر مـن ذي قبـل.

وعندمـا قـدم وردي ملـف الاسـتجواب إلى رئيـس الحكومـة، اسـتدعاني شـامير، ورفـض إطلاعـي علـى الملـف، بيـد أنـه قـال لي بوجـه بـاش: "كـل مـا أسـتطيع أن أقولـه لـك، هو "أن كل شـيء علـى مـا يـرام".

لم تخـف علـى وسـائل الإعـلام الإسـرائيلية قضيـة التحقيـق معـي، وكتبـت جريـدة (دافـار): "بـأمر مـن رئيـس الحكومـة يجـري التحقيـق مـع رئيـس الجـهاز بمخالفـات إداريـة ومخالفات تتعلـق بالنزاهـة".

وفي نفس اليـوم، كتبـت جريـدة معـاريف: "لقـد نقـل وردي انطباعـات إيجابيـة لشـامير". وفي صبيحـة اليـوم التـالي، عقـدت جلسة عاديـة لهيئـة جـهاز الأمـن العام لمناقشـة سلسـلة مـن القضايـا، وقـد استهللت الحديث بـالقول: "إنـني أعـتزم التعقيـب علـى موجـة

النشر الأخيرة، إن أولئك الأشخاص، من أوساطنا، الذين لم ترضهم نتائج التحقيق الإيجابية–وأقصد الأشخاص في هيئة الجهاز، قرروا السير خطوة أخرى إلى الأمام، ويبدو أنها خطوة ليست نهائية، في سعيهم البشع والكاذب ضد الجهاز بصورة خاصة وضدي، وقد قاموا بتسريب مسألة التحقيق إلى وسائل الإعلام، لقد حافظت على صمتي حتى نشرت وسائل الإعلام ما نشرت، ولم يكن صمتي من موقف ضعف، بل من خلال رغبة حقيقية في الحفاظ على معنويات الجهاز وبالتالي قوته وإنجازاته المهنية، إن أولئك الذين بادروا إلى نشر ما نشر، وفرضوا التحقيق، لا يرون في الجهاز قيمة مقدسة ومهمة، بل إنهم يعتبرونه مجرد (كيس) ملاكمة، ومكانا للمؤامرات التي لم ولن تنجح أبدا.

إنني أشجب وأحتقر، بكل شدة، هذه الظاهرة البشعة والمخزية، والمساس بالجهاز بصورة عامة، وبي بصورة خاصة، وعملية الإعلان والنشر الهادفة، التي ستمس في نهاية المطاف بالجهاز وبعماله، وبأمن دولة إسرائيل.

وإنني أعتزم عقد اجتماع، في غضون الأيام القليلة القادمة، لرؤساء الأقسام ورؤساء الشعب وأملي عليهم بياني الخاص، كي يعلم به جميع عمال الجهاز، وأنا أحظر على جميع المتواجدين هنا أن يوضحوا أو يردوا على تساؤلات العمال بهذا الصدد، ولست أعتزم هنا الإفصاح عن الخطوات التي أعتزم اتخاذها، بيد أنني أؤكد بأنني سأواصل قيادة الجهاز بمنطقية وبمنتهى الحرص والشدة وبمنتهى الإخلاص".

ثقافة وتفكير إبداعي

رغم الأضرار التي لحقت بصورة الجهاز في أعقاب قضية الحافلة ٣٠٠. فقد اكتشفت حينما تسلمت رئاسة الجهاز أن عدد الراغبين في الانضمام إلينا لم يتراجع

عما كـان عليـه في السـابق، لقـد كـان عـدد الراغبـين بالالتحـاق بالجـهاز دائمـا كبـيرا، ولم يكـن المقـابل النقـدي هـو الـذي يدفعـهم، رغـم أن أجـور عمـال الجـهاز أعلـى مـن الأجـور في الوظـائف الوزاريـة المشـابهة، إضافـة إلى العديـد مـن المزايـا، ومـن ضمنـها سـيارة وإجـازات عديـدة، كمـا أن الأشـخاص الذيـن خدمـوا في الجـهاز يسـتطيعون الحصـول علـى وظـائف أفضل بكثـير، فيمـا بعـد، في القطـاع المدنـي.

إن أشـد مـا كـان يجـذب هـؤلاء الشبان هـو الهالـة الغامضـة المحيطـة بالجـهاز، والأسـرار الكامنـة خلـف المـهام السـرية، والوصـول إلى مجـالات حساسـة إلى حـد كبـير.

وهنـاك مـن بـين الذيـن يتقدمـون إلينـا مـن نسـميهم (مرضـى مخـابرات)، وهـم الأشـخاص الذيـن حلمـوا منـذ نعومـة إظفـارهم بـأن يعملـوا في مجـال المخـابرات، وهـؤلاء الأشـخاص يتجـاوزون بخيـالهم حـدود المنطـق والواقـع، وقـد يعمـدون إلى كتابـة تقـارير تبـدو وكأنـها الحقيقـة، وقـد عمدنـا في كـل مـرة، نكتشـف مثـل هـؤلاء الأشـخاص، إلى رفضهم.

وعمليـة التشخيص للمرشحين تستغرق حـوالي سـتة أشـهر، وفي نهايـة المطـاف يتم اسـتيعاب قلـة قليلـة فقـط، فمـن خـلال مائـة مرشـح قـد نقبـل ثلاثـة أو أربعـة أشـخاص، وأول الشـروط الـتي نطلبـها مـن المرشـحين هـي نسـبة ثقافـة عاليـة، وفي الكثـير مـن الأحيـان، مـا وضعنـا مستوى أكاديميـا معينـا للقبـول للمحققين وعمـال الجـهاز، بيـد أننـا توصلنـا في نهايـة المطـاف، إلى أن المرتبـة الأكاديميـة، لا تكـون بـالضرورة شـرطا للثقافـة العالية. وألغينـا هـذا الشـرط.

فالثقافـة، يمكـن أن تـبرز في طبيعـة عملـه الشـخصي، في العديـد مـن المناسـبات ومـن ضمنـها قدرتـه علـى قـراءة مـا بـين السـطور، وطـرح الأسـئلة الصحيحـة، وتقديـر الغـث

من السمين، واختلاف الحلول في الأوضاع غير المتوقعة، وعدم قبول الأمور كما هي عليه.

تعتبر الذاكرة الجيدة، خصلة حيوية جدا بالنسبة لعمال الجهاز، ففي حال تلقيه تقريرا ميدانيا خطرا، يجب عليه أن يكون مؤهلا لتذكر جميع التفاصيل من التقارير السابقة كي يجري مقارنة واكتشاف التناقضات القائمة أو عدم الدقة فيها.

وعامل الجهاز، بحاجة أيضا إلى نضوج نفسي، وأن يتمتع بشخصية مكتملة متزنة وليست عفوية أكثر مما ينبغي، لقد تساءلنا في الكثير من الأحيان عما إذا كنا لا نقبل مرشحين للجهاز شبانا وصغار سن؟؟ لقد حاولنا تحديد الحد الأدنى من العمر الذي يمكننا قبوله، بيد أننا لم ننجح في التوصل إلى قرار، لقد تعلمنا من التجربة، أن العمر ليس شرطا دائما للدلالة على مدى نضج المرشح.

فقد قابلت في حياتي العديد من عمال الجهاز في العشرينات من العمر، ممن لا يقلون في قدرتهم عن عمال الجهاز كبار السن.

الاستقامة الشخصية ومستوى المصداقية هي خصال ذات أهمية كبيرة جدا. فهي تؤدي إلى تقليص المخاوف من قيام عامل الجهاز بتزييف التقارير التي تصل إليه والتقارير التي يرسلها للجهاز بنفسه، وأنا أعترف أنني اصطدمت خلال فترة خدمتي، بعدة حالات من هذا القبيل.

وهناك اختبار آخر لعامل الجهاز، وهو قدرته على تحمل الضغوط. ففي أعقاب وقوع العمليات مثلا. وما يتلوها من حالات الهيجان والهستيريا وفقدان رباطة الجأش، سيتوجب على محقق الجهاز أن يحافظ على اتزانه وبرود أعصابه، وأن يظل موضوعيا. ويبعد عن نفسه أية ردود فعل حسية.

أمـا التفكـير الخـلاق والإبداعـي، فيعتـبر ذخـرا كبـيرا جـدا، فعندمــا يقــول عميــل أنــه لا يوجـد لديـه أي معلومـات، فـإن بمقـدور عـامل الجـهاز الجيـد، أن يخلـق لـه مجــالات عمـل، ويختلـق الأسـاليب اللازمـة لتفعيلـه بكفـاءة عاليـة، فــهو يسـتطيع أن يسـأله مثــلا: كيـف يذهـب إلى عملـه وكيـف يعـود منـه؟؟ ولنفـترض أن العميـل سيقول لـه أنــه يذهـب إلى العمـل ويعـود منـه بسيارة تجاريـة صغـيرة، ملــك لجــار لــه، حينــها سـيقول لــه عــامل الجـهاز الجيـد أن عليـه السـفر في الحافلــة، ويــترجل في طريقــه في مقــهى ويجلــس بعــض الوقت، ويصغي لمــا يقـال مـن الجالسـين هنـاك.

وإذا مـا تم إرسـال عميـل آخـر مثـلا لإقامـة علاقـة مـع شـخص مـا، يعتقـد الجــهاز أن بحوزتـه معلومـات مهمـة، ولنفـترض أن العميــل سـيعود إلى عــامل الجــهاز ويــروي لــه أنــه لم ينجـح في إقامـة هـذه العلاقـة، وعـامل الجــهاز المبـدع لا يكتفــي بذلــك، بــل سيســأل العميــل: هـل لديـه قواسـم مشـتركة مـع العميـل في هــذا المجــال أو ذاك؟ فلربمــا أن الاثنــين يجلبـان زيتــهما إلى معصـرة واحـدة، ولا شــك أن رد العميــل قـد يوفـر فكـرة أو رأس خيــط جديــدا.

إن أحـد الأخطـار الكامنـة لعـامل الجـهاز في الطريــق، هــو ميلــه الطبيعــي للدفــاع عـن عملائـه إذا مـا اتضـح أن تقـاريرهم أو قسـما منــها غـير صحيـح، ويجــب أن نــدرك، أن كـثرة اللقـاءات بـين عـامل الجـهاز والعميـل، تـؤدي إلى إقامـة علاقـات وديــة بينــهما، فمـن المـألوف أن تبـدأ اللقــاءات-مثلمــا هــي العــادة في الشـرق الأوسـط-بحديـث حـول أحوالــه الشـخصية وحـول عائلتــه وصحتــه ووضعــه الاقتصــادي وهكــذا يتعــرف الاثنــان، بمـرور الأيـام، أحدهمـا علـى الآخـر جيـدا، فـإذا مـا علـم العـامل أن عميلـه ضلـل الجــهاز، فـإن أول

ما سيتبادر إلى ذهنه هو الدفاع عنه، لأن تسليمه بالتضليل، يعني أنه سلم بالفشل، والإحساس بأن جميع مظاهر الصداقة والود التي كان العميل يبديها كانت خدعة.

ومن الجدير بالذكر، أن عامل الجهاز الميداني هو في حقيقة الأمر (ذئب وحيد)، بيد أن عليه أن ينمي لديه قدرة العمل الجماعي نظرا لأنه يضطر في الكثير من الأحيان للاستعانة بزملائه، وبالجهات التي تشرف على التقارير التي يعدها، بل إن طبيعة الجهاز المغلقة ذات المخاطرة العالية، تحتم عليه أن ينمي علاقات حميمة مع أعضاء الجهاز الآخرين، إن روحية العمل الجماعي، والتعاون المتبادل، والإخلاص في العمل هي عوامل رئيسية في شروط العمل الخاصة في الجهاز.

ولبلورة هذه القدرة، وكفاءات أخرى، عمد الجهاز إلى تشكيل أجهزة تقدير. يقوم خلالها خبراء بتطوير العلاقات بين المحققين وعمال الجهاز الميدانيين، وتطوير قدرة التحمل والإقناع لديهم، وإظهار قدرة على صعيد الصلاحيات، فالعامل الذي تتناقص صلاحياته، يفقد، إلى حد كبير، قدراته على العمل، وتدني مكانته لدى العميل وتجعله لا يبذل جهدا كي يحوز رضاه مثلما كان يفعل في السابق، وليس من المستبعد أن يمارس عليه ضغوطا كي يمنحه مميزات واسعة.

وهناك مطالب أخرى، يجب على العامل أن يتحلى بها، مثل قدرة التواجد في بيئة معادية، وقدرة فنية على تفعيل تجهيزات فنية للغاية، وقدرة على تشخيص العوامل الحاسمة ميدانيا، وفطنة تمكنه من اكتشاف الخدع والأحابيل، وكل ما أوردناه ما هو سوى قائمة جزئية.

والأعمال التي يقومون بها، تلزمهم بالتكيف بصورة تجعلهم ينخرطون في أوساط الجماهير في بعض الحالات، دون إثارة الشكوك، الأمر الذي يجعل المظهر

الخارجي للعامل، مسألة حاسمة جدا، وأعني بذلك، الأشخاص طويلي القامة جدا، أو قصارها جدا، أو الملتحين أو ذوي الشعر الطويل، وذوي الوجوه البيضاء أو السوداء بصورة ظاهرة.

لقد ازداد عدد العاملات في أوساط الجهاز في الآونة الأخيرة زيادة كبيرة، ويمكننا أن نعثر على الكثير من النساء في الشعب التنفيذية حيث يمارسن هناك أدوارا فعالة، في العديد من المهام الملقاة على عاتق الرجال، بيد أن الغالبية العظمى منهن، تمارس أدوارا إدارية في الجهاز بنجاح كبير، وعندما أنهيت عملي في الجهاز، كانت هناك أربع نسوة تعملن كرئيسات أقسام، وقمت بترفيع واحدة أخرى متميزة، قبل مغادرتي لمكتبي، إلى رتبة رئيسة قسم، وعضو في قيادة الجهاز.

والطموح هو ميزة مرغوبة جدا في أوساط العاملين والعاملات في الجهاز، وقد تمكنت من اكتشاف أولئك الراغبين في قبول التحديات والتقدم وإحراز الإنجازات، بسهولة.

إن أهم العوامل التي يجب أن تتوفر في عامل الجهاز، هي أن يكون صهيونيا، ولا شك أن الكثيرين سيرفعون حواجبهم تعجبا، وسيقول آخرون إن الصهيونية أصبحت إطارا باليا، حيث لا يمكن أن يكون الشخص صهيونيا دون أن يعتبر الدولة كذخر شخصي حساس، يجب الحفاظ عليه من أي أضرار أو أذى، وهذه هي حقا مشاعر جميع العاملين في الجهاز، وأعتقد أنه يستحيل القيام بهذا العمل.

وعندما تسلمت عملي كرئيس للجهاز، كان الجهاز جريحا، يئن تحت آثار قضية (الحافلة ٣٠٠) وقد حزمت أمري على تخليصه وإخراجه من هذه الأزمة الصعبة، وكان علي، أولا، أن اتخذ الخطوات اللازمة لرفع معنويات أعضاء الجهاز

المتدنية، وإعادة الثقة بين عمال الجهاز وقادتهم، وترميم العلاقة بين الجهاز والجهاز القضائي.

ومنذ اليوم الأول لتولي منصبي سلكت سياسة الباب المفتوح، والتي انتهجتها في جميع وظائفي السابقة، أي أنه كان بمقدور كل عامل من عمال الجهاز-بعد إعلام قادته-التوجه إلي في أي شأن يشاء.

أثرت العديد من التطورات الخارجية، بصورة كبيرة، على عملية ترميم الجهاز، ووضعت العديد من الصعوبات في طريقها، فقد أخذت قوة حركة "حماس"، والجهاد الإسلامي تتصاعد بسرعة، بدءا من تصعيد العمليات، وتدفق العملاء السوفيت، مع بدء الهجرة الكبيرة من دول الاتحاد السوفيتي السابق، وقد تطلب كل ذلك، تخصيص موارد هائلة، وتدخلي طيلة ساعات النهار والليل في العمل.

واجهت عشية تسلمي مهام عملي مشكلة: هل يجب علي أن أعين نائبا لرئيس الجهاز أم أن من الأفضل، إرجاء التعيين لموعد آخر؟؟

كنت أدرك أن تعيين الإنسان المناسب في هذا المنصب، يمكن أن يخفف العبء عني، بحيث يحمل قسما منه، بيد أن الوضع الصعب الذي كان يعيشه الجهاز، جعلني أتردد نظرا لأن مثل هذا التعيين، في هذا الوقت، سيثير ضجة في أوساط كبار مسؤولي الجهاز، ويعيق عملية الترميم، التي باتت ضرورية للغاية.

وقد اخترت الخيار الثاني، وسرعان ما أدركت مدى صعوبة ذلك، حيث بدأت أواجه ضغوطا شديدة من الشخصيات، التي اعتبرت نفسها مرشحة طبيعية لهذا المنصب مما أعاق عملية الترميم.

كانت هنـاك أيضـا مشـكلة الأشـخاص الذيـن تورطـوا في قضيـة (الحافلـة ٣٠٠) وعفـا عنـهم رئيـس الدولـة، والذيـن كـانوا يعيشـون شـعورا بالإحبـاط النفسـي، وأدركـت أنـه إذا مـا أرغمـوا علـى الاسـتقالة في الآونـة الحاليـة فسـوف يصعـب عليـهم الانخـراط في الحيـاة المدنيـة، لـذا قـررت إبقـاءهم، والسـماح لهـم بالـترقي داخـل الجـهاز.

وكذلـك فعلـت أيضـا تجـاه بعـض كبـار عمـال الجـهاز، القدامـى والأكـبر مـني سـنا، والذيـن لم ينظـروا بارتيـاح إلى تعييـني، ولم يتورعـوا عـن تدبـير المؤامـرات ضـدي، وسـرعان مـا ندمـت علـى هذيـن القراريـن، فقـد أسـهمت هاتـان الجـهتان في خلـق العديـد مـن المشـاكل لي فـترة طويلـة، وأخـص بـالذكر أيـهود يتـوم، الـذي كـان يعمـل رئيسـا لشـعبة العمليات، خـلال وقـوع قضيـة (الحافلـة ٣٠٠)، وحصـل علـى العفـو مـن رئيـس الدولـة.

فعندمـا عينـت رئيسـا للجـهاز، كـان هـو رئيسـا للشـعبة الإداريـة، وسـرعان مـا توتـرت العلاقـات بيننـا وخصوصـا، بعـد أن رفضـت طلبـه بتعيينـه نائبـا لي، نظـرا لأنـني لم أر فيـه شـخصا مناسـبا لهـذا المنصـب، وعرضـت عليـه أن يتوجـه لإكمـال دراسـته، ثـم يسـتقيل، لكنـه رفـض هـذا العـرض بشـدة، فأبقيتـه في الجـهاز رغـم العـداء الـذي كـان يكنـه لي، وأعتقـد أنـه لـو قبـل عرضـي آنـذاك، لتمكـن مـن خلـق مكانـة لنفسـه في الأوسـاط المدنيـة، فيما بعـد، ولجنـب نفسـه حالـة اليـأس والإحبـاط الـتي يعيشـها الآن.

كـان شـامير رئيسـا للحكومـة حينمـا توليـت رئاسـة الجـهاز، ووجـدت فيـه الكثـير مـن التفـهم لعملنـا، فقـد أكسـبه ماضيـه في "الموسـاد"، خلفيـة اسـتخبارية لا بـأس بـها، إضافـة إلى الـود الـذي يكنـه لنـا رغـم طبيعتـه الصلبـة والمنطويـة، ولهـذا السـبب، شـعرت بـالألم الشـديد جـراء تعاملـه مـع تقريـر وردي، وأعتقـد أن مسـلكيته في هـذه القضيـة، كـانت شـاذة.

ولم يكن شامير -على غرار شمعون بيرس- يبدي اهتماما بالحياة الشخصية للأشخاص الذين يتعاملون معه، فحينما رويت له ما أعانيه في حياتي الشخصية، هز كتفيه دون تعليق، بيد أنه كان قادرا-حينما يريد- على إبداء اهتمام كبير وحرارة. فعندما قام اثنان من العملاء بقتل ضابطي مخابرات في القدس. دعوته للتحدث مع ضباط المخابرات الميدانيين، فأبدى تأثرا شديدا، وشجعهم، ورفع معنوياتهم.

أربعة من أبناء العائلات

توصلت إلى استنتاج، منذ بدء تولي مهام رئاسة الجهاز، مفاده أن هناك ضرورة للانفتاح على وسائل الإعلام أكثر من رؤساء الجهاز السابقين. وآمنت بأن هذا الانفتاح، سيحمي الجهاز من الصحفيين، الذين يكتبون حوله كل ما يحلو لهم. نظرا لانعدام توفر معلومات تتعلق به، وأدركت أن المقالات غير المسؤولة التي كانت تكتب. تؤثر تأثيرا سلبيا. وتسهم في تدني معنويات عمال الجهاز المتدنية أصلا، وتمس بقدرتهم التنفيذية.

وقد منيت نفسي بتعيين ناطق باسم الجهاز، لكن سرعان ما أدركت استحالة ذلك. نظرا لأنه سيجد نفسه يرد. في الغالبية العظمى، من توجه وسائل الإعلام إليه بالقول: "لا يوجد لدي رد، أو لا أستطيع تقديم أي تفاصيل في هذه المرحلة"، فقد كانت مثل هذه الردود ستسهم في توتير علاقاتنا مع وسائل الإعلام. إضافة إلى أنها ستفتح الباب أمام التفسيرات الخاطئة وغير الدقيقة. وفي نفس الوقت كانت هناك أهمية لفتح قناة حوار. مع وسائل الإعلام في القضايا التي يمكن تقديم معلومات أولية حولها أو أكثر من ذلك. ولهذا السبب. قمت أنا بالاتصال بوسائل الإعلام، بصورة عامة. وكنت أنا المبادر إلى إجراء الاتصال.

لقد أثبتت قضية "طريق الشرارة" التي برزت خلال الفترة الأولى، من توليتي لرئاسة الجهاز: إلى أي حد كان من المهم للجهاز خلق قناة اتصال وحوار مع وسائل الإعلام.

والقضية المذكورة، تتعلق بمجموعة من النشطاء في منظمة يسارية متطرفة- قسم منهم مقربون إلى جماعة (متسين)، وكانت هذه المجموعة مغلقة على نفسها، وقد عملت بحذر بالغ، وشككت في كل من طلب الانضمام إليها.

ومن بين أعضاء هذه المجموعة، كان هناك أربعة أشخاص بارزون، وجميعهم في سنوات الثلاثينات من حياتهم: أساف أديب، الذي يعيش في كيبوتس جان شموئيل-وهو شقيق أيهود أديب الذين أدين في السابق بتهم أمنية خطيرة-وروني بن افرات، وهي معلمة وأم لطفلين، وقد تم إعفاؤها من وظيفتها، بعد أن قالت أمام طلبتها أن الصهيونية سلبت العرب، ويعقوب بن افرات زوج روني، وهو خريج معهد المعلمين، والوسط التاريخي في جامعة القدس، وميخل شفارتس، أرملة وأم لطفلين. وهي ابنة المؤرخ المعروف البروفيسور يهوشع أرئيلي.

وفي مطلع عام ١٩٨٤، توجه الأربعة إلى لندن لإقامة صلة مع الجبهة الديموقراطية، بزعامة نايف حواتمة، والتي تقيم مقرها في سورية، وتعتبر إحدى المنظمات الرافضة المتطرفة، فرجالها هم الذين نفذوا عملية (معالوت) عام ١٩٧٤.

التقى الأربعة مع صالح رأفت، رئيس جهاز العمليات للجبهة، وانضموا إلى الجبهة وحصلوا على أسماء حركية، فسمي أساف أديب (ناصر)، ويعقوب بن بورات (مجد) وروني بن بورات (ناجد) وميخل شفارتس (سالم)، وتم الاتفاق معهم بأن

يعملوا حال عودتهم إلى إسرائيل إلى إصدار صحيفة بتمويل من الجبهة، ويقيموا تنظيما سياسيا يهوديا عربيا.

وحال عودة الأربعة إلى إسرائيل، أسسوا هيئة أسموها "الشرارة للنشر" وشرعوا في إصدار جريدة باللغتين العربية والعبرية اسمها (طريق الشرارة)، وقد أطلق اسم الشرارة على الصحيفة تيمنا باسم الصحيفة التي أصدرها فلاديمير اميليتش ليبني (ايسكره)–والتي تعني "الشرارة"، مطلع القرن الحالي، أما التمويل والتوجيهات، فقد وصلت من الخارج بواسطة رسل، ويقول الأربعة، أنهم نجحوا في تجنيد ١٥٠٠ مشترك للطبعة العربية و ٢٥٠ مشتركا للطبعة العبرية.

بدأت المعلومات حول العلاقة التي أقامها الأربعة تتجمع، لدى الجهاز ببطء، نظرا لصعوبة استقاء المعلومات من وسطهم، وقد استغرقتنا متابعة هذه القضية، أربع سنوات قبل أن تتوفر لدينا المعلومات الكافية للبدء بالعمل ضدهم.

بدأنا العمل بخطوة إدارية، حيث قام مسؤول لواء القدس في وزارة الداخلية الياهو سويسه، بإلغاء تصريح الصحيفة بحكم صلاحياته، ثم بدأت الاعتقالات، وكان أول المعتقلين، صحفي عربي من طاقم طريق الشرارة، وقد عمد طاقم الصحيفة إلى إصدارها تحت عنوان "على الرغم من ذلك" كطبعة وحيدة لا تحتاج إلى تصريح، ثم أخذت تصدر كراسات ومنشورات مختلفة، تدعو إلى الثورة العربية، والدعم اليهودي للنضال، فعمدنا إلى اعتقال طاقم تحرير الجريدة، وطاقم المنشورات المعادية.

وقد سارعت المحامية فليتسيا لانغر، إلى تقديم شكوى إلى مكتب رئيس الحكومة، تفيد بأن جهاز الأمن العام، استخدم وسائل غير مقبولة، في التحقيق مع

المعتقلين، وأن المحققين أحضروا أمامهم عربيا، وهددوهم بمواصلة تعذيبه، وإذلاله، حتى يعترفوا بالتهم المنسوبة إليهم.

وعندما قدمت لائحة الاتهام ضد الأربعة، نشرت وسائل الإعلام بتوسع، أقوالهم، حول وسائل التعذيب التي مورست ضدهم جسديا ونفسيا، وعلى عمليات الإذلال الجنسية، وقد أدى هذا النشر إلى ولادة موجة رسائل ومقالات تشجب الجهاز، وقد أكثر البروفيسور يهودا بائوار-المؤرخ المعروف-من الكتابة حول القضية، وتساءل في إحدى مقالاته: كيف يستطيع محققو جهاز الأمن العام النوم ليلا، في أعقاب ممارسات التعذيب التي يقومون بها، في الزنازين المظلمة؟؟

وقد رد عليه بمقالة معارضة مدير عام بلدية تل أبيب، بنحاس لاهب، قائلا: "إن رجال جهاز الأمن حقا، لاينامون ليلا، ليس لأن ضمائرهم مثقلة، بل لأنهم يحرسون مواطني إسرائيل ويتيحون لهم الفرصة للنوم، بهدوء وأمان".

كنت في تلك الآونة، أسكن في شقة في عمارة في القدس يسكن فيها البروفيسور يهوشع أرئيلي-والد ميخل شفارتس، وكنا نتقابل أحيانا في المصعد، ونتبادل تحية مجاملة، ولم يكن هو أو أحد من سكان العمارة، يعرفون طبيعة عملي، وحينما كنت أسأل في بعض الأحيان. كنت أقول أنني موظف حكومي.

وكانت ردودي القصيرة تحول دون مواصلة توجيه الأسئلة لي.

وفي الثالث عشر من حزيران ١٩٨٨، قررت المحكمة إطلاق سراح ثلاثة من الأربعة بالكفالة، نظرا لاقتناعها، بأن اعترافاتهم أخذت منهم بطرق غير مشروعة، وقد سارعت النيابة، إلى تقديم استئناف إلى المحكمة العليا، التي قبلته، وأعلن القاضي في قراره: بدلا من أن تقيم الدولة الديموقراطية جهازا ينص على توقيف أولئك

الذين يدمرون جسم الدولة وأنفاسها حتى نهاية التحقيق، فإن من الأولى أن تستخدم الدولة هذا الجهاز، ضد أولئك الذين يقدمون المساعدة لاجتثاث هذا الجسم والروح في آن واحد".

أعيد الثلاثة إلى المعتقل، فأعلنوا الإضراب عن الطعام، وسارع بروفيسورات في جامعة تل أبيب إلى نشر بيان شجبوا فيه قرار قاضي المحكمة العليا. وأخذت الصحف تنشر أنباء تصف المعتقلين فيها، كمعتقلين مثقفين، من عائلات جيدة. وأعرب كتاب المقالات عن دهشتهم واستغرابهم للاعتقال والتحقيق، وألصقوا بجهاز الأمن العام، لقب "المنتقم"، في الوقت الذي عمدت فيه المحامية "فليتسيا لانغر" إلى تقديم الاحتجاجات المتواصلة حول المحاولات التي تجري لكسر شوكة المعتقلين جسمانيا ونفسيا بغية تقديمهم إلى المحاكمة وهم أشباه أشياء".

أخذت الانتقادات والاحتجاجات تتزايد يوما بعد يوم. بينما رجال جهاز الأمن العام–الذين كان يحظر عليهم الإدلاء بأي معلومات تكشف الحقيقة. يحترقون غيظا.

اعتقدت آنذاك، أن الوضع مناسب جدا لتنفيذ قراري الخاص بالتحدث مع وسائل الإعلام. طالما أن الوضع بات حيويا لذلك.

توجهت إلى رئيس الحكومة، واقترحت أن أمثل أمام لجنة المحررين الموسعة. التي تضم رؤساء التحرير. وأروي لهم الحقيقة كلها. وأوضحت له أن وسائل الإعلام ليست على علم بخطورة المعطيات الاستخبارية الموجودة بحوزتنا. بل ولا توجد لديها أي فكرة حول ماهية التحقيق.

منحني شامير موافقته دون أدنى تردد، فطلبت من اللجنة الانعقاد، وقمت طيلة ساعتين بإيضاح الأمر برمته، وأوضحت مدى خطورة قيام شبان إسرائيليين من عائلات جيدة، ومعروفة، بمبادرة ذاتية كي يصبحوا أداة في أيدي إحدى أقسى المنظمات، التي تضع نصب عينيها تدمير دولة إسرائيل.

ولم أحاول تجميل الوقائع. وقلت: "لقد منعنا عنهم حقا في حالات معينة النوم. وحقا وضعناهم في زنازين معزولة، وهذا ليس لطيفا، وحقا، إنه كان عليهم مواجهة محققين يعرفون أكثر بكثير مما يعتقد المحقق معهم، بيد أننا نتعامل مع مجموعة من الأشخاص تستحق ممارساتهم الشجب والإدانة".

رفع معنويات الجهاز

قلت: "لقد قامت هذه المجموعة باستغلالكم، واستغلال طيبتكم، وعدم معرفتكم بتفاصيل القضية، استغلالا واسعا، وقد وقعتم في المصيدة".

طرح المحررون أسئلة، فأجبت عنها بصراحة تامة، وأوضحت أن هذه الجلسة تعتبر مغلقة، ويحظر نشر أي شيء مما سيدور فيها بل حتى نشر أي شيء حول عقدها، وسرعان ما جاءت النتائج واضحة، وتوقفت الحملات الصحفية، باستثناء مجلة (هعولام هزية)-هذا العالم- التي لم يكن محررها أوري أفنيري عضوا في لجنة المحررين-واصلت حملاتها علينا.

وفي المقالة الافتتاحية لأحد إعدادها كتب أفنيري قائلا: "إن جهاز الأمن العام، رشى المحررين بتزويدهم بمعلومات لم يكونوا يعرفونها، ومثل هذا الوضع يعتبر خنوعا من وسائل الإعلام الحرة للجهاز".

لقد زعم محامو المتهمين خلال الجلسات في المحكمة، أن صلة الأربعة جرت مع الجناح الإعلامي السياسي للجبهة الشعبية، وليس مع الجناح العسكري، وأن هدفهم لم يكن تدمير الدولة، بل تغيير النظام القائم بنظام مساواة ماركسي، وقد تم عقد صفقة بين النيابة العامة، ومحامي المتهمين، أزيل خلالها بند "الاتصال بعميل أجنبي" مقابل موافقة المتهمين على الاعتراف بالتهم الأخرى المنسوبة إليهم، ومن ضمنها العضوية في منظمة معادية.

وفي الخامس والعشرين من كانون الثاني ١٩٨٩ أصدرت المحكمة اللوائية في القدس حكمها على الأربعة بالسجن لفترات تتراوح بين تسعة أشهر حتى ثلاثين شهرا.

لقد نجح جهاز الأمن العام، في هذه القضية، في تصفية (مركز زنابير) الذي كان مرشحا بأن يتوسع ويلحق أضرارا جسيمة بالدولة، كما أثبتت مدى أهمية وجود قناة اتصال بين الجهاز ووسائل الإعلام.

أحرزنا في تلك الآونة، إنجازا آخر، ورغم أنه كان صغيرا، إلا أن تأثيره على صعيد رفع معنويات أعضاء الجهاز كان كبيرا جدا، فقد نجحت في إقناع الناطقين باسم الجهاز الأمني بتغيير نمطهم، وبدلا من الإعلان عن كل مهمة ناجحة بأنها نفذت بأيدي أذرعة الأمن، أن يقولوا صراحة أن جهاز الأمن العام: "كشف، أوقف، منع ،أحبط". ومنذ تلك اللحظة أصبحت إنجازات الجهاز معروفة، مما جعل رجاله فخورين بذلك.

كان تعرض جهاز الأمن العام لوسائل الإعلام والنشر عنه في بعض الحالات. مسألة يستحيل وقفها. بيد أننا سرعان ما اكتشفنا أن فتح الباب أمام العاصفة. قد يجعل من الصعب. في الكثير من الأحيان، إغلاقه. فقد ازداد نهم وسائل الإعلام لتقصي أخبار الجهاز. فقد كانت المعلومات والمادة التي تنشر بهذا الصدد. مسألة جذابة. تشد القراء.

لقد سارعت وسائل الإعلام إلى الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة من ممارسات الجهاز. حتى عندما يكون الأمر صغيرا أو هامشيا. بل إنها لم تتورع عن تحويل حياتي الشخصية إلى موضوع للتحقيقات الصحفية والمقالات وكذلك حياة مسؤولين

رفيعي المستوى في الجهاز، وليس أدل على ذلك من الرواية التالية التي ضخمتها وحولتها إلى رواية الموسم.

"قدمت الصحفية (كراميلا منشه) شكوى إلي قالت فيها أن رئيس مكتبي (أ) يضايقها ويلاحقها هاتفيا بالتهديدات، وكنت أعرف أن صديقة رئيس مكتبي، كانت قد تطلقت، قبل ذلك، من صديق كراميلا منشه، وأن هناك نزاعا بين الزوجين حول الأولاد. بيد أن كراميلا منشه ادعت أن الأمر هو استغلال لمنصبه الشخصي نظرا لأنه استخدم في اتصالاته هاتفه الخلوي، الذي منحه له الجهاز، وقدمت شكوى إلى مراقب الجهاز، قالت فيها: إن (أ) هو الذي قبل صديقته للعمل في الجهاز، كل ذلك إضافة إلى شكويين أخريين قالت فيهما: إن (أ) قدم لأحد الضباط في الجيش الإسرائيلي في أحد اتصالاته، معلومات سرية، وأنه كان يسير بسيارة الجهاز في بلدة (كوخاب يائير) مشعلا الضوء الأزرق الذي تستخدمه سيارات الشرطة، وهو الأمر الذي لا يستخدم إلا في حالا الطوارئ، رغم أن (أ) روى رواية مغايرة.

أشارت وسائل الإعلام، في البداية: إلى هذه القضية بصورة مقتضبة، بيد أنها سرعان ما أخذت تتوسع فيها، مما حدا برئيس الحكومة، اسحق شامير، للتدخل: وقد قبل اقتراحي، وقرر نقل التحقيق في القضية من أيدي مراقب الجهاز، إلى جهة خارجية. وألقيت المهمة على رئيس شعبة التحقيقات في القيادة القطرية للشرطة يهوشع كسبي. وفي نهاية المطاف، اتضح أن الأمر لا يعدو كونه زوبعة في فنجان، بيد أنه لم يكن أمامنا مناص من التعامل مع نتائج تحقيقات كسبي. بمنتهى الجدية. بغية وقف الحملة الصحفية ضدنا: فتم نقل رئيس المكتب إلى وظيفة أخرى تتلاءم مع

وظيفتـه في مجـال الحمايـة، ثـم رقـي فيمـا بعـد إلى رئيـس الشـعبة اليهوديـة، وقـام بعمـل ممتـاز.

فكـرت زمنـا طويـلا في إزالـة السرية المفروضـة علـى اسـم رئيـس الجـهاز، معتقـدا بـأن هـذه الخطـة ستسهم في تحسين وضـع الجـهاز، نظـرا لأنـها ستتيح لـه فرصـة الـرد بالصورة المناسـبة علـى مـا ينشـر ضـده، كمـا أن مـن الأهميـة بمكـان، أن يتـم إعـلام الجماهير بإنجـازات الجـهاز وبالمشـاكل الـتي يصطـدم بـها، أضـف إلى ذلـك، أن رئيـس الجـهاز، يكـثر مـن السـفر إلى الخـارج، واسمـه بـات معروفـا في العديـد مـن الـدول باستثناء إسـرائيل، وكـانت وسـائل الإعـلام الإسـرائيلية تلمـح إلى اسمـي بـين الفينـة والأخـرى، وتحتفـل، كـل مرة، تفلت فيـها هـذه الإلماحـات مـن مقـص الرقيـب.

فكـرت أن مـن الضـروري وضـع حـد لهـذا الوضـع، وأن يصبـح اسـم رئيـس الجـهاز معروفـا للجميـع، خصوصـا وأن هـذا الوضـع، مقبـول، منـذ زمـن بعيـد، في العديـد مـن الـدول الغربيـة، وحـاولت إقنـاع الجـهات المسؤولة، بعـدم وجـود سـبب يحـول دون حـدوث ذلـك لدينـا أيضـا، بيـد أنـني وجـدت نفسـي، في نهايـة المطـاف، أعـارض نفسـي الكشـف عـن اسـم رئيـس الجـهاز.

وفي الثـاني والعشـرين مـن آذار ١٩٩٤، أجـرى الحاخـام (عـوزي مشـولم) مقابلـة مـع إذاعـة الجيـش الإسـرائيلي، وفجـأة ذكـر اسمـي بوصفـي رئيسـا للجـهاز، ورغـم أن البـث قطـع فـورا، إلا أن الجميـع التقـط الاسـم، وقـد سـارع عضـو الكنيسـت مـودي زندبـيرج. بالتوجـه إلى رئيـس الحكومـة اسحق رابـين بطلـب للسـماح بـالإعلان عـن أسمـاء رئيسـي "الموسـاد" وجـهاز الأمـن العـام، علـى غـرار مـا هـو متبـع في جميـع الـدول الغربيـة، بيـد أن هـذا الطلـب-الـذي لم يكـن الأول مـن نوعـه مـن زندبـيرج-ووجـه بمعارضـة شـديدة لـدى

رئيس "الموساد" السابق تسفي زمير، وناحوم أدموني، ورئيس شعبة الاستخبارات العسكرية السابق شلومو جازيت، ورئيس "الموساد" في تلك الآونة، "شبتاي شبيط" وشخصيات أخرى ذات خلفيات أمنية، والذين كانوا يتمسكون بالتوجهات التقليدية المحافظة بهذا الصدد.

كتبت إحدى الصحف المحلية في تلك الآونة مقالة ذكرت فيها اسمي، بيد أن الرقابة شطبت الاسم، مما حدا بالصحيفة للتوجه إلى محكمة العدل العليا، وقد طلب مني أن أكتب ردا جوابيا على الالتماس، وحينما قرأت الالتماس والأسباب التي أوردتها الصحيفة لذكر اسمي ثرت غضبا، حيث جاء فيها: "إنني أعزف على البوق، وأظهر في الحفلات، وهناك أبناء أقليات يعرفون اسمي" وما شابه ذلك. وقد اضطرني ذلك لمعارضة الإعلان عن اسمي بشدة رغم موقفي المعروف، وفي نهاية المطاف أزيلت هذه القضية من جداول الأعمال.

استبدال العميل الروسي في برلين

اعتبرت الأجهزة الأمنية التابعة للاتحاد السوفيتي السابق والدول التي تدور في فلكه، إسرائيل دائما وأبدا، هدفا استخباريا مهما، ولم يكن العامل السياسي الجغرافي، هو السبب الوحيد لذلك، بل أيضا رغبة الاتحاد السوفيتي في أن يصبح عاملا مهما في الشرق الأوسط، والاهتمام بالإنجازات التكنولوجية الإسرائيلية، والإيمان بتأثير اليهود على المسارات السياسية في العالم، أضف إلى ذلك، أن إسرائيل كانت تستخدم كمحطة عبور للعملاء الذين تم إعدادهم للعمل في الدول الغربية الأخرى، وكان جهاز المخابرات السوفيتي، يعمل على إتاحة الفرصة لهم للتأقلم في إسرائيل، والحصول على مواطنتها، قبل الانتقال إلى الأهداف النهائية المحددة لهم، حيث

يصبح من الأسهل عليهم هناك العمل كإسرائيليين سابقين من كونهم مواطنين سوفيت سابقين.

لقد استخدمت موجات الهجرة من دول أوروبا الشرقية، منذ عام ١٩٤٨، كوسيلة فعالة لزرع العملاء في إسرائيل، لقد طورت المخابرات السوفيتية جهازا فعالا، قام بجمع المعلومات الخاصة بالمواطنين في أوروبا الشرقية، وخصوصا أبناء الأقليات العرقية، ومن خلال هذه القوائم، تم تحديد اليهود الذين جندوا كمتعاونين، وقد كلفوا بجمع معلومات حول جميع المسائل الأمنية والاقتصادية والفكرية في الأوساط التي يعيشون فيها، أما الأكفاء من بينهم، فقد عملت المخابرات السوفيتية على تجنيدهم للقيام بأدوار تجسس في إسرائيل، وأرسلت غالبيتهم إلى هنا تحت غطاء مهاجرين جدد، كي يجمعوا معلومات في المجالات العسكرية والسياسية والصناعية الأمنية والاستخبارية.

وجرت محاولات سوفيتية أيضا، لتجنيد عملاء من الإسرائيليين القدامى: كالعملاء ورجال الأعمال، بل وممثلين رسميين للدولة، ممن توجهوا إلى الخارج، لحضور مناسبات مهنية واجتماعية مختلفة واحتكوا بالسوفييت، وقد باءت جميع المحاولات التي بذلت على هذا الصعيد، تقريبا، بالفشل الذريع، فقد كان ممثلو إسرائيل في الخارج، دائما، ذوي معرفة أمنية عالية، إضافة إلى أن جهاز الأمن العام، طلب من جميع ممثليه الذين يذهبون إلى الخارج، تقديم تقارير حول أي اتصالات–أيا كانت براءتها–مع أي جهة من أوروبا الشرقية في الخارج، وهو الأمر الذي كان رادعا.

وكانت احتمالات التجنيد للمخابرات السوفيتية تدور حول المواطنين الإسرائيليين–وخصوصا المهاجرين، الذين يعيشون بعض الوقت في إسرائيل ثم يذهبون

لزيارة عائلاتهم في أوروبا الشرقية. وغالبا ما كانت اللقاءات تجري في الدول التي تدور في فلك الاتحاد السوفيتي: تشيكوسلوفاكيا، بلغاريا، هنجاريا، رومانيا وبولندا. فقد كان سهلا على الإسرائيليين، دخول هذه الدول، مقارنة بالاتحاد السوفيتي، كما أن أقاربهم قادرين على الوصول إلى تلك الدول بسهولة نسبية، كما أن مخابرات هذه الدول، كانت صنائع للمخابرات السوفيتية، وتعاونت معها في تجنيد العملاء من هؤلاء الزوار، ورغم أن النجاح لم يكن كبيرا، إلا أنه كان مجديا.

وقبل انهيار الاتحاد السوفيتي، بدأ عدة آلاف من السياح يأتون إلى إسرائيل سنويا، وقد قدم قسم منهم لحضور اجتماعات دولية، وعقد صفقات، وإجراء اتصالات رسمية مختلفة، وفي أحيان أخرى، كان لبعضهم أهداف أخرى، فقد كنا ندرك أن المخابرات الروسية، تحاول زرع رسل وضباط اتصال تحت هذا الغطاء، بغية الالتقاء بالعملاء المحليين.

لقد بذلت المخابرات السوفيتية، ووريثتها الروسية، جهودا واسعة جدا، لتجنيد مواطنين أجانب لمهام تجسس في إسرائيل، فقد قدرت تلك المخابرات أن جهاز الأمن العام الإسرائيلي يفرض رقابة أقل على السياح والزوار الرسميين من دول الغرب.

لقد احتلت عملية اكتشاف هؤلاء العملاء وضباط ارتباطهم وتحييدهم، رأس سلم أولويات شعبة الأجانب، في جهاز الأمن العام، وهي الشعبة التي ألقيت على عاتقها أيضا، مهمة محاربة التجسس الأوروبي الشرقي.

لقد كان ليفي ليفي أحد أوائل العملاء الأوروبيين الشرقيين في إسرائيل، وهو من مواليد (رادوم) في بولندا، وابن لوالدين يهوديين، يعملان طبيبين، وأحد نشطاء

حركة الشبيبة الصهيونية (جوردونية). وفي إحدى الحفلات التي أقيمت عام ١٩٤٧ في منتدى للطلاب اليهود، شرب مشروبات روحية أكثر، مما ينبغي وفي طريقه إلى البيت أثارت خطواته المترنحة شكوك حارس كان يقف قرب منشأة عسكرية، فأطلق الحارس النار عليه وإصابة في ساقه، وقد تم نقله جريحا إلى غرفة الحراسة دون أن يتذكر شيئا عما حدث له،وعندما أفاق من آثار الخمر أعيد إلى بيته.

قررت المخابرات البولندية، استغلال هذا الحادث لممارسة ضغوط على ليفي لإرغامه على العمل لصالحها، وقد زعم الحراس، أنه كان بحوزته سلاح، وأنه أطلق النار على ساقه.

ورغم أن ليفي كان يعلم أن هذه التهمة باطلة ولا أساس لها من الصحة، إلا أنه عندما وضع أمام خيار تقديمه إلى المحاكمة أو الذهاب إلى إسرائيل كعميل للمخابرات البولندية، اختار الخيار الثاني.

ويمكننا الافتراض أنه، وإضافة إلى الضغط الذي مورس عليه، فإن ما دفعه للقبول هو الفهم الأيديولوجي الماركسي، الذي ترعرع في أحضانه، وبعد أن تم تدريبه وتوجيهه ومنحه بعض المال، بدأ يعمل واشيا في الشارع اليهودي، ثم دفع إلى معسكر كان يتم فيه إعداد اليهود البولنديين، توطئة لهجرتهم إلى إسرائيل.

في التاسع من آب ١٩٤٨ هاجر ليفي إلى إسرائيل، وتم توجيهه إلى معسكر للمهاجرين بالقرب من نتانيا، ومن ثم التحق بالجيش الإسرائيلي.

وقد ابتسم له الحظ، ففي أعقاب تسريحه من الجيش عرض عليه جهاز الأمن العام، أن يعمل في صفوفه. وقد استجاب ليفي، وعمل في وحدة العمليات سبع سنوات

منـذ نيسـان ١٩٥٠ وحتـى منتصـف عـام ١٩٥٧ حيـث تم اكتشـافه. هـذا ولم يكـن ضبـاط المخابرات البولندية الذين أرسلوه يحلمون بأن ينخرط في سلك جهاز الأمن العام.

وشاء سوء طالعه، أن يحدث نصف انقلاب في بولندا في تشرين الأول ١٩٥٦، حيث تم اختيار "فالدسلاب جومولكه" سكرتيرا للحزب الشيوعي البولندي، والذي سمح لسكان البلاد اليهود بالخروج منها إن أرادوا بل والهجرة إلى إسرائيل، مما دفع إلى إسرائيل موجة هجرة جلبت معها الشخص الذي كان ضابط ارتباط ليفي في المخابرات البولندية.

وفي إطار التحقيقات الروتينية التي أجراها جهاز الأمن العام-مثلما يفعل عادة مع المهاجرين الذين كانوا يعملون في المجالات الأمنية قبل هجرتهم إلى إسرائيل-تحدث الرجل عن (لونك) الذي كان يعمل تحت إشرافه، ثم توجه بعد ذلك-كما سمع-إلى إسرائيل، وعمل في جهاز الأمن الإسرائيلي، أوقدت هذه المعلومات ضوءا أحمر لدى الجهاز، فقد كان لقب (لونك) معروف لليفي ليفي، وسرعان ما تعرف المهاجر على ليفي ليفي، فعلا (كلونك) الذي كان يعمل معه.

استدعي ليفي نيفي لإجراء محادثة جس نبض فانفجر غضبا، بصورة تخالف طبيعته الهادئة الباردة، الأمر الذي أثار المزيد من الشكوك، وزعم أن الجهاز يريد التنكيل به، لأنه يعرف أكثر مما ينبغي، عن أعمال ليست على ما يرام في الساحة السياسية الداخلية.

وعندما تم اعتقاله، توجه في البداية إلى محام مقرب من السفارة البولندية، مما عزز الشكوك ضده أكثر، ثم أرسل زوجته إلى مكتب المحامي شموئيل تامير-والذي سبق له أن اصطدم مع الجهاز، في سلسلة من القضايا، وقد قالت المرأة للمحامي

ولساعده المحامي أرييه مرينسكي، إن زوجها طولب باقتفاء أثارهما واعتقل بسبب ذلك.

اتصل تامير ومرينسكي برئيس جهاز الأمن العام آنذاك (عموس منور)، فقال لهما أن الأمر يتعلق بجاسوس، فأعلماه أنهما سيبذلان قصارى جهدهما لإثبات براءة ليفي ليفي، طالما لم تقدم إليهما أدلة قاطعة على إدانته وتورطه بأعمال التجسس، وقد قالا ذلك أيضا لليفي، وأضافا: أنه إذا ما اتضح لهما أنه جاسوس، فسوف يدقان آخر مسمار في نعشه.

كانت المحاكمة طويلة، ودارت خلف أبواب مغلقة، وقد نفى ليفي التهم المنسوبة إليه، في حين كانت الأدلة المقدمة ضده نظرية، بيد أن منطقيتها جعلت القضاة يدينونه بالتجسس، ويحكمون عليه بالسجن لمدة عشر سنوات، وقد عمد تامير ومرينسكي إلى تقديم استئناف إلى محكمة العدل العليا، بيد أن منور قدم إليهما معلومات وصلته من فرنسا، في أعقاب مقتل عميل بولندي هناك، وقد تضمنت هذه المعلومات، إدانة قاطعة لليفي، وقد أجرى الاثنان حديثا مع ليفي، اعترف أثره بأنه كان حقا عميلا بولنديا، وقدم تقريرا كاملا لأحد رجال الجهاز، حول كل ما قام به. وقد ألغى المحاميان الالتماس، وبعد أن قضى ليفي محكوميته، غادر إسرائيل إلى أستراليا، حيث توفي بعد بضع سنوات.

كان ليفي من العملاء الذين يتمنى كل جهاز مخابرات أن يجند مثلهم، فهو جاسوس كامل. وقد تمكن من التغلغل إلى داخل جهاز استخبارات أجنبي، وأن يتمتع بالثقة الكاملة. وأن يصبح شريكا في معلومات سرية للغاية. لقد ألحق بالجهاز أضرارا جسيمة. تطلبت هامشا زمنيا طويلا، إلى أن تم تفاديها وتقليصها.

إن زرع عميل في أوساط جهاز مخابرات معاد هو هدف مفضل لدى جميع أجهزة الأمن، لذا كان نجاح ليفي في الانخراط في جهاز المخابرات الإسرائيلي كبيرا جدا في أعين البولنديين،وعندما تم زرعه، كانت إسرائيل وجهازها الأمني، لا يزالان صغيرين،لذا أشك في أن البولنديين كانوا يدركون ما الذي يريدونه بالضبط، ويبدو أن عملية زرعه، كانت تهدف إلى الحصول على ما يمكنه أن يحصل عليه.

إن العميل الذي يخشاه الجميع، هو ذلك العميل الذي يعمل انطلاقا من حوافز، وليفي كان يحمل أيديولوجية ماركسية، ويخدم سادته بأمانة ولم يكتف ليفي بالمهام التي كانوا يكلفونه بها، بل كان يقوم بمبادرات ذاتية، كي يزودهم بأكبر قدر من المعلومات.

كان كشف ليفي ليفي، حلقة واحدة من السلسلة التي كان جهاز الأمن الإسرائيلي يتابعها، ومعركة من مجموعة المعارك التي يخوضها ضد التجسس الشرق أوروبي. جميع أجهزة المخابرات الماركسية كانت تتعاون فيما بينها، لذا لم يكن مهما، ما إذا كان العميل قد أرسل إلى إسرائيل من قبل البولنديين أو الرومانيين، فالمعلومات كانت تصل إلى الاتحاد السوفياتي، وإلى جميع أجهزة استخبارات دول أوروبا الشرقية.

مهاجر روماني

داهم رجال وحدة العمليات في الجهاز في الثاني والعشرين من آذار ١٩٦٥ شقة في حيفا، واعتقلوا فيها (أفرايم صمويل)- وهو مهاجر من رومانيا- وزوجته.

كان صمويل عميلا للمخابرات الرومانية، أما زوجته، فقد عملت كعاملة إرسال على جهاز لاسلكي لإرسال المعلومات التي يحصل عليها.

كانت رومانيا، الدولة الوحيدة في الكتلة الأوروبية الشرقية، التي سمحت لجميع سكانها اليهود بالهجرة إلى إسرائيل وهو الأمر الذي سهل على جهازها الاستخباري إرسال عملاء إلى إسرائيل، وقد تمثلت مهمتهم الأولى، في التأقلم في إسرائيل والعثور على مورد رزق، ثم الشروع بالعمل، كل في المجال الذي خصص له: في الحزب الحاكم، في المؤسسات الحكومية، في المخابرات، في الصناعات الأمنية...الخ.

وفي السابع والعشرين من نيسان ١٩٥٨وصلت إلى ميناء حيفا سفينة مهاجرين، تقل أفرايم صمويل وزوجته وطفليه، وقبل أن تنزل العائلة من السفينة. اقترح عليها ممثلو الوكالة اليهودية أن يحلوا في كيبوتس "مشمروت" فوافقوا على ذلك. وفي الكيبوتس، عمل المهاجر الجديد في مجال تصليح الكهرباء، وعمل بجد وتفان على غرار، ما يفعل العملاء الراغبون في خلق انطباع جيد عنهم.

وبعد سنتين، انتقلت العائلة إلى حيفا، وقد عمل صمويل في العديد من الحرف، بيد أنه قبل في نهاية المطاف للعمل كمسؤول عن الصيانة في مغسلة كبيرة، وكان يقوم هو وزوجته في أعقاب عودته من العمل، باستخدام غرفة نومهما لبث المعلومات إلى رومانيا.

ولا شك أنه كان بالإمكان أن يتواصل عمله إلى ما لا نهاية، لولا وصول معلومات إلى سفارة إسرائيل في بوخارست، تفيد بأنه شغل مناصب رفيعة في الحزب الشيوعي الروماني قبل هجرته إلى إسرائيل.

نقلت المعلومات إلى جهاز الأمن العام، الذي قام بدوره باستدعائه للتحقيق. وقال أنه حقا تسلم مناصب رفيعة في الحزب، بيد أنه طرد منها، مما ألصق به وصمة

كبيرة، ورغم أن روايته بدت معقولة، إلا أن الجهاز قرر مراقبته نظرا لوصول معلومات حوله، من جهة أخرى.

تابع الجهاز طيلة ثلاث سنوات، تحركات صمويل وزوجته، والبث الذي كان يرسله من شقته، والذي لم يتعد أخبارا واردة في الصحف أو ما يسمعه من الناس، وعندما داهم رجال وحدة العمليات منزل العائلة كانت الزوجة تقوم بعملية إرسال معلومات، وعندما شاهدتهم في غرفة النوم صرخت بالرومانية "لصوص"، وحاولت إحراق الورقة التي تبث منها.

أسفر التحقيق مع صمويل وزوجته عن كشف النقاب عن ضابط ارتباطهما، وهو دبلوماسي في السفارة الرومانية في تل أبيب، فتم الإعلان عنه كشخصية غير مرغوب فيها، وطرد من إسرائيل.

وقد تمت إدانة صمويل وزوجته وحكما بالسجن لمدة ست سنوات، بيد أنه طرد هو وعائلته إلى رومانيا، بعد أن قضى ستة أشهر في السجن فقط، وقد جاء إطلاق سراحه، في إطار المفاوضات التي أجريت مع الحكومة الرومانية حول السماح بهجرة يهود إلى إسرائيل.

يمكننا تقسيم العملاء السوفيت الذين عملوا في إسرائيل إلى ثلاث مجموعات:

*المجموعة الأولى تضم عملاء يعملون انطلاقا من مبادئ أيديولوجية، وهم شيوعيون قدامى، كانوا على استعداد للبقاء في إسرائيل-رغم بعدهم عن الصهيونية- استجابة لأوامر الحزب لهم.

ومن الجدير بالذكر، أن قسما من هؤلاء كانوا يشعرون بالندم، بعد قدومهم إلى إسرائيل، وكلما انخرطوا أكثر في المجتمع الإسرائيلي. كلما أداروا ظهر المجن لمرسليهم. والكثير منهم توجه إلينا وكشف الحقيقة.

*المجموعة الثانية تشكلت من شيوعيين جدد، ممن انضموا إلى الحزب لأغراض مادية. مثل الحصول على شقة أفضل. أو التقدم في العمل. أو منع تجنيد أحد أبناء العائلة للجيش-وما شابه ذلك، وبالتالي عندما عرضت عليهم فكرة التوجه إلى إسرائيل للعمل كجواسيس. لم يكن بمقدورهم الرفض.

*المجموعة الثالثة تضم جواسيس بالإكراه. ومن ضمنهم يهود يرغبون حقا في الهجرة إلى إسرائيل. وقد قدموا عشرات الطلبات إلى السلطات للسماح لهم بالهجرة دون جدوى. وعندما اشترطت السلطات منحهم هذه التصاريح، بالتعاون. وافقوا. وقد أمل الكثيرون منهم أن يتمكنوا حال وصولهم إلى إسرائيل. التخلص من وعودهم.

بذل جهاز الأمن العام الإسرائيلي: جهودا واسعة جدا لاكتشاف العملاء الذين زرعتهم دول الكتلة الأوروبية الشرقية. وإحدى الوسائل التي استخدمت بنجاعة في إطار هذه الجهود. هي وسيلة (التمشيط). وتتمثل في مراقبة أعضاء السفارات الأوروبية الشرقية الذين نشتبه في كونهم ضباط اتصال لعملاء.

ويعتبر الدكتور إسرائيل بار. أشهر العملاء الذين تم إلقاء القبض عليهم باتباع هذا الأسلوب. وقد زعم أنه درس في الأكاديمية العسكرية النمساوية. وشارك في الثورة الاشتراكية في فينا عام ١٩٣٤. وخاض الحرب الأهلية في إسبانيا. وبفضل هذه التجربة الواسعة. تم ضمه إلى الجهاز الدائم لمنظمة "الهاجاناة". كما عمل في مجال التحليل العسكري. وحمل خلال حرب ١٩٤٨. رتبة مقدم. واعتبر أحد كبار مساعدي

يغآل يادين في شعبة عمليات هيئة الأركان، وفي عام ١٩٥٠، انضم إلى حزب "مبام"، وكتب تحليلات عسكرية في جريدته -"عل همشمار"-وبعد ثلاث سنوات، انتقل إلى حزب (مباي)، وعمل كمؤرخ رسمي للجيش الإسرائيلي. وأقام مكتبه في مكتب وزير الدفاع في تل أبيب.

وقد بلغت مهمة الدكتور بار نهايتها عام ١٩٦١، فقد أدت مراقبة أحد رجال السفارة السوفيتية إلى كشف صلته بالدكتور بار. وقد تم اعتقاله ومحاكمته، والحكم عليه بالسجن عشر سنوات بتهمة التجسس لصالح الاتحاد السوفيتي، وقد قدم استئناف إلى المحكمة العليا التي ردت الاستئناف بعد أن أضافت إلى مدة محكوميته خمس سنوات أخرى، وقد توفي في سجن شطة عام ١٩٦٦.

وفي المتابعة التي قمنا بها لعضو آخر في السفارة السوفيتية عام ١٩٦٠، اكتشفنا وجود علاقة بينه وبين أحد موظفي السفارة الكندية المدعو، جويندون روي. وقد أعلمنا السلطات الكندية، التي أعادته وحاكمته هناك.

ومن بين المواطنين الأجانب الذين عملوا في إسرائيل في خدمة الاستخبارات السوفيتية، مواطن سويدي باسم برلينج ستيج، والذي خدم عام ١٩٧٢ في قوات الأمم المتحدة في سيناء، ولبنان ومصر، ثم استقال، وبدأ العمل في مجال تهريب الذهب ومبالغ نقدية بين أوروبا والشرق الأوسط، وقد تمكن جهاز الأمن العام الإسرائيلي من كشفه عام ١٩٧٩.

وفي أعقاب حرب ١٩٦٧، قطعت العلاقات مع جميع دول الكتلة الشرقية. وهو الأمر الذي ألحق أضرارا جسيمة بالعمل الاستخباري لهذه الدول في إسرائيل، فقد

تم تفعيل غالبية العملاء، حتى ذلك الحين، من السفارات، ولدى قطع العلاقات، اضطر ضباط الاتصال لتفعيلهم عن بعد.

لم يخلق هذا الوضع الجديد، صعوبات أمام أجهزة المخابرات الأوروبية الشرقية فقط، بل خلق صعوبات أيضا أمام شعبة الأجانب في المخابرات الإسرائيلية. التي كانت تلاحق عمليات التجسس الأوروبية الشرقية، فمع إغلاق سفارات تلك الدول، فقدت الشعبة أيضا مصادر استخبارية ذات أهمية كبيرة جدا، دبلوماسيين. وموظفين آخرين من تلك السفارات ممن تمكنا من تجنيدهم كعملاء لنا.

ورغم ذلك، فإن إغلاق السفارات لم يؤد إلى إحراق جميع جسور المخابرات الشيوعية في إسرائيل. فقد طالب البولنديون مثلا بعدم إغلاق بنك (اف كيه او) في تل أبيب. وإبقاء ممثل تجاري لهم في إسرائيل، كما طالب السوفييت بإبقاء ممثل لوكالة الأنباء الرسمية (تاس)، وقد صادقت الحكومة، لأسباب سياسية، على بقاء عمل هذه الجهات في إسرائيل. رغم المخاطرة الأمنية المرتبطة بذلك.

انتقل مركز الثقل في التجسس السوفيتي في إسرائيل، إلى الإرسالية الدينية الروسية المتواجدة في الكنيسة (البروبو سلفيت) في المسكوبية في القدس. وقد عمد الجهاز إلى استخدام وسائل من الطراز الأول، ومن أكثرها أحكاما، بغية الرقابة على نشاطات رجال الإرسالية الذين كان بعض عمالها الفنيين، ضباط مخابرات سوفيت. وبالتالي. اكتشاف العملاء الذين يتصلون بهم.

لم تكتف المخابرات السوفيتية (كي جي بي) بالنقاط القليلة التي ترتكز إليها في إسرائيل. فقد كانت معنية بتوسيع أعمالها التجسسية في إسرائيل. دون تحميل طاقم الإرسالية عبئا أكثر مما ينبغي. لذا. قررت إرسال ضباط مخابرات

سوفيت إلى إسرائيل، تحت أغطية معينة لتفعيل العملاء المحليين، وكان أحد هؤلاء الضباط، فيودوروبيتش لينوف، الذي يحمل رتبة مقدم في (الكي جي بي)، والذي قام بزيارة إسرائيل أربع مرات، مستعينا بجواز سفر نمساوي مزور، باسم كارل براندت موطل، وقد قمنا بمنحه اسما شيفريا (مارشلو).

و "مارشلو" كان رجل استخبارات محنكا، من مواليد موسكو،وهو متزوج وأب لثلاثة أطفال، خريج كلية اللغات. وإضافة إلى لغته، كان يجيد الألمانية والإنجليزية والأوكرانية والإيدش والتشيكية والعربية والفرنسية والبولندية.

لقد قامت المخابرات السوفياتية بإرساله في مهام محددة في العديد من الدول الأوروبية والشرق أوسطية تحت أغطية مختلفة: ميكانيكي سيارات، موظف تأمين، مستشار اقتصادي. قدم إلى إسرائيل لأول مرة عام ١٩٧٠ ولم يكن يتعد الثانية والثلاثين، حيث قام بجولات في إسرائيل بوصفه سائحا، مقدما نفسه على أنه نصف يهودي، في حين التقى خلال زياراته مع عملاء، دون أن يعرف أننا كنا نعلم هويته، تماما، من معلومات تلقيناها مسبقا.

وعندما وصل (مارشلو) إلى إسرائيل للمرة الرابعة، في آذار ١٩٧٣، استأجر غرفة في فندق (أكاديا) بهرتسيليا، وكان أحد العملاء الذين التقى بهم هناك، هو شلومو بن يهودا، وقد سلمه "مارشلو" مبلغا نقديا، وحصل منه على معلومات حول تطوير أسلحة في إسرائيل، وحول قواعد صواريخ، وأسماء قادة عسكريين، وشخصيات سياسية.

هاجر شلومو بن يهودا إلى إسرائيل من الاتحاد السوفيتي عام ١٩٤٢، وعمل في أعقاب حرب ١٩٤٨ كموظف صحة في "كريات شمونة"، وتزوج وأنجب ثلاثة أولاد.

وفي الخامس عشر من تشرين الأول ١٩٥٤، اختفى بصورة فجائية، وبعد وقت قصير: اتضح أنه بأيدي السوريين، وعندما عاد إلى إسرائيل، بعد حوالي سنتين، زعم أنه تم اختطافه من قبل السوريين، إبان عمله في المناطق الحدودية، وقد تم إرساله للفحص في مستشفى للأمراض العقلية، وحوكم، وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات، بتهمة تقديم معلومات إلى العدو، بيد أن المحكمة خففت حكمه إثر الاستئناف الذي قدمه، وعاد إلى عمله كموظف صحة، وهو الأمر الذي قاده إلى قواعد عسكرية.

وإبان الزيارة التي قام بها لشقيقته في روسيا عام ١٩٦٦، قامت المخابرات السوفيتية بتجنيده، وسلم طيلة السنوات الخمس اللاحقة، معلومات إلى السوفييت، حول القواعد العسكرية الإسرائيلية، التي كان يعمل فيها، إضافة إلى تقارير حصل عليها من مصادر علنية، حول ما يحدث في المجال السياسي الإسرائيلي، لكنه لم يكتف بذلك، فكي يثير إعجاب ضابط ارتباطه، أرسل تقريرا خياليا، حول محاولات إسرائيلية لتطوير قنبلة نووية، في مناجم النحاس المهجورة في (تمناع).

وبوصفه رجل مخابرات محنكا، عمل "مرشلو" بحذر بالغ، فقد اعتاد النظر من شباك غرفته بين الفينة والأخرى، ومن العين السحرية الموجودة في باب غرفته على الممر، ليرى ما إذا كانت هناك حركة مشبوهة أم لا؟؟

وقام بالعديد من الحيل والممارسات لمعرفة ما إذا كان أحد ما: قد فتش أشياءه أثناء تغيبه عن الغرفة، فقد اعتاد مثلا ترك اليد الصغيرة التي يفتح بها (سحاب) حقيبته واقفة: وبالتالي تكفي لمسة صغيرة للحقيبة، كي تقع هذه اليد ويعرف أن شخصا ما أصابها.

وعندما قررنا اعتقاله، أرسلنا إحدى عاملات الجهاز إلى غرفته في لباس خادمة فندق، وعندما سألها من خلف الباب، وعما تريد؟؟ قالت: إنها جاءت لاستبدال البشاكير الموجودة في الحمام، وعندما شاهد من العين السحرية عاملة فندق تقف أمام الباب وبيدها بشاكير حمام، فتح لها الباب، ولدهشته البالغة، اقتحم رجال وحدة العمليات الغرفة، بيد انه لم يفقد رباطة جأشه، وسارع إلى تدمير الشيفرة التي بحوزته. ورغم ذلك لم يخرج رجال الوحدة صفر اليدين، فقد عثروا بحوزته على مواد لم يتمكن بعد من تسليمها إلى عملائه: حبر سري وجهاز راديو صغير خاص لتلقي أوامر العمل.

تحدث "مرشلو" في البداية مع محققيه بالإنجليزية ثم سرعان ما لجأ إلى لغته الروسية، واعترف بأنه ضابط مخابرات سوفييتي، لقد مكننا اعتقاله من التعرف، عن كثب، على شخصية ضابط المخابرات السوفيتي، لأول مرة، وعلى مستواه المهني الرفيع، وقد أبدى قدرة صمود كبيرة في التحقيق، على افتراض أن حكومته ستعمل كل ما في وسعها لتحريره في أسرع وقت ممكن.

حكمت المحكمة على "مرشلو" بالسجن لمدة ثماني عشرة سنة، وقد أراد السوفييت تحريره، لكنهم أدركوا أن إسرائيل ستطالب بمقابل مناسب، لذا قاموا بتمثيلية، جعلتنا ندرك فورا أنها لا تعدو كونها محاولة لإطلاق سراح "مرشلو".

فقد تم تقديم يهودي يدعى "شفتر" للمحاكمة في بلغاريا، وأدين بارتكاب مخالفات أمنية رغم براءته، وحكم عليه بالإعدام شنقا، ثم جمد السوفييت تنفيذ الحكم، واقترحوا الإفراج عنه مقابل "مرشلو"، لكننا لم نكتف بذلك، بل طلبنا أن يسمح السوفييت أيضا بهجرة "سيلفا زلمنسون"، إحدى نشيطات الهجرة، والتي حكم

عليها عام ١٩٧٠ بالسجن بتهمة القيام بمحاولة لاختطاف طائرة في "لينغراد" والسفر إلى السويد.

وفي نهاية خمسة أسابيع من التفاوض، تم الاتفاق على مقايضة "مرشلو" بـ "شيفتر" في برلين. وعلى أن يتم إطلاق سراح "سيلفا" في أي وقت تشاء ويسمح لها بمغادرة البلاد. وتحسين أوضاع اليهود الذين تم اعتقالهم معها في كانون الأول ١٩٧٠.

وقام رئيس الجهاز ابراهام احيطوف بتقديم طلب عفو لوزير العدل ليقدمه إلى رئيس الدولة عن "مرشلو"، وتم التبادل فعلا في تشرين الأول ١٩٧٤.

وفي حزيران ١٩٩٣، كشفت المجلة البريطانية "فوريك ريبورت". النقاب عن هذه القضية، وقالت إن المحامي الألماني الشرقي "ولفجنج فوجل" قام بأعمال الوساطة في صفقة التبادل. وأن "شيفتر" كان يتجسس لصالح المخابرات الأميركية. وأن الاتحاد السوفيتي وافق في إطار الصفقة على تقديم المساعدة للإفراج عن رجل "الموساد" باروخ مزراحي. الذي اعتقل في اليمن عام ١٩٦٧ وسلم إلى مصر.

قدم "شلومو بن يهودا" إلى المحاكمة، بتهمة إقامة اتصالات مع عميل أجنبي. وقد زعم أثناء محاكمته، أنه وافق على التعامل مع المخابرات السوفيتية انتقاما للمعاملة السيئة التي تلقاها من ضباط شرطة إسرائيليين. في أعقاب إعادته من سورية. وكي يحصل على معاملة حسنة لأقاربه في روسيا. وحكم بالسجن ١٢ سنة. وأطلق سراحه بعد ثلثي المدة.

قصـــة العميل الـروسي

جاسوس اسمه (ل)

عندمـا فتحـــت أبــواب الاتحــاد الســوفيتي أمــام الهجــرة اليهوديــة الكبــيرة، لم يخـف الكثـيرون مـن زعمـاء العـــالم العربــي خشــيتهم مــن احتمــال إخــلال هــذه الهجــرة بـالتوازن الديموغـرافي القائم وتحولـه لصـــالح إســـرائيل، أضــف إلى ذلــك، أن نوعيــة هــؤلاء المـهاجرين، كـانت تثـير قلقـهم، أمـا العـرب في إسـرائيل، فقد خشـوا أن تعمـد الحكومــة إلى مصادرة بعــض أراضيــهم لتوطــين المــهاجرين عليــها. وقــد قــاد عمليــات الاحتجــاج ضــد الهجـرة السـوفيتية، الحركـة الإسـلامية، وعلـى رأسـها الشيخ رائـد صــلاح، رئيــس بلديــة أم الفحــم، كمــا أطلقــت المنظمــات (الإرهابيـــة) تــهديدات علنيــة، "إذا مـــا أحضـــرتم المـهاجرين، فسـوف نعمـل على قتلــهم وهــم في طريقــهم إلى هنــا، ســنفجر ونقتــل، حتــى تتوقـف موجـة الهجـرة".

وهكـذا أصبحـت قضيــة حراســة وحمايــة قوافــل المــهاجرين الذيــن تدفقــوا عــبر بولنـدا، ورومانيـــا وهنغاريـــا تحتـــاج إلى ترتيبـــات خاصـــة، وكــان مــن الطبيعــي أن تلقــي الحكومــة مهمــة حمايـــة المـــهاجرين وحاجياتـــهم، ومعســـكرات التجميـــع والقطـــارات والطـائرات والسفن الـتي تقلـهم علـــى عـــاتق جــهاز الأمــن العــام، وأخــذ رجــال الجـــهاز يســتقبلون المــهاجرين في محطـات القطـارات والموانــئ والمطـــارات ومعســـكرات التجميـــع المؤقتــة، ومنــذ تلك اللحظــة كــان يتــم الإعــلان عنــهم كــهدف محمــي حتــى وصولهــم إلى إسـرائيل.

توجهت في بداية موجة الهجرة إلى هنغاريا ورومانيا لمتابعة ما يحدث عن كثب، ووقفت في محطة القطارات في هنغاريا، وشاهدات المهاجرين وهم يترجلون من القطار ويصعدون إلى مختلف وسائل النقل في طريقهم إلى مراكز التجميع المختلفة.

لقد تلاشت المخاوف من موجة العمليات المضادة للمهاجرين. وتواصل تدفقهم على إسرائيل طيلة عام ونصف العام، دون أن تقع سوى محاولة "تخريبية" واحدة. حيث تم تفجير عبوة ناسفة على بعد ما من حافلة كانت تقل مهاجرين في بودابست. ولم تقع إصابات.

كانت عملية الحماية جانبا واحدا من اهتمامات الجهاز بموجة الهجرة. أما الجانب الآخر الذي لا يقل أهمية، فقد تمثل في محاولات اكتشاف الجواسيس الموجودين بين هؤلاء المهاجرين. فانهيار الاتحاد السوفيتي لم يقلص مدى اهتمام أجهزة المخابرات الروسية بإسرائيل، لقد كانت موجة الهجرة في مطلع الثمانينات. ومطلع التسعينات أرضا خصبة لزرع العملاء، وإلى جانب العملاء القدامى منذ العهد السوفيتي، انضم عملاء تم تجنيدهم عشية هجرتهم إلى إسرائيل. وقد بذلت شعبة الأمن الوقائي لمكافحة التجسس الأوروبي الشرقي في جهاز الأمن العام قصارى جهدها لاكتشاف هؤلاء العملاء قبل وصولهم وانخراطهم في المجتمع الإسرائيلي.

وضعت تحت تصرفنا، في مطار بن غوريون غرفتا (١١، ١٢)، وسرعان ما سرت في أوساط المهاجرين معلومات تفيد بأن جهاز الأمن العام بانتظارهم. بل وتداول المهاجرون الأسئلة التي سنطرحها عليهم. وما الذي نريده بالضبط منهم، لقد توقعت حدوث ذلك. ولم يضايقنا، أبدا أنه حدث. بل كنا نرغب في أن يدرك العملاء. أننا

بانتظارهم، والأهم من ذلك، أردنا أن نجعلهم يدركون أننا نعطيهم الفرصة للاعتراف أمامنا دون أن يعاقبوا.

وكنا نسأل كل مهاجر، ممن تتراوح أعمارهم بين ١٨-٦٥ سنة، عما إذا كان قد عمل في السابق أو في الآونة الحالية، لصالح جهاز المخابرات في الدولة التي قدم منها؟ ووعدناه فورا، بأننا لن نتخذ ضده أي خطوات إذا ما اعترف بذلك.

لقد أسفر هذا الأسلوب الذي جرى تداوله بين المهاجرين عن نجاح كبير، فقد سارع الكثير من العملاء للاعتراف أمامنا حتى قبل أن يوجه إليهم المحققون سؤالا واحدا، وقد أكدوا جميعا، أن عملية التجسس التي طلبت منهم أو فرضت عليهم، كانت تثقل على ضمائرهم، وأنهم كانوا يفتشون عن الفرصة المناسبة لإلقائها من فوق ظهورهم.

أوفينا بوعدنا، ولم نتعرض لأي ممن اعترفوا لنا، بيد أننا سجلنا أسماءهم وعناوينهم المؤقتة في إسرائيل، وأسماء أقاربهم هناك، وتفاصيل روتينية أخرى، تمكننا من متابعتهم بصورة فعالة خلال المرحلة الأولى من مكوثهم في إسرائيل.

وفي مرحلة لاحقة قمنا بالتحقيق معهم بدقة بالغة، لكننا لم نعتقل أيا منهم، وقد سئل كل مهاجر أيضا عما إذا كان يعرف أسماء عملاء من (الكي جي بي) في منطقة سكناه، أو في مكان عمله، أو في الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه؟

وبالاستعانة بالاعترافات، وبالمعلومات التي استقيناها من المهاجرين، تمكنا من تركيب صورة دقيقة للجاسوس المحتمل والمرغوب فيه لدى المخابرات الروسية، فقد وجدنا أن الأولوية تمنح لأصحاب مهن تكنولوجية معينة، وفي إطار أعمار معينة

ووضع عائلي معين، الأشخاص الذين يعيشون وضعا نفسيا واجتماعيا وأسريا معينا. والرواية التالية توضح بصورة دقيقة كيف استخدمنا هذه الصورة في اكتشاف العملاء.

اتصل بي رئيس "الموساد"، شبتاي شبيط صبيحة السابع والعشرين من تموز ١٩٩٠، وطلب أن يلتقي بي على عجل، وعندما دخل إلى مكتبي بعد حوالي ساعة، أغلق الباب خلفه، وقال وقد اكتست تقاطيعه مظهرا خطيرا، أردت أن تعرف أن هناك شيئا سيئا قد حدث، فقد علم "الموساد" مؤخرا، أن إسرائيليا مقربا لجهاز المخابرات. توجه قبل عدة سنوات، إلى القنصلية السوفيتية في بانكوك، وعرض على (الكي جي بي) أن يعمل لحسابهم. وقد استجاب ضابط (الكي جي بي) بسرور، وبعد ثلاثة أشهر استكملت عملية تجنيده على أيدي ضابط سوفييتي رفيع في المخابرات، وهو رئيس شعبة إفريقيا والشرقين الأوسط والأدنى، الذي قدم من موسكو خصيصا لذلك. و"الموساد" لا يعرف هوية هذا الإسرائيلي، بيد أن (الكي جي بي) أعطاه اسما شيفريا هو "مارك"، ويبدو أن الحرف الأول من اسم عائلته هو (ل)، وقد علم أن ضابط المخابرات، حظي بمكافأة لتجنيده للعميل الإسرائيلي.

بدت القضية خطيرة للغاية، فمنذ اكتشاف العميل البولندي، ليفي ليفي، في نهاية الخمسينات، لم يتم اكتشاف خيانة خطيرة إلى هذا الحد في صفوف جهاز الأمن العام، لقد باتت عملية اكتشاف العميل بسرعة، أمرا ملحا للغاية، خشية الأضرار الجسيمة التي قد يلحقها بأمن الدولة.

قررنا تسمية العملية "اشل ابراهام" وعمدنا فورا إلى تشكيل طاقم مصغر لفحص القضية، وأجرينا عدة فحوص معقدة، وفي نفس الوقت، حاول طاقمنا الوصول إلى "مارك" عبر ضابط اتصاله الروسي، وقام بجمع معلومات واسعة حول ضباط (الكي

جي بي) الذين أجروا مقابلات معه، على أمل أن تكون هناك حلقة وصل تربط بينه وبينهم وتمكننا من الوصول إليه.

جمعت شعبة أوروبا الشرقية في الجهاز الكثير من المعلومات، وبذلت جهودا جبارة لتحليل كل تفصيل مهما كان صغيرا، وبعد حوالي أسبوعين، قدم إلي رئيس الشعبة، وقال لي: "لقد عثرنا على مشتبه مناسب، يدعى "شمعون ليفي" -كان في السابق يدعى شمعون ليفنسون، وقد تلاءمت تواريخ توجهه إلى بانكوك، تماما مع تواريخ لقاءات "مارك" بضباط جهاز (الكي جي بي)، إضافة إلى أن اسم عائلته الحالي والسابق يبدأ بحرف (ل)، وهكذا، رفعنا اسمه إلى رأس قائمة المشبوهين، وإن لم تكن هناك تأكيدات بأنه الرجل الذي نفتش عنه، وبدأنا بجمع معلومات حوله من جميع المصادر الممكنة.

وكلما تراكمت المعلومات حوله، كلما كانت الصدمة أقوى: لقد ولد شمعون ليفي عام ١٩٣٣ لعائلة معروفة ومحترمة من قدامى العائلات في بيتح تكفا، وقد شغل والده مناصب رفيعة في منظمة "الهغناة"، وكان جده لأمه شريكا في محاولة إعادة بناء الاستيطان اليهودي في نابلس، وقد سكنت العائلة في القدس، وقد درس شمعون في مدارس دينية، وانضم إلى حركة، بني عكيفا، وعمل خلال حرب ١٩٤٨، مثل الكثير من الشبان الآخرين في التحصينات.

خدم شمعون في الجيش الإسرائيلي، في البداية، كموظف، حتى وصل إلى مساعد رئيس لجنة الهدنة مع الأردن، وأقام خلال عمله علاقات وثيقة مع ضباط مخابرات، وكان نشيطا جدا، وشارك أكثر من مرة في حوارات مع الأردنيين، وقدر المسؤولون عنه كثيرا استقامته وشعوره بالمسؤولية ودأبه وطابعه الهادئ، وقد حاول في

نهاية خدمته العسكرية الالتحاق بجهاز الأمن العام، فأشارت الاختبارات والفحوص التي أجريت له، أنه ملائم للعمل المكتبي وليس الميداني. وأفاد التقرير النهائي بشأنه، أنه يتمتع بذهنية فوق المتوسط، وكفاءته وذكاؤه مرتفعان، وعلاقته مع الآخرين تتسم بالتحفظ، ويخشى من رفضهم له، لذا لا تراه يقترب أكثر مما ينبغي منهم. لذا، فإنه ملائم للوظائف التي تحتاج إلى كفاءة ذهنية، وسيكون أقل ملاءمة للمهام التي تتطلب مرونة كبيرة، وخلق علاقات مع الآخرين، بيد أن إجراءات قبوله للجهاز توقفت، بعد أن قرر الجيش مواصلة استخدامه.

وفي آب ١٩٥٣، قبل شمعون للعمل في وزارة الدفاع، وأرسل إلى الملحقية العسكرية في أنقرة للعمل سكرتيرا، وقد مكث هناك أربعة أشهر فقط، ثم أعيد، بناء على طلب من الملحق العسكري، بدعوى أنه فشل في أداء مهامه، وأنه تقرب أكثر مما ينبغي من الممثلين الأردنيين في تركيا، وحينما عاد شمعون إلى إسرائيل، تحدث عن الأجواء السيئة السارية في السفارة، وقال إن إعادته جاءت نتيجة خلاف نشب بينه وبين الملحق العسكري.

وفي عام ١٩٥٧، رفع إلى رتبة نقيب، وأصبح شخصية مركزية في لجنة الهدنة في القدس، وقد قدم مساعدات جمة، في إتمام الاتصالات السرية التي جرت عام ١٩٥٨ بين ممثلي المخابرات الإسرائيلية والمخابرات الأردنية. ونظم عام ١٩٦٠ لقاء سريا بين رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية اللواء "حاييم هرتسوغ" وبين الكولونيل الأردني أميل جميعان، المستشار العسكري الثالث للملك الحسين.

وفي نهاية عام ١٩٦٠، قبل ليفي في الدورة الرسمية للاستخبارات، بيد أنه قطع الدورة بعد أن طلب منه رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية، اللواء مائير

عميت، العمـل ضابطـا للاتصال مـع الأمـم المتحـدة في جبـل المراقبـين، وقـد شـغل هـذا المنصب زمنـا طويـلا، وفي أعقـاب إنهائـه للمهمـة، حـاول التمسـك بعمـل دائـم في المجـال المدنـي، وعندمـا لم ينجـح في ذلـك، توجـه إلى يـهودا أربيـل، قـائد لـواء القـدس في جـهاز الأمـن العـام، وطلـب مساعدته، وقـد عينـه أربيـل رئيسـا لطـاقم الملاحظـات الأمنيـة في اللـواء، لكـن العمـل لم يـرق لـه، وشـعر بإحبـاط شـديد، وعندمـا اقـترحوا عليـه الانضمـام إلى "الموسـاد"، استجاب بسـرور، وقـد نفـذ عـدة مـهام ووظـائف، بعضـها في الخـارج.

وفي أعقـاب عودتـه مـن أرتيريـا، بـدا محبطـا، لأن "الموسـاد" لم يعـرض عليـه وظيفـة مهمـة، فـالتحق ليفـي بالخدمـة الدائمـة بـالجيش الإسـرائيلي وعـين ضـابط أركـان للاتصـال بـالأمم المتحـدة برتبـة عقيـد، وفي عـام ١٩٧٥، كـان أحـد أعضـاء الوفـد الإسـرائيلي للمفاوضـات مـع مصـر في جنيـف، في إطـار التسـوية المرحليـة في سـيناء، كمـا عمـل ضـابط اتصـال إبـان إقامـة قـوة الأمـم المتحـدة في جنـوب لبنـان، وطـور علاقـات وطيـدة مـع ضبـاط رفيعـي المستوى مـن الأمـم المتحـدة، مثـل الجـنرال "سيلاسـفو" والجـنرال "أرسـكين".

وقـد جـاء تعيـين رفـائيل ايتـان، رئيسـا لشـعبة الأركـان ليضـع حـدا لوظيفـة ليفـي العسـكرية، فعندمـا كـان ايتـان قـائدا للقطـاع الشـمالي، حـاول تقليـص تحركـات رجـال الأمـم المتحـدة في جنـوب لبنـان، ممـا حـدا بليفـي إلى تقديـم شـكوى إلى قـائد شـعبة الأركـان، وحـال تـولي ايتـان منصبـه كرئيـس لشـعبة الأركـان، طلـب مـن وزيـر الدفـاع، عـيزر وايزمـن، أن يـأمر بإنـهاء خدمتـه العسـكرية، فقـام وايزمـن بتكليـف رئيـس الأركـان "موطيـه غـور" بالمهمـة، الـذي استدعى "ليفـي" وعـرض عليـه شـروط اسـتقالة مريحـة، وقـد وافـق "ليفـي" على الاستقالة، بيـد أنـه لم يعـثر علـى عمـل في المجـال المدنـي.

توجه "ليفي" إلى صديقه الجنرال "سيلاسفو"، والذي نجح في إقناع المسؤولين للعثور على عمل في المنظمة الدولية "لليفي"، رغم أن الأمم المتحدة لم تكن تواقة لتشغيل إسرائيليين خشية عدم محافظتهم على الحياد.

عرضت الأمم المتحدة على "ليفي"، التوجه إلى بانكوك كممثل لصندوق الأمم المتحدة لمكافحة المخدرات فاستجاب بسرور، وحال وصوله إلى بانكوك التقى به ضابط أمن السفارة الإسرائيلية هناك، وأوضح له واجبه في ضرورة توخي الحذر، بوصفه ضابط مخابرات سابقا-في اتصالاته وعلاقاته مع الجهات الدولية، فقال له: إنه يأخذ هذه المسألة بعين الاعتبار، وبعد فترة، أعلم ضابط أمن السفارة، أن هناك مواطنا سوفيتيا يعمل في نفس المبنى الذي يقوم فيه صندوق الأمم المتحدة، يبذل محاولات متواصلة للاتصال به، بعث ضابط الأمن بالمعلومات آنفة الذكر إلى مسؤوليه في جهاز الأمن العام، الذين تحروا الوضع فاتضح أن الموظف المسؤول ليس سوى ضابط في المخابرات السوفيتية، وقد أمر جهاز الأمن العام، ضابط الأمن، بأن يطلب من ليفي، إعلامه بأي محاولة اتصال من نفس المواطن السوفيتي، وقد وعد ليفي بعمل ذلك، بيد أنه أعلم ضابط الأمن، فيما بعد، أن السوفيتي لم يحاول الاتصال به بعد ذلك.

وفي أيار ١٩٨٣، سافر ليفي إلى موسكو، وقد أعلم السفارة الإسرائيلية في بانكوك أن سفره يتعلق بمجال عمله في الصندوق، وحينما عاد من سفره، قدم تقريرا مسهبا جدا وصف فيه كيف توجه إلى القنصلية السوفيتية في بانكوك، للحصول على تصريح دخول للاتحاد السوفيتي، وذكر أسماء الأشخاص الذين تحدث معهم هناك، واسم الشخص الذي استقبله في مطار موسكو، وأكد أن جهاز المخابرات السوفيتي لم يبذل أي محاولة للاتصال به، طيلة فترة وجوده في موسكو.

وبعد سنتين من وصوله إلى بانكوك، وقع نزاع بينه وبين المسؤول عنه في الأمم المتحدة، حول مخصصات مالية، قام ليفي بتسليمها لجنرال محلي-رئيس الوكالة التايلندية لمكافحة المخدرات، والذي كانت تربطه به علاقة وطيدة، فأنهى وظيفته وعاد إلى إسرائيل، رغم أن علاقاته مع تايلند لم تنته، بل على العكس فقد عرض عليه صديقه الجنرال التايلندي، الانضمام كشريك في شركة تحقيقات تعمل في مجال المحافظة على منتجات كهربائية ذات شهرة خاصة، من التقليد، وقد استجاب ليفي بحماس، لكن عندما وصل إلى بانكوك، وجد أن الجنرال تشاجر مع شريكه وبقيت الشركة حبرا على ورق.

عاد ليفي إلى إسرائيل، وطلب من صديقه ابراهام تامير مدير عام مكتب رئيس الحكومة، أن يساعده في العثور على عمل، فهب تامير لمساعدته، وأعلم جهاز الأمن العام، الذي طرح اسمه كمرشح لتشكيل مجلس الأمن القومي، ونظرا لأنه لم يتبلور بعد شاغر بهذه المسمى، فقد عرض الجهاز قبول ليفي كضابط أمن لمكتب رئيس الحكومة، وقد شملت قائمة الذين أوصوا بليفي أسماء محترمة، من ضمنها "شمعون بيرس"،واللواء احتياط شلومو جازيت، وعمال سابقون رفيعو المستوى في جهاز الأمن العام، كروبن حزاك، وبيلج رادي، وقد وافق الجهاز على التعيين، واتفق على أن نقوم بتعليم ليفي قبل تسلمه مهام عمله الجديد، أساليب المحافظة على الأسرار، وواجبه في إطلاع الجهاز على أي اتصالات أجنبية يجريها.

بدأ ليفي عمله كضابط أمن لمكتب رئيس الحكومة في الثالث والعشرين من نيسان ١٩٨٥، واطلع هناك على معلومات سرية شديدة الحساسية.

كنت آنذاك، أشغل منصب قائد لواء القدس في الجهاز، وكان مكتب رئيس الحكومة في مجال صلاحياتنا، لذا اجتمعت بليفي، مرات عديدة، لتدارس مسائل تتعلق بالحماية، وقضايا حساسة مختلفة، ولم ألاحظ خلال تلك اللقاءات، أي شبهات في شخصيته، بيد أنه، ولسبب لا أدريه، أثار لدي شعورا بعدم الارتياح.

وفي السادس من شباط ١٩٨٩، علمت بأن ليفي سيعين ممثلا لمكتب مراقب الدولة في الجهاز، ونظرا لعلاقاته الواسعة مع أجانب، وزياراته المتكررة للخارج، اقترح أحد كبار رجال الجهاز، إجراء فحص أمني جديد له، فوافقت على ذلك. وطلبت أن يتم فحصه بجهاز كشف الكذب، بشأن علاقاته مع الأجانب. ومن الجدير بالذكر، أن فحص أعضاء من الجهاز بجهاز كشف الكذب، كان مسألة نادرة، خصوصا وأن العديد من الفحوص الأمنية أجريت له، ووجد مناسبا، وشغل العديد من المناصب الحساسة، لكن ونظرا لأن ممثل مراقب الدولة في الجهاز، قادر على الوصول إلى جميع المواد الأمنية الخاصة بالجهاز، ومن ضمنها أكثر الوثائق سرية، أردت الاطمئنان على أن الشخص الذي سيشغل هذا المنصب، لا تشوبه شائبة.

كان لدي إحساس داخلي، بضرورة بقاء ليفي خارج إطار الجهاز، وقد أعربت عن تحفظي من تعيينه أمام المسؤولين عن الرقابة الأمنية في مكتب مراقب الدولة، ورغم أنه لم يكن لدي أي أسس استند إليها، إلا أن تحفظي قبل بلا تردد. وقيل لي: إذا كنتم تعتبرون هذا الشخص غير ملائم، فلن نسمح له بالعمل معكم". وهكذا وفر على نفسه الفحص بجهاز الكذب.

وعندما بات من الواضح لدينا، في أيلول ١٩٩٠، أن ليفي هو المشبوه الأول في قضية التجسس السوفيتي، أجريت نقاشا حوله في مكتبي، لم يشارك فيه سوى حفنة

قليلة من الأشخاص، نظرا للسرية البالغة، التي أوليناها للقضية، وناقشنا خلال الجلسة، وضع ليفي الاقتصادي، فاتضح أنه تورط في ديون كبيرة جراء بنائه فيلا في (مفسيره تسيون). وقد استدان مبلغ مائة ألف دولار من أحد أقاربه، وحاول تسديد هذا المبلغ بشيك بلا رصيد، الأمر الذي أثار مشاكل واسعة بينه وبين زوجته.

وفي محاولته التخلص من هذه الديون، أخذ يفتش عن صفقات يمكن أن تدر عليه مبلغا كبيرا، وقيل لي أيضا، أن ليفي موجود في بانكوك. ومن المفروض أن تنضم إليه زوجته. ولم يبق في فيلته سوى بناته. فأمرت بالتنصت على جهازهن الهاتفي على افتراض أنه يتصل بهن.

أطال ليفي فترة مكوثه في بانكوك، ولم يتحدث مع بناته هاتفيا عن موعد عودته. وفكرنا في العديد من الأساليب التي يمكن أن تعيده إلى إسرائيل، بيد أننا قررنا في نهاية المطاف، التذرع بالصبر. وعندما اتضح لنا، أنه يعتزم العودة في أيار ١٩٩١. أخذنا نرسم خطواتنا بدقة توطئة لعودته.

توجب علينا، بادئ ذي بدء، الحصول على أمر اعتقال، لذا كان علينا استدعاء رئيس قسم التحقيقات في الشرطة، المخول بذلك قانونيا، والذي كان يشغله آنذاك، اللواء عوزي برجر، فطلبنا منه الاستعداد، دون إعلامه بأي تفاصيل أخرى. وحصلنا على أمر من وزير الدفاع، يسمح لنا بعدم إعلام ذويه بأمر اعتقاله، لمدة ثمان وأربعين ساعة.

علمنا أن ليفي سيعود على متن طائرة من الخطوط الجوية السويسرية في العاشر من آيار. فقررنا تنفيذ الاعتقال سرا، دون أن يلاحظ أحد ذلك، وكي نحول دون قدوم بناته إلى المطار قام أحد رجالنا بالاتصال بهن، وأعلمهن أنه صديق مقرب

لوالدهن، وأنه قرر إرجاء عودته ليوم واحد، وقدرنا أن الهامش الزمني الذي منحناه لأنفسنا سيمكننا من التحقيق معه بصورة أولية.

كافيار، وشمبانيا، وزيارة كنيس يهودي

هبطت طائرة الخطوط الجوية السويسرية قادمة من زيوريخ في مطار بن غوريون في الساعة السابعة من العاشر من آيار ١٩٩١، وهبط ليفي منها، دون أن تراوده أي شكوك بانتظار طاقم جهاز الأمن العام له، وحينما دخل قاعة المسافرين، توجه إليه أحد رجالنا وطلب منه مرافقته، فانصاع ليفي دون أدنى تردد، وتوجه الاثنان إلى مكاتب الجهاز في المطار، وهناك وجد بانتظاره رئيس تحقيقات الجهاز، ورئيس شعبة الأجانب، ورئيبس شعبة الأمن الوقائي ضد التجسس الروسي، وعندما شاهدهم ليفي، بدا وجهه أبيض كالثلج وأدرك ما الذي ينتظره.

استهل رئيس شعبة التحقيقات الحديث، بالقول لليفي، إننا نعرف أنه أجرم بحق الدولة، وإننا نعطيه الفرصة للاعتراف بذلك، فرد ليفي فورا: "لقد أخطأت وأجرمت، وسأروي لكم كل شيء". وفي نفس الليلة، تم تمديد فترة اعتقاله خمسة عشر يوما، ونقل إلى مركز تحقيقات الجهاز.

وفي روايته: قال ليفي: إنه وقف في مطلع عام ١٩٨٣ على مفترق طرق. حيث كان على وشك إنهاء عمله في الأمم المتحدة، التي أنهت هذا العمل عمليا قبل ذلك، على أرضية الخلاف الذي نشب بينه وبين رئيسه، ووجد نفسه عاجزا، في بيته، بعد أن ذهبت جميع محاولاته للعودة إلى العمل أدراج الرياح.

وأضاف.. "فكرت في كل ما عانيته من إذلال في السابق، إبان بحثي عن عمل في إسرائيل، وقد أدى إدراكي بضرورة أن أعود لدق الأبواب المغلقة بحثا عن عمل. إلى

إقصاء النوم من عيوني، وكان وضعي الاقتصادي سيئا للغاية، فقد عشت في بانكوك بصورة متواضعة للغاية، وأرسلت جميع الأموال التي تمكنت من توفيرها إلى بناتي لإكمال تعليمهن. ولم أجد بحوزتي، في بانكوك، سوى ألف دولار".

بدأ ليفي يفكر بالقيام بخطوة لمرة واحدة، يقوم خلالها بتسليم معلومات مكثفة إلى عميل أجنبي، مقابل مبلغ مالي كبير، وبدت له بانكوك مكانا مناسبا لذلك، وقد فكر بداية أن يتوجه للصينيين، ثم للأميركيين، ثم اختار السوفييت.

فقد كان لديه إحساس بأن جهازهم الاستخباري سيكون معنيا أكثر من أي جهة أخرى بالمعلومات، وعندما اتخذ قراره، عمل على الاتصال بمسؤولي (الكي جي بي) في السفارة السوفياتية في بانكوك.

وأضاف... "أدركت أنهم لن يكونوا قادرين على الموافقة على المبلغ الذي أريده، وسيضطرون للتوجه إلى موسكو، كي يواصل كادر أعلى الاتصالات معي، بيد أن بانكوك يمكن أن تكون بادئة جيدة".

قام ليفي بداية، بجولة حول أسوار السفارة التي تضم أيضا القنصلية، للتأكد من عدم وجود نقطة دائمة للشرطة التايلندية، فقد خشي من تسجيل كاميرا الشرطة دخوله إلى السفارة، وبالتالي يستدعى لتقديم توضيحات حول ذلك، بيد أن الجولة أكدت له عدم وجود كاميرات.

وفي أحد أيام نيسان ١٩٨٣، توجه إلى مكتب التصاريح التابع للسفارة، وقدم نفسه للموظف هناك، على أنه مواطن إسرائيلي ويريد الحصول على تأشيرة لدخول الاتحاد السوفيتي. وقد أوضح له الموظف، أن من الصعب جدا منحه تأشيرة، نظرا لعدم وجود تمثيل دبلوماسي بين الاتحاد السوفيتي وإسرائيل، فقال ليفي أنه موظف

رفيع في الأمم المتحدة، وأن السفر إلى هناك مهم بالنسبة له، لذا فإنه يرغب في التحدث مع مسؤول رفيع في القنصلية، فقاده الموظف إلى غرفة كبيرة، وطلب منه أن ينتظر قليلا، وبعد قليل، دخل إلى الغرفة شخص طويل القامة، يناهز الأربعين ويتحدث الإنجليزية بطلاقة. وبادر ليفي بالسؤال عن سبب رغبته في السفر إلى الاتحاد السوفيتي؟؟ فرد عليه ليفي مباشرة "أنا إسرائيلي، وأحمل رتبة عقيد احتياط، وأعمل الآن في الأمم المتحدة، وأعتقد أن في مقدوري تقديم المساعدة إلى الاتحاد السوفيتي". فقدم له الموظف ورقة، وطلب منه أن يكتب تاريخ حياته، فكتب ليفي، وذكر أنه عمل في "الموساد" وجهاز الأمن العام، دون أن يشير إلى الوظائف التي شغلها.

قرأ الموظف المعلومات. وسأله: كم تريد ثمن مساعدتك؟؟ فقال ليفي دون أن يهتز له هدب: مائة ألف دولار، خرج الموظف، ثم عاد بعد لحظات. وقال له: إنه سيبعث المعلومات إلى رئاسته، وأنه يعتقد أن عليه الذهاب إلى الاتحاد السوفيتي لمواصلة الاتصال، "انتظر اتصالا هاتفيا منا، وإذا ما قلنا لك أن التأشيرة جاهزة. سيتوجب عليك القدوم إلى هنا".

وعندما هم ليفي بالخروج، قال له الروسي: ليس من هنا، من الأفضل ألا تخرج من الطريق التي قدمت منها، وقاده إلى غرفة أخرى يقود أحد أبوابها إلى الساحة الخارجية. حيث وجد سيارة تقف أمام الباب. ودخل إليها. وانتظر السائق حتى أعطاه الحارس الروسي لدى البوابة أمرا بالانطلاق. فانطلق من البوابة بسرعة كبيرة، ودخلت إلى العديد من الشوارع الجانبية. وخرجت منها بصورة فجائية. وانطلقت في الشارع العام. ثم عادت منه إلى شارع فرعي آخر. بينما السائق يراقب الشارع خلفه بلا توقف بالمرآة. وكل ذلك للحيلولة دون إمكانية الملاحقة والتعقب.

وقد وصلت الرحلة الخطرة إلى نهايتها في وسط المدينة، فأوقف ليفي سيارة أجرة، وتوجه إلى منزله.

وأضاف.. حاولت التصرف وكأن شيئا لم يحدث، وأعلمت زوجتي أنني سأسافر إلى موسكو، فردت بتأثر، وحماس، فقد كان سفر الإسرائيليين إلى موسكو نادرا جدا آنذاك.

بعد حوالي أسبوع قالت لي زوجتي، إنهم اتصلوا بي من السفارة السوفيتية، وقالوا إن التأشيرة جاهزة، وفي صبيحة اليوم التالي، عاد إلى مكتب التصاريح في القنصلية، فاستقبله بود نفس الشخص الذي قابله، المرة السابقة وسأله عما إذا كان يستطيع السفر إلى موسكو لبعض الوقت؟ فقال ليفي أن بمقدوره تخصيص ثلاثة أيام لهذه الزيارة، فهز الروسي رأسه بتفهم، وطلب منه التوجه إلى مكاتب شركة الطيران "ايروفلوت" وشركة السياحة السوفيتية، للحصول على تذكرة سفر وإقامة في أحد فنادق موسكو.

وفي الثاني عشر من آيار ١٩٨٣، هبطت طائرته في موسكو، وعندما قدم جواز سفره إلى رقابة الجوازات، شاهد ضابطا يهمس إلى الموظف هناك، فقام الموظف بختم جواز سفره، وطلب منه التوجه إلى قاعة المسافرين، وهناك، تقدم منه شخص بلباس مدني. وقدم نفسه له، على أنه موظف في شركة الطيران وحمل حقائبه، وطلب منه مرافقته إلى السيارة التي كانت بالانتظار، وفي الطريق، همس الموظف المذكور: لا شك أنك تعرف من أنا. أرجوك ألا تتكلم أثناء السفر. وانطلقت السيارة مباشرة إلى إحدى شقق (الكي جي بي) في أحد شوارع موسكو، وهناك تعرف ليفي لأول مرة إلى ضابط

ارتباطه، ولدهشته، كان شخصية رفيعة في (الكي جي بي) رئيس شعبة أفريقيا والشرق الأوسط والشرق الأدنى.

لقد اعتبر ليفي بالنسبة (للكي جي بي) كنزا لا يقدر بثمن، لذا، تم التعامل معه بأقصى درجات السرية. وقد شاء حسن طالعنا ألا تولى مهمة اعتصاره إلى عامل صغير من عمال "الكي جي بي"، لأنه كلما كانت الشخصية التي تتولى أمر العميل رفيعه وكثيرة المشاغل كلما كانت عملية استغلاله أقل، ولا شك أن موظف أقل درجة من ضابط الاتصال آنف الذكر، كان سينجح في استخلاص معلومات سرية أكثر منه.

كانت اللقاءات مع رجال (الكي جي بي) تجري طيلة ساعات النهار في الشقة، وفي الليل يعيدونه إلى غرفته في الفندق. وفي اللقاء الأخير الذي أجري معه. طلب منه ضابط اتصاله، أن يحاول حال عودته إلى إسرائيل. العودة للعمل في جهاز أمن، والوصول إلى وثائق سرية.

وقال ليفي لمحققيه الإسرائيليين. "لقد أدركت في هذه المرحلة، أن خطتي الرئيسة القائلة بتقديم معلومات (للكي جي بي)، مرة واحدة، وأخذ المال. وقطع علاقتي. قد أصبحت أثرا بعد عين. (فالكي جي بي) كان معنيا بتواصل العلاقة".

وفي نهاية الحديث بين ليفي وأعضاء (الكي جي بي) قال له ضابط ارتباطه: إن المعلومات التي أدلى بها مثيرة ومهمة. بيد أنها ليست فريدة من نوعها. وبالتالي. فهي لا تبرر منحه مائة ألف دولار. أما إذا ما وافق على مواصلة التعاون مع المخابرات الروسية. وبصورة صحيحة، فسوف يحصل على مبالغ تزيد كثيرا عن مائة ألف دولار. وأن المخابرات قررت دفع مبلغ عشرة آلاف دولار له. إضافة إلى مبلغ ألفي دولار نفقات. وقد تسلم ليفي المبلغ. ووقع على وصل استلام.

وطلب منه ضابط اتصاله، أن يأتي في الخامس عشر من تشرين الأول إلى فينا وينزل في فندق "هيلتون"، حيث سيتصل به شخص ما من الخامسة وحتى السابعة، ويعطيه الأوامر اللازمة.

وقال ليفي لمحققيه الإسرائيليين: "خلال عودتي إلى بانكوك، فكرت بأن علي قطع صلاتي (بالكي جي بي)، وأدركت أنني تورطت، ولن أحصل على المبلغ الذي أريده إلا إذا وافقت على العمل معهم، لكن ترددي لم يدم طويلا، فقد كنت بحاجة إلى المال، وكانت المخابرات السوفيتية، هي المصدر الوحيد الذي يمكن أن يزودني به؛ إضافة إلى أنه كان لديهم مواد تدينني: تقارير بخط يدي، ووصل باستلام المبلغ الذي أخذته.

وكي أزيل الشبهات، توجهت حال عودتي من موسكو إلى ضابط الأمن في السفارة الإسرائيلية، وأعلمته بسفري إلى موسكو، وزعمت أن سفري جاء بتكليف من الأمم المتحدة، وقد أودعت المبلغ في بنك في فينا، وقلت لزوجتي أنني كسبت عشرة آلاف دولار في القمار".

عاد ليفي في حزيران ١٩٨٣، مع عائلته إلى إسرائيل، وفي الثالث عشر من تشرين الأول طار إلى فينا، ونزل في فندق "هيلتون" كما هو متفق عليه، وفي ساعات ما بعد الظهر اتصل به ضابط ارتباطه الذي جاء خصيصا لذلك. وأخذه في سيارة، وطار بها في شوارع فينا، مقتحما شوارع فرعية بصورة فجائية، متجولا هنا وهناك، في محاولة لتضليل أي جهة قد تتعقب السيارة، وفي النهاية، وجد ليفي نفسه في مبنى قديم، هو مبنى السفارة الروسية، وحينها التفت إليه ضابط الارتباط، وقال له: منذ هذه اللحظة سيكون اسمك الشيفري (مارك).

انفـرد الاثنـان في غرفـة معزولـة، وقـام ضـابط الاتصـال بإعلامـه بطبيعـة المعلومـات التي يريدها منه، وقد تم تقسيم هذه المعلومات إلى نوعين: سياسية وأمنية، وتم تزويد ليفي بشيفرة لكتابة الرسائل، وجهاز راديو لتلقي الأوامر التي قد ترسل إليه، وكاميرا حديثة جدا لالتقاط صور للمواقع الأمنية، وأعطي رقم صندوق بريد في فينا، كي يرسل إليه تقاريره الشيفرية، وقيل له: إنه إذا ما علم أن إسرائيل تعتزم شن حرب أيا كانت، فإن عليه أن يرسم علامة متفقا عليها على عامود كهرباء معين في القدس.

المهنـــــدس عــياش

عـاد ليفـي إلى إسـرائيل، وحـاول العمـل في "الموسـاد" أو هيئـة (نتيـف) وهــي الهيئـة الـتي تقـوم بمعالجـة شئون الهجـرة مـن الاتحـاد السـوفيتي. وخـلال لقاءاتــه التاليــة في فينـا، قـدم إلى ضـابط اتصالـه معلومــات سياسـية، إضافـة إلى اسـتكمال معلومـات أمنيــة سابقة. بيـد أنـهم كـانوا يريـدون المزيـد، بـل أن ضـابط اتصالـه لم يخـف خيبـة أملـه الشـديدة مـن عـدم تمكنـه مـن الالتحـاق بجـهاز أمـني مـا. وقـد جـاء المقـابل المـادي أيضـا موازيـا لتلـك المعلومـات، بضعـة آلاف الـدولارات. لقـد حصـل ليفـي في نهايـة المطـاف مـن السـوفيت علـى ثلاثـين ألـف دولار.

قطعـت العلاقـات بـين ليفـي والسـوفيت عـام ١٩٨٩، بقـرار منـه، وعلـى أيــة حـال، لم يكـن السـوفيت مـهتمين بمواصلتـها، ولم يحـاولوا الاتصـال بـه أو مضايقتــه.

ولا شـك أن ليفـي ألحـق إضـرارا جسـيمة بإسـرائيل، فقـد كشـف النقـاب عــن تفـاصيل سـرية حـول بنيـة أجـهزة الأمـن الإسـرائيلية، وقـدم للـروس معلومـات أمنيــة حساسـة حـول مكتـب رئيـس الحكومـة.

وقـد قـدم إلى المحاكمـة فحكمـت عليـه المحكمـة بالسـجن اثنـتي عشـرة سـنة، وفي عـام ١٩٩٩ تم الإفـراج عنـه بعـد تخفيـض ثلـث مـدة عقوبتــه لمسـلكيته الجيـدة في السـجن. ومـن الجديـر بـالذكر، أن جـهاز الأمـن العـام، عــارض لفـترة طويلــة، إطـلاق سـراحه، وفي إطار صفقة الإفـراج عنـه، حظـر عليـه التحـدث مـع وسـائل الإعـلام.

إن خطـورة المعلومـات الـتي قدمـها ليفـي للـروس تعـادل خطـورة المعلومــات الـتي قدمـها لهـم البروفيسـور مـاركوس كلينجبـيرج، وهـو عـالم مشـهور، كـان يعمـل نائبـا لمديـر

المعهد البيولوجي في (نستسيونا). وقد تم اكتشافه قبل تسلمي منصب رئاسة الجهاز. وحكم بالسجن لمدة عشرين سنة بتهمة التجسس للسوفيت.

لقد خدم ماركوس خلال الحرب العالمية الثانية في الجيش الأحمر، برتبة كولنيل، وفي عام ١٩٤٨ زرعته المخابرات السوفيتية في إسرائيل. وقد عمل ماركوس بدوافع أيديولوجية. وقد سجن الاثنان في فترة ما معا، بيد أن ماركوس وجد صعوبة في تحمل ليفي، مما اضطر إدارة السجن لنقل ليفي إلى مكان آخر.

وقبل بضعة سنوات من إنهائي مهام عملي، توجه إلي العديد من الشخصيات العامة للعمل من أجل منح ماركوس عفوا، أو تحسين شروط اعتقاله أو إتاحةالفرصة له للخروج في إجازات. وعندما تشاورت مع محققي الجهاز الذين حققوا معه، عارضوا الإفراج عنه بشدة لثلاثة أسباب:

- لا زالت لديه معلومات سرية خطيرة، ولا يجب المخاطرة بأن يسلمها إلى أي جهة أخرى.
- لقد أفشى أسرارا خطيرة للدولة، وسلمها إلى جهة معادية، ويجب أن يدفع الثمن كاملا.
- عدم الإفراج عنه سيعتبر عاملا رادعا لغيره.

اختطاف تاجر المجوهرات:

خرج تاجر المجوهرات شاؤول مشعانيا من منزله في "بيت يام"، صبيحة الثالث والعشرين من آب ١٩٨٩، وتوجه إلى طولكرم، لعمل ما. ومشعانيا، هو يهودي من أصل سوري. وقد كان يحقق أرباحا جيدة من بيع الحلي الذهبية لأصحاب محلات الذهب في المدن العربية، الذين كان يقيم معهم علاقات تجارية منذ سنوات طويلة.

وكـان في البدايـة، يتوجـه إلى طولكـرم بسـيارته، لكـن وبعـد قيـام مجـهولين بتخريبـها عـدة مـرات، أخـذ يتركـها في "قلنسـوة" في المثلـث، ويسـتقل سـيارة صغـيرة إلى هنـاك.

وحينمـا أقـترب في حـوالي السـاعة الثانيـة عشـرة مـن أول حـانوت مجوهـرات يتعـامل معـه، هاجمـه شـابان، وحـاولا أخـذه معـهما، لكنـه نجـح في التخلـص منـهما، ولجـأ الى الحـانوت. وقـد سـارع صـاحب الحـانوت إلى إغـلاق البـاب، وتقديـم كـأس مـاء لليـهودي المرعـوب. وبعـد قليـل، نظـر صـاحب الحـانوت خارجـا، وحينمـا لم يشـاهد الشـابين اقـترح علـى مشـعانيا أن يسـارع إلى موقـف السـيارات ويسـتقل أول سـيارة تقابلـه إلى "بيـت يـام".

سـارع مشـعانيا إلى موقـف السـيارات، واسـتقل السـيارة الواقفـة علـى رأس الدول، وكـان فيـها عـدد مـن المسافرين، ومـا كـاد السـائق يحـرك السيارة، حتـى قـدم شابان مسلحان، وأرغمـا الركـاب علـى النزول باسـتثناء مشـعانيا والسائق، وأمـرا السـائق بنقلـها إلى منطقـة قرويـة تقـع بـين طولكـرم ونـابلس. وفي إحـدى القـرى أمـرا السـائق بـالتوقف، وترجلا مـن السـيارة ومعـهما مشـعانيا، وأمـرا السـائق أن يعـود السـاعة الرابعـة لأخـذ مشـعانيا، عـاد السـائق إلى طولكـرم، وانتظـر بعـض الوقـت، ثـم توجـه إلى محطـة الشـرطة وأعلـم رجـال الشـرطة هنـاك بمـا حـدث معـه. ولم يكـن يعـرف الخـاطفين. بيـد أنـه وصفـهما، وقـال أن أحدهمـا بـدا وكأنـه سوداني. وقـد تم إرسـال المعلومـات فـورا إلى مركز جـهاز الأمـن العـام في لـواء طولكـرم.

وصلـت معلومـات فيمـا بعـد إلى الجـهاز في طولكـرم بيـد أنـها، جميعـا، لم تكـن تشير إلى هويـة المخطـوف، وكـل مـا عرفنـاه، هـو أن لقبـه أبـو موسـى. وفي سـاعات المسـاء.

أفـادت إحـدى عـاملات الجـهاز، أن أحـد أقاربـها ويدعـى شـاؤول مشـعانيا، ذهـب إلى طولكـرم، في ساعات الصباح، ولم يعـد. فقدرنـا أنـه هـو المخطـوف.

وفي حـوالي منتصـف الليـل، تمكنـا مـن العثـور علـى صـاحب الحـانوت الـذي حدثـت المحاولـة الأولى للاختطـاف أمـام محلـه. وقـد أعلمنـا باسم الشـابين، واتضـح أنـهما معروفـان لنـا أيضـا، فقـد تم الإعـلان عنـهما قبـل أيـام معـدودة مـن الاختطـاف كمطلوبـين جـراء تنفيذهمـا عـدة عمليـات ضدنـا، وقـد عـرف الأول باسـم "كوشـي" الأسـود باللغـة العبريـة- والثـاني خـالد. وقـد علمنـا أنـهما يسـيران علنـا في شـوارع طولكـرم، لكننـا لم ننجـح في اعتقالهمـا.

أجرينـا نقاشـا طارئـا بمشـاركة الضبـاط الميدانيـين، والمحققـين في المنطقـة. وقررنـا اعتقـال كـل مـن نشتبه بوجـود علاقـة لـه بـالاثنين. والتحقيـق مـع جميـع تجـار المجوهـرات في المدينـة. وفـرض نظـام حظـر التجـول علـى المنطقـة. وعلـى المنطقـة الـتي توجـهت إليـها السيارة الصغـيرة.

تمكنـا، في نفس الليلـة، مـن الحصـول علـى معلومـات أخـرى. حيـث قـال أحـد مصادرنـا. أنـه شـاهد شـخصين تشبـه أوصافـهما أوصـاف الشـخصين المشبوهين في سـيارة مـن طـراز "اسـكورت" صفـراء بيـد أننـا لم نعـثر علـى طـرف خيـط. قررنـا تركـيز جـهدنا علـى قريـة "كفـر عبـوش". الـتي أطلقـت منـها في السـابع مـن تمـوز ١٩٧١، أربعـة صواريـخ باتجـاه "بيتـح تكفـا". كـان الفـاعلون آنـذاك يسـعون إلى ضـرب مطـار بـن غوريـون. بيـد أن خطـأ في التوجيـه حـال دون بلـوغ الهـدف. وقـد أسـفرت العمليـة عـن قتـل شـخصين. وإصابـة تسـعة عشر آخريـن بجـراح، وإصابـة عـدة مبـان في المدينـة بـأضرار. إضافـة إلى أننـا عثرنـا

في منتصف آذار ١٩٨٦ على جثة الجندي ديفيد منوس الذي اختطف في تشرين الثاني ١٩٨٤.

واستدعينا قوات كبيرة لتطويق القرية، وقامت طائرات الهليوكبتر بالتحليق فوقها. وقام قصاصو الأثر بالتفتيش عن علامات لجر جثة في الأعشاب المحيطة. وفي أحد الحقول شاهدنا شابا حاول الفرار منا، فاعتقلناه، واتضح أن اسمه صبحي، لكنه نفى أن تكون لديه أي علاقة بالاختطاف. وقال أنه عمل مع شاب آخر من قرية أخرى في الحقول، فذهبنا إلى منزل هذا الشاب، وسألناه إن كان قد عمل مع صبحي في الحقول، فنفى ذلك تماما، فحملناه معنا في طائرة الهليوكبتر لمواجهتهما.

واصلنا التحقيق مع صبحي، فانهار في ساعات الصباح، وقال أنه لم يكن شريكا في عملية الاختطاف، لكن شخصا يعرفه طلب منه أن يحضر طعاما إلى أحد كروم الزيتون في مدخل القرية وعندما وصل إلى الكرم، شاهد أحد سكان القرية وإلى جواره يهودي موثق بالحبال، قام هذا الشخص بإنزال اليهودي إلى بئر ماء عميق. لقد كان باب البئر صغيرا بحيث لا يزيد عن أربعين سنتيمترا، وعندما تم وضع حجر كبير على الباب، لم يكن يخطر لأي كان أن هناك بئر ماء.

مر يومان منذ الاختطاف، وأدركنا أنه إذا ما تم إلقاء مشعانيا في بئر الماء حقا، فإن فرص العثور عليه حيا ضئيلة جدا. وقد توجهنا إلى هناك فورا، وبصحبتنا قائد القطاع الأوسط إسحق مردخاي، واضطررنا لاجتياز مسافة كبيرة سيرا على الأقدام، وقد عثرنا على الحجر بسهولة، فرفعناه، وانحنى إسحق مردخاي ونادى بصوت عال: مشعانيا. وبعد لحظات جاءنا صوت ضعيف من عمق أربعين مترا يقول: "لقد جاء الله لإنقاذي، شكرا يارب".

تم تخليص مشعانيا من البئر، فأقام احتفالا كبيرا بنجاته، وقد علمت فيما بعد أنه هاجر هو وأسرته إلى كندا.

مضت عدة أسابيع قبل أن ننجح في اعتقال المطلوبين اللذين اختطفاه، وقد زعما أنهما كانا يريدان الاحتفاظ به كرهينة بغية إطلاق سراح معتقلين فلسطينيين.

أدت النجاحات التي أحرزها جهاز الأمن العام إلى جعل رجال المنظمات أكثر حذرا وحكمة في ممارساتهم، وكثيرا ما اضطررنا لمواجهة وسائل تعمية وتضليل أعدت لوضع العقبات في طريقنا. ففي صيف ١٩٩١، حاولنا عبثا العثور على خلية كبيرة للجبهة الشعبية، كانت قد انتظمت في منطقة القدس. وكان طرف الخيط الذي يوصلنا بهذه الخلية: هو أحد عملائنا الذي انضم إلى الجبهة، بيد أن استخدامه من قبل المسئولين كان حذرا للغاية، بوصفه مبتدئا لم يعرفوا بد ماهيته، وبالتالي، لم يكن يتلقى أوامره إلا عبر نقطة ميتة، بغية الحيلولة دون أي اتصال مباشر. وكانت هذه النقطة، عبارة عن بئر صغير مغطى بحجر بالقرب من أرجوحة في حديقة عامة. وكانت الرسائل التي توضع فيه، هي توجيهات أيديولوجية، بصورة عامة. وهو أسلوب الجبهة في رفع مستويات أعضائها.

ولا شك أنه كان بمقدورنا، أن نضع رقابة على البئر ونلقي القبض على الشخص الذي يقوم بوضع المادة، بيد أننا كنا نريد إلقاء القبض على الكادر التنفيذي للخلية. وليس على (عامل البريد) الذي يوزع المادة.

طلبنا من عميلنا أن يضع رسالة في النقطة الميتة يقول فيها أنه عثر على قنبلة يدوية في مكان ما، وأخذها إلى بيته، ويريد أن يعرف ما الذي يتوجب عليه عمله بها؟؟ وقد فعل عميلنا ما أمرناه به، وعندما عاد إلى البئر، بعد ثلاثة أيام، وجد

رسالة رد مفصلة، جاء فيها: أنه يجب عليه، في تاريخ معين، في الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، أن يحفر حفرة في مكان تم تحديده بالقرب من حي سكني في مدينة عربية ويدفن القنبلة فيها.

سلمناه قنبلة بعد أن جعلناها غير صالحة للاستخدام، وقام هو بدفنها وفقا للأوامر، اختبأ جنود الوحدة الميدانية في المكان لمتابعة ما يحدث، وبعد حوالي ثلاث ساعات، جاء شخص ما إلى المكان في سيارة وتفحص ما حوله كي يتأكد من عدم وجود من يراقبه، وحفر مكان القنبلة، وأخذها، وصعد إلى السيارة، وأتجه نحو رام الله وقد تعقبناه حتى عمارة سكنية قريبة من المنطقة الصناعية. ورغم صعوبة وضع رقابة في المناطق العربية، إلا أننا لجأنا إلى العديد من الأساليب، كي يبقى البيت في مجال رؤيتنا. والتقطنا صورا لجميع الداخلين والخارجين، وتعقبنا غالبية الخارجين منه، بل واعتقلنا أحدهم حينما وصل إلى مخيم الأمعري، بيد أننا لم ننجح في استقاء أية معلومات منه.

حاولنا معرفة من هم سكان العمارة، دون جدوى، فقد اتضح أن جميع الشقق مؤجرة، ولا توجد قائمة بأسماء سكان العمارة. وفي نهاية المطاف، قررنا مداهمة العمارة من خلال خطة متبعة من قبل، فقد انتهزنا فرصة وقوع عملية رشق حجارة بالقرب من المكان. ودفعنا بوحدة إلى العمارة. وقام الجنود بفحص كل شقة وتفتيشها. بحجة البحث عن مشبوهين برشق الحجارة. وعندما دقوا على إحدى الشقق ولم يتلقوا ردا، اقتحموها. ومن خلال المعلومات التي جمعناها، والمستندات التي عثرنا عليها في الشقة، اتضح أنها مؤجرة لشاب من غزة وشقيقته، وأنهما عضوان في الجبهة الشعبية. وعثرنا في الشقة على شاب خائف، كان يحاول إحراق مستندات. بيد أننا هاجمناه

وأخذناها منه. لكننا لم نعثر فيها على أي شيء مريب ظاهريا. لكن التجربة علمتنا أنه لا يجوز الحكم على الأشياء ظاهريا. فقمنا بفحص كل سنتيمتر في الشقة. حتى وصلنا إلى المطبخ، وعندما دققنا على جدار المطبخ، رجع إلينا صليل يدل على أن هناك فراغا ما في الجدار، وعندما بدأنا بنزع الطوب، اتضح لنا أنه ملصق على لوح خشب على شكل باب. وعندما نزعناه وجدنا أمامنا ثغرة واسعة. يجلس فيها عربي القرفصاء، واتضح من هويته أنه من شفاعمرو وبطاقة الهوية التي كانت بحوزته مزيفة.

واصلنا عملية التفتيش والبحث. فعثرنا على حائط آخر أثار ريبتنا. وشكوكنا. فقمنا بحفره، وعثرنا في داخله على شخص آخر اتضح أنه أحد المطلوبين الذين نفتش عنهم منذ خمس سنوات، وعثرنا داخل هذه الحفرة على كنز. وثائق مختلفة. وأختام خاصة بوزارة الداخلية والإدارة المدنية. وبطاقات هوية إسرائيلية. وكاميرات حديثة وملابس تنكرية. وباروكات شعر وشنب وذقون مستعارة بأشكال وأحجام مختلفة وآلة طباعة وعشرات آلاف الدولارات.

لقد عثرنا على حوالي خمسمائة مستند تضم أسماء حوالي ثلاثمائة من أسماء نشطاء الجبهة الشعبية في القدس ورام الله وأريحا. واكتشفنا وجود علاقة واضحة بين الجبهة الشعبية وحركة "أبناء البلد". في أم الفحم. وفهمت الكثير عن أسلوب تفعيل الجبهة. وبنيتها القيادية. وجهازها المالي. وما شابه ذلك.

ومن الجدير بالذكر. أن حركة "أبناء البلد". هي حركة عسكرية أنشئت في كانون الأول ١٩٧٣. وقد رفع أعضاؤها لواء عدم شرعية إسرائيل الصهيونية وعملوا من

أجل إقامة دولة علمانية ثنائية القومية، على جميع أرض فلسطين، وبناء على ذلك، رفعوا الشعار القائل: "الخليل مثل الجليل".

وقد استهلوا نشاطاتهم بالدعوة إلى مقاطعة الانتخابات الإسرائيلية للكنيست الثامنة، وأعلنوا معاداتهم لاعتدال حزب (راكاح) -الحزب الشيوعي الإسرائيلي، ثم أنشأوا سلسلة من الهيئات، للدفاع عن المعتقلين السياسيين، للنساء العربيات، للشبيبة العربية، للدعاية وغيرها وغالبية أعضائها كانوا من الطلبة، وأصبح لديها ممثلون في غالبية المجالس المحلية.

وفي عام ١٩٨٣، انشق عن الحركة جناح الأنصار والذي انضم إلى القائمة التقدمية للسلام، في حين واصل الباقون نشاطاتهم حتى منتصف التسعينات، أرسلوا خلالها عريضة إلى سكرتير الأمم المتحدة ضد الهجرة اليهودية، من الاتحاد السوفيتي، وتنظيم عمليات تأييد العراق، إبان حرب الخليج عام ١٩٩١.

اعتبر جهاز الأمن العام عملية مواجهة وملاحقة المطلوبين بمثابة أعقد وأصعب عمليات الجهاز وأصبحت هذه المهمة أكثر تعقيدا وإلحاحا إبان الانتفاضة، نظرا لتحول هذه النواة الصلبة إلى بؤرة مهيمنة تدور حولها أعمال العنف في الضفة والقطاع، فقد أدخلت هذه النواة الصلبة إلى الانتفاضة الشعبية عملية الاستخدام الموسع للأسلحة النارية، ونفذت العديد من العمليات ضد المدنيين الإسرائيليين، وخصوصا عمليات الطعن بالسكاكين. والتي قتل خلالها عشرات الإسرائيليين، وأصيب المئات بجراح.

كانت غالبية المطلوبين شبانا تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والرابعة والعشرين، كما كان من بينهم فتيات عزباوات. وغالبيتهم العظمى كانت تعمل على

مسـئوليتها الخاصـة، دون انتمـاء إلى أي منظمـة، حيــث نمــوا مــن خــلال الاحتجــاج والمقاومـة الــتي تجسـدت في البدايـة في صـورة رشـق الحجـارة والمظـاهرات، وسـرعان مـا تحولـوا نحـو القيـام بعمليـات مسلحة ضـد القـوات الإسـرائيلية، والمدنيـين الإسـرائيليين. وقتـل العمـلاء الفلسـطينيين، وقتـل تجـار المخـدرات والمومسـات والقواديـن، باعتبـارهم جهات خطـرة علـى المجتمـع الفلسطيني بصـورة لا تقـل عـن العمـلاء.

ويمكننـا تقسيم المطلوبـين إلى ثـلاث مجموعـات:

- المجموعـة الأولى، مـن المطلوبـين الذيـن نفـذوا عمليـات بشـكل أو بـآخر، وخشـوا من أن نكـون قـد اكتشـفنا أمرهـم، ففضلـوا الاختبـاء خشـية اعتقـالهم.
- المجموعـة الثانيـة هـي "أعضـاء اللجـان الضاربـة" الـتي قـادت الانتفاضـة وعمليـات رشـق الحجـارة، وقتـل المشـبوهين بالتعـاون مـع إسـرائيل.
- المجموعـة الثالثـة، وهـي قليلـة نسـبيا، فـهي المجموعـة الـتي صـدرت بحقـها أحكـام اعتقـال إداري.

ومـن الجديـر بـالذكر، أنـه كـان هنـاك سبب وجيـه بالنسـبة للمجموعـة الأخـيرة للاختبـاء، فقبـل تغيـير القـانون الأخـير، كـان قـرار الاعتقـال الإداري يعتـبر سـاري المفعـول مـن لحظـة إصداره وليـس مـن لحظـة تنفيـذه، فلـو أن الأمـر صـدر بالاعتقـال الإداري لمدة ثلاثـة أشـهر، ونجـح المطلـوب بالاختبـاء شـهرين، فـإن عليـه قضـاء شـهر واحـد فقـط لإكمـال المـدة. وقـد تم تغيـير هـذا القـانون، بحيـث يلغـي أمـر الاعتقـال الإداري الـذي يصـدر ضـد مطلـوب، حتـى إلقـاء القبـض عليـه، وفي نفـس يـوم إلقـاء القبـض عليـه، يصـدر أمـر الاعتقـال الإداري، شـريطة أن يتـم تقديـم أدلـة جديـدة تجرمـه.

تزايد إصرار المطلوبين، مع مضي الزمن، على توجيه ضربات عسكرية للأهداف الإسرائيلية: المواقع، ونقاط الرقابة، والدوريات، ومواجهة الجنود الإسرائيليين. رغم أنهم عرفوا أن فرص نجاتهم في مثل هذه العمليات، ليست كبيرة. وقد شهد عام ١٩٩٠، تسعا وخمسين عملية، من هذا القبيل وشهد عام ١٩٩١، مائة وعشرين عملية مع نزوع نحو التصعيد المستمر.

لقد طاردنا المطلوبين دون كلل أو ملل، مما اضطرهم للاختباء في المغائر والشقق السرية، والأماكن الآمنة، فقد كانوا يدركون أن الاصطدام بقواتنا قد ينتهي بالموت، وإذا ما ألقي القبض عليهم أحياء، فهناك بانتظارهم عمليات التحقيق الطويلة، ثم أحكام طويلة بالسجن. لكنهم كانوا يؤمنون بأن بمقدورهم توجيه الضربات لنا، دون أن نتمكن من وضع يدنا عليهم.

لقد شملت قوائم المطلوبين في بعض الأحيان ألفي أسم، غالبيتهم العظمى تنتمي إلى الفهد الأسود، التي كانت إطارا للعمليات العسكرية. وكان أحد هؤلاء المطلوبين أحمد يحيى عياش، المعروف بـ "المهندس"، نظرا لكفاءته العالية في إعداد المتفجرات وقد اكتشفنا هويته خلال التحقيق الذي أجريناه في أعقاب اكتشاف السيارة الملغومة في (رمات افعال) ليلة الحادي والعشرين من تشرين الثاني ١٩٩٢، وقد عثر "المهندس" على مخابئ في أماكن مختلفة وواصل التخطيط للعمليات ضد إسرائيل. لقد حولته عمليات التفجير الكبيرة. التي خطط لها، إلى هدف يحتل رأس قائمة المطلوبين. لكن عياش جعل الوضع صعبا جدا بالنسبة لنا، فقد كان ينام كل ليلة في مكان، ولم يكن يشرك الآخرين في مخططاته حتى ولا لنفس اليوم، وعرفنا أنه يحظى بتقدير كبير جدا، وتعاون من الجماهير.

داهمت قوات الأمن منزل عائلة عياش بين الفينة والأخرى، وقمت أنا بمرافقتها مرة واحدة للتعرف عن كثب، على البيئة التي نما فيها هذا المطلوب القاسي جدا. وقابلت أبناء عائلته: والده وأمه وزوجته التي كانت حاملا.

ووجدت أمامي عائلة مزارعين فقيرة، تعيش في ظل شروط صعبة للغاية. وبدا الأب صامتا وخانعا، لزوجته الشديدة، والتي شجبت إسرائيل بصورة متواصلة. وبررت النضال الفلسطيني، وأكدت أن ابنها بريء من التهم التي ننسبها إليه. ولم تسمح لزوجها بفتح فمه. لقد أدركت، عندما سمعت هذه المرأة، من أين تشرب ابنها كراهية إسرائيل.

ومن الجدير بالذكر، أنه تم تصفية المهندس في نهاية المطاف، عبر وضع عبوة ناسفة في هاتفه الخلوي في الخامس من كانون الثاني ١٩٩٦. وقد اعتبرت مقتله بمثابة دلالة على الفشل نظرا لأنه جاء متأخرا جدا.

تعتبر الملاحقة التي قمنا بها لعماد حسان إبراهيم، من سكان مخيم جباليا. إحدى الملاحقات الأكثر تعقيدا وإحباطا. كان عماد في الثالثة والعشرين من العمر ويترأس الجناح العسكري لحركة حماس -كتائب عز الدين القسام. وقد ألصقنا به لقب "المطلوب ذي الأرواح السبعة" بسبب عمليات التنكر التي كان يقوم بها للإفلات من أيدينا. ومن ضمنها التنكر في زي امرأة تخفي وجهها بحجاب. ويهودي يرتدي قبعة متدينيين-ومن الجدير بالذكر. أن هذا التنكر كان شائعا في أوساط المطلوبين-أما سكان قطاع غزة. فقد أطلقوا عليه لقب "الزئبق. والعفريت".

كان عماد خطرا وشديد القسوة. وقد جند العديد من النشطاء لحركة حماس. ودربهم على العمليات العسكرية ضد إسرائيل. بل وشارك بنفسه في العديد من هذه

العمليات–وعلى وجه الخصوص كمائن إطلاق النار، والتي قتل خلالها أحد عشر جنديا إسرائيليا، ومدني واحد، وأربعة فلسطينيين وقد سجل اسمه في قائمة المطلوبين منذ كانون الثاني ١٩٩١، ولم تصل إليه عملية المطاردة إلا بعد سنتين.

بذل جهاز الأمن العام عشية الانسحاب من قطاع غزة وأريحا، جهدا هائلا، لإلقاء القبض على المطلوبين العاملين في القطاع، الذي كان على وشك تسليمه للفلسطينيين.

وفي الرابع والعشرين من تشرين الثاني ١٩٩٣، أي قبل ثلاثة أسابيع فقط من الإخلاء. وصلت إلينا معلومات من مصدر في حماس، تفيد بأن عماد عثر على ملجأ في شقة سرية في حي "الشجاعية" في غزة. فقامت قوة من وحدة المستعربين (شمشون) بتطويق المنزل. لاحظ عماد القوة، وفر من البيت إلى سيارة بصحبة مطلوب آخر. فطوق الجنود السيارة، بيد أن عماد أطلق النار عليهم، فرد الجنود على النار بالمثل فأصابوه بجراح أدت إلى وفاته. لقد كانت هذه العملية من أنجح العمليات التي حققها جهاز الأمن.

كانت جنين ونابلس في شمال الضفة الغربية، بؤرة لنشاطات النواة الصلبة من المطلوبين. وكذلك رفح وخانيوس في قطاع غزة. وتلقينا معلومات مثيرة للقلق حول تجهيز المطلوبين بالأسلحة والبنادق والمسدسات، لكن أكثر ما أقلقنا هو بدء عملية متاجرة بالسلاح بين المطلوبين والعرب في إسرائيل، وخصوصا في قرى حدود التماس والتي عثر فيها المطلوبون أيضا على مأوى.

لقد استند المطلوبون في عملياتهم ونشاطاتهم، إلى حد كبير، على التراجع التدريجي الذي أصاب قوة الردع العسكرية، في أعقاب الانتفاضة، وقد جاءت عمليات

التعرض للجنود الإسرائيليين إضافة إلى الحوافز والأسباب الوطنية، انتقاما لعمليات المطاردة المكثفة التي قام بها الجيش وجهاز الأمن العام لهم. فقد قمنا بعشرات المطاردات التي قتل خلالها العديد من كبار المطلوبين، أو ألقي القبض عليهم، فقد تم اعتقال أحمد عواد كميل رئيس خلايا "الفهد الأسود" في جنين، الذي كان اسمه يحتل رأس قائمة المطلوبين، في شمالي الضفة الغربية.

كان كميل مسئولا عن العديد من العمليات في منطقة جنين، بما فيها قتل جندي إسرائيلي، كان يقوم بحراسة ناقلة بترول، ودرزيين إسرائيليين، إضافة إلى قتل فلسطينيين من اشتبه بتعاونهم مع إسرائيل.

نجحنا في الإمساك بطرف الخيط بالنسبة لكميل في أعقاب التحقيق مع أحد أعضاء "الفهد الأسود"، الذي ألقينا القبض عليه، قبل ذلك بعدة أسابيع. فقد حدد عددا من الأماكن التي اعتاد أعضاء جماعة كميل الاختباء فيها، فأجرينا عمليات مراقبة واسعة، قبل أن نقرر مداهمة منزل معين في قرية (كوفير) ليلة الثامن والعشرين من أيلول ١٩٩٣، وأعددنا قوة من الجيش الإسرائيلي والوحدة الخاصة التابعة للشرطة. وقد طوقنا المنزل وألقينا القبض على كميل. ومعه اثنان من كبار المطلوبين. وعثرنا بحوزتهم على أسلحة وعبوات ناسفة ومخططات للقيام بتنفيذ عمليات داخل إسرائيل. وقد استسلم كميل دون قتال.

لكن ذلك لم يحدث دائما، على هذا النحو. مثلما حدث عندما حاولنا اعتقال أحد كبار مطلوبي حركة "حماس". الذي تم إطلاق سراحه من السجن بعد أربع سنوات اعتقال. وعاد لممارسة العمل المسلح ضدنا حال خروجه. وقد شكل خلية من أبناء قطاع

غـزة والخليـل. ومـن الجديـر بـالذكر أنـه كـانت في تلك الآونـة حركـة اتصـال واسـعة بـين قطاع غزة والخليل ممـا جعـل هـذه الصلـة مسألة ليست شـاذة.

لقـد خطـط المطلـوب المذكـور، لسلسـلة مـن عمليـات إطـلاق النـار علـى سـيارات إسـرائيلية ومسـتوطنات في منطقـة الخليـل، وأفـادت المعلومـات الـتي بحوزتنـا أن لديـه كمـا هـائلا مـن الأسـلحة والذخـائر، وأشـار المصـدر الـذي زودنـا بالمعلومـات، إلى عنـوان في منطقـة الخليـل يختبـئ فيـه الشـخص المطلـوب، مـع مطلـوب آخـر مـن حركـة "حمـاس". وفي أعقـاب هبـوط الظـلام توجـهنا إلى هنـاك بصحبـة قـوة مـن الوحـدة الخاصـة، وسـرنا مطـولا علـى الإقـدام. حتـى وصلنـا إلى الهـدف—وهـو مبنـى صغـير مؤلـف مـن طـابق واحـد، يقـع في أسـفل واد. طوقنـا المـنزل، ووضعنـا حواجـز عديـدة في المنطقـة كلـها، بغيـة الحيلولـة دون احتمـال فـرار المطلوبـين. ومـع الفجـر دعونـاهم بمكـبرات الصـوت للاستسـلام.

تمترسـت خلـف أحـد السـواتر علـى بعـد ثلاثمائـة مـتر مـن البيـت. وقـد سمحـت لقـائد العمليـة بتنفيـذ المهمـة الموكلـة إليـه، دون أي تدخـل مـني، فقـد كـان يـدرك أكـثر مني، مـا يجـب عملـه.

حـدث تبـادل إطـلاق نـار، طيلـة سـاعتين، وفجـأة، شـاهدنا المطلوبـين يحـاولان الفـرار عـبر فتحـة خلفيـة وهمـا يحمـلان كميـة كبـيرة مـن الأسـلحة، وقـد أطلقـت القـوة النـار عليـهما وقتلتـهما.

لقـد كـان المطلوبـون يدركـون، دائمـا، أن فتحـهم النـار علـى القـوة القادمـة لاعتقـالهم يجعـل فـرص نجاتـهم ضئيلـة للغايـة. لكـن قسـما منـهم كـانوا لا يبـالون لأنـهم سـيكونون شـهداء مقدسـيين والبعـض الآخـر، اعتقـدوا أنـهم سـيتمكنون مـن الفـرار تحـت

النـيران، وكنـا دائمـا نمتنـع عـن المخـاطرة أكثر ممـا ينبغـي، فعندمـا اصطدمنـا بـإطلاق النــار كنا نغــرق الهـدف بالنـيران الكثيفـة.

في الغـالب، كـان المطلوبـون عنيفــين جــدا، فقـد قتلــوا دون رحمــة يــهودا وعربــا ممـن اشـتبهوا بتعاونـهم مـع إسـرائيل، وكـان بعـض ضحايـاهم أبريـاء ومواطنـين ممــن تمثــل خطـأهم الوحيـد في قيامـهم بزيـارة مبنـى الحكـم العسـكري لمـرة واحـدة بغيـة طلـب المســاعدة لقريـب مريـض.

بـدت جـرأة المطلوبـين كبـيرة إلى الحـد الـذي كـانوا يعملـون فيـه علنـا وفي وضـح النـهار. فقد اعتـبروا هـذه الخطـوة، بمثابـة عمليـة ردع للجماهـير المحليـة.

اتخـذ المطلوبـــون–وخصوصــا الشـخصيات الكبـيرة منــهم–أســاليب حــذر شـديدة جـدا، للحيلولـة دون وقوعـهم في أيدينـا. ولم يكونـوا يخرجـون مـن مخابئــهم، قبــل أن يقــوم الحــراس الملازمـون لهـم بجـولات في المنطقـة للتــأكد مــن خلوهــا مــن رجـــال الأمــن الإســرائيليين.

واتفـق المطلوبـون والحـراس دائمـا، علـى أســاليب تحذيـر خاصــة، مثــل الصفـير، أو (الـدق علـى) زجـاج النوافـذ، أو التلويـح بخـرق حمـراء. وعندمـا كـان يقــال لشــخص مـا، أنـه مرشـح لأن يكـون مـن بـين حـراس أحـد المطلوبـين رفيعـــي المسـتوى، كـان يعتــبر ذلـك فخـرا لـه، وقـد حلـم الكثـيرون بـأن يكونـوا مـن حـراس "المـهندس"، بيـد أن قلـة هــي الـتي حظيـت بذلـك.

لقـد عـثر الكثـير مــن المطلوبـين علــى ملجـأ في البلــدة القديمــة في نـابلس، ومــن هنـاك، كـانوا ينطلقـون للعمـل ضـد إسـرائيل، وكـان نـاصر عمـاد أحـد هـؤلاء المطلوبـين، الـذي صفـى بقسوة العديـد مـن المتعـاونين، ونظـف المنطقـة مـن المومسـات وتجـار المخــدرات. وكــان

ورجالـه، يلقـون القبـض علـى المشـبوهين ويعذبونـهم حتـى يعـترفوا بمـا نسـب إليـهم، وكـانت إحـدى وسـائل تعذيبـه أن يدفـن المحقـق معـهم أحيـاء، ثـم يخرجـهم منـه، عندمـا يبـدأون بالاختنـاق، وكـان يطلـق النـار علـى سـيقان المحقـق معـهم، ويكويـهم بـالحديد المحمي، وبعد أن يعـترفوا بكـل مـا ينسـب إليـهم كـان يطلـق النـار علـى رؤوسـهم.

كمنـا لـه زمنـا طويـلا، وجمعنـا المعلومـات معلومـة إثـر الأخـرى حـول نشـاطه داخـل البلـدة القديمـة، وسـاعات العمـل الـتي يحبـها، ولدهشـتنا البالغـة، لم نتمكـن مـن اعتقاله، رغـم أننـا نشـرنا الكمـائن في الأمـاكن الـتي يفـترض أن يتواجـد فيـها.

وبعـد فـترة، اتضـح لنـا سـبب عـدم تمكننـا منـه، فقـد عرفنـا أنـه اعتـاد التنكـر في زي امـرأة، وسـتر وجهـه بحجـاب، وفي نهايـة المطـاف، تكللـت مسـاعينا بالنجـاح: فعندمـا توجـه ذات مـرة للعمـل، وهـو يرتـدي زي امـرأة أحطنـا بـه وبرجالـه، وقـد قتـل في تبـادل إطلاق النـار بيننـا وبينـه، عندمـا تبـين لـه أنـه وقـع في المصيـدة.

كـان لا بـد لنـا، ونحـن نحـارب المطلوبـين، مـن الاسـتعانة بالمصـادر البشـرية، وكـانت المخـاطرة الـتي يتحملـها العمـلاء كبـيرة جـدا، فـأي شـكوك أيـا كـانت ضئيلـة يمكـن أن تفضـي إلى تصفيتـه.

كـان أحـد أهـم عملائنـا في غـزة، هـو مـهرب غـزي جـريء، اعتـاد أن يبحـر بسـفينته إلى الميـاه الإقليميـة المصريـة، ويلتقـي هنـاك بسـفن مصريـة تنقـل إليـه مختلـف أنـواع البضـائع، الـتي يمكـن بيعـها بأربـاح كبـيرة، في الضفـة الغربيـة وإسـرائيل.

سمحنـا لـه فـترة طويلـة بالتـهريب، وتغاضينـا عـن ذلـك، وحرصنـا علـى ألا يكـون أي زورق إسـرائيلي في المنطقـة، عندمـا يقـوم بعمليـة النقـل مـن السـفن المصريـة إلى سـفينته، وسرعان ما شاع ذلـك في قطـاع غـزة، واكتسـب سمعـة أنـه مـهرب يمكـن الاعتمـاد عليـه.

كنا نفضل، بصورة مبدئية، إلقاء القبض على المطلوبين في البر، لأن القبض عليهم في البحر صعب نظرا لأن زوارق الصيد المزودة بمحركات قوية، كانت قادرة على المناورة بمهارة، بل وهي أسرع من الزوارق الحربية الإسرائيلية.

وفي أحد أيام الشتاء، أعلمنا المهرب المذكور في كانون الأول ١٩٩٠ أن أربعة مطلوبين يرغبون في الفرار إلى مصر في زورقة. كان الأربعة من بين الذين نفذوا العديد من العمليات في القطاع. وفتشنا عنهم زمنا طويلا، دون جدوى. وهاهي الفرصة قد لاحت أخيرا لإلقاء القبض عليهم، لذا، عمدنا إلى إعداد جميع الخطوات اللازمة لإنجاح العملية. فقامت زوارق سلاح البحرية بالإبحار على بعد قليل. ونصبنا كمائن على الشاطئ، وحلقت المروحيات على ارتفاعات شاهقة للمراقبة. وتوجهت أنا وأعضاء القيادة إلى مرفأ صغير بالقرب من دير البلح.

وفي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، قدمت سيارة جيب إلى الشاطئ. وترجل منها أربعة أشخاص. وسارعوا باعتلاء سفينة المهرب. وقد أفادت الرقابة الجوية، أن الأربعة نزلوا إلى بطن السفينة، وقد قام المهرب بوضع أكياس قديمة فوقهم. ثم أبحر. وبعد لحظات اقتربت زوارقنا الحربية من السفينة. ودعتها للتوقف.

وفي هذه اللحظة، حدث تطور لم نحسب حسابه حينما خططنا للعملية. فقد طلبنا من المهرب مسبقا أن يتوقف بسفينته حينما تقترب منه الزوارق الحربية. بيد أنه أصيب بالذعر حينما رأى الزوارق خشية أن يؤدي إلقاء القبض على الأربعة. لاتهامه بالتعاون مع إسرائيل وتسليمهم لها. لذا أدار المحرك بكامل قوته وفر بالسفينة باتجاه الساحل. ولم تتمكن الزوارق الإسرائيلية من اللحاق به. بيد أن

المروحية الـتي كـانت تتـابع مـا يحـدث، أمـرت القـوات البريــة بالاسـتعداد لاسـتقبال السـفينة في المنطقـة الـتي تتجـه إليـها. وسـارت الأمـور مثلمـا اشتهينا، وحالـا وطـأت أقـدام الأربعـة الشـاطئ تم اعتقـالهم.

وكـي لا نثـير الشـكوك، اعتقلنـا المـهرب أيضـا، الـذي قـال أنـه لم يسـتجب لأوامرنـا بـالتوقف لأنـه شـعر بـالخوف. وقـد أطلقنـا سـراحه بعـد أن رتبنـا لـه روايـة تغطيـة، تفيـد بـأن المحققين اقتنعـوا بروايتـه القائلـة، أن الأربعـة مارسـوا عليـه ضغطـا لم يـترك لـه فرصـة سوى الاسـتجابة لمطالبـهم وتهريبـهم. ومـن الجديـر بـالذكر، أن مطلوبـين آخريـن توجـهوا إليـه بعـد خروجـه مـن السـجن بفـترة لتهريبـهم، وبقينـا نحـن طيلـة الوقـت في الصـورة.

حـرص المطلوبـون دائمـا، علـى إبـداء شـجاعة وجـرأة كبـيرتين، والمبـادرة إلى تنفيـذ عمليـات كبـيرة، يتحـدث عنـها الشـارع الفلسـطيني. ويرجـع ذلـك إلى أنـهم كـانوا يشـعرون .في البدايـة. بـأن الشـارع الفلسـطيني لا يؤيدهـم بمـا فيـه الكفايـة، في حـين كـانوا بحاجـة إليـهم كـي يزودوهـم بالمخبأ والمـال اللازمـين، لـذا حرصـوا علـى إظـهار إنجـازات كبـيرة. وكلمـا نجـح المطلوبـون في الصمـود والنجـاة زمنـا أطـول، ووضـع بصماتـهم علـى الواقع. كلمـا تعـاطف الشـارع الفلسـطيني معـهم أكـثر.

وبعـد فـترة وجـيزة، بـدأت المنظمـات الفلسـطينية في الأردن وسـورية وتونـس ولبنـان تغـازلهم. بغيـة نسـبهم إليـها، وتوجيـه عملياتـهم بمـا يتناسـب ومصالحـها. وحـدث تعـاون بـين الجـانبين. قـامت خلالـه المنظمـات بـتزويدهم بالسـلاح والمـال، بيـد أن غالبيـة المطلوبـين. فضلـوا العمـل وحدهـم، أو في مجموعـات صغـيرة.

كانت الحرب ضد المطلوبين إحدى روايات النجاح الكبيرة لجهاز الأمن العام، رغم أننا فقدنا عددا من ضباط المخابرات الميدانيين في أتون هذه الحرب. لقد نجحنا بالتعاون مع الجيش، والوحدة المختارة في حرس الحدود في تقليص هذه الظاهرة إلى حد كبير، وعندما قامت السلطة الفلسطينية أصبحت عمليات المطاردة للمطلوبين، أصعب بكثير نظرا لأنها ما كانت تعتقلهم إلا إذا ضايقوها، ولم تسلمهم لنا أبدا.

شهيد في الجنة

ولدت في مطلع التسعينيات ظاهرة خطيرة جدا بالنسبة لنا، هي ظاهرة الانتحاريين.

وتعتبر هذه الظاهرة، أول بشائر العمليات الخطيرة جدا، التي نفذتها المنظمات الراغبة في تقويض المسيرة السلمية، ففي غضون السنتين اللتين تلتا اتفاقيات "أوسلو"، نفذت أكثر من عشرين عملية انتحارية، وأول من لجأ لاستخدام هذا الأسلوب، هم نشطاء حركة "حماس" في قطاع غزة، ثم سار في أثرهم نشطاء حركة "الجهاد الإسلامي"، وتصاعد هذا النوع من العمليات في أعقاب المذبحة التي نفذها باروخ غولدشتاين في الحرم الإبراهيمي في شباط ١٩٩٤.

وعندما اتضح أن ظاهرة الانتحاريين بدأت تأخذ معايير خطيرة، قام قسم الأبحاث في الشعبة العربية في جهاز الأمن العام، بإعداد أبحاث ووثائق مواقف تم إرسالها إلى رئيس الحكومة اسحق رابين وجهات أخرى، وقد جاء فيها: إن العمليات "الإرهابية"، وخصوصا العمليات الانتحارية الإسلامية، هي بمثابة تهديد استراتيجي لدولة إسرائيل.

ومن الجدير بالذكر، أن الإرهاب لم يعتبر بمثابة تهديد استراتيجي على إسرائيل حتى بدأت المنظمات الفلسطينية تستخدم العمليات الانتحارية، التي خلقت واقعا جديدا، فقد ألحقت أضرارا جسيمة بالأمن الشخصي للإسرائيليين، وعرضت المسيرة السلمية للخطر، وقوضت الاستقرار في المنطقة كلها.

وأفادت الأبحاث بأن هناك انعكاسات لهذه الظاهرة على مجالات أخرى: فقد مست بالمعنويات الوطنية، وقدرة الردع الإسرائيلية، وألحقت أضرارا مباشرة وغير مباشرة بالاقتصاد الإسرائيلي.

وأفادت إحدى الوثائق. أن موجة العمليات الانتحارية. قد تفضي إلى خلق وضع جديد، وإعلان حالة طوارئ على الصعيد العملي، مما قد يتطلب إحداث تغيير في طبيعة الرد الإسرائيلي والأساليب، وقواعد العمل الأخرى، إن محاربة الإرهاب تتطلب نشاطات متواصلة وطويلة الأمد. في العديد من الأماكن والمواعيد المختلفة. مع التنسيق في استخدام الوسائل والأساليب والإمكانيات. إضافة إلى ضرورة توفر نشاطات استخبارية فعالة في مجال محاربة الإرهاب.

وتوقعت هذه الأبحاث. أن يؤدي انسحابنا من المناطق، وتسليمها إلى السلطة الفلسطينية. إلى مساس خطير في قدرتنا على جمع المعلومات، وبالتالي قدرتنا على إحباط العمليات. وسوف يصبح من الصعب جدا، إلحاق الأذى ببنى الإرهاب، دون السيطرة على المناطق التي يرتع فيها، ويتمتع فيها بتعاطف وتأييد كبيرين.

وأكدت الأبحاث، أن بمقدور السلطة الفلسطينية وأجهزتها المختلفة أن تقلص هذه الظاهرة، تقليصا حقيقيا، بيد أنها لا تفعل ذلك، بما فيه الكفاية. وبالتالي. فإن ممارسة ضغوط إسرائيلية ودولية شديدة على السلطة الفلسطينية. وتعريض إنجازاتها السياسية للخطر. وتهديد إمكانية وجودها، هي وحدها الكفيلة بتحريك عرفات. ودفعه للعمل بإصرار ومواظبة ضد الإرهاب الإسلامي.

الاتفاقيات. أو التفاهم الذي قد تتوصل إليه السلطة الفلسطينية مع الجهات الإرهابية ليس ضمانة لوقف الإرهاب. أضف إلى ذلك. أن الاختلاط بين الجماهير

الفلسطينية والإسرائيلية يجعل من الصعب جدا منع الإرهاب، الأمر الذي يقودنا إلى خلاصة مؤداها. أن هناك ضرورة للعمل بخطة الفصل التي نادى بها اسحق رابين.

إن محاربة الإرهاب. تتطلب معالجة الإرهابي نفسه، والذين أرسلوه، وساعدوه وموله. والبيئة المؤيدة له، وأفادت تقديرات جهاز الأمن العام، أن إيقاع الأذى بعائلة الإرهابي وممتلكاته هي مسألة ذات أهمية كبيرة جدا بالنسبة لكل شخص مرشح للقيام بعمل انتحاري يفكر فيها قبل أن يقدم على عمله.

ونظرا لأن الإرهاب في منطقتنا يتلقى مساعدات خارجية، فقد أكدت الأبحاث ضرورة التعاون الدولي، في هذا المجال، ويمكننا الافتراض، بأن توجيه ضربات قوية للإرهاب قد تدفع بالإرهابيين للقيام برد فعل عنيف في الخارج، ولا شك أن تحسين شروط الحرب ضد الإرهاب، يتطلب إحداث تحسين نوعي في القدرة الاستخبارية في مجال الإحباط والوقاية، وتحديد أهداف للمعالجة الشاملة والموضعية.

وأكد الباحثون ضرورة تخصيص الميزانيات اللازمة والموارد لتحقيق هذه الأهداف.

أما بالنسبة للقدس، فقد تم التشديد على ضرورة قيام الشرطة الإسرائيلية بتحسين الرقابة والإشراف على الداخل المنظمة وغير المنظمة للمدينة، وتكثيف نشاطات جهاز الأمن العام، والحيلولة دون تشكيل حركة "حماس" خلايا في المدينة، وجميع ضواحيها. واقترحت عدة حلول، من ضمنها إغلاق عدة مؤسسات ومكاتب وصحف. وقطع الإمدادات المالية. ومصادرة ممتلكات، وإجراء اعتقالات وتحقيقات موضعية. ومنع عمليات التحريض. وملاحقة خطباء وأئمة المساجد المحرضين. وقطع

العلاقات بين الجهات الإسلامية في المدينة والجهات الإسلامية في أوساط العرب في إسرائيل.

كانت النشاطات التي تجري في بيت الشرق، دائما وأبدا، مثار اهتمام لجهاز الأمن العام، نظرا لأن فيصل الحسيني يترأسه. ولأن هذا المكان يعمل كسفارة لمنظمة التحرير في القدس، وإثر المعلومات التي تلقيناها حول ما يجري فيه، اتخذت العديد من الخطوات الموضعية تجاه الشخصيات التي عملت فيه. وفي بعض الأحيان. اضطررنا لإصدار أوامر بحظر نشاطات تم التخطيط لها فيه، بعد أن تلقينا عنها معلومات مسبقة.

اتسمت عملية زرع عملاء في أوساط الحركات الدينية الأصولية دائما بالكثير من الصعوبات. الأمر الذي جعل إمكانية الحصول على معلومات مسبقة حول العمليات الانتحارية. مهمة شبه مستحيلة، فلم نكن قادرين على دفع أحد عملائنا للصلاة بصورة منتظمة ومكثفة، وتربية ذقن، وإقحامه في إحدى الخلايا أو المنظمات الأصولية.

إن تشكيل مثل هذا العميل، يحتاج إلى مسار طويل ومضن جدا. أضف إلى ذلك. أنه كان علينا دائما أن نأخذ بعين الاعتبار، احتمال أن يتأثر هذا الشخص بالبيئة المحيطة به. ويتقرب. ويتحول إلى مسلم متطرف يعمل ضدنا. في الوقت الذي كان عامل الزمن بالنسبة لنا حاسما جدا. وكان يجب أن نتوصل إلى نتائج سريعة. لذا كرسنا جهدنا نحو تنظيم وتفعيل الأشخاص المقربين إلى الحركات الإسلامية. والمستعدين لتقديم المساعدات لنا نظير مقابل نقدي. أو لأسباب أخرى. وبفضل مثل

هـؤلاء الأشـخاص وبفضـل النشـاطات الاسـتخبارية المتشـعبة الأخـرى نجحنـا في منـع وإحبـاط نشـاطات إرهابيـة كثـيرة.

وفي الكثـير مـن الأحيـان، منينـا بفشـل ذريـع، وقـام العمـلاء الذيـن نظمنـاهم بمدنـا بمعلومـات مضللـة. بـل وتوجـه بعـض هـؤلاء العمـلاء إلى المنظمـات الإرهابيـة، وكشـفوا النقـاب لهـم عـن أننـا نظمنـاهم. وطلبـوا منـهم إتاحـة الفرصـة لهـم، للعمـل ضدنـا، ورغـم ذلـك نجحنـا في الكثـير مـن الحـالات في توجيـه ضربـات موجعـة إلى هـذه المنظمـات، بيـد أن هـذه الضربـات كـانت مؤقتـة، فقـدرة هـذه المنظمـات علـى ترميـم نفسـها، والانبعـاث مـن جديـد، إضافـة إلى مـا تتمتـع بـه مـن تـأييد وتعـاطف في الشـارع الفلسـطيني، كـان يقـف دائمـا أمامنـا كثقـل مـواز، وحتـى لـو اعتقلنـا الغالبيـة العظمـى مـن النشـطاء، فـإن المنظمـة لا تجـد صعوبـة في تجنيـد انتحـاريين محتملـين.

وعلـى عكـس مـا كـان شـائعا، فـإن العـامل الديـني لم يكـن العـامل الوحيـد، الـذي يحـرك الانتحـاريين، لقـد حركـت الانتفاضـة لـدى الكثـير مـن الشـبان رغبـة الانتقـام ضـد إسـرائيل للعديـد مـن الأسـباب: الاعتقـال الطويـل في ظـل شـروط صعبـة، فقـدان أحـد الأقـارب في مواجهـة مـا،والمعاملـة المذلـة خـلال عمليـات التفتيـش، وغـير ذلـك. ففـي الكثـير مـن الحـالات، قـام الجنـود بإهانـة والـدة أحـد الشـبان وإثـارة غريـزة الانتقـام لديـه. وإذا مـا أخذنـا الرغبـة في الانتقـام، وأضفنـا إليـها العـامل الديـني، وخلطنـاهمـا بـالوضع الاقتصـادي المتدنـي، وزيناهـا جميعـا بخمسـين مـن "الحـور العـين" الـتي تنتظـر الشـهيد علـى أبـواب الجنـة، في حـين أن الحركـة سـتهتم بأسـرته علـى أكمـل وجـه، فإنك سـتجد عـددا لا بـأس بـه من الشـبان ممـن هـم علـى اسـتعداد لتنفيـذ عمليـات انتحاريـة.

والانتحاري النموذجي، على صعيد "حماس"، هو شاب أعزب من عائلة فقيرة، ذات إيمان ديني عميق، وتسير خلف مرشدها الديني، بأعين معصوبة، وعلى أهبة الاستعداد لتنفيذ جميع أوامره، وفي نفس الوقت، يجب أن يكون جريئا، ومن الأفضل أن تكون لديه تجربة على صعيد تنفيذ العمليات.

لقد اتضح من فحوصنا، أن غالبية الانتحاريين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين-وممن تتراوح ثقافتهم بين التوجيهي فما فوق، وكانت نسبة أبناء غزة ومنطقة جنين وقلقيلية ورام الله، كبيرة في أوساطهم، ولديهم جميعا علاقة "بحماس" أو "الجهاد الإسلامي" أو صداقة مع أعضاء في هاتين الحركتين، ولديهم جميعا وازع ديني وطني واضح. وهم جميعا يرغبون في نيل الشهادة، في القتال ضد إسرائيل. وقسم منهم أراد الانتقام لأقربائه للإهانات أو القتل من قبل الإسرائيليين. أو الرد على المساس بأحد المقدسات الإسلامية.

وقبل توجههم للتنفيذ، كانوا جميعا يجتازون طقوسا دينية. لتطهير أجسامهم. فصاموا وصلوا صلاة خاصة، واجتمعوا بأئمة إسلاميين. وبجماعات مؤيدة من التنظيم. وفي غالبية الحالات. اشتملت المراسيم الأخيرة، على كتابة وصية. وتصوير بالفيديو وتسجيل لأقوال. الشهيد المرتقب. الأخيرة، وسداد الديون وتوزيع الحلوى على أبناء العائلة والأصدقاء. والتوجيهات الفنية تكون قصيرة وقليلة التعقيدات.

ومن الجدير بالذكر. أن هذه الإجراءات كانت أدلة مساعدة لجهاز الأمن العام. على اكتشاف بعض الانتحاريين. قبل أن يتوجهوا لتنفيذ مهامهم.

كانت التوجيهات الفنية جذرية وبسيطة في الغالب، فقد طولب الانتحاري الذي (يربط) المتفجرات على جسمه: أن يصل إلى المكان الهدف دون أن يثير أي شبهات. ثم الضغط على زر تشغيل العبوة، أما الانتحاريون الذين يتوجب عليهم قيادة سيارات ملغومة. فيتلقون توجيهات فنية أوسع، وأكثر شمولية. والتدريبات التي يتلقونها لا تتناول فقط، العبوات الناسفة، بل تتناول أيضا تعلم السياقة بصورة جيدة لسيارة محملة بالمتفجرات، وتدريبات الانتحاري يجب أن تكون قصيرة كي لا يتسرب منها شيء.

و"حماس" تتوخى أقصى درجات الحذر والسرية في عملها، فأولئك الذين يعدون العبوة أو السيارة المتفجرة لا يعرفون الجهة التي ستقوم بالتنفيذ، وحتى رجل الدين الذي يشارك في الإعداد الديني، يتم إحضاره إلى الانتحاري قبل يوم أو يومين، من موعد التنفيذ.

حالت قلة المعلومات الاستخبارية دون إلقاء القبض على الانتحاريين قبل توجههم لتنفيذ العمليات، لقد أسهمت الصورة التي ركبناها للانتحاري، في مساعدتنا لإلقاء القبض عليه. بيد أن هذه الصورة لم تكن صيغة سحرية.

فقد ألقينا ذات مرة القبض على أحد نشطاء الإرهاب، وأردنا عرضه على جهاز كشف الكذب لمعرفة ما إذا كان متورطا في تخطيط العمليات أم لا؟؟ وقد نفى الرجل كل شيء وأكد الجهاز نفيه، وبعد فترة وجيزة، نفذ عملية قاتلة في القدس.

لقد حلنا دون وقوع الكثير من العمليات الانتحارية، وغالبيتها لم يصل إلى أسماع وسائل الإعلام. ورغم أننا نسقنا مع الشرطة والجيش تنسيقا كاملا. إلا أننا نحن الذين كنا نتحمل كافة مسؤولية الكشف عن العمليات وعرقلتها.

قتل في شقة اللقاء

كان جهاز الأمن العام. حتى حرب ١٩٦٧. جهة مدنية. تقوم حقا بتنفيذ المهام. بيد أنه لم يكن يعرف معنى سقوط الأعضاء أثناء أداء المهام الموكلة إليهم. ومنذ أن بدأ العمل في الضفة والقطاع. دخل حالة حرب بكل ما يعنيه ذلك من أخطار. وقد قتل بعض أصدقائي أثناء العمل. الأمر الذي أصابنا بذهول. وحطم الوهم القائل أن ذلك لا يحدث. ومنذ ذلك الحين: سقط تسعة وعشرون من عمال الجهاز إبان أدائهم عملهم. والمهمات الميدانية التي كانوا يقومون بها. أو عملهم في مجال الحماية والمجالات الأخرى.

لقد قتل "افي نويفلد"- أحد عمال شعبة العمليات-والذي تعرفت عليه في نابلس. إبان عملي كضابط مخابرات هناك وتصادقنا-جراء إصابته بشظايا قنبلة يدوية خلال إحدى العمليات-في غزة. وقام معتقلون فلسطينيون إبان نقلهم من نابلس إلى جنين بخنق "شمعون درعي" أحد ضباط شعبة الحماية. وسقط "فيكتو ارجوان- الذي رافقني خلال جولاتي في غزة عندما كنت رئيسا للجهاز. فقد سقط في إحدى المعارك التي دارت مع خلية مسلحة-من أعضاء الجهاد الإسلامي. الذين فروا من سجن نفحة. وتم العثور عليهم في حي الشيخ رضوان في قطاع غزة: إضافة إلى الكثيرين ممن قتلوا أثناء أدائهم للمهام الموكلة إليهم.

ورغم الغضب الشديد الذي كان يجتاحنا كل مرة يسقط فيها أحد زملائنا. والرغبة في الانتقام. إلا أننا لم نخف. وأصررنا على مواصلة العمل. وكان علينا أن نتخلص من مشاعر الانتقام بسرعة. كي لا تخرب قدرتنا على التقدير السليم.

وضباط المخابرات الذين يستخدمون العملاء يعرضون أنفسهم في كل لحظة للخطر. فاحتمال شعور العميل فجأة بالندم، وكشف الحقيقة لإحدى المنظمات، والتحول، هو أيضا إلى أحد العاملين ضدنا، هي مسألة واردة في أي لحظة.

وفي بعض الحالات، تقوم المنظمات بقتل العميل في أعقاب اعترافه، وأحيانا تطلب منه قتل ضابط ارتباطه، كي يثبت أن الندم كان حقيقيا.

ترقى "موشيه جولان"-وهو من مواليد مصر-إلى رتبة رائد في سلاح المدرعات قبل أن ينضم إلى جهاز الأمن العام. وفي الخامس والعشرين من حزيران ١٩٨٠، توجه إلى نتانيا للالتقاء بالعميل الذي يستخدمه في إحدى الشقق هناك، وفي الساعة الموعودة، قدم العميل غسان محمد حبش إلى الشقة الموعودة-وهو شاب في الحادية والعشرين من العمر، ويسكن في "مخيم بلاطة".

كان اللقاء روتينيا، وسبق للاثنين أن التقيا مرات عديدة، بيد أن حبش خطط، هذه المرة، لشيء آخر مختلف، فقد ألقى حفنة من الفلفل الأسود في عيونه، وقبل أن يتمكن من إدراك ما يحدث، قتله طعنا بسكين وفر من المكان، وقد تمكن الجهاز من العثور عليه بعد أربعة أيام فقط في نابلس ومطاردته وقتله، وقد عثر بحوزته على مسدس جولان.

خدم حاييم نحماني. كضابط في وحدة ميدانية في الجيش الإسرائيلي. وتم تجنيده للجهاز في نيسان ١٩٩٠، وفي الثالث من كانون الثاني ١٩٩٣، حدد موعدا للقاء مع عميل في إحدى شقق جهاز الأمن العام في حي رحابيا في القدس، والعميل هو ماهر أبو سرور-٢٢ سنة- من بيت جالا، وقد درس إدارة الأعمال في جامعة بيت لحم.

وكان الجهاز قد اعتقله في تشرين الثاني ١٩٨٩ بتهمة الانتماء لحماس. وعندما أفرج عنه، لم يعد إلى صفوف الدراسة، وفتح صالون حلاقة في مخيم عايدة القريب من بيت لحم، وفي كانون الأول ١٩٩٢، تم تجنيده كمخبر للجهاز.

قدم أبو سرور إلى اللقاء بصحبة اثنين من أبناء عائلته. وكي يظهر نفسه من تهمة التعامل التي التصقت به، قتل ضابط ارتباطه طعنا بسكين وضربات مطرقة. وقد تم اعتقال قريبيه بعد حوالي أسبوع بتهمة المساعدة في العملية، لكنهما نفيا ذلك. وقالا أن أبو سرور هو الذي نفذها بنفسه.

تحول أبو سرور إلى المطلوب (رقم واحد) في الضفة الغربية، وقد تم العثور عليه في إحدى قرى منطقة الخليل، لكنه تمكن من الإفلات من أيدي قوات الأمن، وفي الأول من تموز ١٩٩٣ حاول أبو سرور بصحبة اثنين من زملائه اختطاف حافلة محملة بالركاب بالقرب من مركز القيادة القطرية للشرطة في القدس. بغية المطالبة بالإفراج عن معتقلين، وإعادة مبعدين، بيد أن العملية فشلت، فسيطر الثلاثة على سيارة تقودها امرأة تدعى جانيت كدوش، وأخذوها معهم كرهينة. وفي الطريق اصطدموا بحاجز لحرس الحدود، وخلال تبادل إطلاق النار قتل الثلاثة ومعهم الإسرائيلية المذكورة.

كان نوعم كوهن. ضابطا للمخابرات في رام الله وقد سبق أن خدم في دورية هيئة الأركان. وكان يتسم بصفات القائد القادر على تحمل المسؤولية. وقد انضم إلى الجهاز. بعد أن سرح من الجيش برتبة ملازم أول.

وفي الثالث عشر من نيسان ١٩٩٤ توجه إلى بيتونيا. الواقعة قرب رام الله. للالتقاء بعميل جنده قبل فترة وجيزة في مخيم الأمعري. وقبل وصوله. فاجأه كمين

نصبه له المسلحون، فأطلقوا النار على سيارته مما أدى لمقتله وإصابة الحارسين اللذين كانا بصحبته بجراح.

بدأنا بجمع المعلومات عن منفذي الكمين، فعرفنا أنهم كانوا ثلاثة أشخاص، فروا بعد العملية بسيارة، وأحدهم العميل، وأفاد تقرير المعهد الجنائي، أنهم أطلقوا النار من كلاشينكوف وبندقية ام-١٦ ومسدس، كما أفاد أن الكلاشينكوف سبق وأن استخدم في عمليتي قتل آخريين في القدس قتل خلالها يهود.

ومن الجدير بالذكر، أن اثنين من منفذي الكمين قتلا فيما بعد، حينما طوق الجهاز المنزل الذي كانوا يختبئون فيه في أبو ديس.

وبعد فترة، علمنا أن عضو الخلية الثالث سيسافر في موعد معين في حافلة عربية على طريق القدس رام الله، فقمنا بتحميل سيارة تجارية صغيرة بالخضروات، ورفعنا فوقها علم منظمة التحرير، وسرنا خلف الحافلة، وحتى لو أنه لاحظ وجود السيارة التجارية وهي تسير خلف الحافلة، لم يكن ليشك للحظة في شيء وعندما ترجل من الحافلة في إحدى المحطات، توقفت السيارة التجارية، وأزيحت الصناديق جانبا وهبطت منها مجموعة من جنود وحدة المستعربين (دوفدفان) ووحدة عمليات جهاز الأمن العام.

وعندما أدرك أنه لا يستطيع الفرار، حاول استخدام سلاحه، لكن الوقت كان متأخرا جدا وقتل فورا.

رغم المهام الأمنية التي يتولاها جهاز الأمن العام، ورغم الهيراركية العسكرية المتبعة في وظائفه وعمله، إلا أنه مكان عمل مدني، فالأشخاص الراغبون

يأتون بإرادتهم للالتحاق به، للمساهمة في تثبيت أمن الدولة من جانب، والارتزاق من الجانب الآخر.

ويقوم قسم الرعاية في وزارة الدفاع، برعاية أسر ضباط الجهاز الذين يقتلون إبان خدمتهم رعاية جيدة جدا.

خيال مطلق الجماح في الكونغو

أصبحت أزمة زواجي حقيقة واقعة، ولا يمكن إصلاح ما فسد منها. وقد أكثرت البقاء في القدس حيث تعرفت هناك على من أصبحت فيما بعد زوجتي الثانية. كانت "عدنه هيرشمان"، سكرتيرة كتلة (ياحد) في الكنيست، وقد قابلتها للمرة الأولى، عندما ذهبت للقاء عضو الكنيست "بنيامين بن اليعيزر"، وقد تبادلنا عدة كلمات مجاملة. ثم قابلتها للمرة الثانية في منزل صديق مشترك. فعرضت عليها تناول العشاء معي. ومنذ ذلك اليوم ارتبطت حياتنا. وفي عام ١٩٨٥، تركت منزلي في "نتانيا"، وانتقلت للسكن في منزل عدنه، الذي تعيش فيه مع ابنها دورون، وابنتها شارون.

لم تدع وسائل الإعلام لي فرصة للراحة، ونظرا لأنه كان يحظر عليها نشر اسمي، فقد أخذت تتلاعب بالرموز، قائلة مثلا: "أمير الأسرار" أو أمير الدهاء...الخ، وكانت تتابع تحركاتنا بدقة وتلاحقنا في الحفلات أو أي مكان آخر تظهر فيه مروجة الشائعات حول كل طرف خيط أو معلومة.

والحقيقة، هي أنني ذهبت إلى حفلات أقل بكثير مما نسبوه إلي، وعزفت في ثلاث أو أربع مناسبات فقط. ولا شك أن قضية (الكونغو) هي أبرز مثال على مدى سعة خيال وسائل الإعلام في حبك الروايات الخيالية من لا شيء.

وقد بدأت القصة مع حاييم بورو، الذي عمل رئيسا لمكتبي طيلة ثلاث سنوات. وعندما أنهى خدمته في الجهاز، قرر إنشاء شركة للاستيراد والتصدير من الشرق الأقصى، بيد أن هذه المحاولة باءت بالفشل.

وبعد فترة توجه إسرائيلي إلى حاييم بورو. وعرض عليه إعداد خطة مشروع حماية لجيش الكونغو، ولم يكن العرض سوى مجرد اقتراح لبناء خطة، ولم يكن عقدا.

وقد قام بورو بإعداد خطة وسلمها إلى الوسيط الإسرائيلي وعرض على زوجتي "عدنه" الانضمام إليه فوافقت. ولم تسفر هذه القضية أيضا عن شيء يذكر، وأصيبت الشركة التي أنشأها بورو بخسائر فادحة وبقيت مجرد حبر على ورق.

مضت سنوات على هذه الرواية، وحصلت شركة إسرائيلية تدعى (لبدن) على مشروع الحماية في الكونغو وعرضت على حاييم بورو العمل كخبير فيها، فوافق.

وذات يوم، نشرت وسائل الإعلام الإسرائيلية، نبأ مفاده، أن "بورو" و "عدنه" يديران مشروعات في الكونغو، وعثر الصحفيون على وثائق، تفيد بأن اسم "عدنه" ظهر في شركة بورو، حينما تم تأسيسها كصاحبة أسهم فيها. وكان الإهمال قد أدى إلى عدم محو اسم الشركة من سجلات مسجل الشركات، ولم يكن "لعدنه" أي علاقة بالكونغو. بيد أن أي جهة لم تكلف نفسها عناء استيضاح الأمر قبل نشر النبأ، وعندما اتضحت الأمور، وبات من الواضح أنه لا علاقة "لعدنه" بالشركة التي لم يعد لها وجود أصلا، لم تكلف أي جهة نفسها عناء التعقيب.

لم تكن "عدنه" تتصل بي في مكتبي إلا إذا كان الأمر طارئا، وذات يوم، اتصلت مفزوعة، وقالت لي: إن مجهولين اتصلوا بها وهددوا بقتلي قائلين: زوجك

شارك في الكارثة التي أصابت طائفتنا". وأنهم واصلوا تهديداتهم المرة تلو الأخرى. فأمرت بالتنصت على هاتف بيتي. وأرسلت سائقي إلى البيت كي يكون بجوار "عدنه"، إذا ما حاولوا اقتحامه.

وفي أعقاب فرض الرقابة على الهاتف. سمعنا الصوت المجهول يقول: "قولي لزوجك إننا مؤيدو الحاخام (عوزي مشولم) ونحن نعرف أين تسكنون. والليلة ستكون نهايتكم". وذكر العنوان بالضبط وأغلق السماعة.

فكرت في وضع حراسة قرب بيتي لكنني في النهاية. فضلت إعلام الشرطة وجهات الحماية. التي جاءت إلى البيت لحمايته لليلة واحدة، بيد أن الليلة مرت بسلام، وفي الصباح طلبت من الحراس العودة إلى قواعدهم.

لقاء محظور في سويسرا

تعلم الفلسطينيون من الإسرائيليين كيفية الاستعداد لإقامة دولة. وقاموا بتشكيل طواقم لإدارة دولتهم حينما يحين الوقت، وأقاموا مؤسسات يمكن تحويلها في أعقاب الإعلان عن الاستقلال إلى مؤسسات الدولة الجديدة.

وفي صيف عام ١٩٨٧. قبل قائد القطاع الأوسط توصية جهاز الأمن العام. وأمر بإغلاق مركز الأبحاث الفلسطيني في القدس الشرقية، بسبب النشاطات السرية التي كان يقوم بها رئيسه فيصل الحسيني، وفي أعقاب إغلاقه، قام الجهاز بإجراء تفتيش دقيق في مكاتبه وعثر في إحدى الحقائب الصغيرة على وثيقة سرية تتضمن خطة للإعلان عن قيام دولة فلسطينية. ورغم أن الكثير من الأنباء حول ذلك تناهت إلى مسامعنا. بيد أنها كانت المرة الأولى، التي نضبط فيها وثيقة مكتوبة حول الخطة التي جاء فيها. أن مؤتمرا عربيا سيعقد في القدس للإعلان عن قيام الدولة الفلسطينية. في

إطار خطة التقسيم، على أن يسبق هذا الإعلان، مشاورات مع الدول العربية والاتحاد السوفيتي. وعلى أن تكون القدس عاصمتها، وعرفات رئيسها، وأعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير أعضاء حكومتها، والمجلس الوطني الفلسطيني برلمانا لها، على أن يكون من ١٥٢ عضوا وممثليات المنظمة في شتى أنحاء العالم سفاراتها الدبلوماسية.

وتنص الخطة أيضا. على إنشاء جهاز إداري يستند إلى اللجان الشعبية، والتي كانت قائمة فعلا، وتحولت في غضون أشهر محدودة إلى عنصر مركزي في الانتفاضة.

ونصت الوثيقة أيضا، على أن تعلن الدولة الجديدة عن استعدادها للتفاوض مع إسرائيل. لترسيم الحدود، ومعالجة قضية المستوطنات، وحق الفلسطينيين في التطوير. لقد اتضح في أعقاب اتفاقيات "أوسلو"، إلى أي مدى كانت هذه الخطة قريبة من الواقع.

فيصل الحسيني هو حفيد موسى كاظم الحسيني،-رئيس بلدية القدس، خلال السنوات ١٩١٨-١٩٢٠- وابن عبد القادر الحسيني، أحد زعماء النضال الفلسطيني إبان حرب ١٩٤٨ والذي استشهد خلال معركة القسطل، وقد ولد في بغداد عام ١٩٤٠ في أعقاب فرار والده من البلاد مع المفتي الحاج أمين الحسيني، بعد أعوام الثلاثينات في البلاد. وعاش في القاهرة يتيما من الأب، وحصل في الخمسينات على حق المواطنة الأردنية. وسكن القدس.

وعندما تم تشكيل منظمة التحرير، منتصف الستينات. بدأ العمل في جهازها في سورية وفي تشرين الأول ١٩٦٧، عاد إلى القدس، وتدرج في كبريات مناصبها في الضفة الغربية، حتى أصبح رأس الهرم.

لقد كان الحسيني أحد الشخصيات الفلسطينية التي اجتمعت بوزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر، قبيل عقد مؤتمر مدريد.

وخلال المؤتمر، كان الحسيني يقوم من وراء الكواليس، بتنسيق عملية تفعيل الوفد الفلسطيني في إطار الوفد الفلسطيني الأردني المشترك، وفي أعقاب إنشاء السلطة الفلسطينية عين وزيرا لشؤون القدس.

وهناك من يقول، أن الرئيس الفلسطيني-الذي يعتبر أحد أقارب الحسيني- خشي منه على نفسه، وحاول وضعه في الظل، ويعتقد البعض أن الحسيني سيكون وريثا لعرفات في الزعامة الفلسطينية.

التقيت الحسيني،لأول مرة، عام ١٩٧١. عندما كنت أشغل منصب رئيس شعبة الأمن الوقائي ضد الأعمال السرية السياسية في لواء القدس والضفة الغربية. وقد تلقينا معلومات واسعة جدا حوله آنذاك. وقررت أنه آن الآوان. لأخذ انطباع عن كثب عنه. وعن المركز الذي يديره.

قام مركز الأبحاث الذي يديره آنذاك في مبنى قديم في القدس الشرقية. بدا من الخارج كخرائب. وقد وجدت خلف باب هذا المركز غرفا نظيفة. ملأى بالملفات والباحثين العاكفين على أعمالهم.

استقبلني الحسيني-الذي كان يعرف هويتي بأدب جم، لكن هذا الأدب سرعان ما تلاشى عندما انتقلنا للحديث حول الواقع السياسي، فاختفت ابتسامته. واكتست ملامحه طابعا صارما، وأصبح صوته صلبا وحادا.

تحدثنا أنا وهو باللغة العربية، فقام خلال ساعة من الزمن، بطرح وجهة نظره. وما يؤمن به على الصعيد السياسي أمامي، فقال: إن حق الشعب الفلسطيني في العودة إلى أرضه وإقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس لا يقبل الجدل، ولا يوجد أي حل آخر. وحينما ودعته على باب المركز. قال لي: الزمن سيدي سيثبت لك أنني كنت على حق.

وفي أعقاب التفتيش الذي أجريناه في صيف ١٩٨٧ في المركز. وضع الحسيني رهن الاعتقال الإداري، وحال الإفراج عنه عاد ليحتل مكانته كأبرز شخصية في حركة فتح في الضفة الغربية وقطاع غزة، وقد أدى اعتقاله والغليان الذي صاحب ذلك، إلى تعزيز مكانته.

ومن مركزه في القدس. كان الحسيني يشرف على جميع الأعمال السرية الشاملة في الضفة والقطاع. وبدأت الأرض التي نمت عليها الانتفاضة تلتهب. لقد شهدنا جميعا النيران. بيد أننا جميعا رجال الأمن، لم نكن نعلم إلى أين ستمتد وتنتشر. لكن الحسيني كان يعلم بذلك، وكان يدرك أن الانتفاضة ليست هدفا بل وسيلة.

لقد تعرفت عليه بصورة أعمق بمرور السنين، وهو في نظري رجل وطني متحمس. ومؤثر جدا. وصاحب قدرة على التعبير، وعمق تفكير، وإيمان عميق بمصداقية طريقه. والأدب الجم الذي يتسم به الحسيني، لا ينجح في إخفاء السم

الكامن فيه، ففي مواجهاته مع الإسرائيليين، أبدى إصرارا متطرفا. وحرص على أن يوضح لهم، بصورة قاطعة، إلى أي حد عمق الهوة الفاصلة بين الجانبين، ورغم ذلك، فإنني مقتنع بأنه سيكون شريكا في الحوار لإنجاز تسوية سياسية.

كان عيزر وايزمن أحد الإسرائيليين الذين يفتشون عن محاورين فلسطينيين. وفي كانون الثاني ١٩٩٠ دعاني إلى وجبة غداء في مطعم "طريانه" في تل أبيب، كان وايزمن عضوا في المجلس الوزاري ووزير العلوم في حكومة الوحدة الوطنية برئاسة اسحق شامير، وقد رغب في التحاور معي حول الامتناع الإسرائيلي المطلق عن إجراء أي اتصال مع منظمة التحرير.

"أوسلو" في الأفـــــق

عندما دخلت المطعم استقبلني وايزمان كعادته بنكتة قائلا: " ها هو قد جاء الجاسوس، الرجل الذي زرع في بيتي أجهزة تنصت".

ثم قال جادا: " قل لي، أليس من الغباء أننا لا نتحاور مع الفلسطينيين؟؟

فقلت له: " لا تحرجني، ولا تقحمني في هذه القضية، أنا رئيس جهاز الأمن العام، ونحن أصدقاء. وفي هذا ما يكفي. هناك قانون في الدولة يحظر اللقاءات مع منظمة التحرير. وهذا القانون هو العامل الحاسم الذي يحكم المرحلة الآن".

لم تردع أقوالي وايزمن، وقال لي: إن الدكتور أحمد الطيبي-الذي كان صديقا له-على استعداد لترتيب لقاء بينه وبين شخصيات فلسطينية رفيعة.

والطيبي. هو طبيب نسائي، من مواليد الطيبة، وذو تطلعات سياسية بعيدة المدى. وقد لعب دورا ما، لشغل الفراغ الذي نجم عندما قامت شخصيات سياسية إسرائيلية من أمثال عيزر وايزمن بالسعي باتجاه الحوار مع منظمة التحرير. لقد أدرك أن الإسرائيليين يفتشون عن وسيط مقبول لدى الطرفين، وانتهز الفرصة في الوقت المناسب.

قلت له: أنني أعتقد أن عليه أن يبتعد قليلا عن الطيبي. فالرجل-وعلى عكس ما يعتقدون-ليس من المقربين لعرفات. ولا يجري معه اتصالات وطيدة جدا. مثلما يدعي. حقا هو ذو أدب جم، ويجيد العبرية، لكن عندما تقرر الاتجاه نحو إجراء لقاءات مع منظمة التحرير، يجب عليك أن تحذر، خصوصا عندما يحرك الطيبي إلى هذا الاتجاه". ولم أتحدث عن الانعكاسات التي ستنجم عن مثل هذه

الاتصالات على مكانة وايزمن في الحكومة. فقد أدركت أنه يعلم تماما. أن تصرفه بصورة تتعارض مع آراء رئيس الحكومة، إسحق شامير، سيكلفه وظيفته.

من البديهي القول. أن رئيس جهاز الأمن العام مطلع على جميع التحركات السياسية الخفية للدولة. في الداخل والخارج.

وينبغي أن تأتي تقديراته موضوعية. نظرا لأن رأيه الخاص غير ذي أهمية. وفي الكثير من الأحيان. يواجه السؤال القائل: هل يجب أن يطلع رئيس الحكومة على ما يعرف أم لا؟؟ وبصورة مبدئية، فإن واجبه يقتضي منه أن يقدم تقارير حول كل ما يمكنه أن يسيء إلى الدولة. مهما كان حجم هذه الإساءة.

جلست في بيتي. بعد فترة وجيزة من الحديث الذي أجريته مع وايزمن. أقرأ تقارير سرية. لقد اعتدت قراءة بعض التقارير السرية في بيتي دائما نظرا لأنني كنت أكرس ساعات النهار للميدان والاجتماع مع عمال الجهاز. وعثرت بين هذه التقارير. على تقرير تم تصنيفه تحت بند سري للغاية. ويفيد أن وزير العلوم عيزر وايزمن. سافر إلى جنيف للاجتماع مع نبيل الرملاوي-أحد كبار شخصيات منظمة التحرير. وفجأة اتضحت لي الصورة برمتها: عملية جس النبض من قبل وايزمن حول أحمد الطيبي.

عدت وقرأت التقرير المرة تلو الأخرى. وأنا لا أكاد أصدق. ولم يكن مصدر المعلومات على علم بفحوى المقابلة. بيد أنه كان لدي شعور سيء. وأدركت أنه يتوجب علي إعلام رئيس الحكومة فورا. فاتصلت بشامير حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف. وقلت له: أن علي أن التقيه حالا. فقال تعال الآن.

ويبدو أن شامير نسي إعلام الحراس في الخارج بقدومي، لذا اندفعوا نحوي حالما أوقفت سيارتي خارج منزله، لكنهم هدأوا عندما عرفوني. قلت لهم أن رئيس الحكومة بانتظاري. فاتصلوا به هاتفيا، ثم سمحوا لي بالدخول.

أعلمت شامير بالمعلومات التي وصلت إلي فتجهم وجهه، ومن الجدير بالذكر، أن العلاقات بينه وبين وايزمن، لم تكن على ما يرام. سألني شامير: "ما الذي تقترحه"؟ قلت: "ادع وايزمن وتحدث معه"، لكن شامير قرر تجاوز هذه الخطوة، وفي صبيحة اليوم التالي، طالب بإقالة وايزمن-من الحكومة. لكن طلبه واجه معارضة من حزب "العمل" شريكه في الائتلاف الحكومي، وفي نهاية المطاف، تم التوصل إلى حل وسط، يتم بمقتضاه استبعاد وايزمن من المجلس الوزاري، لمدة سنة ونصف السنة، والحقيقة هي أنه لم يكن لهذه الخطوة أي مغزى بالنسبة لوايزمن. فبعد حوالي شهرين، جرى حل حكومة الوحدة الوطنية، وتوقف وزراء حزب "العمل" عن العمل.

خمن وايزمن أن لي يدا في القضية، بيد أن تخمينه لم يخرب علاقتنا. فقد كان يدرك أن على كل صاحب وظيفة أن يقوم بما يقتضيه عليه واجبه، على أكمل وجه.

لقد عوقب وايزمن حقا على مبادرته، لكن لم يعد بمقدور أي جهة وقف المسيرة السلمية التي تلوح بوادرها في الأفق كضرورة من ضرورات الواقع. واعتقد أنه لم يعد سرا القول، أن العديد من اللقاءات السرية، جرت قبل انطلاق المسيرة السلمية، بين ممثلي إسرائيل وشخصيات من دول، لم تكن لنا معها علاقات دبلوماسية. ولم تقتصر اللقاءات على الدبلوماسيين فقط، بل تجاوزتهم إلى جهاز الأمن العام أيضا، حيث التقيت مع رئيس جهاز الأمن العام في إحدى الدول العربية، عدة مرات، في إحدى العواصم الأوروبية، وقد شارك في هذه اللقاءات، بصورة عامة، رؤساء "الموساد"

شبتاي شبيط وإفرايم هليفي. فقد كانت لدينا اهتمامات مشتركة، ببعض القضايا. وكانت اللقاءات تبدأ في ساعات ما بعد الظهر، وتنتهي في ساعات الصباح من اليوم التالي.

لقد ترك رؤساء أجهزة المخابرات العربية انطباعا جيدا لدي، فقد كانوا ذوي ثقافة عالية. وفي أعقاب تبادل تحية المجاملة، كنا نبدأ نحن وهم باستعراض الوضع. وإجراء تقديرات بشأن ما يجري في المنطقة. ثم نجري نقاشات حول القضايا العاجلة والملحة، ونتبادل المعلومات. وكانت المحادثات تجري باللغتين العربية والانجليزية.

وسافرت. فيما بعد. أيضا، للاجتماع بالملك الحسين. وقد حدث اللقاء الأول في منتصف عام ١٩٨٩ وقد اعتدت التنسيق مع سلاح البحرية والإبحار في يخت من إيلات باتجاه العقبة. وعندما اقترب من ساحل العقبة، يتجه اليخت الملكي نحوي لأخذي. وفي بعض الأحيان. كان الملك الحسين يقوده بنفسه. وكانت اللقاءات تجري بصورة عامة في قصره الصيفي في العقبة. واتسمت بالهدوء والراحة التامة. ولم تتخذ طابعا رسميا. وتناولت دائما قضايا رئيسية: مكافحة الإرهاب الفلسطيني. مستقبل المنطقة. العلاقات بين دول الشرق الأوسط. إيران. العراق. وغير ذلك. أما معالجة القضايا العملية. فقد تركها الملك لرجاله. وقمت أيضا بزيارة الملك في قصره بلندن. حيث استقبلني مثلما هي عادته بود كبير. وفي أعقاب اللقاء. أخذني إلى قبو القصر. وأطلعني على أجهزة الرادار الحديثة التي يستخدمها. كان الملك هاوي راديو متحمسا. ويجري اتصالات لاسلكية مع العديد من الهواة في أنحاء العالم.

أردت الحصول على شيء للذكرى من زيارتي لقصر الملك في العقبة. وأحببت أن آخذ واحدا من البشاكير الصغيرة الموجودة في الحمام. والتي رسم عليها شعار

العائلة المالكة. وحينما طلبت ذلك من الملك، قال لي بود بالتأكيد إنني أمنحك إياه بارتياح".

قابلت الأمير الحسن أيضا في صيف ١٩٩٣ بصحبة الملك في قصر العقبة، وكان على إطلاع تام بكل ما جرى بيني وبين شقيقه الملك في اللقاءات السابقة. وبدا الأمير مليئا بالثقة بالنفس والإصرار والجرأة ولم يبد لي كمن يمكنه أن يفقد رباطة جأشه في اللحظات الحرجة، كان خليطا نادرا من الصلابة والليونة. وقد تحدثنا كثيرا حول عائلتينا وأولادنا.

وفي أعقاب وفاة الملك الحسين، وتولي الملك عبد الله الحكم، سادت شائعات تفيد بأن الأمير الحسن. سيقوم بدور المعارضة للملك الجديد، بيد أنني كنت واثقا أنه لن يفعل ذلك بل سيقبل الحكم الذي أصدره الملك الحسين ويسير مع التيار.

وأنا لم أتعرف على الملك عبد الله شخصيا، لكنني مقتنع أنه سيسير على خطى والده بعد أن يثبت أركان حكمه ويكتسب الخبرة اللازمة. ويعتبر زواجه من فلسطينية، إحدى المزايا الهامة التي يتمتع بها الملك عبد الله الثاني، الأمر الذي يجعل إمكانية تحاوره مع الأغلبية الفلسطينية التي لم ترض عن السلام مع إسرائيل، أكبر مما كان لأبيه.

رابين تردد وبيرس ضغط

طلب ايتان هبر-المقرب، إلى رئيس الحكومة إسحق رابين الاجتماع بي بصورة غير رسمية في أوج معركة الانتخابات للكنيست في ربيع عام ١٩٩٢، فاستجبت للطلب. وقد بادرني بالقول: "سمعنا أن لديك مخططا لإنهاء خدمتك أرجو أن لا تفكر

في ذلك حتى مجرد تفكير". ورغم أنه لم يقل ذلك، إلا أنه كان من الواضح لي أنه يتحدث باسم رابين رئيس الحكومة المرشح من قبل "حزب العمل".

اجتمعت برابين كرئيس للحكومة بعد وقت وجيز من الانتخابات، بوصفه وزيرا للدفاع، وقد طرحت أمامه وجهة نظري بشأن الفصل بيننا وبين الفلسطينيين. وتحدثنا عن ضرورة المصالحة بين الشعبين، وقد اتسعت العلاقة بيننا. وشملت أبناء عائلتينا. لقد كان بالإمكان التحدث مع إسحق رابين حول كل شيء. بدءا من القضايا السياسية والمتعلقة بالجهاز وانتهاء بالمسائل الشخصية. وعلى عكس الصورة المترددة المعروفة عنه، فقد بدا لي قاطعا جدا، عندما تطلب الأمر اتخاذ قرارات أمنية. لكن عندما ألقي على عاتقه الحسم في قضايا شخصية حساسة مثل إقالة أشخاص لا يناسبون وظائفهم، كانت مسلكيته تبدو مختلفة تماما. وخصوصا إذا كان هذا الشخص، قد قدم خدمات في السابق لإسرائيل، فقد ألفنا أن يبدأ بالبحث عن الحلول الوسط والتي غالبا ما لم تسهم في حل المشكلة.

بدأت مسيرة "أوسلو" بعد وقت قصير من تسلم رابين مهام منصبه الجديد. وتطورت الأمور بسرعة مذهلة. ورغم بدء مسيرة "أوسلو". إلا أن العمليات ضد إسرائيل لم تتقلص. مما جعل الجماهير تتمزق بين الآمال التي زرعتها المسيرة. وبين الإحباط الذي زرعته العمليات الإرهابية لقد كان واضحا لدينا. أن هذا ما سيحدث حتى في أعقاب التوقيع على اتفاقية السلام. بيد أن المشكلة كانت تتمثل في كيفية توضيح ذلك للجماهير. وعلى وجه الخصوص المتشككين. ولأولئك الذين عارضوا المسيرة. وشرعوا في العمل على تقويضها.

كـان إسـحق رابـين، ووزيـر خارجيتـه شمعـون بـيرس، يعتقـدان اعتقــادا راســخا، بـأن السـلام هـو مصلحـة عليـا وحيويـة لمستقبلنا، لكـن التطـورات تطلبـت اتخـاذ قـرارات سـريعة، في الوقـت الـذي وجـد رابـين صعوبـة في اتخـاذ القـرارات، هـذا في الوقـت الـذي كـان فيـه بـيرس سـريعا كالشـيطان، دون أن يـولي أهميـة للتفـاصيل الصغـيرة.

ولم يكـن علـى اسـتعداد دائمـا للوقـوف أمـام كـل عـائق، وتقديـر مـا إذا كـان قـادرا علـى تخطيـه: بـل كـان يندفـع إلى الأمـام متجـاوزا وملتفـا حـول كـل حـاجز، الأمـر الـذي خلـق لإسـحق رابـين مشـكلة، قبـل بـدء المسـيرة، ممـا حـدا بـه لاتخـاذ قـرار بتشـكيل (مطبـخ) عمـل، مؤلـف مـن أشـخاص يمكـن الركـون إلى قدراتـهم المهنيـة والعمليـة، وإخلاصـهم، فعقـد اجتماعـا دعـا إليـه رئيـس الأركـان ايـهود بـاراك، ونائبـه امنـون ليفكـين شـاحك، وأنـا وكـان يدعـو إليـه في بعـض الأحيـان رئيـس شـعبة الاسـتخبارات العسـكرية اوري سـاجي، ورئيـس "الموسـاد" شبتاي شـبيط. لم يكـن هـذا المطبـخ هيئـة رسميـة تعقـد في وقـت محـدد، بـل كـان مجموعـة مـن الأشـخاص الذيـن يتـم اسـتدعاؤهم إلى رئيـس الحكومـة كلما فكـر أن مـن المـهم لـه أن يسـتمع إلى آرائـهم في أي وقـت يشـاء.

كـانت مصادرنـا تزودنـا بالمعلومـات حـول المـزاج السـائد في الشـارع الفلسـطيني، وردود الفعـل في أوسـاط الجـهات العربيـة، حـول الاتصـالات مـع الفلسـطينيين، وحـول مـا تتوقعـه خـلال المفاوضـات معـهم. وقمنـا، نحـن بدورنـا، ببلـورة هـذه المعلومـات، وتقديمـها إلى رئيـس الحكومـة، بوصفـها معلومـات اسـتخبارية نوعيـة جـدا، والـتي كـانت تقـدم إليـه- إضافـة إلى المعلومـات الـتي تصلـه مـن المصـادر الأخـرى- صـورة وضـع واضحـة جـدا، مما جنبـه عنـاء مواجهـة المفاجـآت خـلال المسـيرة.

تقدم رابين باتجاه "أوسلو" بتردد كبير، فقد كانت وتيرة سير الأحداث أسرع بكثير جدا مما اعتاد التعامل معه، لذا أعتقد أن العجلة من الشيطان. ولهذا السبب عمد إلى بلورة نظرية المراحل-والنبضات- كي تتقدم المفاوضات رويدا رويدا. "فنقدم نحن تنازلا للفلسطينيين عن شيء ما، مقابل تنازلهم هم لنا عن شيء، ثم نتوقف لنرى كيف تسير الأمور، فإذا سارت على ما يرام، ننتقل إلى المرحلة التالية. لقد آمن رابين بأنه سيكون قادرا -في أسوأ الأحوال- على التوقف، والتراجع عن المسيرة، دون أن يلحق بإسرائيل خطرا جسيما، في الوقت الذي كان بيرس يمارس ضغوطا شديدة للتقدم السريع. كأن يأتي إلى رابين ويقول له: يجب تسوية هذه المسألة حتى صباح الغد، فيتمتم رابين بشيء ما، ثم تتواصل عملية حل المسألة المذكورة ثلاثة أو أربعة أشهر. فرابين لم يكن في عجلة من أمره.

وفي أعقاب التوقيع على اتفاقية "أوسلو" وعندما آن الأوان لإجمال الترتيبات الأمنية مع الفلسطينيين. استدعاني إسحق رابين أنا ورئيس الأركان أمنون شاحك وطلب نصيحتنا. فقد كان يريد إبرام اتفاق عملي وأمني بحيث يتمكن الطرفان من الصمود بالتزاماتهما القائمة فيه. وقد استهللت حديثي بالقول: أنني أعتقد بضرورة بلورة هذه القضايا بصورة رئيسية مع شخصين يتواجدان في تونس. وهما جبريل الرجوب ومحمد دحلان. فسألني عنهما. فقلت: "إنني لا أعرفهما شخصيا بيد أنني أعرف عنهما كل شيء".

جبريل الرجوب. هو أحد أبناء العائلات الكبيرة في جنوب جبل الخليل. وقد تم اعتقاله عام ١٩٦٨. لأول مرة. وهو في السادسة عشرة بتهمة تقديم المساعدة لإحدى خلايا حركة فتح. وقد قربه الاعتقال من هذه المنظمة. فالتحق بخلية مسلحة.

وشارك في عشرات العمليات وبعد سنة اعتقل مرة ثانية، وحكم بالسجن المؤبد إثر إلقائه قنبلة يدوية على شاحنة عسكرية.

ورغم أنه كان صغير السن، ويفتقر إلى الثقافة، أصبح أحد أبرز الزعماء في المعتقل. وخلال وقت قصير انتخب للجنة المعتقلين، واعتبر أحد كبار العاملين ضد المتعاونين في المعتقل وخارجه، وقاد نضالات لتحسين شروط الاعتقال، واستخدم فترة اعتقاله لتوسيع ثقافته ودراسة اللغة العبرية.

وخلال الوقت الطويل الذي قضاه في الزنازين الانفرادية بسبب عمليات التمرد التي قادها في السجن، درس تاريخ النضال العبري ضد البريطانيين، وترجم إلى اللغة العربية كتاب مناحم بيغن "التمرد"، وألف كتابا حول الحياة في الاعتقال تحت عنوان "الزنزانة رقم ٧٠٤".

وفي عام ١٩٨٥ أفرج عن الرجوب في إطار صفقة تبادل الأسرى مع أحمد جبريل، بيد أن سلطات الأمن عادت واعتقلته بسبب مشاركته في الأعمال المعادية لإسرائيل. وقد تعرض لتحقيقات طويلة، بيد أنه لم يتعاون مع محققيه، وأعلن الإضراب عن الطعام لمدة ثلاثين يوما، وأطلق سراحه في نهاية المطاف لقلة الأدلة.

وبعد سنة صدر ضده أمر بالاعتقال الإداري، لمدة ستة أشهر، وحال خروجه من المعتقل. عمل في مركز الأبحاث الذي يديره فيصل الحسيني، وهناك، التقى بالفتاة التي أصبحت زوجته في المستقبل، بيد أنه لم يبقى طويلا في المركز، حيث رأى الحسيني فيه منافسا له، وعمل مديرا للمجلة الشهرية النسائية (عبير). واستخدم عمله ذاك غطاء لنشاطاته التنظيمية والسياسية.

وفي كانون الثاني ١٩٨٨، طرد إلى لبنان، وتوجه من هناك إلى تونس، حيث أصبح أحد مقربي عرفات.

كنا نعرف أنه أحد قادة الانتفاضة، وقد أطلق عليه رجال فتح لقب "دينامو الانتفاضة"، فقد أشرف على قادة ونشطاء الانتفاضة عبر الرسائل والفاكسات والاتصالات الهاتفية والرسل.

وفي كانون الأول ١٩٩٢، وصل إليه في تونس إسرائيلي يدعي رفائيل ابراهام. يناهز الأربعين من العمر، ومن سكان "ريشون لتسيون". وقد أعرب هذا الإسرائيلي عن استعداده لاغتيال إسحق شامير وأرئيل شارون وإسحق رابين ورفائيل ايتان. وغيئولا كوهن نظير مقابل نقدي وقد قبل الرجوب العرض، وسلمه ٣١ ألف دولار. وحينما عاد ابراهام إلى إسرائيل، في الحادي والعشرين من كانون الأول، ألقي القبض عليه عندما وطأت أقدامه أرض المطار.

واتضح خلال التحقيق معه، أنه حاول في البداية التردد على السفارتين الأردنية والعراقية في لندن، وعندما ردوه خاوي الوفاض، أجرى اتصالا مع أحد رجال منظمة التحرير وعرض عليه أن يقوم بقتل شخصيات إسرائيلية، فأرسله إلى تونس.

وفي السادس من أيار ١٩٩٣ أدانته المحكمة اللوائية، في تل أبيب، بتهمة الاتصال بعميل أجنبي، وحكمت عليه بالسجن الفعلي (٥٢) شهرا، وسنتين مع وقف التنفيذ.

يعرف الرجوب، بأنه قارئ جيد للصحف الإسرائيلية. فقد كان يلتهم المقالات بنهم شديد، ويقرأ جريدة الشائعات المسماة (للمرأة) ويقول المقربون منه أنه

يحـب جـدا أن يتـم الإعـلان عنـه وإشـهاره، ويعشـق أن تتناولـه وسـائل الإعـلام في عناوينـها، ويعشق المراسيم والاحتفـالات.

بـدت حياة محمد دحـلان أقـل إثـارة مـن حيـاة الرجـوب، بيـد أنـه شـارك في العشرات مـن العمليـات ضد إسـرائيل، فقد كـان أحـد رؤسـاء حركـة فتـح في قطـاع غـزة، وتـرأس لجـان الشـبيبة في القطـاع، ودفعـها للقيـام بعـدد هـائل مـن المظـاهرات وحـوادث الشـغب. وفي عـام ١٩٨٧، وبينمـا كـان لا يتجـاوز الخامسـة والعشـرين، طـرد مـن القطـاع، وتوجـه إلى تونـس، وانخـرط في صفـوف زعامـة منظمـة التحريـر، ومـن هنـاك، أشـرف علـى (صقـور فتـح) في القطـاع، وعلـى العمليـات الـتي قـامت بـها هـذه الخلايـا ضـد إسـرائيل، وضـد المتعـاونين معـها.

راقـت وجهـة نظـري حـول الرجـوب ودحـلان لرئيـس الحكومـة، واقـترح أن أتوجـه أنـا ورئيـس الأركـان أمنـون شـاحك إلى تونـس لإجـراء حـوار، سـري مـع الاثنـين. بيـد أنـني تـرددت في قبـول هـذه المهمـة، الـتي كنـت أعتبرهـا سـابقة لأوانـها جـدا. لقـد حـاربت سـنوات طويلـة ضـد أشـخاص مـن أمثـال الرجـوب ودحـلان، ولا زلـت أعتبرهمـا حتـى ذلـك الحـين، أعـداء لا هـوادة أبـدا معـهم، لـذا فـإن فكـرة الجلـوس معـهم إلى طاولـة المفاوضـات ومحاورتـهم وفقـا لجميـع أسـس الحـوار، بـدت لي متسـرعة جـدا.

سـافر شـاحك وحـده إلى تونـس، وحينمـا عـاد، قـال لي، أنـه قـال لعرفـات: كـان مـن المفـروض أن ينضـم إليـه رئيـس جـهاز الأمـن العـام فابتسـم عرفـات، وقـال: " تقصـد يعقـوب بري؟" ولا شك أنـه كـان يعـرف الكثـير عـني.

وافـق عرفـات علـى إجـراء الحـوار مـع الرجـوب ودحـلان، وأدركـت أن وظيفـتي وتجربـتي تحتمـان علـي المشـاركة في الحـوار، رغـم عـدم رغبـتي في ذلـك. وبعـد أن أعلمـت

إسحق رابين بذلك، تم تحديد موعد للقاء الاثنين في فندق (هيلتون) في جنيف، وفي تشرين الثاني توجهنا إلى سويسرا بهويتنا الحقيقية ودون حراس.

لقد أردنا أن يدرك الفلسطينيون أننا نثق بهم، وقد تم تحديد جناح لنا ولهم للقاء.

توجهنا إلى الجناح الذي يجب أن نجتمع فيه، وبعد لحظات جاء الاثنان، فتبادلنا التحية وتصافحنا، بدا دحلان متحفظا ومترددا، في حين بدا الرجوب منفتحا أكثر بكثير وقد بادرني بالقول: أهلا بري، كيف حال عدنه؟"، وعندما شاهد نظرة الدهشة في عيوني قال: " أنا أعرف أنك تزوجت خلال هذا الشهر، في منزلك في "رعوت"، لقد قرأت كل ما كتب عن حفل الزواج". لقد كان الرجوب ضليعا في معرفة الشائعات السائدة في إسرائيل، أكثر من كثير من الإسرائيليين.

تواصلت المحادثات منذ يوم الجمعة حتى عشية السبت. ومن الجدير بالذكر، أن أمنون شاحك يعرف القليل من العربية، لذا كنا نتحدث معهم بالعربية والإنجليزية. وكانت إحدى المشاكل العويصة والمعقدة، التي تحاورنا حولها، هي قضية المعابر على نهر الأردن، وحجم التواجد الفلسطيني عليها، وإجراءات العبور. وقد فهمت من الاثنين، أن دحلان سيعين في أعقاب انسحابنا من غزة، رئيسا لجهاز الأمن الوقائي، كما سيعين الرجوب رئيسا للجهاز في الضفة الغربية.

تقابلنا مع الاثنين مرتين أخريين في جنيف، ومرة في روما، ومرة في باريس، وكانت العلاقات الشخصية بيننا تتوطد في كل لقاء أكثر عن ذي قبل، وبدأنا نطلب إحضار وجبات الطعام إلى الغرف، ونتناولها معا، كما تحدثنا عن عائلاتنا. لقد

بدا لي دحلان: سياسيا محنكا، أكثر من الرجوب، كما أنه كان أقرب إلى وسط عرفات المغلق، من الرجوب لذا كان تأثيره السياسي أكبر.

لقد توطدت العلاقات بيننا منذ ذلك الحين، وكان الرجوب يتصل بي بعد كل عملية، ويسألني عن صحتي وصحة عدنه والأولاد. كما كان يبذل قصارى جهده، لحل كل مشكلة أعرضها عليه، وأنا أيضا كنت أفعل ذلك.

ولا زلت حتى اليوم، أقوم بين الفينة والأخرى، بزيارة عرفات. وعندما أزوره في رام الله ينتظرني جبريل الرجوب، على مداخل المدينة، وعندما أزوره في غزة، ينتظرني محمد دحلان على حاجز إيرز. ويقول الاثنان إن الإسرائيليين الذين تمكنوا من فهمهم هم: ليفكين شاحك، ويوسي جينوسار وأنا. والحقيقة هي أن هذا القول ليس صحيحا. فأنا أعرف الكثير من الإسرائيليين ممن تفاوضوا مع الفلسطينيين، وأوفوا بكل التزاماتهم. بيد أن من اكتسب ثقة الفلسطينيين، كانوا أولئك الذين تحاوروا معم كأنداد، ولم يتعاملوا معهم بصورة فوقية متعجرفة.

لقد أجرينا مفاوضات سرية مع دحلان والرجوب في باريس لا تعرف سوى قلة قليلة جدا بها. وحرصنا حرصا تماما، على أقصى درجات السرية وهربنا من وسائل الإعلام، بجميع الوسائل.

لقد شعرنا خلال لقاءاتنا مع الاثنين، بأسلوب (فرق تسد) الذي يستخدمه عرفات جيدا، ففي أحد الأيام، كنا نلمس أن عرفات فضل محمد دحلان في توجيهاته وصلته به، وفي اليوم التالي نشعر أنه فضل الرجوب. وكان الاثنان يسارعان إلى الاتصال به، حال انتهاء نقاشاتنا لإعلامه بالتناوب، بحيث يتصل دحلان في اليوم الأول مثلا ويتصل الرجوب في اليوم الثاني.

وبينما أوشكت مفاوضاتنا مع دحلان والرجوب حول المعابر على الانتهاء، ولم يبقى سوى بعض الجوانب التي رفضت التنازل عنها نظرا لأنها كانت تتعلق بحجم التواجد الفلسطيني في المعابر الحدودية، والرقابة الإسرائيلية الفلسطينية، وتسليح الشرطة الفلسطينية هناك، كان وزير الخارجية شمعون بيرس في دافوس بسويسرا يحاول حل هذه المشاكل مع مسئولين فلسطينيين وقد اتصل بي في محاولة لإقناعي بإبداء ليونة في كل ما يتعلق بالترتيبات الأمنية، الخاصة بالمعابر. لكنني قلت له: ذلك مستحيل لا يمكننا قبول ذلك، فأسماني بالمتصلب، وواضع العراقيل على طريق المفاوضات.

لقد أجريت مقابلات لا حصر لها مع رابين وبحضور بيرس، بهذا الصدد. وكان بيرس يدرك أن جهاز الأمن العام و"الموساد"، يقومان بمهمتهما على أكمل وجه، بيد أنه كان يعتقد أنهما لا يتمتعان برؤية بعيدة المدى بصورة كافية، ولهذا السبب، أصبحا عاملا معرقلا. لقد راودني شعور يقول أن بيرس يريد أن يقول لنا: لا تشغلوني بالصغائر، دعوني أتقدم إلى الأمام. بيد أن رابين، قبل وجهة نظر جهاز الأمن العام بعد نقاشات مطولة.

مكث امنون فترة طويلة في القاهرة، حيث أجرى مفاوضات مع ممثلي منظمة التحرير وفي الثالث من أيار انضممت إليه لعقد اجتماع إجمالي مع الرجوب ودحلان في فندق "سمير أميس" وبعد أن تمكنا من حل المشاكل العالقة، سارعت في العودة إلى إسرائيل.

لقد اعتبرت عملية إخلاء غزة والمسيرة السلمية، بمثابة حدث تاريخي. ورغم ذلك لم أخف- خلال الحوارات التي جرت مع الأوساط الإسرائيلية ذات

العلاقة- مخاوفي، وتنبأت بأن العملية ستكون طويلة ومؤلمة جدا، ومليئة بالأزمات والصعوبات، بيد أنني آمنت إيمانا تاما بضرورة إنجاز السلام، وضرورة التعامل بمنطقية مع الطرف الآخر.

لعب الأميركيون طيلة ذلك الوقت دورا مساندا من وراء الكواليس، فأجروا اتصالات مع عرفات ومعنا، وشجعونا على مواصلة الحوار، في اللحظات التي وصلنا فيها إلى أزمة.

وإبان إحدى زياراتي الرسمية لواشنطن اتصل بي موظف رسمي، يدعى فرانك هرينجبتون، وطلب الاجتماع بي فورا. وقال لي: أنه عاد لتوه من تونس، حيث اجتمع هناك بعرفات وناقش معه إمكانية استئناف العلاقات مع الولايات المتحدة. وتحدث هرينجبتون عن أحاسيس عرفات بشأن المفاوضات مع إسرائيل، وعن مخاوفه، وقال في نهاية الحديث، أن عرفات راغب جدا في أن اجتمع مع أمين الهندي.

وقد كتبت في مذكراتي حول الأحداث التي تلت ذلك قائلا: "لم يسبق لي أن قابلت الهندي، بيد أنني أعرف عنه الكثير. لقد ولد في غزة، وطرد من هناك بسبب مشاركته في أعمال المقاومة وعين رئيسا لشعبة عمليات حركة فتح. ولدينا معلومات تفيد بأن من المحتمل أنه كان مشاركا في التخطيط لمقتل الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ في الخامس من أيلول ١٩٧٢، وإطلاق الصواريخ على طائرة "العال" الإسرائيلية في مطار روما. وكنا نعرف أن عرفات يقدره جدا.

لقد أدركت من خلال محاولات الإقناع التي قام بها هرينجبتون معي، أنه نسق هذه المسألة مع وزير الخارجية وورن كريستوفر، ومع دنيس روس.

توجهت إلى سفارتنا في واشنطن، واتصلت برابين، وأعلمته بتفاصيل حديث هرينجبتون وطلبه بأن اجتمع بالهندي، فوافق على ذلك رغم عدم الارتياح الذي أبداه "الموساد".

كان من المفروض، أن يجري لقائي مع الهندي في إحدى القواعد العسكرية في دولة أوروبية. وحال هبوط طائرتي، وجدت بانتظاري سيارة أميركية أقلتني إلى القاعدة، وقدم هرينجبتون من واشنطن أيضا، وبدا شديد التأثر.

أدخلوني إلى غرفة مكتب واسعة، وهناك وجدت الهندي جالسا على أحد المقاعد. وجدت أمامي رجلا في الخمسينات، أنيقا كدبلوماسي محترف، يضع على عينيه نظارات شمسية. وبدا لي مترددا، وإلى حد ما مذعورا. وشعرت أنه لم يكن يشعر بعدم الارتياح فقط، بل كان خائفا إلى حد ما، فقد حاول الإسرائيليون اغتياله بشتى الطرق، وتابعوه في كل مكان، وأرغموه على الاختباء، وها هو فجأة يقف أمام أحد كبار الذين طاردوه. وحينما اقتربت منه، نهض من مقعده وصافحني بصورة رسمية دون أن ينبس ببنت شفة.

قدم كل واحد منا نفسه للآخر، رغم أنه لم تكن ضرورة لذلك، فقد كان كل واحد يعرف الآخر جيدا، من ملفات المخابرات، ونوهت إلى أن المعلومات التي لدينا تربط بينه وبين مقتل الرياضيين الإسرائيليين، لكنه لم يعقب على ذلك. تحدثنا بالعربية والإنجليزية حول موضوعات عامة، وحول مستقبل المنطقة، ثم اتجهنا نحو الجانب الشخصي. فقال لي أنه يعتزم العودة إلى غزة مع زوجته وابنته. وتحدثت معه قليلا حول عائلتي.

عرفت أن الهندي سيتسلم حال عودته إلى غزة منصبا شبيها بمنصب رئيس "الموساد"، كما إنني كنت على علم بأنه ربيب الأميركيين، لذا كنت شديد الاهتمام بالتوصل معه إلى اتفاق عملي، واتفقنا على أن يتصل بي حالما يأتي إلى غزة، وأن تجري مقابلة فيما بيننا.

لقد أوفى الهندي بوعده، واجتمعت به مرات عديدة منذ عودته إلى غزة، بل تقريبا مرة واحدة كل أسبوع، في أماكن عديدة: حاجز ايرز، وأريحا والقدس، وتل أبيب وتبادلنا المعلومات الاستخبارية، وبقي الأمر على هذا النحو حتى قطعت المحادثات على أرضية الأزمة التي قامت بين الطرفين.

رجل عادي وشديد الشكوكية

اضطر جهاز الأمن العام لإعادة تنظيم نفسه من جديد توطئة لإخلاء قطاع غزة. وكانت المهمة كبيرة جدا، حيث كان عليه أن يعد بنية استخبارية جديدة تتلاءم مع الواقع الجديد، والحصول على موافقة الكادر السياسي عليها، في الوقت الذي كان عليه بناء شبكة التعاون مع الفلسطينيين، وتحديد إجراءات اللقاءات والتنسيق وتبادل المعلومات. وفي إطار محاولتي لضمان كل ذلك، التقيت العديد من الجهات الفلسطينية المركزية.

ولم نتجاهل واجبنا في ضرورة العمل لحماية الفلسطينيين الذين اعتبروا متعاونين معنا. فقد ربط الكثيرون منهم مصيرهم بمصيرنا قبل سنوات طويلة، بل أن الكثيرين عملوا معنا منذ حرب ١٩٦٧. وقبل إخلائنا أعلمنا كل واحد منهم، بأن من حقه. إذا أراد. الانتقال مع أبناء عائلته للعيش في إسرائيل، ووعدنا كل من يقرر العيش في إسرائيل. بمنحه بطاقة هوية إسرائيلية.

ومن الجدير بالذكر، أننا لم نعمد أبدا لتجنيد أي عميل عبر ممارسة الضغوط عليه.

وأشهر الأجهزة التي تستخدم أسلوب الضغوط هو جهاز الاتحاد السوفيتي. فقد أثبتت التجربة أن العميل الذي يجند بالضغوط، لا يهتم بتزويد الجهاز الذي جنده بكامل المعلومات التي يحصل عليها، بل ولا توجد لديه أية حوافز لفعل ذلك.

وهناك العديد من الأسباب والعوامل التي تدفع بشخص ما لأن يصبح عميلا. فقد يكون السبب رغبته في شكرنا على صنيع قمنا به تجاهه. مثل جمع شمل العائلات، وتقديم العلاجات الطبية له أو لأحد أبناء عائلته أو الرغبة في الانتقام من أعضاء التنظيم الذي ينتمي إليه نظرا لتعاملهم معه بصورة غير ملائمة، أو أزمة مالية لقد كانت المبالغ التي ندفعها للعملاء متدنية جدا بالمصطلحات الإسرائيلية. بيد أنها كانت كافية لإعالة عائلة كثيرة الأولاد في غزة.

لقد قبل غالبية المتعاونين خلال سني الانتفاضة عرضنا الخاص للانتقال للعيش في إسرائيل. رغم أنوفهم، فطالما تواجدنا في القطاع، خشي أعضاء المنظمات من التعرض للعملاء. لكن كلما اقترب موعد الإخلاء، كلما ازدادت المخاوف لدى هؤلاء العملاء مما ينتظرهم عندما تتسلم السلطة الفلسطينية زمام الأمور.

وعندما دخلت السلطة الفلسطينية إلى القطاع طلبنا منها عدم التعرض للمتعاونين الذين بقوا هناك. وأوضحنا لهم. أن عدم المساس بالمتعاونين هو جزء من الاتفاقية. بيد أن السلطة لم تستطع الصمود والوفاء بالتزاماتها أمام شدة ضغط الشارع الفلسطيني وحركة "حماس". فقدم قسم من المتعاونين إلى المحاكمات وسجنوا وقتلوا وعذبوا. وأضرمت النيران في منازلهم. وصودرت أملاكهم. تماما مثلما حدث في لبنان

في أعقاب حرب ١٩٨٢، ومثلما حدث مع الفلسطينيين في أعقاب حرب ١٩٥٦ ومن المتوقع أن يحدث ذلك أيضا للمتعاونين مع إسرائيل في أعقاب انسحاب الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان.

ترك المتعاونون الذين انتقلوا للعيش في إسرائيل في بعض الأحيان، منازلهم، وممتلكاتهم، وأحيانا زوجاتهم اللاتي رفضن الانتقال معهم. وانفصلوا عن بيئتهم الطبيعية، وعن عائلاتهم، واضطروا لأقلمة أنفسهم مع مجتمع غريب ذي ذهنية مختلفة.

وقد تعامل جيرانهم الجدد–سواء أكانوا من اليهود أو العرب– بعداء، مما اضطرهم للعيش في حالة عزلة فظيعة، مما دفع بالكثيرين منهم إلى الجريمة والمخدرات والتهريب.

ما بعد "أوسلو"

في الثاني عشر من كانون الثاني ١٩٩٤ قررت الحكومة تشكيل إدارة مركزية لإعادة تأهيل المتعاونين، ونص القرار على خضوع هذه الإدارة لرئيس جهاز الأمن العام. وعلى أن تقوم لجنة مؤلفة من ممثلين من وزارات المالية والإسكان، والداخلية بتوجيه خطواتها. وتم تحديد أسس ومعايير لتأهيل المتعاونين، والعمال المحليين في الإدارة المدنية. ورجال شرطة ممن تعاونوا معنا، وعائلات المتعاونين الذين قتلوا أثناء قيامهم بخدمتنا. وقد بلغ عدد العملاء الذين يحتاجون لمساعدتنا آنذاك (١٤٠٠) متعاون، منهم (١٢٠٠) عملاء لجهاز الأمن.

بدأت عمليات المساعدة في الكثير من الحالات بتخليص العميل وأبناء عائلته من المناطق الفلسطينية، ونقلهم للعيش في إسرائيل. وقد احتاجوا بصورة عامة إلى توجيه في كل ما يتعلق بترتيبات الحياة في الواقع الجديد الذي فرض عليهم. فغالبية العملاء الذين انتقلوا للعيش في إسرائيل لم يكونوا يعلمون ما معنى حساب بنك أو كيفية الشراء من الحانوت. وقسم كبير منهم لم يكونوا يجيدون العبرية.

عارضت بشدة، إقامة أحياء للمتعاونين، وقلت إننا سنعمل بذلك، على خلق (غيتوات)، وسنسهم في عزل المتعاونين أكثر مما يعزلهم المجتمع، الأمر الذي سيؤدي إلى خلق مشاكل صعبة، وعمدنا إلى توزيعهم في جميع أنحاء البلاد، رغم أن هناك متعاونين فضلوا العيش في تجمعات خلقوها هم. وقمنا بمنحهم بطاقات هوية لتسهيل العيش عليهم في إسرائيل، واستأجرنا أو اشترينا لهم منازل، وقد تعرفت شخصيا

علـى متعـاون قـدم إلى إسـرائيل مـع زوجتيـه وأربعــين ابنــا مــن أبنائــه. وعشــرة أحفــاد في حين لم يكن قـد تجـاوز الخامسـة والأربعـين. وقـد اسـتأجرنا لـه مـنزلين في بـئر السـبع.

وفي بعــض الحــالات، ســاعدنا متعــاونين علــى الســكن في الخــارج. وخصوصــا في أوروبـا، وأميركـا الجنوبيـة.

لقـد غـرق غالبيـة المتعــاونين الذيــن قدمــوا إلى إســرائيل. في حالــة إحبــاط نفســي شـديدة، فقد عرفـهم السـكان. وأشـعروهم أنـهم غـير مرغوبـين رغـم أنــهم عرضـوا حياتــهم للخطـر مـن أجـل إســرائيل. وفي بعــض الحــالات، وافقــت لجنــة التــأهيل. علــى معالجــة عمـلاء نفسـيا، حيـث لم يسـتطيعوا مواجهـة الصعوبـات القائمـة. ممـا حــدا بــهم للعــودة إلى أمـاكن سـكناهم في الضفـة الغربيـة والقطـاع. رغـم المخـاطرة المرتبطـة بذلـك.

ومـن الجديـر بـالذكر. أن العديـد مــن المتعــاونين يــأتون حتــى اليــوم إلي مطــالبين بـالتدخل لصـالح النضـالات الــتي يخوضونــها ضـد الســلطات الإســرائيلية في قضايــا تتعلــق بالبنـاء والعمــل والمسـاعدات الماليــة ومــا شــابه ذلــك. وفي بعــض الحــالات مثلــت أمــام المحـاكم. لـلإدلاء بشـهادتي-حسـب طلبـهم-في المشـاكل الـتي كـانت تواجهـهم مـع الدولـة.

وأنـا أشـعر بالأسـف حقـا. لعـدم تمكننـا مـن عمــل المزيـد للمتعــاونين. فالميزانيــة الـتي خصصت للجنـة التـأهيل لا تتيـح لنــا الفرصــة، ســوى لتشـغيل عــدد معــين منــهم. ويقـوم ضـابط واحـد مـن جـهاز الأمـن العـام بالإشـراف علــى وضـع وعـائلات كــل خمســين متعاونـا. ولا شـك أن هـذا ليـس كافيـا. وأنـا أعتقـد. أنـه كــان علــى الدولــة أن تــدرك أنــها مدانة لهم أكثر بكثـير ممـا هـي علـى اسـتعداد لمنحـهم.

كلمـا اقـترب موعـد إخـلاء قطـاع غـزة. كلمـا ازدادت وتـيرة العمــل علينـا. وكـان علـى الجـهاز أن يشـرف علـى عـدد لا حصـر لـه مـن القضايـا والتفـاصيل. فقـد حرصنــا بدقــة

بالغة. على عدم إدخال أسلحة أكثر مما تم الاتفاق عليه، وأجرينا فحوصا على كل قطعة سلاح تسلم للفلسطينيين: كي نستطيع تشخيصها في حالة مشاركتها في عمليات ضد إسرائيل، وفحصنا كل صندوق وكل حقيبة وكل إرسالية تصل إلى قطاع غزة بحرا أو برا أو جوا. وتفحصنا قائمة رجال الشرطة، الذين كان يفترض أن يأتوا من الخارج ورفضنا قسما منهم.

وقد أعرب دحلان والرجوب عن تذمرهما من ذلك، وقالا: إن هؤلاء الأشخاص الذين نرفضهم سيحتلون مكانة رفيعة في أجهزة الأمن الفلسطينية، ودون دخولهم لن يسير العمل على ما يرام. وعندما كنا نرفض تذمرهما، كانت قضايا هؤلاء الأشخاص ترسل إلى عرفات شخصيا لمعالجتها، والذي كان يقوم بدوره بالتحدث مع بيرس الذي كان يتوجه إلى رابين، فيعيد رابين الأسماء إلينا، وتبدأ القصة بالدوران في نفس الدائرة من جديد. وأحيانا كنا نتجاوب، وأحيانا نصر على رأينا.

اضطرت المسيرة السلمية، عرفات، للتأقلم مع واقع جديد، وهو الأمر الذي لم يكن سهلا بالنسبة له، ففي أعقاب خروج المنظمات من بيروت، إثر حرب ١٩٨٢، عثر عرفات على ملجأ في تونس، وأقام لمنظمة التحرير هناك شبكة علاقات خارجية ومالية وعمليات ضد إسرائيل. ولم يكن هذا الملجأ بمثابة حكومة في المنفى، بل كان تجمعا للاجئين.

لم يكن عرفات يسمح لأي جهة قريبة منه، باكتساب قوة كبيرة في أوساط المنظمة. فعمد إلى تقريب وإبعاد الأشخاص، بصورة تناوبية، ولم يسمح لأي منهم بشغل أماكن رفيعة، زمنا طويلا، إن الشبهات والشكوكية العالية، والخوف من أن يطاح به. والتي قادت خطواته في تونس لم تتخل عنه عندما عاد إلى القطاع، بيد أنه

سرعان ما أدرك، أن ما كان ممكنا في تونس، لا يتلاءم مع الواقع الجديد في غزة. وأدرك أن عليه أن يضع أسس الدولة. بيد أن الشروط التي وجدها في غزة وضعت- ولا زالت تضع- الكثير من المعوقات على طريقه.

وعرفات شكاك كبير، ويتمتع بكفاءة عالية على صعيد النجاة. وقد خلق لنفسه بمضي السنين صورة حياة نابعة من رحم مخاوفه القائلة أن المخابرات الإسرائيلية تسعى لتصفيته.

وخلال الفترة التي سبقت إقامة السلطة الفلسطينية أكثر من التحرك. والاختباء، بل إنه لم ينم في مكان واحد ليلتين متتاليتين.

لقد طرحت مسألة اغتيال عرفات مرة أو مرتين في أوساط الجهاز. بيد أنه لم يتم المصادقة-حسبما أعرف- ولو مرة واحدة على جعله هدفا للتصفية. بل حتى في الأوقات التي بادر إلى تنفيذ عمليات صعبة جدا. ضد إسرائيل. كنت أعتبرها أهون الشرين.

اعتقدت أنه. ومقارنة بالأشخاص الذين سيحتلون مكانه إذا ما عمدنا إلى إزالته من الطريق-فاروق القدومي أو أبو جهاد مثلا-فإن عرفات يعتبر معتدلا. بل لقد تجرأت على القول. أن من المحتمل أن يشارك عرفات في الحوار مع إسرائيل بصورة أو بأخرى.

جرى أول لقاء بيني وبين عرفات تحت جنح الظلام بعد عشرة أيام من دخوله إلى غزة. وقد انتظرني رجال محمد دحلان على حاجز إيرز وأحضروني إلى مقره الشخصي المؤقت في منزل مؤلف من طابقين ومحاط بسور مرتفع. وقادوني إلى غرفة جلوس جميلة. وبعد لحظات. دخل دحلان واستقبلني بود ثم شاهدت سيارة

مرسيدس سوداء تدخل فناء المنزل، محاطة بالحراس، ثم شاهدت عرفات يترجل منها، فتوجهت للقائه في الصالون، ففتح ذراعيه، وعانقني وقبلني وفقا للتقاليد الشرقية-وبدأ الحوار معي وكأنه يعرفني منذ زمن طويل، حول زوجتي وأولادي ومكان سكني الآن، وكان يخاطبني بالإنجليزية والعربية بـ "حضرتك"، ولم تمض سوى عدة مقابلات حتى أخذ يناديني باسمي الشخصي.

انتقل حوارنا بسرعة من الجانب الشخصي إلى الجانب السياسي، وقد أبدى عرفات معرفة واسعة جدا بما يدور في إسرائيل وأكثر من الثناء على اسحق رابين وشجاعته وإصراره على دفع المسيرة السلمية إلى الأمام. وبعد أن عدد الصعوبات التي تواجهها السلطة الفلسطينية انتقلنا لمناقشة القضايا العملية ذات العلاقة بمجال عملي.

لقد سئلت في العديد من المناسبات، عن طبيعة شعوري وأنا ألتقي، لأول مرة، الرجل الذي كان قبل فترة وجيزة، أحد أعدى أعداء إسرائيل؟؟ هل شعرت بالكراهية، بالحقد، بالاشمئزاز؟ والحقيقة هي أن الرد لم يكن سهلا، فعرفات يعكس في لقاءاته الكثير من الهدوء والطمأنينة، ويزرع في محادثه السكينة والارتياح، لم تفاجئني مسلكية عرفات، فقد بدأت الاهتمام بهذا الرجل منذ عام ١٩٦٧، وجمعت قدرا هائلا من المعلومات حوله، وتعرفت على طبيعته آنفة الذكر.

أضف إلى ذلك، أن الشعور بالعداء انتهى لدي منذ بدء المسيرة السلمية، لقد حاربناهم وحاربونا، وبذل كل منا قصارى جهده، فيما اعتقد أنه صحيح، بيد أن كل ذلك انتهى الآن. فأنا ذاهب لمقابلة أناس سنبرم معهم اتفاقية سلام، لذا لم يعد هناك معنى للحديث عن الماضي بمشاعر الكراهية.

ومنذ ذلك الحين، كانت كل عملية ضد إسرائيل، تمزق قلبي، فقد أدركت أنه علينا أن نحارب طويلا ضد الإرهاب، وكان عزائي، أن منظمة فتح التي كانت تقوم بتنفيذ حوالي ٧٠٪ من العمليات ضد إسرائيل، تخلت عن الإرهاب.

لقد عدت بذاكرتي ثلاثين سنة إلى العداء، إلى أيام عملي الأول كضابط في جهاز الأمن العام، في منطقة نابلس، والاتصالات التي أجريتها هناك مع الجماهير، والأشخاص الذين اصطدمت بهم في زنازين التحقيق، وفي الشارع والمقهى، لقد بدوا لي آنذاك أناسا متقوقعين على أنفسهم في غالبيتهم العظمى، ضيقي الأفق، خائفين، ويحملون شعورا بالاضطهاد والكراهية العميقة ليس فقط تجاه إسرائيل، بل أيضا تجاه الدول العربية التي حملوها قدرا لا بأس به من وضعهم البائس.

أما الآن وأنا ألتقي مع ممثلي وناطقي الجيل الجديد من الفلسطينيين، والمختلف اختلافا كليا عن الفلسطينيين آنف الذكر، شعرت أن الأمر يبدو غريبا جدا، لأن بالإمكان أن نعزو هذا التغيير نسبيا، للحكم الإسرائيلي المتواصل في الضفة الغربية، والذي عمل على تنمية الجامعات الفلسطينية وتحسين الوضع الاقتصادي والصحي ومكن السكان من حرية تحرك نسبية. لقد رأيت في محادثي الجدد أشخاصا فخورين–مثقفين، وذوي اتجاهات غربية أكثر، ورؤية واسعة، وكانوا يتحدثون معنا كأنداد، لذا، لم أجد صعوبة في العثور على لغة مشتركة معهم.

سرعان ما توطدت العلاقات بيني وبين عرفات وبدأت أزوره كثيرا في غزة. في الغالب بصحبة يوسي جينوسار، الذي أصبح الممثل غير الرسمي لاسحق رابين، في الاتصالات مع عرفات.

أجرينا محادثات مطولة في أجواء هادئة، وكان عرفات ينهض من مكانه خلال هذا الحوار ويأخذ بيدي-ويقودني إلى غرفة مجاورة، نجد فيها مشروبات باردة وساخنة، ومأكولات شتى، وأحيانا وجبة خفيفة، وبناء على النهج الشرقي، كان يحرص على أن لا أبقى جائعا، ويحثني على تذوق كل شيء، بل ويأخذ شيئا ما أحيانا، ويقربه من فمي.

قدمت العديد من المطالب لعرفات، خلال هذه اللقاءات، ومن ضمنها مثلا، أن تلقي السلطة القبض على عياش (المهندس)، والذي كان اسمه يحتل رأس قائمة المطلوبين، وقد أصغى عرفات إلي باهتمام، ثم وعد أن يبذل قصارى جهده على هذا الصعيد، ولم يكن في رده ذاك شيئا غريبا، لقد حرص دائما على أن يزرع فينا شعورا بأن مطالبنا ستستجاب، حتى وهو لا يعتزم ذلك أبدا، فهو لم ينفذ قسما كبيرا من المطالب التي قدمناها له.

شارك العديد من منفذي سياسة عرفات في اللقاءات التي كنت أجريها معه، ومن ضمنهم الرجوب ودحلان، ولم يكن عرفات يوجه إليهم أوامر مباشرة، بل كان عليهم أن يفهموا من أسلوبه ومعالجته للأمور، النهج الذي يفضله.

فعندما طلبت منه مثلا، أن تساعدنا السلطة الفلسطينية، في العثور على جثة الجندي إيلان سعدون، رد بإيجاز شديد، "ستبذل السلطة جهدها في ذلك"، وعندما نظرت إليه أدركت أنه يقصد ذلك، وقد فعل حقا، أما عندما طلبت منه أن يعتقل عياش، رد علي بالقول: "إن السلطة تحارب الإرهاب، وتعتبره عدوا مشتركا"، وغير ذلك من هذه الأقوال، مما جعلني أدرك أنه لا يقصد ما يقوله.

يتساءل الكثيرون حول سر قوة عرفات؟؟ ويخيل إلي أن أفضل رد هو: أن الفلسطينيين يرون فيه رمزا، كالعلم مثلا، وهم يعتبرونه الرجل الذي حمل- ولا زال-النضال الفلسطيني على عاتقه منذ عام ١٩٦٤، أضف إلى ذلك، أن عرفات شخص شديد المكر والدهاء، فهو قادر على الإمساك بزمام السلطة بين أصابعه دون إبداء ذلك، ولم يكن بحاجة خلال التعامل مع المسؤولين الفلسطينيين للدق على الطاولة بقبضة يده كي يفهموه، أما خلال اللقاءات معنا، فكان ينفجر غضبا أحيانا ويدق على الطاولة قائلا: لست الرجل الذي لا هم له سوى الموافقة على ما تقولون، لا تظنوا أنني سأكتفي بعدة سنتيمترات من الأرض في أريحا-لن أسمح لأحد بأن يجعل مني أضحوكة".

لقد بات واضحا للجميع، أن عرفات والفلسطينيين لا يحبون إسرائيل. ولا يقولون غير ذلك، وهم يسعون إلى إحلال السلام، نظرا لاعتقادهم بأن هذا السلام سيفضي إلى إقامة دولة فلسطينية مستقلة، ورغم أن هذه التطلعات لم تكن ترضي رابين أو نتنياهو، بيد أنه لم يكن هناك أي خيار آخر، ولا خيار أفضل.

وأنا على ثقة، من أن تسريع المفاوضات والتوقيع على اتفاقية السلام، سيؤدي بالضرورة إلى ديناميكية مصالحة بين الشعبين، فالكثير من الإسرائيليين، لا يدركون أن السلام الحقيقي يصنع بين الشعوب وليس فقط بين الزعماء.

تساءل الكثيرون عن الوريث المحتمل لعرفات؟ ورغم أنه ليس من السهل في ظل الوضع الشرق أوسطي التنبؤ بذلك، إلا أنني أعتقد أن أكثر شخصين مرشحين لذلك هما: أبو علاء-أحمد قريع-، وأبو مازن. وهو شخصية معتدلة، ومقبولة في العالم. والعالم العربي. والاثنان يجريان اتصالات وطيدة مع شخصيات إسرائيلية رفيعة.

شاءت المفارقات أن يؤدي تراجع المسيرة السلمية إلى هدوء نسبي في العمليات المعادية لإسرائيل. ورغم أن هذه العمليات لم تتوقف تماما، إلا أنها تناقصت وتقلصت أضرارها، ويرجع السبب في ذلك، إلى أن حركتي "حماس" و"الجهاد الإسلامي"، ومنظمات الرفض، كانت تسعى إلى عرقلة تشويش المسيرة السلمية، طالما كانت هناك مسيرة. وفي نفس الوقت، لتحريض الجماهير الإسرائيلية ضد المصالحة مع الفلسطينيين، ومن الجدير بالذكر، أن المنظمات الأصولية الإسلامية، تعارض السلام بوتيرته المقترحة، فهي تريد إقامة دولة إسلامية تبتلع إسرائيل، وتقوم على أنقاضها. لذا فعندما لا تكون هناك مسيرة، لا تكون حاجة للإرهاب، لأن ما تريده هذه المنظمات، تم تحقيقه دون عمليات، أو التورط بالصدام مع السلطة الفلسطينية.

ستضع اتفاقية السلام مع الفلسطينيين حيثما يتم توقيعها، الكثير من العراقيل أمام عمل جهاز الأمن العام، ومن الجدير بالذكر، أننا نواجه، منذ الآن، صعوبات جمة في عملية جمع المعلومات الاستخبارية، حيث سيصبح اعتقال المطلوبين في المناطق التي لا تخضع لسيطرتنا شبه مستحيل، وسيصبح لزاما علينا الاعتماد بصورة أوسع على تعاون جهاز الأمن الفلسطيني معنا. ولا يوجد هناك من يضمن لنا أن هذا التعاون سيكون كاملا، ورغم ذلك، فإنني أؤمن أنه كلما تعمق السلام، كلما تعمقت علاقاتنا مع أجهزة الأمن الفلسطينية وستزداد أيضا المصالح المشتركة بيننا، وبالتالي ستصبح مكافحة الإرهاب، أجدى وأكثر فاعلية، نظرا لأن الأجهزة الفلسطينية قادرة على مواجهة الإرهاب جراء انخراطها في أوساط الجماهير الفلسطينية، والوصول إلى كل إرهابي، فعندما قررت السلطة مطلع عام ١٩٩٦-في عهد ولاية شمعون بيرس

كرئيس للحكومة- توجيه ضربات لحركة "حماس"، لم تستطع أي جهة الوقوف في طريقها.

وأنا أتوقع، أن يتم توقيع اتفاقية السلام في عهد جيلنا، أما مشكلة القدس شديدة التعقيد، فستبقى على ما هي عليه، أجيالا طويلة، وأنا أعتقد أن الفلسطينيين يدركون ذلك في أعماقهم.

فسوف يواصلون إطلاق التصريحات حول حقهم في المدينة، لكنهم لن يرجئوا إقامة دولتهم نظرا لأن هذه القضية لم تحل بصورة مرضية بالنسبة لهم، وسيضطرون لإبقاء هذه القضية مفتوحة.

وهناك سؤال يطرح في الكثير من الأحيان حول مدى وطبيعة تأثير قيام الدولة الفلسطينية على العرب في إسرائيل. والرد على هذا السؤال، يرتبط، إلى حد كبير جدا، بتفهم الوضع المعقد والمثير للمشاكل للعرب في إسرائيل.

لقد كان الوسط العربي في إسرائيل أحد الأهداف التي كرس لها جهاز الأمن العام: جانبا كبيرا من اهتمامه حتى حرب ١٩٦٧. وكان حزب (راكاح)-الحزب الشيوعي يحتل بؤرة هذا الاهتمام. بعد أن وصف نفسه بالحركة الوطنية العربية. أكثر من كونه حزبا أيديولوجيا شيوعيا، وفي أعقاب ترهل "راكاح" على أرضية انهيار الكتلة الشيوعية. لم تعد هناك ضرورة لفرض رقابة، بصورة خاصة، ومكثفة عليها.

كان العرب في إسرائيل، طيلة التسع عشرة سنة التي سبقت حرب ١٩٦٧. منقطعين تماما عن إخوتهم العرب. في الدول العربية. والذين اتهموهم ببيع أنفسهم للعدو الصهيوني، مقابل حفنة من المال، وأنهم فقدوا هويتهم الوطنية كعرب وكفلسطينيين بل وفقدوا هويتهم الدينية، وفي الوقت الذي لم ينجح فيه قسم كبير جدا

من لاجئي ١٩٤٨، في الخروج من الأزمات الاقتصادية التي يعيشونها في الدول العربية، كان العرب في إسرائيل يعيشون وضعا اقتصاديا جيدا.

ورغم العزلة التي عاشوها، والاتهامات الموجهة ضدهم، من إخوتهم العرب، فقد ثارت عشية حرب ١٩٦٧، مخاوف في إسرائيل من حدوث تحول ما، في موقف الوسط العربي ووضع جهاز الأمن العام في أقصى حالات التأهب لمواجهة أي احتمالات.

لقد أخذنا بعين الاعتبار، احتمال حدوث تمرد مدني يشوش عمل الجيش الإسرائيلي، ويعرقل تحركه باتجاه الهدف، بيد أن جميع التخوفات سرعان ما تبددت، فهم لم يقوموا بأي خطوة مشاكسة، على غرار ما فعلوا في جميع الحروب التي خاضتها إسرائيل. لقد تم حقا تسجيل محاولات منفردة هنا وهناك، لوضع بعض العراقيل، لكن الوسط العربي ترك الأمور تتطور، دون أي تدخل منه.

وعندما تلاشت الحدود بين إسرائيل والضفة وغزة، تدفق العرب في إسرائيل لزيارة أقاربهم، وقد توجهوا إلى هناك بسياراتهم الحديثة، مظهرين مبلغ الثراء والراحة التي يشعرون بها، لكن استقبالهم كان في الكثير من الأحيان باردا.

لقد أخطأ السياسيون الإسرائيليون الذين اعتقدوا أن العرب في إسرائيل، سيصبحون بمثابة جسر للسلام، فقد كانت مواجهتهم للتهم التي كالها لهم فلسطينيو الضفة والقطاع، صعبة للغاية، وأصابتهم بهزة عنيفة، وسرعان ما تمخضت هذه الأحداث عن نتائج واضحة، فقد بدأ أولئك الذين وصفوا أنفسهم بالعرب الإسرائيليين إبراز هويتهم الفلسطينية ونبذ الإسرائيلية، ودفعها إلى الهامش، ولم يعودوا عرب إسرائيل، بل العرب سكان إسرائيل.

وإزاء هذا الوضع الجديد، أخذت مشاعر الاضطهاد التي كانت تملأ قلوبهم، وأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، تتعزز وتعكس نفسها في العديد من المناحي والتعابير، فازدادت مثلا المعارضة لتعليم أشعار نحمان بياليك، في المدارس العربية، وبدأت تظهر مطالبات ملحة لإثراء برامج الدراسة في المدارس العربية بقصائد الشاعر الوطني محمود درويش، وأخذ العرب العاملون في سلك التعليم يقولون: "أنتم اليهود تدرسون الإرث الصهيوني، فدعونا نعلم أبناءنا الإرث الفلسطيني". ومن الجدير بالذكر، أن وزارة المعارف متنبهة لهذا المطلب، وهي تبذل قصارى جهدها لموازنة مخططات الدراسة في الوسط العربي.

هناك العديد من القواسم المشتركة بين الوسط العربي في إسرائيل وفلسطيني الضفة الغربية والقطاع، وعلى رأسها العامل الديني المتمثل في النضال من أجل المسجد الأقصى. لذا، لم يكن الارتفاع الهائل الذي طرأ على قوة الحركة الإسلامية في إسرائيل في غضون العقد الماضي مفاجئا. وزعماء الحركة يكتبون المقالات ويلقون الخطب، ويحرضون بيد أنهم يدركون أنهم يعيشون في دولة قانون. وهم حريصون تماما على ألا يتجاوزوا أو ينتهكوا القانون.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل التشابه في المصالح، سيدفع بالعرب في إسرائيل، لإبداء الرغبة في أن يصبحوا جزءا من الدولة الفلسطينية المستقلة؟؟ وأنا أعتقد، أنه ليس من الصعب عمل ذلك، على أرض الواقع، فالمثلث بكامله يجاور الضفة الغربية، ويكفي تحريك الحدود لمسافة خمسة عشر كيلو مترا فقط، لتحويل كل وادي عارة، والطيبة وكفر قاسم وأم الفحم، وعرعرة، إلى جزء من الدولة الفلسطينية. ومن الجدير بالذكر، أن نصف العرب في إسرائيل تقريبا، يسكن في هذه المنطقة، والتغيير

الجغرافي السياسي، لن يتطلب. من ناحية هذه الجماهير، إجراء أي تغيير في أماكن سكناها، وأنماط حياتها.

ورغم ذلك، فإنني أعتقد أن غالبية هذه الجماهير لا ترغب في الانضمام إلى الدولة الفلسطينية.

إن الفكرة القائلة بقيام العرب في إسرائيل بترك ممتلكاتهم وأراضيهم مقابل السكن في مكان ما من الدولة الفلسطينية، تبدو لي أقل في تحقيقها من اقتطاع المثلث. فالعرب في إسرائيل، لن يتخلوا عن حياة الرفاه في إسرائيل، ولا شك أنهم سيمدون يد العون لإخوتهم في الدولة المستقلة، وقد يرسلون أبناءهم لحضور المعسكرات الصيفية التي قد تعقد في نابلس وجنين وغزة، وسينشئون روابط صداقة، لكنهم سيبقون هنا.

إن التعاطف الذي يبديه العرب في إسرائيل، حتى الآن، تجاه ما يحدث في الضفة والقطاع. هو تعاطف من يقف موقف المتفرج، ورغم تزايد التدخل العملي في القضايا الوطنية الفلسطينية، إلا أن هذا التدخل لم يصل إلى مراحل خطرة.

وليس أدل على ذلك. مما حدث في عهد الانتفاضة، ففي الوقت الذي كانت الضفة والقطاع يغليان، لم ينظم العرب في إسرائيل أي مظاهرة أو أعمال عنف وخرق للنظام.

ولم يمد يد المساعدة إلى (المخربين) من بين العرب في إسرائيل، سوى قلة قليلة. أما أولئك الذين انضموا إلى المنظمات الفلسطينية فهم حفنة صغيرة جدا، ورغم ذلك. لا يجب أن ننسى أن التعاطف من قبل العرب في إسرائيل. مع مواطني الضفة والقطاع لا زال قائما. وخصوصا في أعقاب انهيار المسيرة السلمية، وبالتالي يتوجب على

جهاز الأمن العام، أن يتخذ الخطوات اللازمة للحيلولة دون تحويل هذا التعاطف إلى صورة خطرة.

لم تتجاوز التحولات التي اجتاحت المنطقة، القطاعات البدوية في النقب والجليل. فقد توغلت الحركة الإسلامية في الوسط البدوي بزخم كبير جدا. لقد أثارت المماطلة التي انتهجتها السلطات الإسرائيلية، في العثور على حل لمشكلة أراضي البدو. في أعقاب إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي وانسحابه من سيناء-ثائرة البدو وجرتهم باتجاه الحركة القومية العربية. ودفعتهم إلى الاحتجاج والغضب وإظهار الشعور بالإحباط، في كل مرة تدلي فيها شخصية إسرائيلية، بتصريح ما يمس بهم.

لقد اكتسب العديد من البدو مكانة جيدة في الجيش الإسرائيلي. بوصفهم قصاصي أثر متميزين، ورغم أن التجنيد الإلزامي. لا ينطبق على البدو. إلا أن العديدين منهم تطوعوا للالتحاق بقوات الأمن الخاصة، بيد أنه لا يجب أن ننسى أبدا. أنهم جزء لا يتجزأ من البدو. ولا يمكننا أن نقول، أن أيا منهم محصن ضد الشعور بالاضطهاد والعداء المتأصل في أوساطهم.

ولا شك أن إيلاء السلطات الإسرائيلية قدرا أكبر من الاهتمام للبدو واحتياجاتهم. سيسهم في امتصاص التوتر. والحيلولة دون تطور ظواهر متطرفة ذات خطورة بالغة.

وبمقدور الدولة أيضا، منح المزيد للدروز، وهم يستحقون ذلك، فالدروز في إسرائيل. ربطوا مصيرهم بمصير الدولة. فهذه الطائفة قادرة على التأقلم بصورة جيدة. مع السلطات التي تعيش على أراضيه. والدروز يفعلون ذلك في إسرائيل. بصورة تثير الاحترام. وانخراطهم في حياة الدولة واسع ومؤثر. وليس أدل على ذلك.

من أبناء الطائفة الذين وصلوا إلى مراتب عسكرية رفيعة، وقد أشركهم جهاز الأمن العام أيضا. في مهام أمنية خاصة به.

ومثلما هو الأمر في كل طائفة، هناك نبتات شاذة، تنمو بصورة غير طبيعية. ففي أوساط الدروز ثمة من يرغبون في عدم أداء الخدمة العسكرية، رغم أن عددهم ليس كبيرا. وهذه الطائفة، رائعة، وقد قدمت الكثير للدولة.

أما دروز هضبة الجولان، فتعاملهم تجاه إسرائيل مزدوج، فمستوى حياتهم تحت الحكم الإسرائيلي أصبح أعلى بكثير مما كان عليه في عهد النظام السوري، في الوقت الذي يبدي قطاع واسع منهم توجها سوريا واضحا، ويرجع هذا الوضع، لخشيتهم من أن يكلفهم إبداء التعاطف مع إسرائيل غاليا، إذا ما تمكن السوريون من استعادة الهضبة إلى سيادتهم من جديد.

وتتمحور نشاطات جهاز الأمن العام في هضبة الجولان حول إحباط عمليات التجسس لصالح سورية، من قبل بعض السكان هناك،وإحباط العمل السري السياسي الناجم عن التضامن مع السوريين.

لقد سمحنا خلال فترة عملي كرئيس للجهاز للعديد من الشبان الدروز للتوجه إلى سورية لإكمال دراساتهم الأكاديمية. وصادقنا على زيارات عائلية متبادلة. ويمكنني القول. أنه باستثناء حوادث شاذة، مثل المظاهرات التي كانت تجري في ذكرى اندلاع الثورة السورية، فإن التعايش السلمي بيننا وبين الدروز في هضبة الجولان. بقي قائما.

أحداث متلاحـقة

(ذئب) في الخليل

دق جرس الهاتف في غرفتي في حوالي الساعة السادسة من صبيحة الخامس والعشرين من شباط ١٩٩٤، ولم يكن النبأ الذي سمعته يحمل الكثير من التفاصيل، بيد أنه كان كافيا لجعلي أقفز من سريري، وأسارع لارتداء ملابسي-فقد قيل لي، أنه سُمعت أصوات عيارات نارية وصراخ في الحرم الإبراهيمي في الخليل، وأنه يجري دفع قوات الأمن إلى هناك، وأملت أن الوضع لا يتعدى نزاعا بين العشائر في الخليل، أو بانطلاق عيار ناري خاطئ أو مطاردة إرهابي.

لكن الأنباء التي بدأت تتدفق إليّ، خيبت ظنوني، وأدركت أن يهوديا دخل إلى الحرم الإبراهيمي، أثناء أداء المسلمين الصلاة، وقتل تسعة وعشرين مصليا-وأصاب ١٢٥ شخصا بجراح، وتم تحديد هوية الشخص بأنه "باروخ غولدشتاين"، وهو طبيب يسكن في "كريات أربع".

طلبت معرفة ما إذا كان له ملف لدى الجهاز، وفعلا، وجدت له ملفا مثل جميع المتطرفين الآخرين، لكنني لم أعثر على أي معلومات في الملف تشير إلى أن الرجل قد يقوم بعمل متطرف من هذا القبيل.

بدا أن هناك أهمية بالغة لتقدير الوضع، فطالبت بمعرفة ما إذا كان "غولدشتاين" قد عمل وحده أو في إطار تنظيم متطرف؟؟ وفيما إذا كانت هذه العملية وحيدة. أم أنها واحدة من سلسلة متوقعة؟؟ وإذا كانت عملية من سلسلة، فأين من المتوقع أن تتم العمليات الأخرى؟؟

أمرت جميع أعضاء الجهاز بعدم الذهاب إلى الضفة أو القطاع دون حراسة. وتعزيز الحراسات على الشخصيات والوزراء وغيرهم، وعلى المؤسسات الإسرائيلية في الخارج، ووسائل النقل الدولية الإسرائيلية، وجمع جميع المعلومات المكنة، حول التنظيمات الفلسطينية. التي قد تسعى للانتقام.

وحينما اتضحت الصورة لدي، سارعت إلى قيادة الجهاز، وعقدت جلسة طارئة مع مسؤولي الشعب لبلورة خطة عمل، ثم توجهت إلى منطقة بيت لحم التي تعتبر أقرب منطقة من الحادث، ممتنعا عن التواجد في نفس منطقة الحدث. كي لا أعرقل عمل الضباط المسؤولين عنها. وفي ساعات الظهر، زرت الحرم الإبراهيمي. للإطلاع على مكان الحادث عن كثب، ثم توجهت إلى تل أبيب، للمشاركة في جلسة الحكومة الطارئة، حيث قدمت تقريرا وافيا عما حدث، وتقديرنا لما سيحدث، وعدت إلى مكتبي.

وفي ساعات المساء، عقد "اسحق رابين" جلسة استشارية في مكتبه بوزارة الدفاع، حضرها رئيس الأركان "أيهود باراك"، ونائبه "أمنون شاحك"، ورئيس شعبة الاستخبارات العسكرية "أوري ساغي"، وسكرتيره العسكري وأنا.

طلب "رابين" أن يسمع أولا تقديرات جهاز الأمن العام، فقلت: إن المستوطنين في الخليل يخشون من إخلائهم على أرضية العملية، وأنهم يعتزمون، في هذه الحالة: وضع حواجز بشرية على طريق المستوطنة. وهناك تهديدات أيضا. بتوجيه الضربات إلى الفلسطينيين، إذا ما اتخذت أية إجراءات ضد المستوطنين. لقد تردد كثيرا مصطلح "دماء ستسفك" من قبل المستوطنين.

وقلت إنني أعتقد أن الغليان وأعمال العنف في الشارع الفلسطيني، لن تهدأ زمنا طويلا، وأن من المتوقع أن تواجه إسرائيل بشجب دولي، الأمر الذي سيشجع على القيام بعمليات انتقامية ضدها.

وعندما سألني "رابين" عن احتمالات العمل الممكنة؟؟قلت: إنني لا أحبذ، في الآونة الحالية، إخلاء المستوطنات اليهودية من الخليل، لكنني أرى أن هناك ضرورة لاتخاذ خطوات حاسمة وسريعة للرد على المذبحة.

طرحت أثناء النقاش، فكرة إخلاء مستوطني (تل الرميدة) فقط، فأيدت ذلك، فـ"تل الرميدة" يقع في الجانب الجنوبي من الخليل، وقد قامت الجالية اليهودية في المدينة بشراء أراضيها في القرن التاسع عشر. وقد كانت أراضي "تل الرميدة" من أول الأهداف التي وضعها المستوطنون نصب أعينهم في أعقاب حرب ١٩٦٧، وتمكنوا عام ١٩٨٤ من الاستيلاء عليها. ومنذ ذلك الحين، نشبت نزاعات وصدامات كثيرة جدا، بين حفنة المستوطنين، والمواطنين العرب، والجنود الإسرائيليين.

سكن المستوطنون في "تل الرميدة" في عدد من الكرافانات الخشبية المقامة في "صفيني" وفي الوسط، أقاموا ملاعب لأولادهم، لقد رفضت جميع الحكومات الإسرائيلية، حتى مقتل الحاخام "رعنان" من سكان المستوطنة-توسيع المستوطنة، وإقامة مبان دائمة.

وذكرت الحاضرين، بأن "باروخ مرزيل"- أحد زعماء حركة "كاخ" المتطرفة، والذي لا هم له سوى التحريض ضد العرب- من سكان المستوطنة، وقلت: إن إخلاء المستوطنة سيثبت للعالم وللفلسطينيين، أن إسرائيل لم تقف مكتوفة الأيدي في أعقاب

العمليـة،وردت بسـرعة وشدة. وطالبت بـأن يتـم-في إطار ذلـك-إبعاد عـدد مـن المحرضـين الذيـن يسـهمون في غليـان المنطقـة.

وأشـرت إلى أن مـن المحتمـل، أن تواجـه عمليـة إخـلاء مسـتوطني "الرميـدة"، بمقاومـة ضئيلـة، وأن مـن المحتمـل أن تقـابل هـذه الخطـوة بتفـهم مـن قبـل بـاقي المسـتوطنين.

جعلـني رد "رابـين" أعتقد، أنـه يميـل إلى الإخـلاء، بـل إنـه قـال: يجـب أن يتـم الإخـلاء في أسرع وقت ممكـن، وبينمـا الصدمـة الـتي أحدثتـها العمليـة لا زالـت في أوجـها. ومـن الصعـب علـى المسـتوطنين أن يعـدوا العـدة لـرد معـاكس وانفضـت الجلسـة، بعـد أن وعـد رابين ببلـورة قـرار حتـى منتصـف الليـل.

وفي صبيحـة اليـوم التـالي، أعلمـني سـكرتير "رابـين"، أنـه قـرر عـدم إخـلاء التـل. ويبدو أنه بلـور قـراره ذاك، خـلال المشـاورات الـتي أجراهـا بعـد ذلـك.

ومـن الجديـر بـالذكر، أن "رابـين" الـتزم أمـام المسـتوطنين، في أعقـاب توقيـع اتفاقيـة "أوسـلو" في أيلـول ١٩٩٣، بعـدم إزالـة أي مستوطنة مـهما كـانت صغـيرة، ويخيـل إليّ أن المشـاورات الـتي أجراهـا في أعقـاب الجلسـة آنفـة الذكـر، عـززت لديـه ضـرورة الوفـاء بالتزامـه، وأن أعمـال العنـف والشـغب الـتي اندلعـت، في أعقـاب المذبحـة، سـتتفاقم. ولا شك أن اصطدامـه مـع المسـتوطنين سـيزيد الطـين بلـة.

وعندمـا أتطلـع الآن إلى الـوراء، أعتقـد أن "رابـين" أخطـأ في قـرار عـدم إخـلاء "تـل الرميـدة".

قـررت الحكومـة، بعـد يومـين مـن المذبحـة، تشـكيل لجنـة تقصـي حقـائق. وتحقيـق رسميـة. وعـين رئيسـا لهـا قـاضي المحكمـة العليـا "مائـير شمغـار"-وعضويـة

القضاة "اليعازر غولدبيرغ"، و"عبد الرحمن الزعبي"، والبروفيسور "مناحم يعاري" والفريق "موشيه ليفي".

وتشير تحليلات اللجنة، للأسباب التي حدت بـ "غولدشتاين" لتنفيذ المذبحة، إلى أن العملية شبيهة بالعملية الفردية، التي نفذها قاتل "اسحق رابين" "يغآل عمير"، حيث قال المحققون: إن وجهة نظر "غولدشتاين" والهدف الذي وضعه نصب عينيه، والرسالة التي اعتبر أنه يحملها، تبرر جميع الأعمال التي يمكن أن يقوم بها، فغيرته لم تعترف بسيادة القانون، أو بسلطة مؤسسات الدولة، ومن الجائز، أنه كان يعيش أزمة نفسية، جراء معالجته لليهود الذين أصيبوا أو قتلوا خلال العمليات التي نفذها الفلسطينيون، وعيش المستوطنين بصورة دائمة في ظل حالة من حالات الإذلال والخطر، لقد اعتبر نفسه رسولا للشعب الإسرائيلي المأمور بالعمل وفقا لإرادة الله. ويبدو أنه قد تبلور لديه العزم، للقيام بعملية شاذة، في مدى خطورتها وتطرفها، بغية وقف العملية السلمية، التي اعتبرها خطرا جسيما".

لقد انشغل جهاز الأمن العام خلال التحقيقات التي جرت في الرد على السؤال القائل: هل عمل "غولدشتاين" وحده أم أن له شركاء؟؟

وقد قبلت لجنة التحقيق رأي الجهاز القائل؟ إنه لا يوجد ظل من الشك في أن "غولدشتاين" عمل وحده، وأنه قدم وحده إلى الحرم، ونفذ العملية أيضا وحده دون أن يتلقى أية معونة من أي شخص آخر.

سيارة متفجرة بالقرب من السفارة

يعتبر جهاز الحماية الإسرائيلي-إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مساحتها وحجم سكانها-أحد أكبر أجهزة الحماية في العالم، لقد اضطرت العمليات العديدة

التي وقعت ضد إسرائيل ـ محاولة اختطاف مجموعة "ليلى خالد" طائرة "العال" الإسرائيلية في أيلول ١٩٧٠، ومقتل الرياضيين الإسرائيليين في "ميونيخ" عام ١٩٧٢، وتصعيد العمليات الفلسطينية وتحويل الإسرائيليين ومؤسساتهم في الخارج إلى أهداف للعملية-اضطر جهاز الأمن العام لبلورة نظرية حماية دقيقة، قادرة على توفير الردود الشافية لمجموعة المشاكل المعقدة التي تواجه إسرائيل. ويعتبر "ابراهام شلوم" الذي ترأس خلال عمله في الجهاز، شعبة الحماية قبل أن يصبح رئيسا للجهاز-صاحب هذه النظرية.

ويقوم الجهاز بتدريب أعضاء شعبة ورجال الحماية، في الجهات الحكومية والتجارية ذات المستوى القومي-مثل شركة "العال"-في المدرسة الخاصة التي أعدها لهذا الغرض.

ولا شك أن جميع العاملين في شعب الحماية يدركون، أن من النادر جدا، تلقي معلومات تفيد بأن هناك خلية محدودة، ستقوم بهجوم في ساعة محددة على مكان محدد. لذا، فإن الحماية الشاملة: هي تلك الحماية التي يفترض أن تحبط المحاولات الرامية إلى تنفيذ عمليات. ولا يمكننا أن نعرف، كم عدد العمليات التي تحبطها شعبة الحماية في الأوقات المتسمة بالهدوء، والتي لا تقع خلالها عمليات درامية كبيرة، فمن المنطقي القول، أن القائمين على العمليات كانوا يخططون للقيام بعمليات خلال فترات الهدوء، بيد أن عمليات الرقابة التي يقومون بها، تؤكد لهم، أن الحماية المفروضة على الهدف، ستحول دون إتمامهم لمهمتهم.

وأعمال الحماية تتميز إلى حد كبير جدا بالروتينية، ومن لم يتهيأ لمواجهة الروتينية، لا يمكنه أن يصمد في أعمال الحماية، لأن الروتين يقتل اليقظة والانتباه بمضي الوقت، ويحرص الجهاز على عدم إبقاء الحراس في أماكنهم، فترات طويلة.

ويؤكد المدربون للمتدربين، أن أعدى أعداء الحماية، الترهل والملل.

والجهاز يعد (الحماة) ويؤهلهم للرد في غضون أجزاء من الثواني، بدقة بالغة، وبالاتجاه الصحيح، لأنه إذا لم يكن الحارس مهيأ لمواجهة هذه الأجزاء من الثانية، طيلة اليوم والأشهر، فإن جميع التدريبات التي منحت له ستذهب أدراج الرياح.

ويقوم الجهاز بالعديد من المناورات للتأكد من مدى يقظة الحارس وسرعة رده، ويعاقب المقصرين بشدة بالغة، تبلغ حد الفصل من العمل.

استقينا العبر في أعقاب كل عملية ضد إسرائيل، في الخارج، وجسدنا هذه العبر على أرض الواقع بسرعة، ففي أعقاب انفجار السيارة الناسفة بالقرب من السفارة الإسرائيلية في "بوينس ايرس" طالبنا بأن لا تسكن سفاراتنا في مباني معزولة، بل في مبان مؤلفة من مكاتب، وطالبنا ببناء جدران من الباطون أمام السفارات، تحول دون اقتراب السيارات من المبنى، وحرصنا على عدم السماح للسيارات الأجنبية بالوقوف قرب المبنى.

جميع وسائل الحذر- ومهما كانت دقتها- لن تحول دون فشل أعمال الحماية بصورة تامة، نظرا لاستحالة توقع جميع الاحتمالات مسبقا.

أضف إلى ذلك، أن استحالة إغلاق منطقة إغلاقا تاما، فترة طويلة، يجعل بالإمكان وقوع عمليات، وتحمل مخاطرة محسوبة. ومن الجدير بالذكر، أن المنطقة

التي تقع فيها السفارة الإسرائيلية في "لنسينجتون" في لندن، محمية بصورة جيدة من قبل الشرطة البريطانية، ويتوجب على كل سائق يرغب في دخول المنطقة، أن يبرز هويته.

ورغم كل هذه الاحتياطات، انفجرت في السادس والعشرين من تموز ١٩٩٤ سيارة ملغومة في الساحة المجاورة للسفارة مما أسفر عن إصابة قسم من مبنى السفارة بأضرار جسيمة وإصابة بعض عمالها بشظايا. لقد تمكنت المرأة التي كانت تقود السيارة، من التحايل على الشرطة، حيث أعلمتهم أنها تقصد عنوانا معينا في المنطقة. فسمح لها بعبور الحاجز، ولا شك أنه لم يكن بمقدورنا عمل شيء في هذه الحالة للحيلولة دون وقوع الانفجار، لأننا لا تستطيع وضع الحواجز في منطقة كاملة من إحدى المدن الأجنبية.

وصلت إلى لندن، بعد ساعات معدودة من وقوع الانفجار، واكتشفت أن من بين المصابين في الحادث "شارون"-ابنة زوجتي "عدنة"، العاملة في السفارة، وقد اتصلت بي "شارون" من المستشفى لطمأنتي، وقمت أنا بدوري بالاتصال بزوجتي لطمأنتها.

وفي صبيحة اليوم التالي، انفجرت سيارة ملغومة بالقرب من "بيت بلفور" في وسط لندن، والذي يضم المؤسسات اليهودية، مما أدى إلى إصابة ثلاثة عابري سبيل بجراح.

قبل تعييني رئيسا لجهاز الأمن العام، قمت بجولة في العديد من الدول. للوقوف، عن كثب، على ترتيبات الحماية في السفارات الإسرائيلية وفي (العال). وقمت بزيارة "مونتريال" الكندية.

وعندما أنهيت المهمة التي أردت القيام بها، توجهت إلى المطار، وصعدت إلى طائرة "العال" في طريقي إلى إسرائيل، وبدأت الطائرة بالتحرك على مدرج الإقلاع، وفجأة قدمت إلي المضيفة مذعورة، وقالت لي: إن الطيار يرغب في التحدث معي في قمرته، توجهت إلى قمرة الطيار، الذي كان يعرف هويتي، فقال لي: إنه تلقى لتوه إشعارا، بأن هناك قنبلة في الطائرة، وأن ضابط الأمن يطلب منه وقف المحركات. وإنزال الركاب، وإجراء تفتيش دقيق للطائرة.

وأضاف.."أريد أن تفهم، أنه إذا ما قبلت طلب الربان-فسوف نضطر إلى إلغاء الرحلة كلها، وبالتالي سنتحمل خسائر مادية فادحة"، ونظر إليّ باستعطاف، وكأنه يأمل أن أعثر على طريقة لتقليص الإجراءات، وإتاحة الفرصة للطائرة للإقلاع، بأسرع وقت ممكن، بيد أنني لم أرد عليه.

أوقف القبطان الطائرة، وطلب مني الانضمام إليه، وأعلمنا الركاب، أن هناك تأخيرا فنيا، وتوجهنا إلى ضابط الأمن، وقال له القبطان أن يأخذ بعين الاعتبار، أن هناك أربعمائة مسافر في عجلة من أمرهم للوصول إلى وجهتهم، لذا، يجب إتمام العمل في أسرع وقت ممكن، بيد أنني لم أتدخل، لقد كانت تلك مسؤوليته وحده؛ وكانت لديه توجهات واضحة حول ما ينبغي عمله في مثل هذه الحالات، ولم تتطرق هذه التوجيهات، إلى تسريع أي إجراءات بشأن الفحوص المطلوبة.

وقد أدرك الضابط، أني لا أعتزم التدخل، فاتصل بقيادة الجهاز في إسرائيل؛ وسمعت من الطرف الآخر، ضابط الأمن يسأله: ما الذي يقوله "بري"؟ فقال له ضابط الأمن: بري لا يرغب في التدخل في هذه القضية.

لقد بدا لي بوضوح، من خلال المعلومة التي أفادت، أن هناك قنبلة في الطائرة، أن لا وجود لهذه القنبلة، وأن المعلومة كاذبة، ورغم ذلك، لم أقل رأيي، إلا عندما توصل ضابط الأمن إلى نفس الاستنتاج.

الهدف: تفجير طائرة فوق تل أبيب

لن يكون بالإمكان، لأسفي البالغ، تقليص إجراءات الحراسة المنتهجة، حتى الآن، في إسرائيل، حتى ولو طرأ تقدم حقيقي على المسيرة السلمية، بل إنه سيتوجب علينا، في مثل هذه الحالة، تعزيز هذه الحماية، لأن العديد من المنظمات الأصولية-مثل "حماس" و"الجهاد الإسلامي"، ستبذل قصارى جهدها لتقويض المسيرة السلمية من خلال سلسلة من العمليات ضد إسرائيل.

وعندما يتم إنجاز التسوية السياسية في نهاية المطاف، وتألفها المنطقة كحقيقة قائمة، فإن جهاز الحماية سيلائم نفسه مع الواقع الجديد، على غرار ما هو متبع حاليا في المطارات الأوروبية والولايات المتحدة.

والمرشحون لحماية الأشخاص، يجتازون دورة لأربعة أشهر، وبعد فترة معينة، يجتازون دورة متقدمة، وهم جميعا من خريجي الوحدات الميدانية المقاتلة، ويتوجب أن يتمتعوا بكفاءة جسمانية عالية ومستوى ذكاء متميز.

ونظرا لأنهم يتعرضون لكاميرات التصوير، جراء تعرض الشخصيات التي يحمونها لذلك، يجب أن يكونوا وسيمين، وأصحاء الجسم وطوال القامة، كما يجب عليهم أن يهتموا بمظهرهم الخارجي برغم أنهم يخفون مسدسا وجهاز الإرسال.

لقد اعتاد جهاز الأمن رفع الحماية عن الشخصيات التي أنهت مهامها الرسمية، باستثناء الشخصيات التي تبقى هدفا استخباريا، أو هناك مخاوف على حياتهم، فـ"ليئة رابين" و"شمعون بيرس" و"شمعون شامير"، لا زالوا تحت الحماية.

لقد أبدا حراس مكتب شركة "العال" قدرة رد عالية جدا عندما تم تنفيذ عمليات في "روما" و"فينا" في نفس الوقت يوم الجمعة الموافق (٢٧) كانون الأول ١٩٨٥، فقد هاجم في حوالي الساعة التاسعة صباحا أربعة أشخاص، مكتب "العال" في مطار "بيوميتشينو" في روما، بالأسلحة النارية، كان الوقت مناسبا جدا، نظرا لأن المطار، يوم الجمعة، يغص بالمسافرين المتجهين لقضاء إجازة نهاية الأسبوع.

لم يكن هناك عدد كبير من المسافرين بالقرب من مكاتب "العال"، ومكاتب الشركات المجاورة لها، وحال سماع صوت العيارات النارية انبطح الجميع أرضا، ورغم ذلك قتل ثلاثة عشر شخصا في صلية النيران الأولى، وأصيب ستة وسبعون آخرون بجراح، ولم يكن بينهم أي شخص من مسافري "العال"، بيد أن سبعة عمال وأربعة حراس منهم أصيبوا بجراح.

فتح حراس "العال" النار فور إطلاق المهاجمين النار، ولم تتجاوز المعركة عشرين ثانية، أسفرت في نهايتها عن مقتل ثلاثة من المهاجمين وإصابة الرابع بجراح وإلقاء القبض عليه، وقد اتضح من التشريح، بعد الوفاة، أن الثلاثة أصيبوا برصاص الحراس الإسرائيليين، باستثناء عيار وحيد من أحد الحراس الإيطاليين الذي أصاب أحد القتلى.

وفي نفس الساعة بالضبط-الساعة التاسعة-دخل ثلاثة مسلحين إلى قاعة المسافرين في مطار "فينا"، واقتربوا من مكتب "العال"، وفتحوا النار على كل من تواجد بالقرب منه، وأسفرت العملية عن مقتل إسرائيلي ومواطنين أستراليين وأصيب أربعة وأربعون شخصا بجراح، ومن ضمنهم أحد عشر شخصا من مسافري "العال". وقد أجبرت نيران الحراس الإسرائيليين، المهاجمين على الانسحاب، بعد خمس عشرة ثانية من فتحهم النار، وقد سيطروا على سيارة وحاولوا الفرار، بينما يطاردهم الحراس الإسرائيليون وحراس آخرون، مما أدى إلى مقتل أحد الثلاثة، وإلقاء القبض على الاثنين الآخرين.

كانت العملية من صنع منظمة أبو نضال، "صبري البنا". وكان واضحا، أن قيادته تقوم في دمشق، حيث انطلق المنفذون إلى "روما" و"فينا" عبر "هنغاريا" و"يوغسلافيا".

كان المسلحون الذين توجهوا إلى إيطاليا مزودين بجوازات سفر مغربية، ووصلوا إلى "روما" قبل ثلاثة أسابيع من العملية، وانتقلوا خلال هذه الفترة، أربع مرات، من فندق إلى آخر، وعندما وصلوا إلى "روما"، لم يكن أي منهم، يعلم متى وأين ستتم العملية.

لقد حافظ "البنا" على السرية التامة، كي يحول دون حصول الجهات الأمنية، على أي معلومات منهم إذا ما تم إلقاء القبض عليهم قبل التنفيذ.

وعندما تم إعلامهم بمكان التنفيذ، لم يكن أمامهم سوى هامش زمني ضيق جدا للقيام بجولة في المطار.

وقد أمرهم ضباط الاتصال أن يشتروا حقيبتين كبيرتين، وقبل يوم واحد فقط من العملية، تم تسليمهم أربع بنادق رشاشة من طراز "كلاشينكوف"، وخمس عشرة قنبلة يدوية، وكانت البنادق لا زالت جديدة تماما، فأزال الأربعة (الشحمة) عنها ووضعوها في الحقائب.

وفي صبيحة العملية توجهوا في سيارة تاكسي إلى المطار، وسارع ضباط الاتصال الفلسطينيون الذين رافقوهم إلى مغادرة المطار.

ارتدى الأربعة معاطف شتاء ثقيلة وأخفوا تحتها القنابل اليدوية، وارتدى أحدهم ملابس امرأة، وقد تم إعلامهم، قبل وقت قصير، بأن هناك خلية أخرى ستعمل في نفس الوقت في مطار "فينا".

أتلف الأربعة قبل خروجهم من الفندق في طريقهم إلى المطار جميع الأوراق التي كانت بحوزتهم، بيد أن أحدهم ترك في جيبه ورقة كتب عليها: "من أجل أبناء الشهداء في حرب فلسطين المقدسة من مجموعة الشهداء في تونس"، وكما يبدو، أنه كان يقصد الهجوم الجوي الإسرائيلي على قيادة منظمة التحرير في تونس-تحيا فلسطين الحرة العربية، وثورة حتى النصر، سوف نواصل طريقنا حتى تغيير التاريخ، ونحن نقسم أن تنير هذه العملية الانتحارية طريق كل فلسطيني أينما كان، سنرد على كل قطرة دم أريقت في تونس، بالألم والدم، وسنحرص على أن يدفع أعداؤنا الصهاينة الثمن بالدموع والألم والدم، جراء اضطهاد شعبنا والاستيلاء على أرضنا".

وقد كشف المسلح- الذي تم إلقاء القبض عليه- النقاب، عن أن الخطة كانت تنص على أن يسيطروا على طائرة مع مسافريها أو بدونهم والطيران بها إلى إسرائيل وتفجيرها فوق "تل أبيب".

وفي أعقاب هذين الهجومين، أخذت الدول المختلفة، تنحو نحو عزل مكاتب شركة "العال"، وإبعادها عن المكاتب الأخرى، لكن جهاز الأمن العام-وبتأييد من الكادر السياسي-عارض ذلك، لأسباب وطنية واقتصادية، نظرا لأن إبعاد مكاتب "العال"، سيتطلب جر الحقائب مسافات أطول، إضافة إلى العديد من المضايقات الأخرى التي قد تدفع بالمسافرين لتفضيل خطوط جوية أخرى.

عمدت شعبة الحماية، إلى استقاء العبر من عمليتي "روما" و"فينا"، وقد أثبتت العمليتان، أنه كلما كان الرد سريعا وناجعا، كلما كانت النتائج مجدية والأضرار أقل. فالمبادرة إلى العمل فورا تنقل المبادرة من المهاجمين إلى الحراس وتعرقل مخططاتهم.

أثبتت الحراسات في المطارات فعاليتها في لندن في السابع عشر من نيسان ١٩٨٦. فقد كانت هناك امرأة إيرلندية حامل، على وشك الصعود إلى طائرة "بوينج ٧٤٧" التابعة (للعال) وقد طرح عليها الحراس أسئلة روتينية، كان أحدها: أين ستنزلين في إسرائيل؟ فقالت إنها ستنزل في "هيلتون" تل أبيب.

-الحارس: هل حجزت غرفة.

-المسافرة: لا. أنا أعمل في شركة فنادق "هيلتون"، لذا بمقدوري النزول في أي فندق "هيلتون". دون أن أحجز غرفة. وقدمت إلى الحارس بطاقة تثبت أنها تعمل حقا في الشركة.

-الحارس: من أين اشتريت تذكرتك؟؟

ج: المسافرة: لا أذكر بالضبط اسم المكتب.

لقد ثارت شكوك الحارس، فقام بتفتيش حقيبتها، وعثر فيها على مواد متفجرة كان من المفروض أن تدمر الطائرة في الجو بعد إقلاعها، وقد أفادت في التحقيق أن صديقها العربي ووالد جنينها، هو الذي اشترى لها تذكرة وأرسلها للتنزه في تل أبيب وزودها بالحقيبة، وأنها لم تكن تعلم بوجود المتفجرات فيها.

تم اعتقال العربي المذكور في لندن، وقد قادت التحقيقات معه إلى السفارة السورية هناك، والتي كانت تقف خلف العملية، وقد قام بنقل المتفجرات من سورية إلى لندن رجال من مخابرات سلاح الجو السوري، وعلى متن طائرة الخطوط السورية. الأمر الذي اعتبره البريطانيون مسألة خطيرة، أفضت إلى أزمة دبلوماسية بين الطرفين.

اغتيال في ميدان المدينة

كشف اغتيال اسحق رابين،أمام الجماهير، لأول مرة، بعض المشاكل المعقدة التي تعاني منها شعبة الحماية الشخصية في جهاز الأمن العام، وفي أعقاب الاغتيال أثيرت العديد من التساؤلات الصعبة، كنت آنذاك قد أصبحت خارج الجهاز، منذ ثمانية أشهر، لذا كان بمقدوري مراقبة ما يحدث بصورة محايدة.

زرت في الرابع من تشرين الثاني ١٩٩٥ نيويورك للقيام بعمل ما، وعندما عدت وجدت الضوء الأحمر في جهاز هاتفي مشتعلا، فرفعت السماعة، واستمعت إلى المحادثات التي تم تسجيلها، وتجمدت من الرعب، فقد أعلمتني "عدنه"، وبعض زملائي، باغتيال اسحق رابين فعدت بالطائرة في نفس الليلة إلى إسرائيل، وتوجهت حال وصولي إلى منزل رابين، كي أكون بمعية "ليئة رابين" وعائلتها.

وعندما تحدثت مع رئيس جهاز الأمن العام "كرمي غيلون"، وجدته مهموما وفزعا ولا يستطيع استيعاب ما حدث. وقد بادرني بالقول: سوف أشكل لجنة تحقيق داخلية. فقلت له: هل تريد نصيحتي؟؟ قال: نعم. قلت: اذهب إلى "شمعون بيرس" وقدم استقالتك. فرئيس الجهاز يجب أن يتحمل المسؤولية، أضف إلى ذلك. إن الجماهير تتوقع ذلك، ولا شك أن هذه الخطوة ستسهم في تحسين وضع الجهاز. وتسهم في تحسين صورته المهشمة.

لم أطالب باستقالة "غيلون" كاعتراف مباشر منه بتحمل المسؤولية، بل لأن على رئيس جهاز الأمن العام، أن يتحمل مسؤولية كل شيء حتى لو لم يكن ذا علاقة به. إن أفظع ما يمكنه أن يحدث لرئيس الجهاز، هو أن يجري اغتيال أحد الشخصيات رغم جميع ترتيبات الحماية المنتهجة، وفي هذه الحالة، عليه أن يتنحى عن منصبه. وقلت "لغيلون": إن "بيرس" يدرك أن الجهاز لا يستطيع الآن تحمل ضربة أخرى. لذا فإنه لن يقبل الاستقالة.

وبعد يومين، التقى "غيلون" بـ"شمعون بيرس"، وأعلمه أنه يعتزم الاستقالة. فطلب منه "بيرس" ألا يفعل ذلك. فاتصل "غيلون" بي وقال لي أنه لن يستقيل. وأنا أعتقد أنه أخطأ بعدم إعلان استقالته، وتراجعه عنها، لمجرد أن رئيس الحكومة طلب منه ذلك.

أشار العديد من المحللين. في أعقاب اغتيال "رابين" إلى أن هناك عيوبا في جهاز الحماية.

لقد كان "غيلون" الذي تسلم قيادة الجهاز بعدي حديثا في وظيفته نسبيا. وقد قال البعض. أنه لم يبذل جهدا كافيا لمتابعة جهاز الحماية. ولم يعمد إلى

تعزيزه، للحيلولة دون اغتيال شخصيات، ولا شك أن كل مطّلع على الأوضاع، يدرك أن هذا الادعاء مضحك. فلا يوجد جهاز حماية في العالم، قادر على حماية زعيم حماية مطلقة، إذا ما وضعه الإرهاب هدفا له، أضف إلى ذلك، أنه لم يحدث أن تلقينا خلال فترة خدمتي تحذيرات تطالبنا بمضاعفة عدد قوات الحماية، فالوحدة تزداد وتكبر سنويا. وتضاف إليها مهام حماية جديدة، وفقا للظروف، وما يتراءى لنا من أسباب.

ووحدة الحماية للشخصيات تعمل وفقا لنظرية قتال واضحة ومنظمة، فقبل كل حدث يشارك فيه شخصيات رفيعة: يتم إعداد خطة لتغطية الحماية بصورة شاملة، وتدرس الخطة بصورة جيدة، كما تتم دراسة جميع الثغرات القائمة في المنطقة، وفحص جميع العاملين الذين تضطرهم ظروف عملهم للتواجد هناك: كالنادلين وعمال المنصات الخطابية، والمنظمين وغيرهم، وفي بعض الحالات، يتم تذوق الطعام الذي سيقدم للشخصية خشية وضع السم له، وهناك حالات تدرس فيها إمكانية إخلاء مناطق إخلاء تاما، من الأشخاص الذين لم يفحصوا، ومن الجدير بالذكر، أن هذه المنطقة، في حادثة اغتيال رابين، كانت المنطقة التي سينتقل عبرها،
من سيارته إلى المنطقة والعكس، ومن المفروض أن يتواجد في مثل هذه المناطق: الأشخاص الموثوق بهم فقط، والذين تم فحصهم كرجال الشرطة والجنود وأعضاء جهاز الأمن والشخصيات المعروفة، ويتم تحديد أحزمة خارجية (طوق) خارج هذه المناطق. تكون الشرطة مسؤولة عنها.

لقد تلقى الجهاز قبل إقامة الاحتفال، معلومات تفيد بأن هناك يهوديا يعتزم اغتيال رابين وشخصيات أخرى، بيد أنه لم تتوفر معلومات محددة حول هذا اليهودي، كما أصدر بعض الحاخامات فتوى (مطارد) ضد رابين-والتي تسمح لكل

يـهودي بقتلـه، دون أن يتعـرض لحسـاب ديـني. واتخـذت المعارضـة لاتفاقيـة السـلام أيضا، طابعـا عنيفـا، وقـد وضعـت شـعبة الحمايـة عيونـا. علـى عـدد مـن الشـخصيات المتطرفـة، كما تحـدث رئيس الجـهاز، "كرمـي غيلـون". مـع عـدد مـن الصحفيـين قبـل الاغتيـال بوقـت قصير، حـول إمكانيـة قيـام يـهودي باغتيـال شـخصيات يهوديـة، وحـدد اسـم رئيـس الحكومـة.

لقـد كـان الجـهاز المسؤول عـن الاحتفـالات شـديد التوتـر. ومليئـا بـالخوف. وكـان "رابـين" أشـدهم خوفـا. وإن كـان خوفـه لا ينصـب علـى احتمـالات اغتيالـه. بـل علـى احتمـالات عـدم مشـاركة جماهـير غفـيرة في الاحتفـال. وقـد قـال ظـهر نفس اليـوم-قبـل عقـد الاحتفـال-في الاسـتقبال الـذي أجـراه لـه أصدقـاء في "هرتسـيليا": أشـعر أن الاحتفـال لـن يكون ناجحـا، وأنـني سأشعر بخـزي كبـير".

بيـد أن الاحتفـال جـاء مخيبـا لجميـع مخاوفـه، وتدفـق عشـرات الآلاف علـى الميـدان للمشـاركة فيـه، وبصـورة فـاقت توقعـات جميـع المتفـائلين جـدا، وانجـرف الخطبـاء، وعلـى رأسـهم "رابـين"، في إطـار الحمـاس وغنـوا للسـلام.

وللأسـف البـالغ، فـإن الهالـة الحماسـية الـتي لفـت الجميـع. سـرت أيضـا في عـروق الحـراس. وأفضـت إلى ترهلـهم، وعندمـا نشـاهد الأفـلام الـتي تم التقاطـها للاحتفـال. نجـد أن الكثـير مـن الحـراس، كـانوا يحملقـون في رابـين. وليـس في الجماهـير. مثلمـا كـانت تقتضـي مهمتـهم، فـهناك قـاعدة لا يجـب أن نحيـد عنـها قيـد أنملـة. تقـول: يجـب علـى الحـارس ألا ينظـر إلى الشـخصية موضـع الحمايـة. بـل يجـب عليـه أن يتفحـص الجماهـير المحيطـة بعـين لا تغفـل.

وعندما ترجل "رابين" عن المنصة أيضا، لم يقم الحراس بتأمين طريقه أو الالتفات في الاتجاهات الصحيحة، في حين كان "ييغآل عمير" قد تمكن من دخول المنطقة الخلاة، ومراقبة الحراس، وكانت تلك هي اللحظة التي انتظرها، وقد قال "عمير" في التحقيق لو أن أحد الحراس كان ينظر إليه لما مد يده على مسدسه.

إن ما حدث في هذه العملية، لم يكن يدل على انهيار أسلوب الحماية المتبع وعدم جدواه ولم يكن ناجما عن قلة عدد الحراس، بل كان فشلا موضوعيا ذريعا لا علاقة له بمدى قوة أو ضعف أسلوب الحماية في الجهاز.

وأيا تكن وسائل الحماية، فإن الشخص الذي يصر على تنفيذ عملية اغتيال، سيعثر في نهاية المطاف، على الثغرة التي يتسلل منها إلى مبتغاه.

ومن الجائز، أن رئيس الحكومة، "اسحق رابين"، ما كان ليفقد حياته، لو أن المنطقة (الخلاة) كانت محمية جيدا، فقد تواجد "ييغآل عمير" في هذه المنطقة زمنا طويلا دون أن يتم التعامل معه كما ينبغي. وما كان "رابين" ليقتل لو أن الحراس أكثروا من التلفت حولهم، وتفحص الوجوه، وتشديد الرقابة على كل من يشتبه به، مثلما اعتادوا في الحالات المماثلة السابقة.

****

تم بحمد الله

الكتب الصادرة عن دار الجليل

الرقم المتسلسل	اسم الكتاب	المؤلف	المترجم
١-	عمود النار ، الأسطورة التي قامت عليهاالسرائيل		غازي السعدي
٢-	الأستيطان ، التطبيق العملي للصهيونية طبعة جديدة (مزيدة ومنقحة)	عبد الرحمن ابو عرفة	
٣-	حرب الجليل ، الحرب الفلسطينية - الأسرائيلية تموز ١٩٨١	بدر عبد الحق وغازي السعدي	
٤-	الكتاب السنوي ١٩٨١ ، توثيق لأبرز المعلومات والأحداث في فلسطين المحتلة	هيئة الرصد والتحرير غازي السعدي، نواف الزرو ، غسان كمال	
٥-	الكتاب السنوي ١٩٨٢ ، توثيق لأبرز المعلومات والأحداث في فلسطين المحتلة	هيئة الرصد والتحرير غازي السعدي، نواف الزرو ، غسان كمال	
٦-	الحرب الفلسطينية - الاسرائيلية في لبنان (١) شهادات ميدانية لضباط وجنود العدو	بدر عبد الحق وغازي السعدي	
٧-	الحرب الفلسطينية - الاسرائيلية في لبنان (٢)	مايكل جانسن	محمود برهوم
٨-	الحرب الفلسطينية - الاسرائيلية في لبنان (٣) وثيقة جرم وادانة	غازي السعدي	
٩-	الحرب الفلسطينية - الاسرائيلية في لبنان (٤) اهداف لم تتحقق	غازي السعدي	
١٠-	الحرب الفلسطينية - الاسرائيلية في لبنان (٥) معتقل انصار - وصراع الارادات	سليم الجنيدي	
١١-	الحرب الفلسطينية - الاسرائيلية في لبنان (٦) الحرب المضللة	زئيف شيف و ايهود يعاري	غازي السعدي
١٢-	الحرب الفلسطينية - الاسرائيلية في لبنان (٧) فظائع الحرب اللبنانية		زكي درويش
١٣-	الحرب الفلسطينية - الاسرائيلية في لبنان (٨) هزيمة المنتصرين وانتصار القضية	اللجنة ضد الحرب في لبنان	
١٤-	الحرب الفلسطينية - الاسرائيلية في لبنان (٩) الأسرى اليهود وصفقات المبادلة	غازي السعدي	
١٥-	رسائل من قلب الحصار من ابو عمار الى الجميع		
١٦-	يوميات من سجون الاحتلال - زنزانة رقم (٧)	فاضل يونس	

١٧-	المثلث الايراني : العلاقات السرية الاسرائيلية الأمريكية الايرانية في عهد الشاه	الصحفي شموئيل سيجف	غازي السعدي
١٨-	هل يوجد حل للقضية الفلسطينية ؟ مواقف اسرائيلية	الوف هرابين	غازي السعدي
١٩-	عملية الدبويا كما يرويها منفذوها	المحامي درويش ناصر	
٢٠-	مراكز القوى في اسرائيل ١٩٦٣- ١٩٨٣ ونموذج صنع القرار السياسي في اسرائيل	دكتور نظام بركات	
٢١-	مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧- ١٩٨٥	منير الهور وطارق الموسى	
٢٢-	غوش ايمونيم - الوجه الحقيقي للصهيونية	داني روبنشتاين	غازي السعدي
٢٣-	عش العصفور - قصة للأطفال	منير الهور	
٢٤-	رؤى مستقبلية عربية في الثمانينات	د . احمد صدقي الدجاني	
٢٥-	أيام دامية في المسجد الأقصى المبارك	الدكتور احمد العلمي	
٢٦-	حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير	يوسف قراعين	
٢٧-	الأحد الأسود: تصور امريكي صهيوني للعمل الفدائي الفلسطيني	حسن اسماعيل مشعل	
٢٨-	خارطة فلسطين - وهي خارطة تمثل سهـول وهضاب وجبال ووديان ومدن وقرى فلسطين (ملونة)		
٢٩-	بروتوكولات حكماء صهيون - المجلد الاول	عجاج نويهض	
٣٠-	بروتوكولات حكماء صهيون - المجلد الثاني	عجاج نويهض	
٣١-	الاردن وفلسطين - وجهة نظر عربية	د . سعيد التل	
٣٢-	الاقتصاد الاسرائيلي بين دوافع الحرب والسلام	د . فؤاد حمدي بسيسو	
٣٣-	الاستعمار وفلسطين	رفيق شاكر النتشة	
٣٤-	الحرب من اجل السلام	عيزر وايزمن	غازي السعدي
٣٥-	الموساد ، جهاز المخابرات الاسرائيلي السري	دنيس اينبرغ ، ايلي لانداو اوري دان	
٣٦-	التوازن العسكري في الشرق الاوسط	مركز الدراسات الاستراتيجية بجامعة تل ابيب	نبيه الجزائري
٣٧-	بطاقات فنية (لوحات فنية تعبر عن الانتماء الفلسطيني)	د . كامل قعبر	
٣٨-	بطاقات فنية (مجموعة) بطاقات على شكل دفتر الشيكات	د . كامل قعبر	
٣٩-	الكتاب الأسود عن يوم الأرض ٣٠ آذار ١٩٧٦		
٤٠-	في سرية الصحراء	سميح القاسم	

٤١-	الخيار النووي الاسرائيلي	شاي فيلدمان	غازي السعدي
٤٢-	انتهاك حقوق الانسان في الأراضي المحتلة شهادات مشفوعة بالقسم		سليم ابو غوش
٤٣-	نقاط فوق الحروف مناقشة لردود الفعل تجاه مبادرتي الأمير فهد وبريجنيف	خالد الحسن	
٤٤-	قراءة سياسية في مبادرة ريغان	خالد الحسن	
٤٥-	فلسطينيات	خالد الحسن	
٤٦-	الاتفاق الأردني الفلسطيني للتحرك المشترك	خالد الحسن	
٤٧-	من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (١) جرائم الأرغون وليحي ١٩٣٧- ١٩٤٨	يعقوب الياب	غازي السعدي
٤٨-	من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (٢) مجازر وممارسات ١٩٣٦- ١٩٨٣		غازي السعدي
٤٩-	من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (٣) دور الهاغاناه في انشاء اسرائيل	د . حمدان بدر	
٥٠-	ملصق يوم الأرض	سليمان منصور	
٥١-	ملصق جمل المحامل	سليمان منصور	
٥٢-	ملصق قبة الصخرة - صورة تبرز معالمنا التاريخية والدينية في القدس		
٥٣-	فلسطين تاريخا ونضالا	نجيب الأحمد	
٥٤-	فلسطينيات في سجن النساء الاسرائيلي طيـور نفي ترتسا	المحامي وليد الفاهوم	
٥٥-	المؤسسة العسكرية الصهيونية في دائرة الضـوء اسرائيل عسكر وسلاح (١)	بشير البرغوثي	
٥٦-	اتفاقيات السلم المصرية - الاسرائيلية في نظر القانون الدولي	محمد الرفاعي	
٥٧-	الجذور - وثيقة الأوقاف الاسلاميـة	فتحي فوراني	
٥٨-	فلسطين .. الأرض والوطن (١) قرية الدوايمة	موسى عبدالسلام هديب	
٥٩-	خط الدفاع في الضفة الغربية وجهة نظر إسرائيلية	أريه شليف	غازي السعدي
٦٠-	تشريقة بني مازن	د . عبداللطيف عقل	
٦١-	القمع والتنكيل في سجن الفارعة	لجنة الحقوقيين الدوليين القانون من أجل الانسان	
٦٢-	صورة العربي في الأدب اليهودي (١)	الدكتورة ريزا دومب	عاطف عطاري
٦٣-	الشخصية العربية (٢) في الأدب العبري الحديث ١٩٤٨- ١٩٨٥	غانم مزعل	

٦٤- فلسطين أرض وتاريخ — د . محمد النحال
٦٥- القدس ماضيها ، حاضرها ، مستقبلها — فايز فهد جابر
٦٦- القضية الفلسطينية في القانون الدولي .. والوضع الراهن — د . جابر الراوي
٦٧- شوكة في عيونكم — مئير كهانا — غازي السعدي
٦٨- حرب الاستنزاف — د . محمد حمزة
٦٩- القرار - ألفان واثنا عشر يوما في سجون الاحتلال — رشاد أحمد الصغير
٧٠- المطامع الاسرائيلية في مياه فلسطين والدول العربية المجاورة — بشير شريف البرغوثي
٧١- أزمة الاستخبارات الاسرائيلية — تسفي لنير — قسم الدراسات
٧٢- اسرائيل عام ٢٠٠٠ (تصورات اسرائيلية)
٧٣- دعوى نزع الملكية الاستيطان اليهودي . والعرب في الفترة ١٨٧٨- ١٩٤٨ — أريه . ل . افنيري — بشير البرغوثي
٧٤- ندوة مشاكل التعليم الجامعي في الوطن المحتل والروح الجماعية
٧٥- سميح القاسم - قصائد - شخص غير مرغوب فيه
٧٦- القضية الفلسطينية — أكرم زعيتر
٧٧- فلسطين الأم وابنها البار - عبدالقادر الحسيني — عيسى خليل محسن
٧٨- عرب التركمان - أبناء مرج ابن عامر — علياء الخطيب
٧٩- المرأة الفلسطينية والاحتلال الاسرائيلي — ميسون العطاونة الوحيدي
٨٠- نادية برادلي - الفدائية المغربية الشقراء — غسان كمال
٨١- الاعلام الاسرائيلي — غازي السعدي ومنير الهور
٨٢- تقرير الأرض المحتلة المقدم الى الدورة (١٨) للمجلس الوطني الفلسطيني — قسم الدراسات والأبحاث
٨٣- الوجه الحقيقي للموساد — د . وجيه الحاج سالم وانور خلف
٨٤- العمق الاستراتيجي في الحروب الحديثة — بدر عقيلي
٨٥- شخصيات صهيونية (١) — مذكرات الجنرال رفائيل ايتان — غازي السعدي
٨٦- شخصيات صهيونية (٢) وتهجير يهود العراق — شلومو هيلل — غازي السعدي
٨٧- شخصيات صهيونية (٣) ثيودور هيرتسل عراب الحركة الصهيونية — قسم الدراسات
٨٨- شخصيات صهيونية (٤) شـــارون بلدوزر الارهاب الصهيوني — غازي السعدي
٨٩- شخصيات صهيونية (٥) آباء الحركة الصهيونية — عبدالكريم النقيب
٩٠- شخصيات صهيونية (٦) موشيه ديان .. أنا وكامب ديفيد — غازي السعدي

٩١- . شخصيات صهيونية (٧) بن غوريون والعرب		غازي السعدي
٩٢- شخصيات صهيونية (٨) رسائل بن غوريون		الأميرة دينا عبدالحميد
٩٣- شخصيات صهيونية (٩) حياتي .. غولدا مائير		دار الجليل
٩٤- شخصيات صهيونية (١٠) حركة التصحيح الصهيونية من عهد جابوتنسكي الى عهد شامير	ليني برينر	دار الجليل
٩٥- شخصيات صهيونية ١١/١ مذكرات اسحق رابين - القسم الأول		دار الجليل
٩٦- شخصيات صهيونية ١١/٢ مذكرات اسحق رابين - القسم الثاني		دار الجليل
٩٧- شخصيات صهيونية ١٢ مذكرات ناحوم غولدمان		دار الجليل
٩٨- ششخصيات صهيونية ١٣ مذكرات اسحق شامير		دار الجليل
٩٩- من رواد النضال الفلسطيني ١٩٢٩- ١٩٤٨ الكتاب الأول	زياد عودة	
١٠٠- من رواد النضال الفلسطيني ١٩٢٩- ١٩٤٨ الكتاب الثاني	زياد عودة	
١٠١- الحركة العمالية العربية في فلسطين	سليم الجنيدي	
١٠٢- الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (١) سلاح الجو الاسرائيلي	زئيف شيف	دار الجليل
١٠٣- الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٢) سلاح الاستخبارات الاسرائيلي	عوديد غرانوت	دار الجليل
١٠٤- الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٣) سلاح الهندسة	عمي شامير	دار الجليل
١٠٥- الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٤) سلاح المشاة	تتان روعي	دار الجليل
١٠٦- الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٥) سلاح المظليين	ايلان كفير	دار الجليل
١٠٧- دراسات في تعليم الكبار	د . عدنان أبو عمشة	
١٠٨- وجه قبيح في المرآة	بروفيسور ادير كوهن	غازي السعدي
١٠٩- تاريخ ما أهمله التاريخ	عبدالهادي جرار	
١١٠- الاعلام الفلسطيني	د . حسين أبو شنب	

١٣١- النزاع العربي - الاسرائيلي بين فكي كماشة الدول العظمى	موشه زاك	دار الجليل
١١٢- تحت السياط	فاضل يونس	
١١٣- الغضب	اكرم النجار	
١١٤- جلسات في رغدان	د . يوسف هيكل	
١١٥- منجل في النجمة السداسية (التجسس السوفياتي في اسرائيل)	ايسر هرئيل	بدر عقيلي
١١٦- اشكالية الديمقراطية والبديل الاسلامي في الوطن العربي	خالد الحسن	
١١٧- تعليم الفلسطينيين ماضيا وحاضرا ومستقبلا	د . عبدالقادر يوسف	
١١٨- صرخة في وجه العالم (البوم الانتفاضة)	دار الجليل	
١١٩- الاستخبارات والأمن القومي	المقدم احتياط تسفي عوفر والرائد آفي كوبر	دار الجليل
١٢٠- الاحزاب والحكم في اسرائيل	غازي السعدي	
١٢١- ربيع الحياة	د . يوسف هيكل	
١٢٢- قبس من تراث المدينة والقرية الفلسطينية	صباح السيد عزازي	
١٢٣- اشتعالات حمدان - مجموعة قصصية	اكرم النجار	
١٢٤- الحافلة رقم ٣٠٠ (فضيحة الشين بيت)		احمد بركات
١٢٥- آه يابلدي - رواية	اكرم النجار	
١٢٦- معجم المصطلحات الصهيونية	افرايم ومناحم تلمي	احمد بركات العجرمي
١٢٧- من القمع الى السلطة الثورية	قدري أبو بكر	
١٢٨- أيام الصبا صورة من الحياة وصفحات من التاريخ	د . يوسف هيكل	
١٢٩- معجم الأمثال الشعبية الفلسطينية	فؤاد ابراهيم عباس وعمر شاهين	
١٣٠- صناعة قرارات الأمن الوطني في اسرائيل		بدر عقيلي
١٣١- قمع شعب شهادات ميدانية مشفوعة بالقسم		بشير شريف البرغوثي
١٣٢- جليلة .. وهج في جذور الانتفاضة - رواية	اكرم النجار	
١٣٣- اسلحة وإرهاب وجهات نظر اسرائيلية في ثلاثة.ابحاث		دار الجليل
١٣٤- حدود (أرض اسرائيل)	موشيه رافر	بدر عقيلي
١٣٥- هذه قضيتك ياولدي	سليم عبدالعال القرق	
١٣٦- حرب سيناء ١٩٥٦ - تصورات اسرائيلية		بدر عقيلي
١٣٧- المثلث الايراني - الكتاب الثاني - دراما العلاقات الايرانية - الاسرائيلية - الامريكية	شموئيل سيجف	دار الجليل
١٣٨- الفاشية الاسرائيلية	المحامي درويش ناصر	

١٣٩-	النظرية العسكرية الاسرائيلية ـ دفاع وهجوم	اريتيل لفيتا	دار الجليل
١٤٠-	الأمن القومي العربي ونظرية تطبيقه في مواجهة الامن الاسرائيلي	العميد محمد يوسف العملة	
١٤١-	سياسة اسرائيل الأمنية	المحرر زئيف كلاين	بدر عقيلي
١٤٢-	دقيقتان فوق تل ابيب	محمد أزوقة	
١٤٣-	الهجرة اليهودية حقائق وارقام	د . عمران ابو صبيح	
١٤٤-	انتفاضة	زئيف شيف وايهود يماري	دار الجليل
١٤٥-	جواسيس المخابرات الاسرائيلية تاريخ .. وجغرافيا	يوسي ميلمان ودان رافيف	دار الجليل
١٤٦-	دولة " اسرائيل ـ زائلة	يعقوب شريت	دار الجليل
١٤٧-	الجماعة الأوروبية والقضية الفلسطينية	محمد خالد الأزعر	
١٤٨-	بقايا من خبز وكتاب	اكرم النجار	
١٤٩-	اسرائيل في حرب الخليج	غازي السعدي	
١٥٠-	المثلث المحتوم الولايات المتحدة ـ اسرائيل والفلسطينيون	احمد عزالدين بركات	
١٥١-	الاستيطان الاسرائيلي جغرافيا وسياسيا	بروفيسور أليشع إيفرات	دار الجليل
١٥٢-	حرب السكاكين في نظر الاسرائيليين	زياد ابو صالح ورشاد المدني	
١٥٣-	انتفاضة العصافير	نجوى قعوار فرح	
١٥٤-	موسوعة عشائر وعائلات فلسطين (١) القدس مدنها وقراها	فائز أبو فردة	
١٥٥-	انهيار نظرية الأمن الاسرائيلية	عمنوئيل فالد	احمد بركات العجرمي
١٥٦-	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٦) سلاح الدروع	حشافيا أربيه	دار الجليل
١٥٧-	بولارد قصة جاسوس	برنارد ر . هندرسون	دار الجليل
١٥٨-	أبو عجاج العينبوسي الدكتور الثائر	عيسى خليل محسن	
١٥٩-	قناع القناع	محمد نورالدين شحادة	
١٦٠-	الأسلحة الكيماوية والبيولوجية ـ وتأثيراتها البيئية ـ	د . عادل احمد جرار	
١٦١-	دولة مجدو	عبدالله عواد	
١٦٢-	الشبْح	عبدالله عواد	
١٦٣-	طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين ـ وثيقة اسرائيلية ـ	بني موريس	دار الجليل
١٦٤-	الاستشراق وابحاث الصراع لدى اسرائيل	ابراهيم عبدالكريم	
١٦٥-	دليل المستوطنات الاسرائيلية في الاراضي العربية المحتلة (١٩٦٧- ١٩٩١)	د . عمران ابو صبيح	

١٦٦- حرب في الخليج (ابعاد على اسرائيل)	تقرير طاقم مركز الأبحاث الاستراتيجية الاسرائيلي : يافه	بدر عقيلي
١٦٧- فلسطين في سيرة البطل عبدالحليم الجيلاني	د. حسن صالح عثمان	
١٦٨- ثلاثون قضية استخبارية وأمنية في اسرائيل	يوسف أرجمان	دار الجليل
١٦٩- الادب العربي في جزر البليار	د . عبدالرزاق حسين	
١٧٠- الشرق الاوسط الجديد	شمعون بيرس	دار الجليل
١٧١- الاعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود	غازي السعدي	
١٧٢- اسلحة الدمار الشامل	وليام بورروس وروبرت ويندرم	دار الجليل
١٧٣- المفصل في تعلم اللغة العبرية بمعلم وبدون معلم	بدر عقيلي	
١٧٤- القاموس العلمي / عبري - عربي	امين ابو عيسى	دار الجليل
١٧٥- مكان تحت الشمس	بنيامين نتنياهو	محمد عودةالدويري
١٧٦ـ احاديث في العلم والقيم	يشعياهو ليفوفيتش	سلمان الناطور
١٧٧ـ فلسطين بلا هوية	صلاح خلف	دار الجليل
١٧٨ـ الحوار الفلسطيني ـ الامريكي	د. محمد ربيع	دار الجليل
١٧٩ـ دوائر القمر	عبد الرزاق حسين	دار الجليل
١٨٠ـ قرية جزو	يوسف النجار	دار الجليل
١٨١ـ الانقلاب السياسي في اسرائيل الاسرار والخفايا	اورلي ازولاي	بدر عقيلي
١٨٢ ـ مشكلة الاراضي في النزاع القومي بين اليهود والعرب منذ وعد بلفور	جاك كنو	محمد عودة الدويري
١٨٣ ـ الموساد في العراق انهيار الامال الاسرائيلية والكردية	شلومو نكديمون	بدر عقيلي
١٨٤ ـ دولة فلسطين الوضع القانوني	سالم أحمد قواطين	
١٨٥ ـ اسحق رابين اغتيال سياسي	د. أمنون كابليون	بدر عقيلي
١٨٦ ـ نايف حواتمة يتحدث	عماد نداف	
١٨٧ ـ سوخي قصة للشبيبة عن الحب والمغامرات	عاموس عوز	دار الجليل

١٨٨ ـ البستان	بنيامين تموز	دار الجليل
١٨٩ ـ سورية واسرائيل من الحرب الى صناعة السلام	البروفيسور موشيه ماعوز	لينا وهيب
١٩٠ ـ اتفاقيات أوسلو الاتفاقيات الاسرائيلية الفلسطينية حول الضفة الغربية وقطاع غزة		دار الجليل
١٩١ ـ الحرب الاقتصادية (١٠٠) سنة من المواجهة الاقتصادية بين اليهود والعرب	يوفال اليتسور	محمد الدويري بدر عقيلي
١٩٢ ـ اتشولوجيا الوجه الآخر قصص عبرية مختارة		دار الجليل
١٩٣ ـ المسيرة ..... خفايا أوسلو.... من الألف إلى الياء	أوري سبير	بدر عقيلي
١٩٤ ـ أوسلو ..... والسلام الآخر المتوازن	نايف حواتمة	
١٩٥ ـ ايهود براك... الجندي الأول رئيس الوزراء الاسرائيلي المحتمل	بن كسبيت وايلان كفير	بدر عقيلي ونور البواطلة
١٩٦ ـ هشاي مخابرات منظمة الهجناه	دار الجليل	دار الجليل
١٩٧ ـ الصهيونية ... النظرية والتطبيق	يوآل رفائيل	نور البواطلة
١٩٨ ـ الحسين والسلام العلاقات الأردنية ـ الإسرائيلية	موشيه زاك	دار الجليل
١٩٩ ـ أبعد من أوسلو فلسطين الى اين	نايف حواتمه	دار الجليل
٢٠٠ ـ جاسوس إسرائيلي في دمشق قصة إلي كوهين	يشعياهو بن فورت ـ أوري دان	دار الجليل
٢٠١ ـ مهنتي كرجل مخابرات ٢٩ عاماً من العمل في الشاباك	يعقوب بيري	دار الجليل

مهنتي كرجل مخابرات

هذا الكتاب

تجربة تسع وعشرون عاماً من الخدمة في جهاز الأمن العام الإسرائيلي، جهاز المخابرات «الشاباك» لرجل بدأ عمله من الصفر، وارتقى ليصل إلى قمة الهرم، لا بد أن نجد في كتابه الذي يروي هذه التجربة الكثير من الأحداث المثيرة مما سمح له بنشره، من قصص مثيرة، خاصة في متابعته وملاحقته للتنظيمات الفلسطينية، إن كان ذلك داخل إسرائيل، أو في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

وبحكم عمله المعقد في الجهاز كان عليه مكافحة العمليات الاستشهادية التي هزّت إسرائيل، كما كان له دور في اعتقال المطران كبوشي وتنظيم فتح الذي عمل معه، كذلك قضية الحافلة (٣٠٠)، ومتابعة التمويل الخارجي لحماس، واعتقال الشيخ أحمد ياسين، كما يتحدث في كتابه عن ملاحقة المهندس يحيى عيّاش، والعديد من القصص المثيرة منها التنظيم السري اليهودي، مما يقضي بالوقوف عند تجربته والاستفادة منها.

يعقوب بيري، رئيس جهاز «الشابك» من مواليد تل ـ أبيب عام ١٩٤٤، درس علوم الشرق الأوسط وتاريخ الشعب اليهودي في جامعتي تل ـ أبيب والقدس، التحق بالشاباك عام ١٩٦٦ وبدأ عمله في الأرشيف، لحين انتقل إلى قسم القطاع الغربي، كرجل ميداني في شمال فلسطين، وبعد حرب ١٩٦٧ انتقل للعمل في شمال الضفة الغربية، وفي عام ١٩٧٢ عيّن في منصب رفيع في هذا الجهاز، في القدس والضفة الغربية، هذه المنطقة التي تعتبر أكثر تعقيداً في مواجهة المقاومة الفلسطينية، وفي عام ١٩٧٥ عيّن رئيساً لقسم التوجيه في الجهاز في عام ١٩٧٨ عيّن مساعداً لرئيس جهاز «الشاباك» وبتاريخ ١٩٨٨/٤/١، أسندت إليه رئاسة هذا الجهاز، وبقي في هذا المنصب حتى عام ١٩٩٥، حين أنهى خدمته الرسمية. أما اليوم فقد أسندت إليه رئاسة شركة «تلكوم» الإسرائيلية للاتصالات الخلوية.

مترجم الكتاب الزميل بدر العقيلي من أسرة دار الجليل الذي ترجم مادة الكتاب بدقة وأمانة على غرار ترجماته العديدة السابقة في هذا المضمار.

دار الجليل



إصدار
دار الجليل للنشر
والدراسات والأبحاث الفلسطينية

عمّان ـ ص.ب ٨٩٧٢ ، تلفون ٥١٥٧٦٢٧
تلكس ٢٣٠٣١ ـ فاكسميلي ٥١٥٣٦٦٨